سكارلت توماس

نهاية السيّد واي

رواية

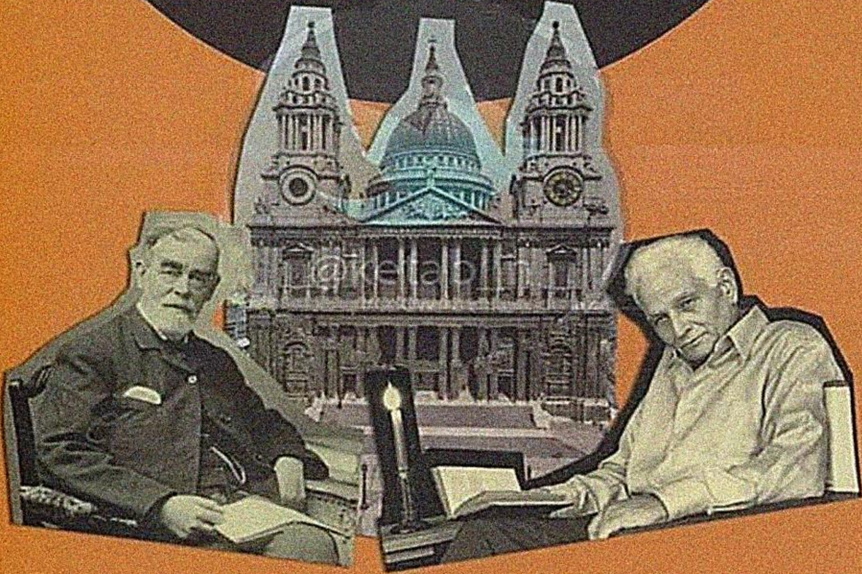

ترجمة : إيمان حرزالله

سكارلت توماس

نهاية السيِّد واي

ترجمة

إيمان حِرز الله

التنوير

سكارلت توماس

نهاية السيِّد واي

الكتاب: نهاية السيد واي
المؤلف: سكارلت توماس
المترجم: إيمان حرز الله
عدد الصفحات: 464 صفحة

رقم الإيداع: 2013/2638
الترقيم الدولي: 978-9953-582-62-7

طبعة دار التنوير الأولى: 2013

جميع الحقوق محفوظة للناشر
الناشر: © دار التنوير
بيروت ـ القاهرة ـ تونس

Published by arrangement with Canongate Books Ltd, 14 High Street, Edinburgh EH1 1TE
© 2008 Scarlett Thomas

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع
لبنان: بيروت ـ الجناح ـ مقابل السلطان إبراهيم
سنتر حيدر التجاري ـ الطابق الثاني ـ هاتف وفاكس 9611843340+
مصر: القاهرة ـ وسط البلد ـ 8 شارع قصر النيل ـ الدور الأول ـ شقة 10
هاتف: 20(2)27738931+ - 20(100)7332225+ فاكس: 20(2)27738932+
تونس: 24 نهج سعيد أبو بكر (ط 3)
هاتف/ فاكس: 216333714+
البريد الإليكتروني: info@dar-altanweer.com
الموقع الإليكتروني: www.dar-altanweer.com

Some rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing of the publisher

جميع عقائد الغرب والعقائد الحسنة تدخل هذا الرهان على البيان: أنّ الرمز قد يُشير لعمق المعنى، أنّ الرمز قد يُستبدل بمعنى، وأنّ شيئًا ما يضمن هذا الاستبدال... الربّ بالطبع. لكن ماذا لو أنّ الربّ نفسَه يمكن محاكاتُه، يمكنِ اختزاله في الرموز التي تُكوِّن العقيدة؟ لصارت حينئذٍ المنظومة كلُّها بلا وزن، لم تعد في حدّ ذاتها أيّ شيء سوى زيفٍ عملاق... ليست فقط غير حقيقية، بل زيف، ويستحيل استبدالها بشيءٍ حقيقي. هي تتبدّل بنفسها في دائرة محكمة بلا مَرجعٍ أو محيط.

(جين بودريّار)

بالقطع، يمكنُ لأيّ كائنٍ كان أن يبدوَ على غير ما هو عليه في حدٍّ ذاته.

(مارتن هيدجر)

الجزء الأوّل

لا شيءَ حَسنٌ أو سيِّئ، الفكرُ هو ما يجعلُ الشيءَ حسنًا أو سيِّئًا. ليس هذا فحسب، بل لا شيءَ موجودٌ أصلًا إلّا إذا أوجده الفكرُ.

صمويل باتلر

واحد

لَدَيكِ الآنَ خيارٌ واحد

أنتِ... أتدلّى من نافذة مكتبي أدخّن سيجارة خلسة وأحاول قراءة مارجينز)[1] في ضوء نهار الشتاء الكابي حين أسمع ضوضاء لم أسمعها من قبل، حسنًا، سمعت ضوضاء من قبل ـ دشّ بوم وما إلى ذلك ـ لكنّها الآن تأتي من أسفل وهذا ما لا يُعقل، فلا شيء يمكن أن يأتي من أسفل؛ لأنّني في الطابق الأرضي. لكنّ الأرض ترتجّ وكأنّ شيئًا ما يحاول الاندفاع منها. أتخيّل أمّهات الآخرين ينفضنَ ألحفتَهنّ الريش، أو حتّى الربّ ينفض بساط الزمكان، ثم يخطر لي: يا لَلجحيم إنّه زلزال، أُلقي السيجارة وأركض خارج المكتب تقريبًا في اللّحظة نفسها التي تنطلق فيها أجراس الإنذار.

في العادة لا أجري حين تنطلق أجراس إنذار، من ذا الذي يفعل؟ إذ يكون الأمر هُراءً في الغالب: تدريب أو تجرِبة عملية. توقّفت الهزّة وأنا في طريقي لمدخل المبنى الجانبي، هل أعود لمكتبي؟ لكنّ البقاء في المبنى يستحيل مع هذا الجرس، صوتُه عال جدًا، ينوح داخل رأسك. أمرُّ بينما أغادر المبنى بلوحة إرشاداتِ السلامة عليها صورٌ لأشخاص مصابين، تتغبّش الصور حين أمُرّ بها: رجل مصاب بآلام الظهر دهمته أيضًا أزمةٌ قلبية ومجموعة أشخاص هُلاميّين يحاولون إفاقته. كان عليّ العام الماضي أن أحضر محاضرة عن إرشادات السلامة، لكنّني لم أذهب.

---

(1) مجلّة أدبيّة إنجليزيّة.

أرى حين أفتح الباب الجانبيّ أشخاصًا يغادرون مبنى «راسل» ويمرّون بمبْنانا سيرًا أو ركضًا، يصعدون الدرجات الأسمنتية الرمادية نحو مبنى «نيوتن» والمكتبة. أنعطف يمينًا وأصعد الدرجات الأسمنتية قفزًا، درجتين في كلّ قفزة، السماء رمادية برذاذ كهربي رقيقٍ يعلَق في الهواء كأنّه جمُد داخل إطار. أحيانًا، في نهارات يناير تلك، تقرفص الشمس منخفضة في السماء مثل بوذا برتقالي مُلفَّع في فيلم وثائقيّ عن مغزى الحياة، لكن لا شمس اليوم. أصلُ لحافّةِ الزحام المتجمّع وأتوقّف عن الركض، الجميع ينظرون للشيء نفسه ويشهقون، ويصدرون أصواتًا كتلك التي تصدر عن مشاهدي عرض للألعاب النارية.

إنّه مبنى «نيوتن».

إنّه ينهار.

أفكّر في تلك اللّعبة ـ هل رأيتها مؤخّرًا على مكتب أحدٍ ما؟ ـ تلك التي على هيئة حصان خشبيّ صغير يقف على زرٍّ حين تضغط عليه ينخّ الحصان على ركبتيه. هكذا يبدو مبنى «نيوتن» الآن، يخرّ منهارًا على ركبتيه لكن بلا اتّزان. ها قد انهار أحد جانبَيه، الآن الآخر، الآن... الآن توقّف، يصدر صريرًا ويتوقّف. تنفتح نافذة بالطابق الثالث على مصراعيها وتسقط منها شاشة حاسوب لتتهشّم على بقايا الفناء الأسمنتيّ بالأسفل، يقترب أربعة رجال بخوذات وسترات فلورسنتية من الفناء المنهار ببطء ثم يأتي رجل آخر يقول لهم شيئًا ما فيبتعدون كلُّهم ثانيةً.

يقف بجواري رجلان ببذلتين رماديتين.

«مشهد مكرّر[1]»، يقول أحدهما للآخر.

أنظرُ حولي بحثًا عن أحدٍ ما أعرفه، أجد ماري روبنسون مديرة القسم تتحدّث إلى ليزا هوبس، لا يوجد غيرهما الكثير من قسم إنجليزي. لكن ها هو ماكس ترومان يقف وحده يدخّن سيجارة، سيكون على علم بما يجري.

(1) بالفرنسيّة في الأصل De Ja vu.

«مرحبًا آريل»، يغمغم حين يراني قادمة وأقف بجانبه.

ماكس يغمغم دائمًا؛ ليس خَجلًا، بل بالأحرى كمن يخبرك بما عليك دفعه له مقابل تخليصك من ألدِّ أعدائك، أو تجهيز حصان للسّبق، هل يتقبّلني؟ لا أعتقد أنّه يثق بي، ولِمَ يفعل؟ بالنسبة له أنا صغيرة وحديثة العهد نسبيًّا في القسم وفي الغالب أبدو طموحة، حتّى وإن لم أكن كذلك، لي أيضًا شَعرٌ أحمر طويل ويقولون إنّني أبدو مخيفة (بسبب شعري؟ لسبب آخر؟) ومن لا يراني مخيفة يراني «مراوغة» أو «غريبة الأطوار»، قال لي أحد رفاق السكن السابقين ذات مرّة إنّه لا يحبّذ فكرة أن يُترك وحده معي على جزيرة منعزلة، لكنّه لم يقل لماذا.

«مرحبًا ماكس» أقول، ثم أضيف: «واو».

«في الغالب لم تسمعي عن النفق، أليس كذلك؟».

أهزّ رأسي، فيقول مشيرًا بعينيه لأسفل: «يوجد نفق سكّة حديد يمتدّ بالأسفل هنا»... يسحب نفسًا من سيجارته لكنّه ينزعها حين يجد أنّها انتهت ويشير بها حول الحرم مضيفًا: «يمتدّ أسفل راسل من هنا، وأسفل نيوتن من هنا، ويصل، أو كان يصل، بين المدينة والضفّة، لم يُستخدم منذ مئة سنة أو ما يقرب، وهذه هي المرّة الثانية التي ينهار فيها ويأخذ معه نيوتن، كان عليهم ردمه بالأسمنت في المرّة الماضية».

أنظر حيثُ أشار ماكس ويبدأ ذهني فورًا في رسم خطوط مستقيمة تربط نيوتن براسل، أتخيّل النفق تحتها فأجد أنّه أيًا كانت الطريقة التي ترسم بها الخطّ، فلا بدّ أن يمرّ دائمًا بقسم الدراسات الإنجليزية والأمريكية.

«على الأقلّ الجميع بخير»، يقول. «فقد رأى عمّال الصيانة شقًّا في الحائط وأخلَوا المبنى تمامًا هذا الصباح».

ترتجف ليزا. «لا أصدّق ما يحدث»، تقول وهي تنظر لأعلى مبنى نيوتن. أظلمت السماء الرمادية وبدأ المطر ينهمر بغزارة. يبدو مبنى نيوتن غريبًا بدون أضوائه، كأنّه عقب سيجارة أطفأه أحدهم.

«ولا أنا». أقول.

لثلاث دقائق أو أربعٍ تالية نقف جميعًا صامتين نحدّق في المبنى ثم يجول بيننا رجل بميكروفون كبير يخبرنا أنّ علينا العودةَ لمنازلنا مباشرة دون أن نعود لمكاتبنا. أشعر برغبة في البكاء، ثمّة شيءٌ ما في الأسمنت المتهدّم حزين للغاية.

لا يعنيني الآخرون، لكنّ عودتي للمنزل ليست بتلك السهولة، فليس لديَّ سوى نسخة واحدة من مفتاح شقّتي هي التي في المكتب وكذلك معطفي ووشاحي وقفّازي وقبّعتي وحقيبة الظهر.

يمنع الحارس المرور من المدخل الرئيسي للمبنى، فأهبط الدرجات وأسلك الطريق الجانبي. اسمي ليس مكتوبًا على باب مكتبي. مكتوب عليه فقط اسم صاحبه الرسمي، بروفيسور سول بيرلوم. قابلت بيرلوم مرّتين فقط قبل مجيئي هنا: في مؤتمر بجرينيتش، والمقابلة الرسمية التي أجراها معي. ثم اختفى بعد أسبوع واحد من مجيئي. أذكر أنّي دخلت المكتب صباح يوم خميس ولاحظت أنّه مختلف. بدايةً كانت الستائر مسدلة والنافذة مغلقة: بيرلوم يغلق نافذته في نهاية كلّ يوم، لكنّ أيًا منّا لم يقرَب الستائر الرمادية النحيلة البشعة، ممّا أبقى على رائحة دُخَان السجائر. كنت أتوقّع حضوره يومها حوالَي الساعة العاشرة، لكنّه لم يأتِ. بحلول الاثنين التالي بدأت أسأل عنه الآخرين فقالوا إنّهم لا يعلمون شيئًا، وعند نقطة ما، تولّى أحدهم محاضراته. لا أعرف هل تدور نميمة في القسم حول هذا الأمر أم لا ـ فلا أحد ينمُّ معي ـ لكن على ما يبدو أنّهم يفترضون أنّني أتابع إعداد رسالة الدكتوراه الخاصّة بي وأنّ وجوده ليس بذي أهمّية كبيرة لي. إنّه السبب الرئيسي لمجيئي هنا بالطبع: فهو الوحيد في العالم الذي قام ببحوث جادّة حول أحد اهتماماتي الرئيسية، كاتب القرن التاسع عشر توماس إي لوماس. بدون بيرلوم لست واثقة حقًّا من سبب وجودي هنا. وبالفعل أشعر بشيءٍ ما يتعلّق باختفائه؛ ليس افتقادًا على وجه الدقّة، لكنّه شيءٌ ما.

سيّارتي في ساحة انتظار السيّارات التابعة لمبنى نيوتن. لا أُدهش إطلاقًا حين أصل هناك وأجد عدّة رجال بخوذات ثقيلة يطلبون من الناس أن يتركوا سيّاراتهم في مكانها وأن يعودوا سيرًا على الأقدام أو بالحافلة. أحاول مناقشتهم ـ فأقول إنّني يسعدني أن أجازف؛ لأنّ مبنى نيوتن لن يُعيد المشهد مرّة أخرى ببطءٍ لينهار مجدّدًا في اتّجاهٍ مختلف تمامًا ـ لكنّهم كانوا في غاية السعادة وهم يخبرونني أن أغرُبَ عن وجوههم، وأن أعود إلى المنزل سيرًا على الأقدام أو بالحافلة كالآخرين، في النهاية أتوجّه لمحطّة الأتوبيس. ما زال يناير في بداياته لكنّ بعض زهور النرجس البرّي وقطرات اللبن شقّت طريقها عبر الأرض بالفعل واصطفّت في صفوف صغيرة منداةً على جانبَي الممشى. محطّة الأتوبيس قابضة للنفس: طابور من بَشَرٍ يبدو عليهم البرد والهشاشة مثل صفوف الزهرات، فأقرّر أن أسير.

ظنّي أنّ ثمّة طريقًا مختصرًا للمدينة عبر الغابة، لكنّي لا أعلم من أين، أسلك المسار الذي كنت سأقود فيه السيارة حتّى أغادر الحرم فقط، يستمرّ ذهني في استعادة مشهد انهيار المبنى حتّى أتنبّه أنّ ذاكرتي تحتفظ بأشياء لم تحدث أساسًا فأقلع تمامًا عن التفكير في هذا. ثم أفكّر في نفق السكّة الحديد، سبب وجوده هنا مفهوم: فالحرم مشيّد بصفة عامّة على قمّة ربوة عالية ومن المنطقيّ أن يكون المرور بها من أسفلها وليس من أعلاها. قال ماكس إنّ النفق لم يُستخدم منذ أكثر من مئة عام تقريبًا، من يعلم كيف كان الحال منذ مئة عام، ليس حال الجامعة بالطبع، تلك شُيِّدت في الستينيات. الجوّ بارد جدًّا. هل أكان من الأفضل أن أنتظر الحافلة؟ لكن لم يمرّ بي أتوبيس أثناء سيري. أصل للطريق الرئيسية للمدينة وأصابعي متجمّدة داخل القفّازات، أتحقّق من الطرق المتفرّعة يمينًا؛ بحثًا عن طريق مختصر. على الطريق الأوّل لافتةُ (ممنوع الدخول)، أجزاء منها ملطّخة بفضلات طيور النورس؛ الطريق الأخرى تبدو أفضل حالًا، إلى يسارها بيوت بشرفات من الطوب الأحمر، أسلكها.

ظننتُ أنّه طريق سكنيّ، لكن سرعان ما اختفت بيوت الطوب الأحمر

وظهر متنزّهٌ صغير به أرجوحتان وزلّاقة تُركوا ليصدءوا تحت الظلال القاتمة لتشابُك فروع شجرة بلوط جرداء. خلف المتنزّه حانةٌ بجوارها صفٌّ صغير من المتاجر. متجرٌ خيريٌّ بهيئةٍ حزينة، مغلق الآن، ومصفّف شعر حريميّ من ذلك النوع الذي يصبغ الخُصلات الزرقاء ويقدّم خصم خمسين بالمئة أيّام الاثنين. ثمّة أيضًا كشك جرائد، ومتجر حيوانات أليفة ثم - آها - متجر للكتب المستعملة. وما زال مفتوحًا. أشعر أنّني تجمّدت من البرد. فأدخل.

الجوّ دافئ بالداخل ورائحة خفيفة لملمّع أثاث. على الباب جرس صغير يظلّ يصلصل لثلاث ثوانٍ على الأقلّ بعد أن أغلق الباب. تأتي شابّة من خلف أرفف كتبٍ ضخمة في يدها علبة ملمّع أثاث وفوطة صفراء. تبتسم باقتضاب وتخبرني أنّ المكان سيغلق خلال عشر دقائق لكن لا بأس من أن أتجوّل قليلًا. ثم تجلس وتأخذ في نقر شيءٍ ما على لوحة مفاتيح أمامها متّصلة بجهاز كمبيوتر على الطاولة.

«ألديك فهرس إلكتروني للكتب الموجودة هنا»؟ أسألها.

تتوقّف عن الكتابة وترفع بصرها لي. «نعم، لكنّي لا أعرف كيفيّة استخدامه، أنا فقط في محلّ صديقتي. عذرًا».

«آه. لا بأس».

«عمّ تبحثين؟».

«لا يهمّ».

«لا، أخبريني ربّما أتذكّر مروري به أثناء التلميع».

«مم. حسنًا إذن، يوجد كاتب يُدعى توماس إي لوماس، هل لديكم أي من كُتبه؟» دائمًا أسأل هذا السؤال في متاجر الكتب المستعملة. ونادرًا ما يوجد شيءٌ منها، والحقيقة أنّ لديَّ أغلب كُتبه بالفعل، لكنّي أظلّ أُكرِّر السؤال؛ أملًا في نسخة أفضل أو أقدم أو بمقدّمة مختلفة أو غلاف خارجي أنظف.

«ارر...». تقطب جبينها قائلة: «كأنّ الاسم مألوف قليلًا».

«لعلّك مررت بشيءٍ ما بعنوان التفاحة في الحديقة، عمله الأكثر شهرة، لكنّ الأعمال الأخرى ليست متوفّرة، كان يكتب في الفترة من منتصف القرن التاسع عشر حتّى آخره، لكنّه لم يحظَ بالشهرة التي يستحقّها...».

«التفاحة في الحديقة. لا، لم يكن ذلك ما رأيته»، تقول. ثم تضيف «انتظري». وتستدير لخزانة الكُتب الضخمة في الخلف. لام، لوم، لوماس... لا. لا يوجد شيء هنا» ثم تردف: «عفوًا، لا أعلم في أيّ فئةٍ يضعونه، هل هو روائي؟

- «بعض أعماله روائية»، أجيب.

- «لكنّ له، أيضًا، كتابًا عن تجارِب الفكر، وأشعارًا، ومقالاتٍ في الحكم، وعدّة كتبٍ علمية، وروايةً بعنوان *نهاية السيِّد واي*، إحدى أندر الروايات...».

- «*نهاية السيِّد واي*، تلك هي». تقول بحماسة.

- «انتظري».

ثمّ تذهب وتصعد سلّمًا في الخلف قبل أن أستطيع إخبارها بأنّها بالتأكيد مخطئة، يستحيل حقًّا تخيُّل أنّ لديها نسخةً من الرواية هنا. أضحِّي بكلّ ما أملك مقابل نسخة من *نهاية السيِّد واي*، آخر أعمال لوماس وأكثرها غموضًا. لا أعلم بأيّ رواية أخرى اختلط عليها الأمر، لكنّ من السخف الاعتقاد بأنّها لديها، لا يوجد اسم هذه الرواية في فهارس أيّ مكتبة ولا أحد لديه نسخة منها، فنسختُها الوحيدة في خزانة بنك بألمانيا. لكنّ حدسي يخبرني أنّ سول بيرلوم رأى نسخة منها من قبل، لستُ متأكِّدة. معروف أنّ «*نهاية السيِّد واي*» تتبعها لعنةٌ ما، ومع أنّني بالطبع لا أؤمن بتلك الأمور لكنّ بعضهم يعتقدون فعلًا أنّك إن قرأتها...تَمُت.

- «نعم، ها هي»، تقول الفتاة وهي تهبط السلّم وفي يدها صندوق كرتون صغير، «أهذا ما تبحثين عنه؟».

تضع الصندوق على منضدة الاستقبال.

أنظر لما بداخله. ثم ـ فجأة يتوقّف تنفُّسي ـ ها هو: كتاب صغير بغلاف مقوّى مكسوّ بقماش كريمي وعلى الغلاف والكعب حروف بنّيّة، في حالة ممتازة تقريبًا ما عدا الغلاف الواقي. لكنّ هذا مستحيل. أفتح الغلاف، وأقرأ صفحة العنوان ومعلومات النشر. ياه، خراء. هذه نسخة من *نهاية السيِّد واي*، ماذا أفعل الآن بحقِّ الجحيم؟

ـ «كم ثمنها؟» أسأل بحرص، وبصوت صغير بحجم الدبوس.

«نعم، تلك هي المشكلة». تقول وهي تدير الصندوق. «فصاحبة المكتبة تحصل على صناديق كهذا من مزادٍ في المدينة على ما أظنّ، ولمّا كانت وضعتهم بالأعلى، فهذا يعني أنّهم لم يُثمَّنوا بعد». تبتسم وتضيف: «ربّما لم يكن عليَّ أن أريكِ الصندوق من الأصل. هل يمكنك أن تأتي مرّة أخرى غدًا حين تكون هي هنا؟»

ـ «ليس مؤكّدًا...». أبدأ القول، «لكن...».

تمرق الأفكار في ذهني كالأشعّة الكونية. هل أخبرها أنّي لست من هنا وأطلب أن تتّصل بصاحبة المحلّ الآن؟ لا. واضح أنّ صاحبة المحلّ لا تعلم أنّ الكتاب هنا . ولا أريد المجازفة بأن تكون قد سمعت عنه وترفض بيعه لي... أو تطلب مقابله آلاف الجنيهات. ماذا أقول لأجعلها تعطيني الكتاب؟ تمرّ عدّة ثوانٍ. ثمّ يبدو أنّ الفتاة تلتقط سمّاعة التليفون الموجود على المنضد. «سأتّصل بها» تقول. «لأعرف ماذا أفعل».

بينما تنتظر بدء الاتصال أنظر في محتويات الصندوق، غير معقول، فيه كتبٌ أخرى للوماس وبضع ترجمات لدريدا[1] ليست لديّ، وكذلك ما يبدو أنّه الطبعة الأولى من أيوريكا[2] لإدجار آلان بُو[3]، كيف آلت تلك

(1) جاك دريدا Jacques Derrida (1930 - 2004): فيلسوف فرنسي، صاحب نظرية التفكيكية.

(2) أيوريكا Eureka قصيدة نثريّة لإدجار آلان بُو، صدرت عام 1848 عنوانها الفرعي «مقالة بشأن الكون المادّي والروحاني» تصف انطباعات «بُو» عن الكون بلا إثباتات علميّة.

(3) إدجار آلان بُو Edgar Allan Poe (1809 - 1849): شاعر، وكاتب قصّة قصيرة، وناقد أمريكي،

الأعمال لصندوق واحد معًا؟ لا أتخيّل أن يربط أحد بينها ما لم يكن يعمل على بحث مشابهٍ لرسالة الدكتوراه التي أعمل عليها. هل يعقل أنّ أحدًا آخر مهتمّ بالموضوع نفسه؟ غير وارد، خاصّة وقد استغنى عن الكتب. كأنّني أنظر لساعة باليه[1]. كأنّ أحدهم وضع الكتب معًا في الصندوق فقط لجذب انتباهي.

«نعم»، تقول الفتاة لصديقتها. «صندوق صغير. بالأعلى. نعم، من تلك الكومة في الحمام. مم... يبدو خليط من جديد وقديم، بعض القديم بالٍ وسَقْط متاع. أغلفة ورقية على ما أظنّ...». تنظر في الصندوق وتُخرج منه كتابين لدريدا. أومئ لها برأسي. «نعم، خليط حقيقي. ياه، فعلًا؟ عظيم. نعم. خمسين جنيهًا؟ حقًّا؟ هذا كثير. حسنًا، سأسألها. نعم. معذرة. حسنًا، أراك لاحقًا».

تضع السماعة وتبتسم لي. «حسنًا»، تقول. «أخبار جيّدة وأخبار سيّئة. الجيّدة أنّه بإمكانك شراء الصندوق كلّه إن شئتِ، والأخبار السيّئة أنّه لا يمكنني أن أبيعك منه كتبًا منفصلة، إمّا كلّه أو لا شيء حقًّا، سام تقول إنّها هي من اشترت الصندوق من مزاد، وصاحبة المحلّ نفسها لم تره حتّى الآن. وقالت ـ كما هو واضح ـ أن ليس لديها مساحة على الأرفف لمزيد من الكتب... والسيّئة أنّ الصندوق كلّه سيكلفك خمسين جنيهًا، لذلك...».

ـ «سآخذه...»، أقول.

«حقًّا؟ أتنفقين هذا القدر على صندوق كتب؟». تبتسم وترفع كتفيها. «حسنًا، لا بأس، أعتقد أنّ هذا بخمسين جنيهًا إذن، من فضلك».

وأحد روّاد الرومانسية الأمريكية، اشتهر بكتاباته عن الغموض والرعب. ويعتبر مبتكر رواية الرعب.

(1) وِليام باليه William Paley (1743-1805): فيلسوف وعالم أحياء بريطاني، مسيحيّ، دلّل على وجود الله بدقّة صُنعِه، مشبّهًا ذلك بالساعة وتروسها الداخلية التي تحتّم وجود مَن صمّمها.

ترتعش يدي وأنا أُخرج محفظة النقود من حقيبتي، أسحب ثلاث ورقات من فئة العشرة جنيهات وورقة من فئة العشرين وأمدّ لها يدي. لا أتوقّف عند هاتف أنّ هذا تقريبًا كلّ ما تبقّى لي في الحياة وأنّي هكذا لن آكل للأسابيع الثلاثة المقبلة. لكنّي لا يهمّني شيءٌ حقًّا سوى أن أخرج من المكتبة بـ«*نهاية السيِّد واي*» قبل أن يدرك أحد أو يتذكّر فيحاول إيقافي. قلبي يدقّ بشكلٍ مستحيل. هل سأنهار وأموت بالصدمة قبل حتّى أن أقرأ السطور الأولى من الكتاب؟ خراء، خراء، خراء.

ـ «رائع، شكرًا، عذرًا لارتفاع السعر»، تقول لي الفتاة.

ـ «لا بأس»، أتدبّر أن أجيبها. «فأنا بطبيعة الحال في حاجة لكثير من هذه الكتب في رسالة الدكتوراه التي أعمل عليها».

أضع *نهاية السيِّد واي* في حقيبتي، أمان، ثم أحمل الصندوق وأخرج من المكتبة. أحتضن الصندوق وأسير للمنزل في الظلام، البرد يلسع عيني، عاجزة تمامًا عن فهم ما حدث توًّا.

اثنان

أصلُ شقّتي حوالَي الخامسة والنصف تقريبًا. بدأت معظم المتاجر في الشارع تُغلق أبوابها، لكنّ كشك الجرائد على الجانب المقابل يتألّق بأشخاص توقّفوا في طريقهم للمنزل لشراء الجريدة أو علبة سجائر. ما زال مطعم البيتزا أسفل شقّتي مظلمًا، لكنّي أعرف أنّ لويجي صاحبه في مكان ما بالداخل يجهّز عمله ليفتح المطعم أبوابه في تمام الساعة السابعة. محلّ الملابس الفاخرة الواقع بجواره أضواؤه مطفأة، لكنّ ثمّة ضوءًا ناعمًا يأتي من أعلاه حيث مقهى باراديس الذي لا يغلق حتّى السادسة. يقعقع خلف المتاجر قطار يسير ببطء على قضبان جافّة عجوز وتومض أضواؤه في تقاطع نهاية الطريق.

الممشى الأسمنتي المؤدّي لسلالم البوّابة الأمامية بارد كالعادة، ومظلم. لا توجد درّاجة، لم يعد وولفجانج ـ جاري ـ لمنزله بعد. لا أعرف كيف يتدفأ في شقّته (ظنّي أنّ كمّيات البراندي الهائلة التي يشربها في الغالب تساعده)، لكنّ البرد في شقّتي شقاء لا يُحتمل. لا أعلم متى بُنيت الشقّتان، كلٌّ منهما واسعة جدًّا وبسقف عالٍ، ورواق طويل يتردّد فيه صدى الصوت. ستكونان رائعتين بالتدفئة المركزية لكنّ صاحب المنزل لن يفعل هذا. قبل أن أخلع معطفي أضع صندوق الكتب وحقيبتي على طاولة المطبخ البلوط الكبيرة وأضيء النور ثم أجرّ المدفأة الكهربائية من غرفة النوم وأصلها بالكهرباء، أراقب قضيبيها المعدنيين يحمرّان ببلادة

(يبدوان لي دائمًا كأنّهما يعتذران) ثم أشعل كلّ عيون الموقد، وأغلق باب المطبخ، حينذاك فقط أخلع ملابسي.

أرتجف، لكن ليس بردًا فقط، أُخرج *نهاية السيِّد واي* من الحقيبة وأضعها على الطاولة بحرص. لسبب ما يبدو من الخطأ وضعها هناك بجوار صندوق الكتب وكوب قهوة الصباح. أضع الصندوق بعيدًا والكوب في الحوض. الآن، الكتاب وحده على الطاولة. أمسكه وأمرّر يدي عليه لأتحسّس برودة القماش الكريمي للغلاف المقوّى، أديره وأتحسّس غلافه الخلفي، كأنّه قد يختلف عن الأمامي، ثم أضعه ثانية، نبضي كدقّات آلة كاتبة. أملًا ماكينة الإكسبريسو الصغيرة وأضعها على أحد عيون الموقد المشتعلة، ثم أصبّ نصف كأس من زجاجة البراندي التي أعطاها لي وولفجانج وأشربه على جرعتين.

ريثما تغلي القهوة، أتحقّق من مصائد الفئران. كلانا أنا وولفجانج تسلّلت الفئران إلى شقّتينا، هو يقترح جلب قطّة، وأنا لديّ تلك المصائد التي لا تقتل الفئران، بل تحتجزها فقط لفترة زمنية في مستطيل بلاستيكي صغير حتّى آتي وأطلق سراحها. لا أظنّ أنّ هذا الأمر يفلح إذ إنّني لا أكاد أطلق سراحها في الخارج حتّى تعود فورًا للداخل، ومع ذلك لا يمكنني قتلها. اليوم يوجد ثلاثة فئران تبدو ضَجِرةً وحانقة في سجونها الشفّافة الصغيرة، آخذها لأسفل وأطلق سراحها في الباحة. لم أكن لأمانع من وجود فئران في الشقّة لكنّها تأكل كلّ شيء حقًّا، وذات مرّة عبر فأرٌ على وجهي وأنا في الفراش.

حين أعود لأعلى آخذ أربع ثمرات بطاطس من حامل الخضراوات وأغسلها بسرعة ثم أرشّ عليها ملحًا وأضعها في الفرن على نار هادئة. هذا ما أستطيع طبخه الآن، ولست جائعة أساسًا. كنبتي في المطبخ، فلا مبرّر معقول لوضعها في غرفة الجلوس الخاوية حيث لا تدفئة. وهكذا حين تمتلئ الغرفة بالبخار ورائحة البطاطس المخبوزة أخلع حذائي أخيرًا وأستلقي على الكنبة بقهوتي وعلبة سجائر الجنسنج و*نهاية السيِّد واي*.

أقرأ السطور الأولى من المقدّمة، سرًّا أولًا، ثم جهرًا، ويقعقع قطار آخر بالخارج...

«قد تبدو الأحداث التالية للقارئ محض خيال أو حتّى حلم خُطّ بعد الصحو، في تلك اللحظات المحمومة حين يظلّ المرء تحت تأثير تلك الحيل السحرية التي تتولّد في الذهن فور إغماض العين».

لا أموت. لكنّي لم أتوقّع أن أموت حقًّا. كيف لكتاب أن تتبعه لعنة على أيّة حال؟ الكلمات نفسها - التي لم أستوعبها من أول مرّة - تبدو ببساطة معجزة. فقط لكونها هنا ولم تزل هنا مطبوعة بخطّ أسود على صفحات خشنة صفّرها الزمن، هذا ما يدهشني. ليس بإمكاني تخيّل الأيادي الأخرى التي لامست هذه الصفحة، أو العيون التي رأتها. صدر عام 1893، ثم ماذا حدث؟ هل قرأه أحد بالفعل؟ كان لوماس قد أمسى كاتبًا منعزلًا حقًّا حين كتب *نهاية السيِّد واي*. كان قد اشتهر فترةً في ستينيات القرن وعرف الناس اسمه، لكنّهم فقدوا اهتمامهم به واعتبروه مجنونًا أو ممسوسًا حين ذهب ذات مرّة حيث كان تشارلز داروين[1] يتلقّى ما كان يدعوه «علاجه المائي» في يوركشاير ووجّه له سبابًا وقحًا عن الصدفيّات ثم لكمه في وجهه. كان ذلك عام 1859، وبدا بعدها أنّه يميل أكثر من أيّ وقت مضى لأنشطة أكثر سرِّية مثل زيارة وسطاء روحانيّين، واستكشاف الأحداث الغامضة، وصار بالفعل أحد رعاة مستشفى لندن الملكيّ للطبّ البديل، وبعد عام 1880 تقريبًا بدا أنّه توقّف عن النشر، ثم كتب *نهاية السيِّد واي* ومات يوم صدورها بعد أن مات جميع من كان عليهم التعامل مع النصّ (الناشر والمحرّر والمنضد). من هنا جاءت شائعة «اللّعنة».

لكنّ لعلّ لها أسبابًا أخرى، حيث كان لوماس خارجًا عن المألوف بتفضيله لعالِم الأحياء الثوري لامار[2] (الذي يقول إنّ الكائنات الحيّة تورِّثُ

---

(1) Charles Darwin (1809- 1882).

(2) جين بابتيست لامار Jean Baptist Lamarck (1744-1829): عالم أحياء فرنسي، ظلّت نظريّته

سلالاتها الصفات المكتسبة بالتعلّم) على داروين (الذي ينفي ذلك)، في وقت كان الجميع حتّى صمويل باتلر[1] ـ الذي وُصف بأنّه «أعظم مُرجف في القرن التاسع» ـ يميلون لفكرة أنّنا جميعًا، حقًّا، مخلوقات داروينية متبدّلة. كتب لوماس خطابات للتايمز ينتقد فيها ليس فقط معاصروه، بل كافّة أعلام تاريخ الفكر بمن فيهم أرسطو[2] وبيكون[3]. كان مولعًا بفكرة وجود بُعد مكاني رابع وكتب عنه قصصًا غيبية عديدة أزعجت، لسببٍ ما، هؤلاء الذين لا يعتقدون في وجود بُعد آخر، فكان ردّه عليهم: «لكنّها مجرّد قصص!» برغم علم الجميع أنّه يستخدم قصصه أساسًا كوسيلة لتوضيح أفكاره الفلسفية المتعلّق أغلبها بطبيعة الفكر وتطوّره، لا سيّما الفكر العلمي، كان كثيرًا أيضًا ما يصف أعماله الروائية بأنّها «تجارب فكرية».

إحدى قصصه الأكثر إمتاعًا بعنوان «الغرفة الزرقاء» تحكي عن فيلسوفَين دُعيا لحفل في أحد القصور، وبطريقة ما ضلّا طريقهما فيه وهما ذاهبان للعب البلياردو مع مضيفهما وانتهى بهما الأمر إلى غرفة زرقاء في الجناح (المزعوم أنّه) مسكون بالأشباح. للغرفة بابان في جداريها الجنوبي والشمالي وسلم حلزوني في وسطها. يرى أحدهما أن يصعدا السلّم، ويرى الآخر أن يغادرا من أحد البابين. لا يتّفقان على شيء حتّى ينتهي بهما الجدل إلى مسألة وجود الأشباح. يرى أحدهما أنّه لا داعي للخوف

عن تطوّر الأنواع ووراثة الصفات المكتسبة (1809) التي سبقت نظرية داروين مهملة أو محلّ هجوم طوال فترة حياته.

(1) صمويل باتلر Samuel Butler (1835-1902): روائي إنجليزي له دراسات في تطوّر الفكر، من أشهر أعماله: إريهون وهي معالجة ساخرة للمدينة الفاضلة، وكذلك ترجمته للإلياذة والأوديسة التي ما زالت متداولة حتّى اليوم.

(2) أرسطو Aristole (384-322 ق. م): فيلسوف إغريقي، تلميذ أفلاطون ومعلّم الإسكندر الأكبر كتب في علوم الفيزياء والميتافيزيقا والشعر والمسرح والموسيقى والمنطق والبلاغة والسياسة والحكومة والأخلاق والبيولوجيا وعلم الحيوان.

(3) سير فرانسيس بيكون Francis Bacon (1561-1626): فيلسوف وعالم ومحامٍ وقاضٍ إنجليزي.

لأنّه لا يوجد شيء يُدعى أشباح، ويوافقه الآخر أنّه لا داعي للخوف لأنّه لم يسبق له ورأى شبحًا قطّ لذلك فالأشباح لا وجود لها. متّفقان على أنّه لا يوجد أشباح ومتحمّسان لأنّهما اتّفقا على شيء، يغادر الفيلسوفان الغرفة من الباب الذي دخلا منه في محاولة للرجوع أدراجهما للحفلة. لكن بدا أنّ الجناح الأزرق بالقصر مصمّم بطريقة غير معهودة، إذ وجدا حين خرجا من الغرفة دهليزًا يفضي لسلّم حلزوني حين هبطاه وجدا نفسيهما مرّة أخرى في الغرفة الزرقاء، وحين جرّبا الباب الآخر حدث لهما الشيء نفسه، لكنّهما حين صعدا السلّم الحلزوني، بالطبع وجدا أحد البابين، أيّما طريق يسلكانها يؤول بهما الأمر للغرفة الزرقاء.

يوجد القليل من الأبحاث الأكاديمية عن لوماس بوصفه شخصية تاريخية، وعشر دراسات تقريبًا عن روايته التفاحة في الحديقة. وليس له سيرة ذاتية. في تسعينيات القرن العشرين نسب إليه باحثون من أنصار نظرية الكوير[1] بكاليفورنيا، أو بالأحرى نسبوا ليوميّاته ـ التي قد تجد فيها من بين أشياء أخرى ـ سونيتات إيروتيكية مثلية عن بعض شخصيّات شكسبير الذكورية. لا أعرف ماذا حدث للباحثين المثليّين الآن، لعلّهم فقدوا اهتمامهم بلوماس، الأغلبية تفقد اهتمامها به، وعلى حدّ علمي لا يوجد تقريبًا شيءٌ مكتوب عن *نهاية السيِّد واي*، كلّ ما كُتب عنها كتبه سول بيرلوم.

منذ ثمانية أشهرٍ ناقش سول بيرلوم بحثًا بعنوان «لعنة السيِّد واي» في مؤتمر بجرينيتش أمام حضور اقتصر على أربعة أفراد من بينهم أنا، لم يكن بيرلوم قد قرأ *نهاية السيِّد واي* لكنّه ناقش بدلًا من هذا الزعم بمسألة «اللعنة». كانّ صوته جافًّا مطحونًا. واقفًا بانحناءة طفيفة غير منفّرة، تحدث عن اللعنة بوصفها جرثومة وأعمال لوماس بوصفها جسد كائن حيّ

(1) Queer theory أو نظرية الشاذّ: نظريّة في النقد نشأت في التسعينيات وارتبطت بدراسات السحاقية واللّواط والازدواجية الجنسية وتجاوز الجنسانية والدراسات النسويّة.

هاجمته تلك الجرثومة وقدره ربّما أن يصير إلى زوال. ناقش أيضًا مسألة المعلومات التي تتعفّن لقلّة تداولها، وختم كلامه بأنّ كتاب لوماس أصابته اللعنة فعلًا، ليس بغيابه، وإنّما بآراء الراغبين في إنكاره.

بعد المحاضرة تمّ ترتيب حفل استقبال في القاعة المرسومة والتي كانت مزدحمة بمتابعي عالِم معروف كان يلقي محاضرة في نفس توقيت محاضرة بيرلوم وكان يستقبل المعجبين في القاعة السفلى الكبيرة أسفل صورة لكوبرنيكوس(1). كنت قد فكرت أن أستمع لمحاضرته لكنّي سررت باختياري بيرلوم بدلًا منه. الآخرون من مستمعي بيرلوم لم يحضروا الحفل ـ رجلان يبدوان كمفتّشي ضرائب سوى أنّهما أشقران، وامرأة في عقدها السادس لها شعر رمادي بخُصلة وردية ـ وهكذا بدأت أنا وبيرلوم بالنبيذ الأحمر، ثملنا سريعًا ونحن مختبئون في ركنٍ ناءٍ بالقاعة العليا. كان يرتدي معطفًا طويلًا من الصوف الرمادي تحته قميص وسروال أسودان. لا أتذكّر ماذا كنت أرتدي.

«هل ستقرؤها إذن»؟ سألته، أقصد بالطبع *نهاية السيّد واي*.

«بالتأكيد»، قال مبتسمًا ابتسامته الغريبة. «وأنت؟».

«قطعًا، خاصّة بعد هذا».

«جيّد». قال.

لم يبدُ على بيرلوم أنّه يعرف أحدًا ممّن في القاعة السفلى، ولا أنا، ولم يحاول أيّ منّا مغادرة الرُّكن والاختلاط بالآخرين: عن نفسي لست ماهرة في هذا وكثيرًا ما أُزعج الآخرين دون قصد، وعن بيرلوم لا أعرف ماذا كانت حجّته ـ لعلّه لم يكن قد انزعج منّي بعد ـ انتابني طوال الوقت الذي قضيته في القاعة المرسومة شعور طفيف بأنّني قطعة في صندوق شوكولاتة كبير وسط كلّ تلك التشكيلات البنية والكريمية والذهبية والحمراء في لوحات

---

(1) نيكولاس كوبيرنيكوس Nicolaus Copernicus (1473-1543): عالم فلك بولندي صاحب نظرية مركزية الشمس ودوران الأرض حولها.

ضخمة بدت كما لو كانت تذوب من حولي. لعلّنا ـ أنا وبيرلوم ـ كنّا الحشو الداخلي الصلب الذي لا يرغب فيه أحد، إذ لم يأتِ للقاعة العليا أحد غيرنا طوال الوقت الذي قضيناه هناك.

«لا أصدق عدم حضور المزيد من الجمهور لحديثك». قلت.

«لا أحد يعلم بوجود لوماس»، قال. «معتاد».

«ظنّي أيضًا أنّك كنت مقابل السيِّد مشهور». قلت.

ابتسم بيرلوم مجيبًا: «جيم لاهيري، لعلّه هو الآخر لم يسمع بلوماس قطّ».

«نعم» أوافقه. لقد قرأت كتابه الأكثر مبيعًا في العلوم العامّة عن نهاية الزمان وأعرف أنّه حتّى وإن كان سمع بلوماس فلم يكن ليتّفق معه. للعلوم العامّة في هذا الزمن أن تزعم أشياء جامحة للغاية، ومع ذلك لم يزل الغيب خارج نطاقها، وكذلك لامار. يمكنك أن تزعم بوجود عدد ما يحلو لك من أبعاد طالما لا يتضمّن أيٌّ منها أشباحًا أو تخاطُرًا أو شيئًا يكدر صفو تشارلز داروين، أو يحبّه هتلر (بعيدًا عن تشارلز داروين).

أخذ «بيرلوم» زجاجة النبيذ وأعاد ملء كأسينا ثم عقد حاجبيه وهو ينظر لي قائلًا: «لماذا أنتِ هنا إذن؟ طالبة؟ إن كنتِ تعملين على لوماس كنت بطبيعة الحال سأعرفك».

«لا. لا أعمل على لوماس». قلت. «بل أكتب مقالات لمجلّة تُدعى سموك [دخان]. في الغالب لم تسمع بها. وقد أكتب عن لوماس لاحقًا، لكنّي لا أعتبر ذلك بمثابة «العمل عليه» بالمعنى الذي تقصده». أصمت لكن «بيرلوم» لا يقول شيئًا. فأضيف: «مع ذلك يجدر الكتابة عنه، ولو قليلًا، فأعماله آسرة حقًّا. أقصد حتّى بدون الجدل المثار حوله وحول مسألة اللعنة، ما زال مذهلًا».

«حقًّا». قال بيرلوم. «لذلك أعمل على سيرته». نظر بعد أن قال كلمة سيرته للأرض ثم رفع نظره للسقف المرسوم أعلى رأسينا، لا بدّ أنّني كنت

عاقدة حاجبي أو شيء كهذا لأنّه حين عاد ينظر لي ابتسم ابتسامة اعتذارية ملتوية. وقال: «أنا أكره السِّيَر».

ضحكت. «ولماذا إذن تكتب سيرة؟»

رفع كتفيه مجيبًا: «أسرني لوماس، ويبدو أنّ الطريقة الوحيدة للكتابة عن أعماله هي بكتابة سيرته، فقد تجد قبولًا، إذ تسري حاليًا هوجة النبش في قبور شُذّاذ الآفاق ممّن عاشوا في القرن التاسع عشر، كذلك قد يكون المقابل المادّي جيّدًا. والقسم في حاجة لبعض التمويل، وأنا كذلك في حاجة لبعض التمويل اللعين».

«القسم؟»

«قسم الدراسات الإنجليزية والأمريكية». ثم ذكر اسم الجامعة.

«وهل بدأت كتابتها؟» أسأله.

يومئ قائلًا: «نعم، ولسوء الحظّ لا يهمّني فيها حقًّا سوى تفصيلة واحدة».

«اللكمة؟». أخمّن وأنا أفكّر في داروين وأتخيّل، لا أعرف لماذا، أصوات طرطشة ماء عالية عند سقوطه إثر لكمة لوماس.

«لا». أجاب وتطلع للسقف مجدّدًا ثم أضاف: «هل قرأتِ شيئًا لصامويل باتلر؟».

«آه. نعم». أومئ «إنّه هو من دلّني لقراءة لوماس. كان ثمّة إشارة له في مفكّرات باتلر».

«هل قرأت مفكّرات باتلر؟».

«نعم. وأحببت كلّ شيء عن هاملت المصنوع من الحلوى».

الحقيقة أنّ ما أحببته في «باتلر» هو نفس ما أحببته في لوماس: الخروج عن المألوف والأفكار الألمعيّة. ألمعيّة «باتلر» تكمن في مسألة الوعي، إذ يرى أنّه لمّا كنّا نحن قد تطوّرنا من مادّة نباتية عضوية، فلا بدّ أن وعينا قد

تطوّر عند نقطة ما من لا شيء. وإن كان وعينا قد تطوّر هكذا من لا شيء، فلماذا لا يحدث ذلك للآلات؟ قرأت هذا قبل أسبوعين فقط.

«هاملت الحلوى؟». قال «بيرلوم».

«نعم، تلك الحلوى التي كانوا يبيعونها في لندن، حلوى صغيرة على هيئة هاملت يحمل جمجمة مغموسة في السكر. أليس شيئًا رائعًا؟».

ضحك بيرلوم وقال: «أراهن أنّ باتلر هلك من الضحك على هذا».

«نعم. لهذا أحبّه، أحبّ عبثه».

«الأرجح إذن أنكِ تعرفين الشائعات عنه هو ولوماس؟».

«لا. أيّ شائعات؟».

«أنّهما كانا حبيبين، أو على الأقلّ كان لوماس متيّمًا بباتلر».

«لم يكن لدي فكرة عن ذلك»، أقول ثم أبتسم سائلة: «وهل يهمّ هذا؟».

«لا أظنّ، لكنّه يتعلّق بالتفصلية التي تهمّني أكثر من أيّ شيء».

«والتي هي».

«هل قرأتِ مؤلّفة الأوديسة؟».

«لا». أهزّ رأسي وأسأل: «مؤلّفة؟».

«اقرئيها، يزعم باتلر أنّ من كتب الأوديسة امرأة. ألمعيّ ملعون». مرّر يده في شعره وأردف: «نشر معها ترجمته للأوديسة، وأرفق بعض الصور الفوتوغرافية الأبيض × أسود كان قد التقطها لبعض العملات القديمة والمناظر الطبيعية الواردة في الأوديسة. أحدها، المفترض أنّها للخليج الذي سبح إليه عوليس، يقف على البُعد في خلفيّتها رجل وكلب. يخرج باتلر عن عادته في مقدّمة الكتاب ليعتذر عن ذلك قائلًا إنّه ليس واردًا أنّهما كانا هناك حقًّا وأنّهما لم يظهرا إلّا وهو يعالج النسخة السلبية.

«واو»، علّقت وأنا لا أعرف إلى أين يؤدّي ذلك. «و...».

«هذا الرجل هو لوماس، أنا واثق من ذلك».

«وكيف هذا؟».

«لا أعرف. لا أعرف حتّى هل سافرا معًا أم لا. لكنّ طريقة ظهوره في الصورة دون أن يكون مرئيًّا من قبل. لا يمكنك التحقّق من الشخص جيّدًا لتقولي من هو لكن... ماذا لو كان لوماس؟ ماذا لو كان شبحه حتّى؟ إنّما قبل أن يموت؟ لعلّي ثملت قليلًا. معذرة. مع ذلك كان لدى لوماس كلب، اسمه إيراسموس».

عندئذٍ حرّك بيرلوم رأسه بتشنّج كأنّه يحاول إخراج ماء من إحدى أذنيه، وقطّب حاجبيه كمن يفكّر في أمر عسير، ثم رسم تعبيرًا آخر على وجهه كأنّ الأمر ليس مهمًّا على كلّ حال. ثم رفع حاجبًا وابتسم، وسار إلى الطاولة ليجلب زجاجة نبيذ أخرى. بينما يجلبها، ألقيت نظرة على اللوحة الضخمة المرسومة على الجدار خلفه، كانت منظرًا لما يبدو أنّه ملك يهبط من الجنّة على درجات مفروشة ببساط أحمر. بدت الدرجات كأنّها جزء من القاعة أكثر منها جزء من اللوحة، كما لو كان بوسع الأشخاص في اللوحة استخدامها للهبوط إلى الواقع، إلى الحاضر.

«لوماس قد يقودك للجنون قليلًا». قال بيرلوم حين عاد.

«مع ذلك أحبّ فكرة الصورة». قلت. «تذكّرني بقصّته تلك «الداجوروتايب»[1].

«أقرأتِها»؟

أومئ «نعم. إنّها المفضّلة لديّ على ما أظنّ».

«وكيف لعمري تحصّلتِ عليها؟

«من الإي باي[2]، كانت في مجموعة قصصية. لديّ تقريبًا كافّة ما كتب لوماس ما عدا *نهاية السيّد واي*، عثرت على الكثير منها في مواقع الكتب المستعملة».

---

(1) Daguerreotype: أوّل آلة تصوير فوتوغرافي اخترعها لويس داجور مع جوزيف نيكيفور نيبس في القرن التاسع عشر.

(2) E-Bay: موقع بيع وشراء على الإنترنت.

«وكلّ هذا من أجل مقالة مجلّة؟».

«نعم، الأمر معي مكثّف للغاية. لمدّة شهر أعيش وأتنفّس مثلًا بصامويل باتلر ثم أجد منه وصلة تأخذني للقطعة التالية. العمود بعنوان تداعٍ حرّ، بدأ منذ ثلاث سنوات بالانفجار العظيم[1]».

يضحك بيرلوم ويسأل: «وإلام أدّى ذلك؟».

«لخواصّ الهيدروجين، سرعة الضوء، النسبية، ميكانيكا الكمّ، نظرية الاحتمالية، قطّة شرودينجر[2]، الدالّة الموجية، الضوء، الأثير الكوني - الذي أؤثره شخصيًّا - التجربة، المفارقة...».

«أنت عالِمة إذن؟ أتفهمين كلّ هذه الأشياء؟».

ضحكت وقلت: «يا إلهي، لا، بالقطع لا، أتمنّى ذلك، ربّما لم يكن عليّ أن أبدأ بالانفجار العظيم، لكنّي قمت بهذا فحدث ذاك. عند نقطة ما انتقلت من الذكاء الاصطناعي إلى باتلر، وها أنا الآن مع لوماس. وبينما أعمل عليه ربّما أقرّر الوصلة التي سأتتبّعها فيما بعد لآتي بالكتب المتعلّقة بها، في الواقع قد أكتب شيئًا عن تاريخ التصوير الفوتوغرافي انطلاقًا من قصّة «الداجوروتايب». أو أنطلق منها للبُعد الرابع، وكتاب زولنر[3] ذاك برغم أنّ هذا سيعيدُني للعلوم مرّة أخرى».

---

(1) The Big Bang: نظرية في علم الكون الفيزيائي تقول بنشوء الكون قبل حوالي 13 مليار سنة من جسم حارّ شديدة الكثافة بحجم رأس المسمار.

(2) إيرفين شرودينجر Erwin Rudolf Josef Alexander Schrödinger (1887- 1961): فيزيائي نمساوي حاز جائزة نوبل عام 1933، اشتهر بمعادلته الحسابية التي تصف نشاط الإلكترونات بما يشبه الموجة والتي أصبحت أساسًا لأحد مجالات الفيزياء يسمّى فيزياء الكمّ أو الكوانتوم.

(3) يوهان كارل فريدريش زولنر Johann Karl Friedrich Zollner (1834-1882): عالم فيزياء فلكية ألماني ومكتشف الخداع البصري الكلاسيكي الذي تبدو فيه الخطوط المتوازية كأنّها متقاطعة عام 1860. عرف عنه قناعته بوجود البُعد الرابع. الإشارة لكتابه فيزياء ما وراء الطبيعة أو Transcendental Physics صدر عام 1881

في «الداجوروتايب» يستيقظ رجل ليجد نسخة طبق الأصل من منزله في متنزّه عام على الطريق وقد تجمّع حولها حشد كبير من الناس. من أين أتى هذا المنزل؟ على الفور يتّهم الحشد الرجل بأنّه فقد عقله وبنى، بين عشيّة وضحاها، نسخة طبق الأصل من منزله في المتنزّه العامّ. يُذكّر الرجل الناس بأنّ ما يقولونه مستحيل، من بوسعه بناء منزل بكامله بين عشية وضحاها؟ كما أنّ منزل المتنزّه لا يبدو جديدًا، بل هو في الواقع نسخة طبق الأصل من المنزل «الحقيقي»، بالسحجات نفسها على ألواح الباب والكشطات نفسها على مطرقته النحاسية. الفرق الوحيد بينهما أنّ مفاتيحه لا تعمل، بدا أنّ شيئًا ما يسدّ ثقب المفتاح. يحاول الرجل في بادئ الأمر تجاهل منزل المتنزّه، لكنّ الأمر سرعان ما يعصف بحياته فيجد نفسه مضطرًا لمحاولة معرفة مصدره. يفقد بسببه وظيفته كمدرّس، وتهرب خطيبته مع شخص آخر، كذلك تتدخّل الشرطة في الأمر وتوجّه له اتّهامات بشتّى أنواع الجرائم. للمنزل بعض الخواصّ الغريبة أيضًا، أهمُّها أن لا أحدَ يمكنه دخوله. يمكن رؤية ما بداخله من نوافذه ـ منضدة، آنية زهور، مكتب، بيانو ـ لكنّهم لم يستطيعوا كسر النافذة أو تحطيم الباب، وقف لهم المنزل ككيانٍ صلدٍ لا فراغ بداخله.

وذات يوم حين يُمسي الرجل على حافّة الجنون، يأتي لمنزله الحقيقي رجل عجوز غامض يحمل صندوق أدوات. يخبره هذا الرجل أنّه سمع بمأزقه وأنّ لديه تفسيرًا لما يحدث. يُخرج العجوز محفظة مطويّة مبطّنة بالمخمل، ويبدأ في شرح ما هو الداجوروتايب وكيف يعمل. يتبرّم الرجل في بادئ الأمر، فالجميع يعلم كيف تعمل الداجوروتايب! فيقدّم الزائر فرضيّته المستحيلة: إذا كان بإمكاننا نحن البشر، الكائنات ثلاثية الأبعاد، أن نخلق نسخةً ذات بُعدين من الأشياء المحيطة بنا، فهل يستحيل تمامًا التفكير في كائنات رباعيّة الأبعاد بإمكانها أن تقدّم نسخًا ثلاثيّة الأبعاد باستخدام كاميرا داجوروتايب؟

يغضب الرجل، ويقذف بالمصوّر خارج منزله، ويفكّر بأنّه لا بدّ من

وجود تفسير آخر، لكنّه فقط لا يستطيع التوصُّل له، ثم يصل في النهاية إلى أنّ زائره قد يكون على حقّ، فيبحث عن بطاقة عمله ويقرّر زيارته في الحال. حين تقوده الخادمة داخل منزل المصوّر يجد شيئًا غريبًا للغاية، كان المصوّر يقف في حجرة الاستقبال ممسكًا بآلة داجوروتايب، لكنّه ليس هو حقيقةً بل نسخة منه بلا حياة.

«أتعلمين ما أحبّه في قصّة الداجوروتايب؟». قال بيرلوم.

«ماذا؟».

«النهاية غير المحدّدة، أنّ الرجل لا يجد الحلّ أبدًا».

حتّى تلك اللّحظة لم يكن بالقاعة المرسومة موسيقى، فقط ضجيج الأصوات والضحكات وأصداؤها في أرجاء القاعة الفسيحة، وعلى ما يبدو أنّ أحدهم تذكّر أنّه يجب تشغيل موسيقى ما، فأخذت النغمات الثقيلة لديكسيت دومينوز[1] هاندل[2] تتسارع في جوّ القاعة يليها المقطع الأول للكورس يتدافع بعضه فوق بعضٍ: ديكسيت دومينوز... دومينو ميو... سيدي... آ ... ديكستري... مي [قال الربّ لربِّ اجلس في يدي اليمنى حت].

«إذن»، قال بيرلوم رافعًا صوته فوق صوت الموسيقى، «هل كلّ وقتك لتلك المجلّة؟».

«لا. أكتب مقالة شهرية فقط».

«أهذا كلّ ما تقومين به؟».

«حاليًا. نعم».

«وهل يكفيكِ للعيش».

---

(1) Dixit Dominus: لاتينية، تُغنى بالعربيّة [قال الربّ].

(2) جورج فريدريك هاندل George Fridrech Handel (1759-1658): موسيقار إنجليزي من أصل ألماني مشهور بمؤلّفاته الدينية المسيحية.

«بالكاد. المجلّة تسير على نحو جيّد، وبمقدوري دفع إيجار الشقة وثمن القليل من أكياس العدس كلّ شهر. وبالطبع، بعض الكتب أيضًا».

بدأت المجلّة خطواتها الأولى برئاسة تحرير تلك المرأة التي قابلتها في الجامعة، وحظيت الآن بصفقة توزيع مجانًا في جميع محلّات الموسيقى الكبرى في البلاد. مع قدر لا بأس به من الإعلانات ومشرف فني لا يستخدم الصمغ للصق الطبقات أثناء الجمع.

«وماذا درستِ في الجامعة؟ ليس العلوم على ما أظنّ» .

«لا. أدب وفلسفة إنجليزيّان. لكنّني أفكّر بجدِّية في العودة مجدّدًا لدراسة العلوم. الفيزياء النظرية على الأرجح». وشرحت له كيف أودّ فهم أمور مثل النسبية، وقطّة شرودينجر، وكيف أرغب في محاولة استعادة الأثير العجوز الغالي. أظنّ أنّني كنت ثملة قليلًا فهرفت لفترة عن الأثير الكوني. كان لدى بيرلوم بعض علم به ـ تكشّف أنّه المشرف على الدراسات العليا في آداب وعلوم القرن التاسع عشر بالجامعة ـ ومع ذلك ظللت أهذي عن روعة أنّه لأزمنة طويلة ظلّ الناس لا يفهمون كيف يمكن للضوء أن ينتقل عبر الفراغ، بينما لا يمكن للصوت (يمكنك أن ترى الجرس في الفراغ لكن لا يمكنك سماع دقّاته). كانوا في القرن التاسع عشر يعتقدون أنّ الضوء ينتقل عبر شيء لا مرئي هو الأثير الكوني. وفي 1887 عزم ألبرت مايكلسون وإدوارد مورلي على إثبات وجود الأثير، لكنّهما اضطرا في النهاية للإقرار بعدم وجوده. وبالطبع لم أتذكّر وأنا أحكي لبيرلوم تاريخ التجربة أو اسميّ العالِمَين، لكن تذكّرت وصف مايكلسون لموضوع تجربته الضائع حين قال «الأثير العجوز الغالي، المهجور الآن، مع أنّني ما زلت بصفة شخصيّة أتشبّث به قليلًا». تحمّست قليلًا وأنا أتحدّث عن مدى شاعرية الفيزياء النظرية، وكذلك عن هوسي بالمؤسّسات خاصّة تلك التي بها مكتبات كبيرة.

حينها قاطعني بيرلوم قائلًا: «لا تفعلي هذا. ضاجعي الفيزياء النظرية،

تعالي أعدّي رسالة دكتوراه عندي. أظنّ أنّك لم تُعدّي الدكتوراه بالفعل؟».

كانت طريقته في قولها. ضاجعي الفيزياء النظرية.

«عن ماذا أعدّها؟». قلت.

«ماذا يثير اهتمامك؟».

ضحكت. «كلّ شيء؟» ورفعت كتفي. «أظنّ أنّ هذه هي مشكلتي. أرغب في معرفة كلّ شيء». لا بدّ أنّي كنت ثملة لأعترف بهذا. على الأقلّ لم أتمادَ في القول وأقرّ أنّ بوُدّي أن أعرف كلّ شيء ليزيد احتمال عثوري على شيءٍ ما أؤمن به.

«هيّا»، قال بيرلوم. «ما هو شيؤك؟»

«شيئي؟».

ارتشف جرعة نبيذ وأضاف: «نعم».

«لا أظنّ أنّي أعرفه حتّى الآن. هذا هو الهدف من عمود المجلّة. التداعي الحرّ، فأنا جيّدة في هذا».

«أي أنكِ بدأتِ بالانفجار العظيم، وشققت طريقك عبر العلوم حتّى وصلتِ للوماس. لا بدّ أنّ هناك حلقة وصل في كلّ ما كتبتِ عنه».

رشفت من نبيذي. «أفكار لوماس عن البعد الرابع ممتعة بشكل خاصّ. أعني أنّه لم يقم باستباق نظرية خيطية بالتحديد، بل...».

«ما النظرية الخيطية؟».

رفعت كتفي. «لا تسألني، لهذا أريد أن أدرس الفيزياء النظرية، على الأقلّ هذا ما أظنّه».

ضحك بيرلوم. «بحقِّ الشيطان. هيّا، أوجدي الصلة».

فكّرت للحظات. «ظنّي أنّ كلّ ما كتبت عنه يتعلّق أغلبه بشكل ما أو بآخر بالتجارب الذهنية، أو «بتجارب الفِكر»، كما يسمّيها لوماس».

«عظيم، ثم؟».

«ممم. لا أعرف. لكنّي معجبة جدًّا بالطريقة التي يمكن بها التحدّث عن العلوم دون استخدام الرياضيات بالضرورة، بل المجازات بدلًا منها. هكذا كنت أتناول كلّ مقالاتي. ففي كلّ واحدة من تلك الأفكار والنظريات تجد دائمًا حدوتة صغيرة تسير معها».

«مثير. أعطيني مثالًا».

«حسنًا، قطّة شرودينجر بالطبع. بوسع الجميع أن يفهموا أنّ قطّةً في صندوق لا يمكن أن تكون حيّة وميّتة في الوقت نفسه، بينما لا يكاد أحد يستوعب المبدأ نفسه لو عبّرنا عنه بالرياضيات. ثم هناك قطارات آينشتاين. يبدو أنّ كلّ أفكار آينشتاين في النسبية يمكن تفسيرها بمنطق القطارات. أحبّ هذا جدًّا. وما زال البشر حتّى الآن كلّما أرادوا فهم البعد الرابع يعودون للأرض المسطحة[1] التي كُتبت في عام ما من القرن التاسع عشر. وظنّي أنّ بإمكانك النظر لباتلر على هذا النحو أيضًا. إريهون[2] في الأصل تجربة فكرية يُقصد بها استنباط أفكار عن المجتمع والآلات».

«اكتبي مقترحًا إذن. أعدّي رسالة دكتوراه عن تجارب الفكر تلك: سيسرّني جدًّا أن أشرف على بحث كهذا. انظري في المزيد من الروايات والشعر، نصيحتي أن تلقي نظرة على توماس هاردي وتينيسون أيضًا. وراعي ألّا تنجرّ في بالأمر بعيدًا، ضعي حدًّا زمنيًّا أو نوعًا ما من الحدود. لا تسردي تاريخ التجارب الفكرية منذ بدء الخليقة، بل قولي مثلًا منذ 1895

---

(1) The Flat Land (قصّة رومانسيّة عديدة الأبعاد): رواية قصيرة ساخرة للروائي الإنجليزي أدوين أبوت (1926-1838) عن الهرميّة الاجتماعيّة في الثقافة الفيكتورية، وما زالت لها شعبيّة بين علماء الرياضة والفيزياء والكمبيوتر لما فيها من شروح لمسألة الأبعاد.

(2) Erewhon أو أعلى المدى Over the Range رواية لصامويل باتلر نشرها بدون اسم المؤلّف علم 1872. وإريهون هو اسم بلدة اكتشفها بطل الرواية قصد بها الكاتب أن تكون مكانًا غير محدّد.

حتّى 1939 أو ما يقرب. ابدئي بداروين واختمي بـ... لا أعرف، القنبلة الذرية».

«أو قطّة شرودينجر. أعتقد أنّها كانت في الثلاثينيات، القنبلة واقعية جدًّا، أقصد أنّها النقطة التي أصبحت فيها التجارب الفكرية أمرًا واقعًا حقًّا».

«ربّما». مسح بيرلوم بيده على لحيته النابتة. «حسنًا، على كلّ حال، ما رأيك؟ في تقديري أنّ بإمكاننا تسجيلك بسهولة شديدة، هل لديك دبلومة؟»

«نعم».

«رائع، هيّا إذن. قد أوكل إليك ببعض التدريس كذلك، إن شئتِ».

«هل أنت جادّ؟».

«جادّ». وأعطاني بطاقته. مكتوب عليها اسمه بحروف سميكة ثم: أستاذ في الأدب الإنجليزي.

وهكذا كتبت المقترح وأُغرمت بالفكرة. لكن بعد ذلك... لا أدري. حين ذهبت لأبدأ العمل بدا كأنّ بيرلوم قد فقد حماسه للوماس. قُبِل مقترحي بالطبع - عن دراسة لغة تجارب الفكر وتكوينها منذ زونوميا[1] وحتى قطّة شرودينجر - وكان كلّ شيء يسير جيّدًا معه حتّى ذكّرته بلوماس، توقّف حينها عن النظر لي مباشرة وشخص ببصره لخارج النافذة، نافذتي أنا الآن، ولم يقل شيئًا. أردت أن أضاحكه قليلًا حول محادثتنا في المؤتمر، فقلت شيئًا مثل: «حسنًا، هل نزلت اللعنة بآخرين؟». فنظر لي وقال: «انسيَ هذا البحث، اتّفقنا؟ دعي لوماس لما بعد». ونصحني بأن أبدأ بالتركيز على التجارب الفكرية الحقيقية كقطّة شرودينجر ونسبيّة آينشتاين والأرض المسطّحة لإدوين. وأقنعني أيضًا أن أدع زونوميا، كتاب جَد تشارلز داروين

(1) Zoonomia أو قوانين الحياة العضوية 1796: كتاب علمي لإيراسموس داروين عن علوم الأمراض والتشريح والنفس ووظائف الجسد ويحوي أفكارًا مبكّرة عن نظرية التطوّر التي طوّرها فيما بعد حفيده تشارلز داروين.

عن التطوّر، وأن أبدأ من بعد ذلك، عام 1859 حين صدر أصل الأنواع. ذكّرني أيضًا أن أنظر في المزيد من الشعر. لم يكن لديّ فكرة عمّا طرأ عليه لكنّني سايرته، وبعدها بأسبوع كان قد اختفى.

وها أنا ذا بلا إشراف كتجربة بلا مُلاحظ. طبق فطر فليمنج[1] ربّما، أو دالّة موجية لم تتهاو بعد... وماذا أفعل؟ أقرأ لوماس. أقرأ *نهاية السيِّد واي*، من أجل الربّ. ضاجع نفسك يا بيرلوم.

(1) ألكسندر فليمنج Alexaner Fleming (1881-1955): العالم الإسكتلندي الذي اكتشف البنسلين مصادفة من طبق طعام كان قد نسيه وامتلأ بالفطر.

ثلاثة

نهاية السيِّد واي

توماس إ. لوماس

تمهيد

قد تبدو الأحداث التالية للقارئ محض خيال أو حتّى حُلم خُطّ بعد الصحو في تلك اللحظات المحمومة حين يكون المرء تحت تأثير تلك الحيل السحرية التي تتولّد في الذهن فور إغماض العين. هؤلاء القرّاء لا يجب أن يتخلّوا عن رَيبِهم؛ لأنّها رغبتهم في الحملقة فيما خلف ستارة الساحر، كرغبة الإنسان في أن يسأل ماذات وأيْنات وكَيْفات غريبة عن الحياة. عن الحياة كما عن الأحلام. عن الصورة كما عن الكلمة. عن الفكر كما عن اللّغة.

حين ينظر المرء في حيل العالم لا يرى سوى العالم. إذًا أين تنتهي الخدعة؟ حقًّا. أليس كلُّ ما في العالم خدعة سحرية؟ من التكوينات الصخرية التي يراها المرء على الشاطئ وحتّى أنابيب جيسلر[1] التي عرضت مؤخّرًا في الجمعية الملكية، يبدو

(1) أنابيب زجاجيّة تعرض بريق الشحنة الكهربائية، اكتشفها صانع الزجاج الألماني هنريك جيسلر عام 1857 حين لاحظ أنّ الكهرباء تُحدِث تأثيرات ضوئية خفيفة عندما تتعرّض لقوّة كبيرة داخل أنابيب فيها فراغ جزئي.

كلُّ ما يحيط بنا مليئًا بالخيالات والعجائب. كما صنع روبرت هودين[1] الباردين ليقدّم بهم سحره، لي هنا أن أقدّم حركة تلقائية ذهنية، قد يرى المرء بها حيل الغيب السحرية وحقائقه، وقد يمكنه ـ إن عرف كيف ـ أن يثب في الحركة التلقائية لجميع الأذهان وشحناتها. قد نتساءل ما الغيب وما شكله بينما يسهل للغاية الغوص في أعماقه كما تغوص السمكة في بركة فتضحى التموّجات الناشئة حينها ليست تموّجات الغيب ولا تموّجات الواقع بل تموّجات العالَمين معًا حقًّا، عالمَي الساحر وجمهوره.

لعلّي أضلّل القارئ هنا بالحديث عن الساحر هكذا. إذ الخالق هو الحفيظ! ونحنُ ـ المخلوقاتِ ـ نعيش حيل عالَمٍ يصنعها فكرنا؛ نطلق المسمّيات على الوحوش والأصداف التي تزحف منذ بدء الخليقة على وجه البسيطة العزيزة الغامضة وتلتصق به، ونجمعها في متاحفنا ونظنّ أنفسَنا الحافظين. أيّة حماقة تنقل الضوء من شتّى الآفاق عبر الأثير إلى كلّ عين. وما وراء ذلك ليس الحقيقة، لكنّه ما نجعله نحن الحقيقة، ولم يزل هو الحقيقة التي لا يمكننا رؤيتها.

أيمكن لهذا المكان ـ حيث الأحلام والحركة التلقائية أمر واحد، حيث أنسجة الوجود من ذكريات لم تعد حقيقية أو غير حقيقية أكثر من الحُلم الذي نشهدها فيه، وسمكات بأنوف وفكوك وجلود ينسجها لهوُ الفكر وحدَه على سطح بركة خيالات خالقنا ـ أيمكن لهذا المكان أن يكون حقيقيًا، مخلوقًا كما في عالم أرسطو المجازي؟ حقًّا، إذ إنّ بوسعنا العثور على أنبياء القرون الماضية فقط في رموز العالم المجازي ، ذلك الوهم المجيد الذي ندعوه الذكرى، ستار القدر ذاك الذي يُحكم انسداله على العقل الواعي لكنّه موجود في كافّة أنسجة الكائنات، من المخلوقات البحرية حتّى البشر، من الحصى حتّى المحيط، كما يصرّ لامار وإيراسموس داروين. لهذا، بودّي ألّا يُعتبر هذا العمل سوى خيال.

ت. إ. لوماس، يوليو 1892

---

(1) Jane Eugene Robert Houdine (1805-1871): ساحر، ومخترع، وصانع ساعات فرنسي، والباردون هي آلات خشبية ذاتية الحركة في شكل حيوانات.

افتتاحية

مشهدي شاطئٌ حفره الزمان
قاربُ صيدٍ يحمله الموج
لا آثار لأقدامٍ على الرمال
فيما وراء ـ كهف غريب.
أو ـ غابة بلوط وصنوبر
فرس أدهم ينتظر ليحملني
لمكان لا شيء فيه يُحرّك ساكنًا، وحقيقي لم يزل
باب كوخ ـ وها هو المفتاح
لعلّي سأتجوّل في حقل
خشخاش أحمر على نجيلة خضراء.
أيًّا كانت الفكرة المخبوءة
ما من عين نائم تعجز الآن عن الحُلم
في أيّ مكان أحلّق فيه
تتحوّل الظلمات إلى نور

أُنهي قراءة التمهيد حوالَي التاسعة. «بوُدّي ألّا يعتبر هذا العمل أكثر من خيال». هكذا ينتهي التمهيد. ما معنى هذا؟ ألا يعتبر أيّ قارئ أنّ أيّ رواية ـ بطبيعة الحال ـ خيال؟

يبدأ السرد الأساسي بتاجر، السيِّد واي، في زيارة لمعرض محلّي تحت المطر. لكنّي لا أقرأ جيّدًا الآن، بل أتجاوز الفصول الأولى لأقرأ الجمل الغريبة هنا وهناك. يعجبني السطر الأول: «في النهاية سأصير لا أحد لكنّي في البداية كنت أُعرف بالسيِّد واي». أظلّ أتصفّح الكتاب حتّى أصل للنهاية (التي لا أقرؤها بالطبع)، فقط لشغفي بتحسّس الصفحات، ثم أعود للفصل الأول. أراها وأنا أقلّب صفحات الكتاب للأمام. ورقة مفقودة. بقيّة ورقة منزوعة بين الصفحة اليسرى 130 والصفحة اليمنى 133، صفحتي 131 و132، وجها ورقة مفقودة.

في البداية لا أصدق ما أراه، مَن عساه ينتزع ورقة من *نهاية السيِّد واي* هكذا؟ لمجرّد الرغبة في التخريب؟ أتحقّق بحرص من بقيّة الكتاب، ما من ورقات أخرى مفقودة، وما من إشارة واضحة على الرغبة في التخريب. لماذا إذن أُنتزعت الورقة؟ هل كرهَ أحد ما تلك الورقة؟ أم سرقها؟ لكن إن أردت أن تسرق ورقة من كتاب، فلم لا تسرق الكتاب كلّه؟ أمر محيّر جدًّا. أرتعش وأتمنّى لو يدفأ المكان قليلًا هنا.

أسمع صرير البوّابة الرئيسيّة بالأسفل، عاد وولفجانج. وبعد ثوانٍ قليلة أسمع طرقات رقيقة على باب شقّتي.

«الباب مفتوح»، أصيح وأنا أضع *نهاية السيِّد واي* جانبًا.

وولفجانج صغير وأشقر، وُلد في برلين الشرقية، لا أظنّه يغسل شعره قطّ. يرتدي اليوم ما يرتديه دائمًا حين يعزف في الفنادق: جينز أزرق باهت، وقميص أبيض، وسترة بذلة زرقاء داكنة. أخبرني حين قابلته أول مرّة، يوم انتقلت لهذه الشقّة، أنّه مكتئبٌ جدًّا لحدّ أنّه لا يستطيع استجماع ما تبقّى من قواه لينتحر، أشفقت عليه وبدأت أمارس معه أفعالًا صغيرة تعزّز لديه الحياة فكنت أعرض عليه أن أعدّ له حساءً أو أن أجلب له كتبًا من مكتبة الجامعة، ولفترة طويلة ظلّ يقبل الحساء ويرفض الكتب، لكنّه مؤخّرًا طلب منّي كتب شعر، لجنسبرج[1] وبوكوفسكي[2] بالتحديد.

يدخل وولفجانج وما زلت أفكّر في كلمات لوماس: «عن الحياة كما عن الأحلام»، هل أخبره عن الكتاب؟ ربّما لاحقًا.

يبتسم لي بحزن. «أوه، حسنًا، أنا غنيّ في عالم آخر، هل تعدّين لي بطاطس مخبوزة؟»

أنا الذي أخبرته بتعبير «أنا غنيّ في عالم آخر» هذا، مقولة الفيزيائي

---

(1) ألن جنسبرج Allen Ginesberg (1926-1997): شاعر أمريكي بمثابة أحد الآباء الروحانيّين لجيل الغضب Beat Generation.

(2) شارلز بوكوفسكي Charles Bukowski (1920-1994): شاعر أمريكي من جيل الغضب أيضًا، ترجمت بعض أعماله للعربيّة.

الروسي جورج جامو بعد أن خسر كلّ أمواله في كازينو أمريكي وتعني أنّ وولفجانج، كعادته، قامر في كازينو الفندق بكلّ البقشيش الذي حصل عليه وخسره. لذلك فلعلّ نسخةً أخرى منه في عالم آخر مواز قد كسبت آلاف الجنيهات.

«ممم»، أجيبه. «بطاطس بـالـ...» وأجول بنظري في المطبخ. «زيت الزيتون والملح، و... أظنّ أنّ لديّ بصلًا في مكانٍ ما».

«عظيم»، يجيب وهو يجلس إلى طاولة المطبخ ويصبّ براندي. «ذوّاقة»... تلك أيضًا طرفة خاصّة بنا، والأسوأ منها «ذوّاقة رفيعة»، وتعني وجبة لا تُكلّف شيئًا تقريبًا. بوسعي أن أعدّ شيئًا ذوّاقة رفيعة من العدس، بينما وجبات وولفجانج الذوّاقة الرفيعة تحتوي غالبًا على الملفوفات المقليّة.

أفتح الفرن وأُخرج البطاطس. «يمكنك أن تقول إنّني أيضًا غنيّة في عالم آخر». أقول عبر البخار والحرارة، وأضع صاج الخَبز على الطاولة وأنا أبتسم لوولفجانج.

يرفع لي حاجبًا أشقر. «أنتِ أيضًا قامرتِ؟»

«لا». أضحك. «بل اشتريت كتابًا، وتبقّى معي حوالَي خمسة جنيهات حتّى آخر الشهر إلى أن أقبض مرتّبي من المجلّة... إنّه... إنّه كتاب غالٍ جدًّا».

«هل هو جيّد؟».

«نعم. أوه، نعم...». ما زلت لا أريد إخباره. أبدأ تقطيع البصل إلي شرائح. «آه، والجامعة انهارت اليوم أيضًا».

«انهارت؟» يضحك. «فجّرتِها؟ لا. كيف؟».

«حسنًا، لم تنهر بأكملها تمامًا، مبنى واحد فقط».

«قنبلة؟».

«لا. نفق سكّة حديد أسفل الحرم. كأنّه انهار كلّه لداخله، ثم...».

يبلع وولفجانج شرابه ويصبّ آخر. «آه فهمت، أنتم تبنون شيئًا على لا شيء ثم ينهار. صح». يضحك ويسأل: «كم عدد الضحايا؟»

«لا ضحايا. لقد أخلوا المبنى في الصباح».

«أوه. هل ستغلق الجامعة إذن؟».

«لا أدري. أعتقد أنّها ستغلق، حتّى نهاية الأسبوع على الأقلّ».

أهرس البطاطس بزيت الزيتون وأضعها على الطاولة مع بعض الزيتون وحبوب الكبر والمسطردة. ونجلس لتناول الطعام.

«كيف الحياة إذن على كلّ حال؟». أسأله.

«الحَيَاةُ خَرَاءٌ. لا نقود، وفرة من الفئران، لكنّي استعدت نوبات عملي بعد الظهر ثانيةً».

«رائع». أقول. «وماذا حدث لـ... ما اسمها؟»

منذ عدّة أشهر ظهرت طفلة موهوبة واستولت على بعض نوبات وولفجانج. لا بدّ أنّ ما حدث كان، بالنسبة لها، أمرًا رائعًا: فتاة في سنّ المراهقة تأتيها فرصة عمرها لعزف البيانو على الملأ. لكنّه بالنسبة لوولفجانج كان يعني عجزه عن دفع إيجار شقّته وبقيّة فواتيره، فتوقّف عن دفع فواتيره.

«حادثة مُهر».

أبتسم بينما يروي التفاصيل. لا أصغي له حقًّا، أفكّر في الكتاب.

«أوه... وولف». أقول حين نفرغ من تناول الطعام.

«ماذا؟».

«هل تؤمن باللعنات؟».

ينظر لي برأس مائل قليلًا: «لعنات؟ من أيّ نوع؟».

«كأن يكون شيءٌ ما مصحوبًا بلعنة. هل يمكن لشيء أن تصحبه لعنة؟».

«أمرٌ مثير»، يقول. «يمكنك الزعم بأنّ كلّ شيء عليه اللعنة».

كنت أعرف أنّه سيتلقّى السؤال من تلك الزاوية. «نعم، لكن...».

يصبّ براندي آخر وأنهض أنا لأعدّ بعض القهوة.

«أو قد تسألين لماذا توجد اللعنات أساسًا، ما الغرض منها؟ أنا نفسي تساءلت عن هذا لوقت طويل حين شاهدت فاجنر[1] أول مرّة مع كاترين».

لوولفجانج صاحبة ترغب في «تحسين ذوقه» بأخذه للأوبرا.

«أعتقد أنّ علينا أن نبدأ بتعريف اللعنة». أقول. «هل هي كلمة أم شيء؟».

يتبرّم وولفجانج، لقد شبع من محادثات خضناها من قبل، بدأت بهذه الطريقة وغالبًا ما انتهت لجدل حول دريدا وفلسفة الاختلاف.

« توقّفي أرجوكِ، لا تبدئي تعذيبي بتفكيكيّتك الفرنسية هذه. فقط تظاهري للحظة أنّ هناك ما يُسمّى لعنة وأنّها توجد وأنّها شيء. من أين تأتي؟ هذا ما نريد أن نفكّر فيه».

«حقًّا؟»

«نعم. هل هي سِحرٌ أم نبوءة تتحقّق لأنّكِ تجعلينها تتحقّق؟ أم أنّها ليست أكثر من مجرّد طريقة لتفسير الأمور السيّئة التي تحدث لنا والتي في حقيقة الأمر تحدث عشوائيًّا. سؤالي هو: لماذا أُعاني من غزو فئران؟ هل صبّ عليّ أحدهم لعنةً ما؟ أم أنّي فقط تركت طعامًا كثيرًا خارج الثلاجة ممّا أغرى الفئران؟ أم أنّ الحياة بسيطة لدرجة أنّ ثمّة فئرانًا؟».

أُشعل سيجارة وأقول. «وجدت ثلاثًا اليوم».

«ثلاث ماذا؟ ثلاث لعنات؟».

أضحك. «لا. وإلّا كان ذلك نحسًا مقيمًا. لا. ثلاثة فئران».

«وأين وضعتِها؟ ليس في المدخل مرّة أخرى؟»

«لا. بالخارج. بباحة لويجي».

---

(1) ريتشارد فاجنر (1813-1881): مؤلّف موسيقي، وكاتب مسرحي، ألماني.

يبدأ وولف بالتحدّث مجدّدًا عن جلب قطّة. بعد دقائق قليلة يصفّر إبريق القهوة وأصبّها.

«على كلّ حال». يقول ويزفر ببطء بينما أضع كوب القهوة أمامه. «سؤالي في هذا الشأن هو: هل توجد اللّعنات إن كنّا لا نؤمن بها؟»

أضحك. «وكيف يختلف هذا عمّا كنت أقوله؟»

«بأنّه أبسط».

«ليس إن أمعنت الفكر فيه».

يبدأ وولف في التحدُّث عن لعنات الفودو وكيف أنّها تعمل فقط على مَن يؤمنون بها، بينما أتخيّل أنا شيئًا ما مثل شريط موبيوس[1]، هذا الشريط الذي تحصل عليه إذا ما لصقت نهايتي شريط ورقي طويل بعد أن تجعل فيه التواءً واحدًا. بإمكانك أن تسير على أحد جانبيه بسعادة إلى الأبد دون أن تدري أنّك، بطريقة ما غريبة، ظللت تتنقل «من جانب لآخر» بينما لم يزل يبدو لك مسطّحًا، وهكذا قد يبدو عالمك مسطّحًا، وتظلّ تسير فيه إلى ما لا نهاية دون أن تدري أنّك ظللت تعود للبداية لتبدأ من جديد. حتّى مع الالتواء لم تكن لتدرك. قد يتغيّر واقعك كلّه بينما كلّ ما يعنيك أنّك تسير على أرض مسطّحة. إذا كان شريط موبيوس هذا بعدًا مكانيًّا، فسينقلب جسدك كلّه حين تنتقل للجانب الآخر من الالتواء ويصير قلبك في الجانب الأيمن من جسدك لفترة إلى أن تكتمل الدائرة مرّة أخرى. عرفت هذا من إحدى محاضرات الفيزياء التي حمّلتها على الآيبود iPod. فصنعت لنفسي في أعياد الميلاد سلاسل ورقية كانت كلّها أشرطة موبيوس، وقرّرت أن أبقى وحدي في البيت طيلة اليوم أقرأ وأشرب النبيذ، ثم عرّج عليّ وولف بكعكة بودنج برقوق ضخمة وسطحها غير مستوٍ وقضينا بقيّة اليوم معًا.

«ماذا لو لم يكن البشر هم من يُنزلون اللعنات؟». أقول.

---

(1) Mobius strip: سُمّي باسم عالم الرياضيّات الألماني أوجست فرديناند موبيوس (1790-1868).

«ها»، يقول وولف. «أتظنين أنّ الآلهة هم من يُنزلون اللعنات؟»

«لا. بالطبع لا. هذه فرضية. هل يمكن خلق شيء ما في اللغة بشكل منفصل عن مستخدميها؟ هل يمكن أن تصير اللغة نظامًا يتوالد ذاتيًّا...». أنا ثملِة، أنتبه لذلك فجأة فأخرس. لكنّي أتساءل لثانية حول تلك الفكرة. أن ينشأ شيءٌ ما في اللغة ـ عرضًا أو بالخطأ ربّما ـ فيضطر مستخدمو اللغة للتعامل مع تداعيات هذه الكلمة الجديدة بوصفها جزءًا من نظام المعنى الخاصّ بهم. أذكر أنّي منذ وقت استمعت في الإذاعة لبرنامج وثائقي كان يقول إنّ مسألة الكأس المقدّسة هذه برمّتها مجرّد خطأ لغويّ: كلمة في نصٍّ فرنسي قديم استخدمت بشكل خاطئ.

نجلس صامتين لفترة ويمرّ قطار بالخارج، ثم أشرع في تنظيف الصحون بينما يفرغ وولفجانج من قهوته.

«على كلٍّ، لم تقل نعم أم لا».

«نعم أم لا ماذا؟»

«هل تؤمن باللعنات فعلًا أو في وجود أشياء تصحبها لعنة؟»

«ليس مهمًّا هل على شيء لعنة أم لا». يقول. «المهمّ لماذا اللّعنة وما هي. دعيني أغسل الصحون».

«لا بأس».

ينهض ويقف أمام الحوض ويسكب تقريبًا نصف زجاجة الصابون السائل على الأطباق ثم يفتح صنبور الماء الساخن ويتمتم بِسِباب لأنّ الماء لا يبلغ أبدًا درجة الحرارة التي يريدها، في النهاية يغلي ما في الغلّاية من ماء ويسكبه على الأطباق. أفكّر هل أُريه *نهاية السيّد واي* أم لا. أقرّر نهاية الأمر أن لا. يرمقني وهو ينصرف بنظرة من عينين كأنّهما صُنعتا من كهرباء ويقول: «أنتِ تخفين شيئًا ما أليس كذلك؟ شيء ما تظنين أنّ عليه لعنة».

«لا أعرف»، أجيبه. «ربّما لا. لعلّي مضطربة قليلًا من أحداث اليوم، انهيار الجامعة وهذا البرد والكثير من البراندي اللعين و...».

«أريني إيّاه متى شئتِ»، يقول. «لن تسوء حياتي أكثر من هذا على كلّ حال، لا تقلقي على سلامتي».

«شكرًا». أقول. لكن... خراء. ماذا دهاني؟ سلامته آخر ما كنت أفكّر فيه. أردت فقط أن أحتفظ بالكتاب لنفسي، وللحقّ لم أخبره به لئلّا يسرقه. آوي للنوم بِرِيقٍ جافّ و*نهاية السيِّد واي* تحت وسادتي الخالية، ما زلت أتساءل بعد كلّ هذا هل توجد لعنات؟.

أربعة

أحيانًا أستيقظ من نومي بإحباط ثقيل يكاد يمنعني من التنفّس. عادةً لا يكون له سبب واضح، لكنّني أُرجعه لمزيج من طفولة بائسة وأحلام سيئة (الاثنان ينطبقان بصورة جيّدة). أغلب الأحيان يكون بمقدوري نفض هذا الإحباط عنّي سريعًا، فلمْ يتبقّ لديّ الكثير لأحبط بشأنه على كلّ حال. وماذا في أنّي لم أحظَ بأيّ من الوظائف في دور النشر التي تقدّمت لها بعد تخرّجي، من يهمّه هذا؟ كان ذلك منذ عشر سنوات وأنا الآن راضية بعمود المجلّة مع ذلك. ولا يعنيني حقًّا أنّ والدتي هجرتنا لتهرب مع عُصبة مجانين، وأنّ والدي يقيم في دار مسنّين بالشمال، أو أنّ شقيقتي لم تعد ترسل لي بطاقات معايدة في أعياد الميلاد. وماذا يعنيني في أنّ كلّ رفاق السكن السابقين تزوّجوا وبقيت وحدي، أحبّ أن أكون وحدي ـ تلك ليست مشكلة ـ فقط لم أستطع أن أبقى في منزل هاكني الكبير الذي بدا كأنّه ينجب غرفات خالية كأكوان صغيرة حديثة الولادة. مجيئي هنا لا يعني سوى أنّني لا أزال قادرة على البقاء وحدي وقراءة كتبي. بالكاد يوجد شيء يُحزنني أو يُحبطني.

يروق لي أحيانًا أن أفكّر أنّي أعيش مع أشباح. ليست أشباحًا من الماضي ـ لا أؤمن بأشباح من هذا النوع ـ إنّما نثرات ناعمة من أفكار وكتب تطفو في الجوّ كدمى حريرية. يُهيّأ لي أحيانًا أنّي أرى أفكاري أنا أيضًا تحلّق حولي،

لكنّها في العادة لا تبقى طويلًا. مثل ذبابات مايو[1]، تولد كبيرة ولامعة، وتحلّق في الهواء تئزُّ كالمجنونة ثم تسقط ميتةً على الأرض بعد أربع وعشرين ساعة تقريبًا. لا مانع لديّ من موتها إذ لست واثقة أنّي فكّرت في شيء أصيل على كلّ حالٍ. أجد عادةً أنّ دريدا قد فكّر في كلّ شيء بالفعل أيًّا كان، قول يبدو مهيبًا للغاية، لكنّ دريدا في الحقيقة ليس بتلك الصعوبة، إنّما فقط لكتاباته كثافة. والآن هو أيضًا شبح. أو لعلّه كان كذلك دائمًا... لم أقابله قطّ، فكيف أكون متيقّنة من أنّه كان حقيقيًّا؟ بعض أعز من أعيش معهم أشباح لعلماء من القرن التاسع عشر. كان أغلبهم مخطئين بالطبع، لكن مَن يعنيه هذا؟ ليست نهاية التاريخ. نحن جميعًا مخطئون.

أحيانًا أقوم بتجربتي الفكرية الخاصّة التي تسير كالتالي: ماذا لو كان الجميع على حقّ؟ أرسطو وأفلاطون، داود وجالوت، هوبز ولوكي[2]، هتلر وغاندي، توم وجيري. هل يُعقل هذا؟ ثم أفكّر في أمّي وأقول لا. ليس الجميع على حقّ. بإعادة صياغة لما قاله الفيزيائي وولفجانج باولي[3]، إنّها حتّى لم تكن مخطئة. لعلّ هذه هي النقطة التي يقف عندها المجتمع البشري الآن على أعتاب القرن الحادي والعشرين: ليس حتّى مخطئًا. جماعة القرن التاسع عشر كانت برمّتها مخطئة، لكنّنا بطريقة ما نقوم بما هو أسوأ. نعيش بمبدأ الشكّ ونظريّات تفتقر لبراهين وفلاسفة يزعمون أنّ العالم محاكاة... نسخة بلا أصل. نعيش في عالم حيث لا شيء قد يكون حقيقيًّا؛ عالم من أنظمة مغلقة وجسيمات لا حصر لها قد تفعل ما يحلو لك (لكنّها غالبًا ما لا تفعل شيئًا).

لعلّنا جميعًا مثل والدتي. لا أحبّ التفكير فيها أو في طفولتي كثيرًا، لكن

---

(1) ذبابة قصيرة العمر.

(2) المقصود الفيلسوفان السياسيّان الإنجليزيّان توماس هوبز (1588-1679)، الذي نادى بالسلطة المطلقة، وجون لوك (1632-1704)، المعروف بأبي الليبرالية.

(3) Wolfgang Pauli (1900-1958) عالم نمساوي حائز على جائزة نوبل للفيزياء عام 1954 أسهم كثيرًا في تطوّر نظريّات ميكانيكا الكمّ.

يجوز تلخيصها سريعًا على نحو لائق. كنّا نعيش في مساكن بلدية حيث يُنظر للقراءة بقرف شديد باعتبارها مزيجًا من الكسل والغطرسة، وكنّا أنا ووالدتي فقط - على حدّ علمي - من نملك بطاقات اشتراك في المكتبة. وبينما كان الأطفال الآخرون يمارسون الجنس معًا (منذ سنّ 8 سنوات تقريبًا) كان الكبار يثملون ويقامرون ويربّون كلابًا متوحّشة وقططًا جربى، ويفكّرون كيف يصبحون أغنياء ومشاهير. كانت والدتي من حين لآخر تأخذني للمكتبة وتتركني في قسم الأطفال بينما تبحث عن معنى للحياة في كتب الفلك والشفاء بالإيمان والتخاطر. لعلّي لولاها لم أكن لأدري بوجود شيء يسمّى مكتبات أصلًا. الشيء الجيّد الوحيد الذي فعلته لي. دأبت على أن تجلس ليلًا بجلبابها الوردي في الطابق الأسفل تنتظر المخلوقات الفضائية، بينما يأخذني والدي للمتنزّه ليلتقط لي صورًا وأنا أرفع المقاعد الحديدية وأكتب على جدران محطّة المترو ليرسل تلك الصور للجريدة المحلّية كدليل على خسارة البلدية للمعركة مع مثيري الشغب. أبي الذي لم تتجاوز يقظته نسبة الخمسين بالمئة في أفضل الأحوال، كان يشتري لي سيّارات لعبة وملصقات صور لاعبي كرة القدم، وكان يرى كلّ شيء مؤامرة حبكتها الحكومة. بينما أمّي ترى أنّ المؤامرة تأتي من مستوى أعلى. ربّياني على أن أعتبر كلّ من يخبرني بشيءٍ كاذبًا. ثم تكشّف أنّهما أيضًا كاذبان.

ليس الأمر أنّني لم أستمتع باللعب مع الأطفال الآخرين، بل كنت ألعب «دجاجات» على الطريق الرئيسي، وكنت مع الأطفال الآخرين نسرق درّاجات أولاد الناس، ونُشعل النيران في الأشياء، وكنت أترك الصبيان الذين هم أكبر سنًا منّي يتحسّسونني مقابل 50 سنتًا في المرّة. اغتنيت جدًّا من هذه الأموال حتّى صرت قادرة على شراء درّاجة خاصّة بي لم يكن عليّ أن أعيدها أو ألقيها في النهر. بعد ذلك تركت الجنس وكنت يوميًّا أقود درّاجتي للمكتبة. حدث حينها أن أُصبت بعادة حفلات القراءة الصاخبة، وهو ما يحدث حين تقضي ساعات يوميًّا وأنت محاطٌ بكتب أكثر من قدرتك على القراءة، فتبدأ بكتاب، ثم تلهيك فكرة أنّ بإمكانك بنفس القدر أن تبدأ في قراءة كتاب آخر، وبانتهاء اليوم تكون قد تصفّحت كتابين وبدأت

في أربعة وقرأت حوالَي سبع نهايات. يمكنك تلمّس مسار قراءتك هكذا في المكتبة دون أن تختار أيّ كتاب حقًّا. لكنّني أنهيت روايات بالفعل، إنّما لم أكن من هؤلاء الصغار الذين يقرءون تولستوي. كنت أقرأ كتب الكبار تلك التي لا يسمحون للمشتركين باستعارتها.

بدءوا في المدرسة الإعدادية بالرثاء لحالي بسبب زيي المدرسي المستعمل وشعري الغريب، لكن (والفضل لماما وبابا) لم يكن مسموحًا لي بحضور الطابور ولم أكن أصدّق شيئًا قطّ ممّا كانوا يدرّسونه لي، الأمر الذي ميّزني كإحدى الحالات «الصعبة». كان عليّ أيضًا منذ بلغت الثالثة عشرة أن أغسل ملابسي بنفسي، ولم أكن عادةً لأعير اهتمامًا لهذا، كذلك لم يكن الأطفال الآخرون ليعيروا اهتمامًا لياقات قمصاني القذرة أو لتنورتي القصيرة جدًّا التي لم تمسسها المكواة لأسابيع، لكنّ المدرسين كانوا من حين لآخر يأخذونني لأحد الأركان ليقولوا لي شيئًا مثل «ربّما يمكنك أن تخبري والدتك أنّ الزيَّ المدرسيّ لا بدّ أن...» والدتي؟ يمكنكم أنتم أن تتواصلوا معها، نظريًّا، وفقط إن كان لديكم راديو لاسلكي، واستطعتم إقناعها بأنّكم مخلوقات فضائية.

وهكذا قمت بما هو متوقّع وفررت للجامعة بأسرع ما أمكنني، لكنّني لم أستطع أن أقم حتّى بهذا على نحو لائق. ظنّي أنّ أُخرى غيري كانت لترقد على الكنبة لتقرأ جين آير وتنشج من حين لآخر في المنديل بهدوء وهي تفكّر في البقع الآثمة بحياتها. لكنّي قدت سيارة بلا رخصةٍ على طريق الإم فور إلى أكسفورد، وتوقّفت على الطريق لأقضي نهاية الأسبوع في علاقة ساخنة قصيرة مع سائق درّاجة نارية، وأدقّ وشمًا، واستبدل سِنّي المكسورة بأُخرى فضّية.

أجلس في الفراش بهدوء وأشعر بالإحباط يتساقط عنّي كقطرات الماء بعد حمّام مطر. لدي مُنبّه صنع قهوة قديم حصلت عليه من تخفيضات للبواقي، هكذا يمكنني أن أبقى في الفراش أرشف قهوة سادة ثقيلة إلى أن تنقشع غيمة النوم ودوار البراندي ببطء. من العدل القول بأنّني أكره

النهارات، أكره أمانة النهار، ذلك الوقت قبل أن يشعل وعيك أضواءه ويتخلّص من مختلف الظلال البغيضة. أع. لكنّ قهوتي لا بأس بها.

نهاية السيّد واي. أخرجها من تحت الوسادة وأبدأ القراءة ببطء من بداية السرد الرئيسي. أقرأ السطر الأول عدّة مرات: «في النهاية سأصير لا أحد لكنّي في البداية كنت أُعرّف بالسيّد واي» ثم أواصل القراءة. تبدأ القصّة بالبطل، سيّد محترم صاحب متجر ملابس جاهزة، في طريقه بالقطار إلى نوتنجهام ليقضي مصلحة له هناك في الصباح التالي. يلاحظ ما إن يصل إلى البلدة أنّ معرض الأوزة السنوي[1] يستولي عليها، وفي الصباح التالي يذهب بعد قضاء مصلحته لجولة في المعرض.

كان رذاذ متواصل عالقًا أعلى البلدة كأنّها تختنق بوشاح مبلّل برفق. ولمّا لم يكن لي سابق خبرة بشيء مثل معرض الأوزة ذاك، وأردت مع ذلك أن أجنّب نفسي ما كنت متيقّنًا من أنّه سيضحى أكثر سبل الترفيه شيطانيةً، فقد قرّرت بدلًا من الذهاب أن أجد مقهى محترمًا لأحتسي فيه الشاي. لكنّني سرعان ما وجدت نفسي، مع ذلك، مجذوبًا للمعرض كأنّما بالتنويم المغناطيسي. كان مؤلّفًا من عروض جانبية ومرابط لمعارض حرفية عديدة، وامتدّ بما تحفّه من عربات مهترئة محمّلة بقدر كبير من مروّضي الحيوانات والعارضين وأصحاب العروض مقابل بيني[2] إلى حافّة ميدان السوق. أحسست ما إن دلفته أنّني بطريقة ما دلفت عالمًا آخر أكثر دفئًا بشكل ملحوظ وأكثر جفافًا بلا شك ـ بمختلف المرابط والخيام التي تغطّيه ـ عن ذلك العالم الذي غادرته لتوّي. أشار لي أصبع الفضول الخبيث لأمضي في هذا العالم قدمًا. تخبرني ورقة مكتوبة بخطّ اليد ومعلّقة على عمود في مهبّ النسيم عن عرض وحوش وومبويل مؤكّدة أنّه العرض المفضّل لدى الملكة. جذبت نظري ملصقات مبهرجة أخرى لعروض أخرى شبيهة مثل الفتاة الغريبة، وساحر الثعابين الهندي، والحصان الناطق الرائع، والراقص مع الحيّة على كرة دوّارة بتأثيرات ضوئية ليمونية وعرض براغيث بروفيسور إنجلاند الذي يتضمّن «البدعة الجديدة والأصلية تمامًا»: جنازة البرغوث.

---

(1) معرِض ترفيهٍ شهير، ينعقد بنوتنجهام سنويًا في الأسبوع الأول من أكتوبر منذ أكثر من سبعمئة سنة.

(2) البيني ما يعادل القرش في الجنيه الإنجليزي.

كان النسيم يقلّ شيئًا فشيئًا كلّما توغّلت في المعرض، وبدا أنّ الهواء يزداد قتامة وكثافة بالرغم من مصابيح النفط التي أُشعلت لتوّها وعُلّقت على مداخل الخيام والأكشاك المختلفة. أكدت لي نظرة لأعلى قرب وصول الغيمة الأكثر ثقلًا والتي لم أرَ لها مثيلًا من قبل. أخذت أملًا في النجاة من هذا البلل الشامل المتحتم، أبحث عن ترفيه تحت غطاء، وجدت سريعًا معرضَ تماثيل شمعية يقف خارجه أشخاص لهم جميعًا البشرة الأكثر شحوبًا ممّا لم أرَ له مثيلًا من قبل، ما كان وحده منفّرًا بما يكفي، كذلك كان عرض «الهيكل العظمي الحي» خلفهم، فسرت ناحية خيمة يوجد بها، كما وعدتني شابّة صغيرة وأنا أمرّ بها، عرض عرائس رفيع الجودة. كانت تعزف على أرغن، شيء ما قديم وبالٍ ينبعث منه أزيز مروّع للغاية. علمت أنّ العرض التالي على وشك أن يبدأ، لذلك، وغالبًا على سبيل الشفقة بالفتاة، دفعت البيني ودخلت.

تكشّف العرض عن مشاهد وعظية ضحلة لاثنين من القرويين المأفونين علقا في طريقهما للمدينة بحمار لا يريد أن يتحرّك، فيظهر لهما الشيطان ويعرض مساعدته. ولا داعي للقول بأنّ القصّة لم تنتهِ نهاية جيّدة. كانت خيمة العرض من قماش الكانافا وبها خشبة مسرح صغيرة لها مظهر نَتِن نوعًا ما، مؤلّفة كما بدا لي من صناديق شحن مكسوّة بقطعتين من المخمل الأسود المهترئ. غمرني المكان المغلق على الفور بمزيج روائحه الغريب من سعوط قديم، وتبغ، ودبس السكر، ولبن حامض ودهانات الشعر، وسررت حين بلغ العرض نهايته.

غادرت عرض العرائس لأجد غيمة المطر، كما تخوّفت، تصبّ جام حملها بغزارة تنذر بالشؤم. ألفيتني في نضالي لأبقى جافًّا وسط زحام تجمع تحت ظلّة بيضاء يسار خيمة عرض العرائس، كان رجل ينادي على لعبة تسمّى «اختر قشّة». لديه كما يزعم عدّة أظرف تحوي جميعها سرًّا عظيم الشأن لا تسمح له السلطات ببيعه، فبدلًا من ذلك، كان يبيع - على نحو قانوني تمامًا كما أكّد - قشًّا بأطوال مختلفة، ومن يختر قشّة طويلة يفز بأحد الأظرف، وسيّئ الحظّ الذي يختار قشّة قصيرة لا يفوز بشيء. كانت القشّة مقابل بيني، رأيت عددًا من الرجال وسيّدة يقتربون منه، كانت السيّدة وسيّدان آخران هم أصحاب القشّات الأطول فتسلّم كلٌّ منهم ظرفه. تعلّقت بهم العيون وهم يفضّون الأظرف ويخرجون منها قصاصات الورق وبعد الحملقة قليلًا في محتواها يأتون بتعبيرات دهشة. لم تكن تلك الحيلة القديمة لتنطوي عليّ،

وسررت حين تأكّدت لي شكوكي بنظرة أكثر تفحُّصًا للسيّدة. إذ بدا من الوحل العالق بحذائها والتهابات يديها وخشونتهما أنّها إمّا خادمة أو إحدى فتيات المعرض. وعلى الفور رجّحت غمزة عين من شريكها التخمين الأخير.

حين أبعدت نظري عن هذا المشهد، لفتني إعلان أكثر جاذبية معلّق خارج خيمة كبيرة عمّا يسمّى أوبرا بصرية بطولة شبح بيبر[1] وسبيكترسكوب جوميرتز[2] وتحت رعاية سموّ الملكة. كان عرض أشباح من ذلك النوع الذي سمعت السادة في النادي يتحدّثون عنه دون أن يسبق لي مشاهدته قطّ. غامرت وخرجت من تحت الظلّة محنيًا رأسي تحت زخّات المطر ومتجهًا للخيمة التي، بعد صعود عدّة درجات، دلفت إليها.

كانت أماكن جلوس الجمهور المرتجلة نصفها مشغول، وما أن وقفت عند الدكّة الخشبية الجامدة حتّى خفتت الأضواء، بعدها بوقت قصير دقّ إنذار بداية العرض بأغرب وأكثر الأنغام نشازًا وشبحية على الإطلاق، ذكرني الصوت بصندوق موسيقى من طفولتي، أداة صغيرة فضّية غريبة الشكل، كانت إحدى إخوتي تستخدمها أساسًا كأرغن كنسي في الجنازات الباذخة التي كانت تقيمها للدمى المكسورة والفئران الميتة. سرعان ما التقط بصري، ولم أزل مأخوذًا بتلك الموسيقى الرهيبة، مشهدًا مربكًا حقًّا، حيث ظهر على المسرح بالفعل وبإتقان علميّ أشباح شفّافة، ثلاثة، كلّ واحد منها بطول وعرض رجل حيّ لكن بلحم شاحب ورهيف كالهندباء البرية. في بادئ الأمر كنت نصف متيقّن أنّهم ممثّلون في ثياب لؤلؤية خاصّة، إذ كانوا بهيئة البشر، لم يرتعشوا كالدمى المتحرّكة. بدوا كأنّهم يطفون على خشبة المسرح حقًّا دون أن تلمس أقدامهم الأرض قطّ. ثم، وإذ فجأةً، قام ممثّل عادي وأسرع الخُطى على خشبة المسرح نحو أقرب شبح له ورشق السيف فيه دون أدنى مقاومة من الأخير

(1) Pepper's Ghost: تكنيك بصري، يستخدم على المسرح وفي بعض الخدع السحرية، باستخدام ألواح زجاجية وتكنيكات إضاءة خاصّة، تجعل الأشياء أو الأشخاص تبدو كأنّها تظهر وتختفي أو يتداخل بعضها في بعض.

(2) Spectrescope: أداة سحرية، تستخدم في الكشف عن بقايا الأطياف التي تخلّفها الأشباح، وتبدو مثل نظّارات ضخمة مع عدسات خضراء داكنة ملحقة بغطاء رأس جلدي ورباط أسود مرن.

ودون أن تسيل منه نقطة دم واحدة. أعترف أنّني، وكذلك الآخرين من الجمهور، صدرت عنّا شهقة رعب عفوية إذ ينفذ السيف في جسد الشبح الهشّ المسكين. لا بدّ أنّ المنطق حينئذٍ قد تخلّى عنّي تمامًا. لا حرج إذن أن أقرّ أنّني تلكّأت قليلًا في الخيمة بعد انتهاء العرض على أمل أن أجد تفسيرًا لتلك الخدعة. لم أكن وقتها أؤمن بالأشباح، ولم يكن لديّ أدنى شكٌ في أنّ العلم والمنطق خلف هذه الحيلة، وقد خاب ظنّي إذ لم أستطع حلّ اللغز وحدي.

في وقت قصير صرت وحيدًا في الخيمة مع رجل نحيل سار نحوي ببطء وأشار لخشبة المسرح قائلًا: «عرض محيّر حقًّا».

«حقًّا». وافقته.

«أعتقد أنّك تبحث عن تفسير له».

«أجل»، قلت.

صمت الرجل برهة كما لو كان يقوم بحساباته.

«سأريك مقابل شلنين».

وجدتني، قبل حتّى أن يتسنّى لي أن أعترض على الثمن، أتبعه نحو خشبة المسرح. ظننت أول الأمر أنّه سيريني آليّات الخدعة ويشرحها على نحوٍ ما: بوضوح وبساطة. لكنّه بدلًا من هذا قادني عبر باب من الكانافا إلى حجرة صغيرة من الكانافا أيضًا، بداخلها طاولة صغيرة عليها خزانة أدوية ومصباح ضخم هو لم أرَ له مثيلًا في السوقيّة من قبل. بدت قاعدته الخزفية كأنّها تجمع بين درجات الأحمر المبرقشة لتجلّطات جرح قديم مرسوم عليها ورود صفراء عليلة من نوع لم تعرفه الطبيعة بالتأكيد، وتتدلّى من حافّة كُمّته الخزفية كريات زجاجية يبدو أنّ الغرض منها كسر أشعّة الضوء كما في الثريّا، لكنّها في واقع الأمر لم تؤثّر سوى بإلقاء ظلال شبحية متناثرة على خلفية الحجرة الصغيرة. كان خلف الطاولة لوح خشبي بدا كأنّه نعشٌ مغلق، لكنّه يُستخدم كفراشٍ على ما بدا لي.

«لا أظنّ أنّي تعرّفت على اسمك». قلت.

«لك أن تدعوني طبيب المعرض». قال. ثم أردف «وأنت؟»

جعلني أسلوبُه أحجم عن تعريفه بنفسي كما ينبغي؛ فاقترحت عليه ببساطة أن يدعوني بالسيِّد واي.

تملّكني، فجأة، شعور غريب بأنّ الجميع قد عادوا لمنازلهم ولم يبقَ في المعرض أحد غيري. كان بإمكاني سماع زخّات المطر تطرق سقف الخيمة، أظنّ أنّي لم أسمع شيئًا آخر بالخارج: لا ضحكات ولا أصوات، حتّى طنين الأرغن الجهنميّ كنت سأحبّذ سماعه. تملّكني، فجأة، أيضًا، الغيظ من ذلك الطبيب والشكّ فيه، لكنّي مع ذلك فعلت كما طلب مني حين أشار لي أن أجلس على اللوح الخشبي.

«تودّ أن تعرف حقيقة الخدعة التي شاهدتها لتوّك». قال. «بوسعي أن أريك إيّاها وزيادة. لكن...»، وهنا تعثّر. «لكن قد لا يكون لديك البنية التي تتحمّل السرَّ الذي سأكشفه لك الآن. قد لا...».

«لديّ شلنان»، قلت له باقتضاب، وأخرجت النقود. «الآن كن عند كلمتك».

فتح الطبيب خزانة الأدوية وسحب منها قارورة فيها سائل شفّاف، صبَّ منها معيارًا صغيرًا في كأس أعطانيه بيدٍ، وأشار لي بيده الأخرى أن أنتظر وسحب شيئًا آخر من خزانته: بطاقة بيضاء في منتصفها دائرة سوداء. ثم طلب منّي أن أشرب السائل وأستلقي على اللوح الخشبي ثم أحدّق في البطاقة وأحملق بكلّ تركيزي في الدائرة السوداء. وبينما أنفّذ ما قاله تساءلت في نفسي عن نوع الخدعة التي أخضع لها، لعلّه التنويم المغناطيسي في أكثر صوره فظاظةً. لم أشكّ للحظة أنّ الشراب سيكون له أيُّ أثر عليّ، كما ولم أدرك أن تناولي إيّاه سيزلزل ما تبقّى من حياتي كلّه.

أُنهي الفصل الأول من *نهاية السيِّد واي* حوالي الحادية عشرة. تختلس شمس الشتاء النظر بوداعة من خلف الستائر الرقيقة فأقرّر أن أنهض. الجوّ بارد بشدّة. ألتقط سروالي الجينز من على الأرض وأستبدل به سروال المنامة بسرعة، ثم أرتدي أي سترة. أشعر فجأة إذ أقفز الدرجات الأسمنتية لأجلب البريد أني نسيت شيئًا ما. هل نسيت المفاتيح بالداخل ثانيةً؟ لا، ليس المفاتيح، مفاتيحي في يدي، أجد إعلانات التوصيل للمنازل وسيارات الأجرة فلا آخذ أيًا منها وأعود لأعلى. ماذا عساي نسيت؟

عصيدة وقهوة. يوم كامل من القراءة أمامي. ثمة أسوأ من هذا. يراودني

بالفعل النعاس الذي يراودني عادةً حين أقرأ كتابًا جيّدًا: كأنّي أريد أن أتمرّغ مع الكتاب في الفراش وأنسى العالم الحقيقي. عند نقطة ما سيكون عليَّ محاولة تدبير عيش الأسابيع الثلاثة القادمة بخمسة جنيهات، لكن لعلّ هذا حتّى سيكون ممتعًا. أنهي فطوري، وأُبرز سيجارة من علبة سجائري الجينسنج وأشعلها. حين أصل لقمّة الاسترخاء بالفعل يصدر من حقيبتي أزيز. تليفوني المحمول المعطّل الذي لم يعد له رنين. في البداية أظنّ أنّه اتّصال فأتجاهله، لكنّ الاهتزاز يتوقّف بعد ثوانٍ قليلة فأدرك أنّها رسالة قصيرة. أذهب وأُخرج التليفون من الحقيبة، على شاشته ظرف صغير، أضغط الزرّ المفترض مجازًا أنّه يفتحها:

«أما زلتِ قادمة ليومين حيث يجب أن نلتقي».

خراء. هذا ما نسيته. باتريك. أفكّر بسرعة ثم أجيب برسالة:

«قبو الكاتدرائية. 5 مساءً».

لا أستطيع أن ألغي لأنّي ألغيت الموعد السابق بالفعل، وقد يدعوني للعشاء على كلّ حال. رسائله القصيرة ليست فصيحة برغم كونه أستاذ لغويّات، لكنّه أيضًا ذلك الشخص الذي يكتب إيميلاته بحروف صغيرة لأنّه هكذا جرت العادة. أواعده منذ ثلاثة أشهر، مارسنا الجنس خلال تلك الفترة عشرات المرّات. لكنّه جنس جيّد، حادّ، ذلك النوع الذي يتوفّر فقط مع رجل أكبر منك لا يقلقه ما إذا كنتما ستتزوجان في النهاية أم لا. جنس لحدّ ذات الجنس، وليس كعربون لشيءٍ ما يرغب أحد الطرفين في نيله مستقبلًا. متزوّج بالطبع، ولزوجته علاقاتها أيضًا، ممّا يعفيني من الشعور بالذنب إزاء علاقتنا. أفكّر أحيانًا في منطق لكلّ هذا فأدرك أنّه بالتأكيد يوجد بالخارج شبّان صغار- معادلين لي - ممّن يرغبون في جنس غير منتظم، وصحبة خالية من تعقيدات الحبّ والتزامه. هل كنت سأنام مع أحد هؤلاء الشباب إن قابلت أيًّا منهم؟ في الغالب لا. ثمّة شيءٌ ما ناعم جدًّا في الرجال الأصغر سنًا. وعلى كلٍّ فالأكبر سنًّا يعلمون كيف يفعلونها حقًّا. بخشونة، ولكن هكذا هو الأمر.

لا أظنّ أنّ سول بيرلوم متزوّج، ولعلّ من الأفضل أنّه اختفي: كنت برغم كلّ شيء أشعر نحوه بشيء ما حقًّا. لكن لا شكّ أنّه أمرٌ في غاية السوء أن تنام مع المشرف عليك، وربّما ازددت إعجابًا به أيضًا. مع ذلك كنت لأذهب معه لمنزله ليلة التقينا، قبل أن يُتاح لي الوقت للتفكير في الأمر كلّه جيّدًا. هل كان يعلم هذا؟ ربّما وجدها هو الآخر فكرة سيئة. استأذنته بعد حديثنا عن رسالة الدكتوراه وذهبت للحمّام، كنت ثملة وضللت الطريق قليلًا، لم أغب طويلًا مع ذلك، لكنّي أتذكّر ذلك الرواق المدهش، كان فراغًا أسطوانيًّا مموّهًا بالأبيض له سقف واطئ كأنّك داخل تيليسكوب عتيق: بارد ومصقول. لا بدّ أنّني قطعته ذهابًا وإيابًا ثلاث أو أربع مرّات، كنت أودّ لو كان معي كاميرا، أو ذاكرة أفضل. وحين عدت للقاعة العليا كان بيرلوم قد غادر.

في الرابعة والنصف كنت قد اغتسلت وارتديت ملابسي ثانيةً ـ بمراعاة أكبر هذه المرّة ـ وانتهيت من جرد سريع للأطعمة التي وجدتها عندي في البيت، قائمة ليست مشجّعة، تخبرني بأنّه لو كان يرضيني بالعيش على العصيدة والحساء المعلّب والنودلز، فبالإمكان ذلك لمدّة أسبوع واحد تقريبًا. هل يمكن لخمسة جنيهات إذن أن تتمطّى لتغطّي الأسبوعين الباقيين؟ قد أشتري زجاجة صلصة صويا كبيرة بحوالي 50 بنسًا من السوق وقل مثلًا 14 كيس نودلز من المنتهية صلاحيته قريبًا بـ20 بنسًا للواحد، وهكذا يتبقّى بعض الفكة يمكنني بها شراء باكو شوكولاتة مُرّة كبير. لكن ماذا عن السجائر والبنزين؟ ماذا عن القهوة؟ لا يمكنني شراء قهوة سيئة، لكنّي قطعًا أعجز عن شراء الجيّدة. بإمكاني على ما أظنّ خلال تلك الفترة أن أشرب ماء من الصنبور وبراندي. وماذا عن الخضراوات؟ كم سيطول بي الأمر قبل أن أصاب بالإسقربوط. التفكير في الإسقربوط وأعراض انسحاب النيكوتين والكافيين لا يسمح بخواطر سارّة. هل سيستحقّ الكتاب كلّ هذا؟ في الأغلب نعم. كنت سآخذ القرار نفسه مرّة أخرى على كلّ حال.

السيِّد واي، أفكّر، يبتسم. السيِّد واي.

يمرق فأر على الأرض في المطبخ وبشكل غريزي أرفع قدمي وأحضن ركبتي. قرأت القليل جدًّا عن *نهاية السيِّد واي*. اللعنة هي كلّ ما أعرفه عنها. مصادفة غريبة أن يصلني هذا الكتاب دون مساعدة آلاف السيناريوهات والدراسات ومجموعات القراءة. ماذا يقول؟ ما التجربة الفكرية التي يقدّمها لوماس؟ وماذا عن مسألة الخيال تلك؟ «بودّي ألّا يعتبر هذا العمل أكثر من خيال». أظنّ أنّي يجب أن أنهي الكتاب لأعرف معنى هذا.

مع ذلك فها قد تغبّش الخيال بالفعل. هل أنا السيِّد واي؟ هل عليَّ أن أكونه ليأتي الكتاب بفعله؟ كنت في صغري دائمًا ما أعاهد نفسي ألّا أتقمّص شخصيّات الأبطال الخيّرين، لأنّهم غالبًا ما يلاقون أشياء سيئة، أو الأنكى، أشياء كبيرة. ولم يكن بمقدوري تحمُّل الشعور بأنّ هذه الأشياء تحدث لي أنا أيضًا، لتلك النفس التي تسقطها على الخيال حين تقرأ. لذلك كنت أختار شخصية ثانوية «لأكونها» خلال فترة القراءة. تارة أموت، وتارة أتحوّل لشخصية شريرة. لكن لم يحدث قطّ أن اضطررت لتصدر خشبة المسرح. أمّا الآن وأنا أكبر سنًّا، أقرأ بتحفّظ أكبر. والآن أنا خائفة على السيِّد واي/ أنا، وأشعر أنّ السماء بالخارج، بلا شكّ، تُمطر، حتّى وإن لم تكن كذلك. كيف ستتزلزل حياتي/ حياته/ حياتنا بتناول ذاك السائل. أتذكّر الصفحة المفقودة فتكتسب، فجأة، معنى أكبر، الآن وقد تورّطت في القصّة. أرجو أن يسعني استنباط الجزء المفقود. وألّا تكون *نهاية السيِّد واي* مؤلمة للغاية، برغم شكّي في ذلك. فليس بكتب لوماس وقصصه ما يقرب لنهاية سعيدة.

أغادر المنزل حوالي الخامسة والثلث وأسلك شارع كاسل نحو الكاتدرائية[1]. يمكنك في هذه المدينة أن ترى الكاتدرائية من أي مكان

(1) المقصود كاتدرائية القدّيس بول المشيّدة على تل لودجيت، أعلى نقطة في مدينة لندن. وهي أكبر كنيسة في شمال أوروبّا. صمّمت على هيئة صليب عملاق تتوسّطه قبّة.

تقريبًا. كنت أستخدمها في التنقّل من مكان لآخر حين كنت حديثة العهد هنا. غربت الشمس تمامًا تقريبًا. ثمّة مسحة شمعية وردية باردة خلف القمم المستدقة الذهبية القاتمة. كمساء السبت الشتوي المعتاد، أمرّ بمحلّات تعلن نتائج مباريات كرة القدم، والأكاديميون الصغار بالخارج لشراء الجرائد أو شيئًا ما للعشاء. تتجمّد أنفاسي في الهواء أمامي وأفكّر في موعد فتح الجامعة لأبوابها مجدّدًا، أتذكّر التدفئة المجانية في مكتبي، والقهوة المجانية في مطبخ العاملين. حسنًا... القهوة ليست مجانية بالضبط: ينبغي أن تضع على ما أظنّ 5 بنسات تقريبًا كلّما أعددت كوب قهوة، لكنّ أغلبنا يضع جنيهًا أو اثنين كلّما تذكّر. ترى هل سيدعوني باتريك للعشاء؟ لا أرى مانعًا من هذا. عادةً أُصرّ على دفع نصف الحساب، لكنّي اليوم ببساطة، لن أُصرّ.

منذ أسبوعين فقط كانت الباحة الخارجية للكاتدرائية تعجّ بمنشدي أغاني عيد الميلاد ومتسوّقيه، لكنّها الآن خالية تمامًا، يضفي الغروب على الحصى مسحة وردية قاتمة، أسرع الخطو عليه مارّة بمدخل كنيسة المسيح، ثم أعبر فناء الحدائق وأدخل الكاتدرائية. أسلك يسار صحن الكنيسة نحو القبو لأهبط الدرج وأدلف لداخل القبو الحجري الآسر. أحبّ قبو الكاتدرائية بالرغم من (أو حتّى بسبب) ما حدث هنا[1]، له وقع الحواديت أكثر منه واقعاً حقيقيًّا. أحبّ الهمهمات الناعمة الغائرة للأشخاص القليلين الذين يتجوّلون هنا وهناك، والشمعة الوحيدة المشتعلة في معبد سيدة القبو العذراء. منذ فترة كنت تشعر أنّ كلّ شيء في لندن يتوهّج وأن ليس في مكتب الصلاة سوى ملصقات صفراء صغيرة تطالب بالسلام العالمي، وددت دائمًا أن أجيء هنا وأجلس في هدوء فقط، لكنّي دائمًا كنت أتلو الصلوات أولًا. أتذكّر مرّة تخيّلت انفجار قنبلة داخل الكاتدرائية لكنّ المكان فسيح للغاية والجدران

(1) إشارة لحريق لندن الكبير عام 1666.

صلبة جدًّا كذلك حتّى إنّ أثر القنبلة هنا لن يتعدّى أثر الألعاب النارية الصغيرة.

يقف باتريك في الجهة الشرقية من القبو فأسير تجاهه.

«مرحبًا»، يقول بهدوء، ويقبِّلني على وجنتَي.

«مرحبًا»، أجيبه بهمس.

«مكان لقاء كئيب نوعًا ما». يقول رافعًا أحد حاجبيه.

أبتسم. «أعلم. معذرة، بودّي فقط أن أشعل شمعة ثم نذهب».

أسير نحو المذبح الصغير وآخذ من صندوق أسفله شمعة في علبة صفيح صغيرة. أضع في الصندوق 40 سنتًا. لست متأكّدة حتّى من سبب إشعالي للشمعة: ليست عادتي. لا يوجد هنا نسمة هواء، لكنِّي أرى لهب شمعتي يتراقص متردّدًا لنصف دقيقة تقريبًا قبل أن يقرّر ألّا ينطفئ ويأخذ في التوهُّج متوحّدًا مع وهج الشموع الأخرى. أنظر له برهةً ثم أستدير مبتعدةً، وأنا أفكّر فيما يحدث لكلّ تلك الطاقة المنبعثة من أماكن مثل هذا المكان. كما لو كنّا بكلّ تلك الطاقة نُقرّب الربّ بأنفسنا. هل الربُّ من أفكار البشر، أم البشر من أفكار الربِّ؟! أنا متأكّدة من أنّي مررت بتلك الفكرة في بحثي، لكنّي لا أذكر أين.

خمسة

حجز باتريك في فندق بمكان ما على الطريق الدائري. نسير في المدينة حتى نصل لنفق ثم نخرج منه لنأخذ الطريق الرئيسي تجاه الفندق.

تلك مساحة لتقضية الأمسيات، لافتات النيون المعلّقة لإعلانات الوجبات السريعة، ومحلّات الفيديو، والأسواق المركزية التي تفتح أبوابها طوال الليل، والملاهي الليلية. نسجل بياناتنا بالفندق ونصعد درجًا خشبيًّا واسعًا لغرفتنا التي نجدها مهواة ونظيفة، وإن كانت رثة قليلًا بفعل الزمن. فيما يقوم باتريك بتبديل ثيابه أتأمّل نفسي في مرآة الحمام. هل على لعنة؟ لا أبدو كذلك. أبدو كمن أمسكت بنفسها على حين غرة ساهمة ومبهورة في ضوء فلورسنتي.

هل تقرأ كتابًا تصحبه لعنة إن وقع تحت يدك واحدًا؟ لو سمعت عن كتاب تصحبه لعنة في مكان ما ووجدته في مكتبة، هل تضحّي مقابله بكلّ ما لديك من نقود؟ لو سمعت عن كتاب تصحبه لعنة في مكان ما هل تبحث عنه حتّى إن كنت تعلم أنّه لم تعدّ تتوفّر منه نسخ؟ أفكّر في حديثي مع وولف بالأمس وأتساءل ما إذا كانت الحياة بسيطة لحدّ أنّ «الكتاب موجود». ذات مرّة كان يوجد كتاب. الأمر هكذا أكثر معقولية. يوجد كتاب. ثم ماذا حدث؟ يوجد كتاب، وهذا الكتاب تصحبه لعنة، واللعنة أنّك لو قرأته تموت. تلك قصّة لا بأس بها.

أخرج من الحمام لأجد باتريك في سروال جينز أزرق له مظهر باهظ

الثمن وقميص ورديّ فاتح. مظهره ليس سيئًا في الجينز، لكنّي أفضّل مظهر بيرلوم: القميص الأسود والسروال الداكن والمعطف الطويل. لكنّ بيرلوم ليس هنا، وباتريك هنا. بعد أن نقضي وقتًا في المداعبة، نذهب للعشاء ونخوض في محادثة غريبة عن شعر القرن التاسع عشر، أظلّ أثرثر عن توماس هاردي وكيف أن أفضل ما في قصيدته Hap [حظّ] هو كلمته المُختَرَعة unblooms [مقابل يتفتّح] كما في And why unblooms the best hope ever sown [ولماذا وأد أفضل بذور الآمال]، القصيدة بكاملها عبارة عن ترجّي وجود دليل على وجود ربّ منتقم ـ لما كان بالطبع لا يوجد دليل على وجود ربّ طيّب ـ لأنّ قوّة عليا، حتّى وإن كانت قاسية، تمنحنا معنى نعجز نحن بطريقة ما عن منحه لأنفسنا. يصل بنا الحوار إلى البنيوية واللغويات (تخصّص باتريك)، ثم دريدا (أحد اهتماماتي).

«كيف يمكنك قراءة دريدا»؟ يسألني باتريك في نقطة ما من الحوار.

«كيف لا يمكنك أنت؟». أقول.

فرغنا من تناول العشاء، أدرك لتوّي أنّي أشارك في الحوار كإنسان آلي يجتاز اختبار تورينج(1). ربّما يمكنني إقناع باتريك أنّي آدمية وأنّي أنصت إليه، لكنّي في الحقيقة أفكر في السيِّد واي.

«أأنتِ بخير»؟ يسأل.

«نعم»، أقول، ربّما عليّ أن أبذل جهدًا أفضل من ذلك. «هل استمعت محاضرةً لدريدا من قبل؟».

«لا».

(1) اختبار تورينج Turing test هو اختبار يجتازه الإنسان الآلي لاستعراض الذكاء، ويتمّ بأن يشارك آدمي حَكم مع إنسان آلي وآدمي آخر في محاورة طبيعية، كلّ منفردًا، ويحاول كلّ منهما أن يبدو آدميًا، ويكون كلّ من الثلاثة في موضع منعزل عن الآخر، فإن لم يستطع الحَكم التمييز بين الآدمي والإنسان الآلي، يكن الأخير قد اجتاز الاختبار. ابتكره عالم الرياضيات الإنجليزي آلان تورينج (1912-1954) عام 1950.

«يجب عليك إذن. لدي واحدة على الآيبود، يقول فيها إنّ الصلاة «ليست كطلب البيتزا». أحبّ هذا، تخيّل أن يقضي دريدا الليل كلّه بين الصلاة وطلب البيتزا ليثبت أنّ هذا شيء وذاك شيء آخر. لا أقصد أنّه قام بذلك بالفعل. بل أقصد أنّني لا أراه يصلّي أو يحاول إثبات شيء ما بالتجربة، لكنّي مع ذلك أراهن أنّه طلب بيتزا».

يتبرّم باتريك ثانيةً. «غير معقول». يقول.

«ماذا؟ أن يصلي دريدا؟».

«لا. بل أنّي سأضاجع الآن واحدة لديها آيبود».

دور كلّ منّا في الفراش في منتهى البساطة. أنا الطالبة الصغيرة الشغوف، وهو الأستاذ السادي قليلًا. لا نحيد عن ذلك كثيرًا، ولا تتجاوز ساديّته ربطي بوشاح حريريّ من حين لآخر، لكنّي أحبّ حين يملي علي ما يريدني أن أفعله.

أستيقظ في الصباح التالي فيكون باتريك قد تناول فطوره وغادر. على الطاولة المجاورة للفراش بطاقة يشكرني فيها على الليلة الرائعة ويقول إنّ ثمّة «أزمة» ما في البيت عليه أن يعتني بها. ليتني أحضرت الكتاب معي. أطلب فطورًا ضخمًا في الغرفة وأقرأ جريدة مجانية قبل أن أنهض وأستغل الماء الساخن بأقصى ما يمكن، الماء في شقّتي لا يتجاوز وصفه بأيّ حال من الأحوال «بساخن تقريبًا» بينما أحبّ الماء الذي يمكنك أن تحرق به نفسك حقًّا.

أستحمّ وأرتدي ملابسي وأعود للمدينة، أسير بين جدرانها المتهدّمة إلى شقّتي. يمتدّ الطريق الدائري على يساري والمنظر أمامي فوضى مضطربة من سيّارات ومتاجر ولافتات وأعمدة ومحطّة بنزين وعدّة أوناش من على بُعد وحانة وكوبري مشاة ملتوٍ، لوهلة يمرّ قطار، يظهر من خلف إعلان سيارات برّاق ويختفي خلف ملهى ليلي، شتّى ألوان المدينية في هذه المساحة، من جدران المدينة نفسها لأطلال القلعة الرومانية والتكتلات

السكنية القبيحة المبنية بالطوب الأحمر التي تسلّقت عليها، خلف القلعة نفق يمرّ أسفل الطريق الدائري، يمكنك إن اجتزتَه أن تسير على ضفّة النهر تجاه الطريق السريع مرورًا ببروج خزانات الغاز ومأوى لمتشرّدين يقطنون في عشش. سرت هناك ذات مرّة على سبيل استكشاف الريف المحلّي، وكانت رائحة الغاز تنبعث طوال الطريق.

حين أعود لا أجد درّاجة وولفجانج، سأكون وحدي مع الفئران إذن. أستطلع فأجد المصيدتين مليئتين، آخذهما لأسفل وأطلق سراح الفئران في الخلف بجوار صناديق قمامة لويجي. عودة مرّة أخرى للمطبخ، أعيد حشو المصيدتين بكعك قديم وأعيدهما تحت الحوض، بعدها أضع القهوة على الموقد وأرصّ أشيائي حول الكنبة: *نهاية السيِّد واي*، السجائر، مفكّرة وقلم. ما إن تصير القهوة جاهزة أتقوقع على الكنبة وأبدأ القراءة من حيث توقّفت صباح أمس.

فور أن مسّ السائل لساني انتابتني عدّة أحاسيس جديدة منها رهاب فجائي من الظلام وشعور مقبض ثقيل. كنت على يقين أول الأمر أنّ هذا كلّه ليس سوى وهم مرجعه الجوّ الميلودرامي الذي تجرَّعت فيه السائل وأنّني فقط وقعت فريسة لخيالات، لكنّني بعد برهة شعرت بقلق متزايد وما يشبه الدوار، مع ذلك ظللت مركزًا في الدائرة السوداء كما طُلب منّي، فريسة براثن الفضول ثانيةً، كنت على قناعة بأنّه لو كان طبيب المعرض هذا محتالًا كما أظنّ فلن يلحق بي أذى.

بعد عدّة دقائق من رقودي على اللوح الخشبي الجامد أحدّق في الدائرة السوداء، هالني أنْ رأيتها تتفتّت أمام عينيّ ويحلّ محلّها دائرتان أكبر منها، إحداهما ورديّة والأخرى زرقاء، بدتا كأنّهما تتمدّدان وتنقبضان بالرخوية الناعمة لقنديل بحر، فجأة شعرت كمن يستقل قطارًا يهبط منحدرًا حادًّا، أو ذلك الإحساس بالتهاوي كما في الأحلام التي تأتي المرء من حين لآخر. مع ذلك لم يكن كياني المادّي هو الذي يهوي، بل بالأحرى كياني الذهني. كان الأمر كما لو أنّ الجزء المفكّر أو العقلاني في كياني قد أوصد نهائيًا بباب ثقيل، وحلّت محلّه كوّة صغيرة ظلّت تتّسع وتتّسع إلى أن حلّت محلّ الدائرة السوداء على الورقة الصغيرة، ثم ظلّت الأخيرة تتّسع إلى

أن صارت في حجم نفق السكة الحديد، هالني أن وجدتني أتحرّك فيه بسرعة تصيب بالغثيان.

في البداية كانت الجدران على جانبي النفق سوداء كالفحم لكنّي بعد وقت ميّزت عليها رسومًا كأنّها نُقشت بالضوء، بدت في البداية كثقوب الدبابيس، أو كنجوم صغيرة في قبّة السماء ظننت أنّي لو وصّلت بينها قد تتكوّن صورة. كان ثمّة أيضًا خطوط متعرّجة مثل الرسم الكروكي لموج البحر. ثم لوهلة ظننت أنّني رأيت صورًا للأعضاء التناسلية البشرية. بعدها ظهرت أشكال متنوّعة برغم مروري بها بسرعة رهيبة لكنّني أذكر دوائر وكريات ومثلثات وأهرامات ومربّعات ومكعّبات ومستطيلات ومتوازيات مستطيلات، حتّى تلاشى كلّ هذا وصارت جدران النفق مزخرفة بما بدا أنّه هيروغليفية قديمة أقرّ بأنّي لم أستطع قراءتها، كانت صورها الصغيرة تومض مثل تجلّيات وأنا أمر بها: طيور وأقدام وعيون. بدا لي كلّ هذا كأنّه مرسومًا بالضوء.

كان قلقي يتخلّى عنّي كلّما تقدّمت في النفق، وصرت مفتونًا بالرموز الصغيرة الطافية من حولي كأنّها معروضة بفيناكيستوسكوب[1]. رأيت دوائر تنقسم بصلبان أو بخطّ واحد وأشكال أخرى كثيرة منها ما يشبه أعلامًا صغيرة وسيقان وصناديق والحروف اللاتينية g وE وr وP مقلوبة، رأيت أيضًا ما بدا أنّه حروف إنجليزية مكتوبة بخطّ طفل صغير، وكان جليًّا أنّها ليست كلّها لاتينية، وكانت مكتوبة بحالتيها الصغيرة والكبيرة، أنا متأكّد أنّني رأيت حروف الـy والـI والـz مخطوطة بالأسلوب الفرنسي، وI وo وw وx. وبعد ذلك ظهرت أيضًا حروف الـA والـB والـH والـK والـM والـN والـP والـD والـT والـV والـY والـX بحالتها الكبيرة، ثم بدأت الأبجدية اليونانية تظهر بالترتيب من ألفا، وبيتا، وجاما ودلتا مرورًا بفي وخي وبسي وأوميجا، ثم الأبجدية اللاتينية بالترتيب السليم من A حتى Z. وظلّت الهيروغليفية تظهر وتختفي هنا وهناك. كنت كلّما أتقدّم في ذلك النفق الطويل تزداد الحروف على الجدران السوداء أمام عيني حتّى طغى نورها على الظلام وتزاحمت قبالتي آلاف الحروف، عند ذاك بزغت الأرقام اللاتينية والعربية وأرقام أخرى لم

---

(1) جهاز تحريك بدائي يستخدم لتكرار الصورة على نحوٍ يوحي بالحركة، اخترعه الفيزيائي البلجيكي جوزيف بلاتو وأولاده عام 1832، يسمّى أيضًا «المنظار الدوّار».

أستطع تبيّنها لمرورها بسرعة هائلة، وكذلك معادلات حسابية تعرّفت من بينها على قانون نيوتن F=ma وغيرها[1] ممّا لم أتعرّف عليه.

شعرت حينها أنّ رحلتي أوشكت تقريبًا على بلوغ نهايتها، إذ غمر الضوء جدران النفق بطريقة أشعرتني كأنّي أتحمّم فيه، وللحظة تخيّلت بطرافة أنّي جزء من الضوء حقًّا إذ لم يعد بوسعي تمييز أيّ شيء من حولي سوى ذلك الوهج الأبيض البرّاق. أتذكّر هذا بوضوح شديد حيث قلت لنفسي وقتها: «ها قد فهمت كلّ شيء! لقد قتلني رجل العرض، وسأرى الآن كيف هو النعيم»، لم أفكّر في الجانب المقابل. بدا بعد وقت قصير أنّني صحوت داخل مشهد من الجنّة حقًّا، مع ذلك لم أجد أمامي القدّيس بيتر، بل لم أجد آخر غيري حيًّا أو غير ذلك، على مرمى البصر في هذا المرج المترامي أمامي بوداعة. كنت تحت سماء زرقاء متألّقة لكنّها، للغرابة، بلا شمس، حولي نجيل وأزهار وأشجار من النوع الذي تجده في أيّ بقعة من الريف الإنجليزي في القرن التاسع عشر. شعرت في تلك اللحظة بسكينة عميقة لم أشعر بها من قبل قطّ، كان أمرًا محببًا بعد كلّ ما مررت به من رعب في بداية الرحلة.

كم من الوقت استغرقت رحلتي؟ ليس لديّ أدنى فكرة. ظلّ شيء ما ينغز في أعماق ذهني بسِنٍ صغير لحوح، هل عليّ مهمّةٌ ما هنا؟ تذكّرت طبيب المعرض وشرابه العجيب فارتدّ لذهني الغرض من رحلتي، أنا هنا لأرى كيف يعمل شبح بيبر، وبرغم جهلي التامّ بكيفية تحقّق ذلك، شعرت كذلك أنّ رغبتي في حلّ هذا اللغز لم تكن سوى مجرّد قرصة جوع خفيفة جدًّا مقارنةً بالرغبة المتكالبة التي تنهشني الآن لحلّ اللغز الأكبر بكثير الذي صرت إليه: أين كنت وكيف أتيت؟

لحظة أن ظهرت مهمّتي في ذهني، ظهر كذلك في المرج على يميني فرس أبلق جاء ومسّ بأنفه يدي، لاحظت أنّه مُعتنًى به جيّدًا وفهمت أيضًا أن عليّ أن أركبه. لديّ بعض خبرة في ركوب الخيل ولم يكن أمامي من خيار آخر سوى أن أزجّ بقدمي في الركاب وأوازن نفسي على ظهر الحيوان وأمسك بالزمام، وكزات خفيفة بالكاد وتقدّم الفرس للأمام برفق. اعتراني مرّة أخرى الشعور بأنّي أعرف شيئًا ما لم أكن

---

(1) قانون نيوتن الأول: (يظلّ الجسم الساكن ساكنًا ما لم تؤثّر فيه قوّة لتحريكه ويظلّ الجسم المتحرّك متحرّكًا ما لم تؤثّر فيه قوّة لإيقافه).

لأعرفه، خطر لي أنّ الفرس سيأخذني حيثُ ينبغي أن أذهب وكان الإحساس من القوّة بحيث تركت الفرس يخبّ نحو حافّة ربوة صغيرة. كلّ ما يحيط بي تسوده السكينة والهدوء، شعرت أنّ بإمكاني البقاء هنا للأبد دون أن أحتاج لشيء أبدًا. مع ذلك فعليّ التزام بإتمام ما أتيت من أجله.

سرعان ما رأيت أمامي عددًا من البيوت. حين اقترب فرسي، تبيّنت بالفعل قرية صغيرة مؤلّفة من بيوت صغيرة متجمّعة أمام غابة شاسعة ومتشابكة، وفهمت أنّ عليّ أن أبحث في هذه البيوت، وهكذا ترجّلت عن فرسي وربطته خارج أول بيت، كان مكانًا صغيرًا مظلمًا، له حديقة مفرطة في النموّ من أشواك وأشجار كثيفة ومتشابكة، عرفت حتّى قبل أن أرى الاسم المعلّق على البوّابة أنّه بيت طبيب المعرض، لكنّ البيت المجاور كان أكثر وضوحًا، مطليًّا من الخارج بالأبيض، ومعلّقًا على بوّابته اسمٌ لم أتعرّفه، أخبرني شيء ما أن أعبر البوّابة ففعلت، مرّة أخرى يخبرني ذلك الشيء الذي بدا أنّه يتحدّث من داخل ذهني أنّ الباب لن يكون موصدًا، فدخلت دون أن أطرق الباب... وأنا أعرف أنّ هذا السلوك لا يُعدّ تجاوزًا حسبما جرت العادة هنا.

اعتراني حين دخلت أغربُ شعورٍ على الإطلاق. تكاد اللغة تتخلّى عنّي حين أحاول صياغته في كلمات، مع ذلك فقد يكون أقرب وصف عامّ له كالتالي: تخيّل أنّك تضع نفسك ليس في مكان شخص آخر بل بالأحرى بداخله هو نفسه. حتّى وأنا أكتب هذا يبدو الوصف رديئًا وواهنًا مقارنة بالشعور الغريب - لكنّه ليس مزعجًا على الإطلاق - بهذا النماء الذي شعرت به وأنا - أيًّا من كان «أنا» - أنمو لأكونه، كأنّني أنمو من بذرة لأصير لما كانه «هو» كأيٍّ ما كانه «هو» ويصير كلانا واحدًا. فجأة حدّست نفسي ما حدث، كخاطر غير مفهوم ومستحيل كما يبدو، لقد دخلت ذهن شخص آخر، لقد دخلت ذهن مستر ويليام هاردي الساحر وصاحب مسرح وأشباح هاردي.

لي هنا أن أؤكّد للقارئ أنّ التخاطر الذي قد يحدث بين شخص وآخر ليس بأيّ حال من الأحوال أمرًا ثانويًّا أو مبهمًا أو بلا قيمة. إذ، وعلى الرغم من أنّني ما زلت على ما أظنّ أحمل حقيبة كياني معي، إلّا أنّني ما إن دخلت ذهن هذا الرجل، تملّكني ذلك الشعور الملموس بأنّي كائن ليس في مكانه، بل على طوله. مع ذلك كلّه - لكم يثير حنقي أن أكتب تلك الكلمات - أنا الرجل الذي لا يصدّق في الأشباح والعفاريت وما يدعوه زولنر وآخرون بالبعد الرابع، ليس لديّ أدنى شكٌّ في أنّي

شاركت هذا الرجل ذهنه، كنت أفكّر فيما يفكّر فيه، وأعرف ما يعرفه، و للفترة التي قضيتها ضيفًا على كيانه، كنت ألقى ما كان يلقاه.

كان جائعًا (ولو أنّه يبدو لي أنّني «أنا» مَن قمتُ بكلّ ما سَيَلِي، لكنّي لن أربك القارئ هنا بضمير المتحدّث الفرد، أو الأسوأ منه، الجمع)؛ كان ذلك أول شعور لاقيته، بالطبع، فقد قرصني الجوع نفسه من قبل، الآن وقد سكنت في كيانه. ثم وبدون تفكير فيما كنت أفعله، عدت بذهني للوراء لأتذكّر متى كانت آخر مرّة تناولت فيها العشاء، وجدت سريعًا شيئًا ما كذكرى من صورتين شفّافتين إحداهما فوق الأخرى، هذا بالطبع لا يكفي لتوضيح ما شعرت به، لكنّ الكلمات تأبى أن تتيح لي وصفًا أدقّ. رأيت، أو شعرت بنفسي، أتناول الغداء في فندق ريجينسي، لكن في الوقت نفسه بويليام هاردي الذي فهمت أنّه يحب أن ينادي نفسه في ذهنه بويل أو حتّى ويل الصغير، كما كانت تناديه والدته، جالسًا يلتهم شطيرة لحمٍ مدخّن ملفوفة في ورقة. أجد أنا نفسي إذ أكتب هذه الكلمات صعوبة في تصديق تلك الذكرى، لكنّي على يقين أنّي تذوّقت الشطيرة السميكة الدسمة وبداخلها صلصة اللحم البنية الكثيفة الرائعة مثل اللحمة نفسها. مع ذلك كنت ما زلت، أو ما زال ويليام، أو ما زال كلانا، نشعر بالجوع. كانت شطيرة اللحم مجرّد ذكرى وويل الصغير يرغب في تناول عشائه.

كان على ويل الصغير أن يعبّئ وهم أشباحه قبل العشاء. سيرحل المعرض في الصباح التالي وينبغي أن يتمّ تفكيك كلّ شيء وإيداعه بحرصٍ في عربة كبيرة. شعر ويل ببُؤسٍ لفكرة هذه المهمّة، وكذلك أنا، وتفهّمت تمامًا معاناته وإحباطاته وهو يملي أوامره على العاملين عنده فيريدهم تارة أن يُسرعوا وتارة أن يأخذوا حذرهم. تفهّمت لماذا يشعر بالغدر من مساعده دان روبير، وعرفت فورًا أنّ الصبي المساعد بيتر أخرق جدًّا ليتولّى تلك المهمّة. لا أعتقد أنّني شاركت ويليام هاردي أفكاره بدقّة أثناء سير عملية تعبئة الأمتعة؛ فلم أكن «أقرأ الأفكار» بالمعنى البسيط، بل بشكل أدقّ كأنّه أتيح لي الوصول لذكرياته هو ويليام بنفس الطريقة التي يصل بها المرء لذكرياته، جاءتني صور زئبقية سريعة رأيت فيها الصبيّ البائس بيتر يكسر لوح زجاج كبير وكنت أعلم أنّ هذا الحادث وقع في وقت ما بالماضي القريب، وصورة لدان روبير يتسلّل مع امرأة خلف خيمة عرض حقيرة، ثم رأيت ويل الصغير مع نفس المرأة. بالطبع لم أره من

أعلى كملاحظ ذي سلطة مطلقة بل كنت عينيه وأذنيه وأنفه ولحمه بينما كان يقترن بهذه المرأة، بالكاد فتاة، أعرف الآن أنّ اسمها روزا.

أعترف أنّي كدت أفقد صوابي في هذا العالم الجديد، إنّها منحة الدخول لأفكار آخر، من يمكنه أن يمنع نفسه من التجوّل فيها بلا توقّف؟ ماذا يكون علم الإنسان أو علم الأحياء إلى جانب هذا، أن يكون بمقدوري قراءة أفكار شخص آخر كما أقرأ رواية؟ تتقازم كلّ أعمال شكسبير حقًّا عند مقارنتها فقط بمآسي صاحب المسرح هذا وملهاته وخياناته ورغباته. على كلّ حال، تذكّرت مهمّتي ثانيةً. كنت هناك في ذهن ويليام هاردي لأفهم وَهم الأشباح الذي يجول به البلاد من عرض لآخر.

وضح لي كلّ شيء في لحظة. رأيت الوضع الدقيق للوح الزجاج الضخم باهظ الثمن، الذي يقوم ويل الصغير بتلميعه بنفسه خمس مرّات يوميًّا، مرتكزًا على خشبة المسرح مستندًا على حائط أو تكوين بالخلف، رأيت، أو فهمت، ميل الخمس وأربعين درجة، تحصّلت على أعمق معرفة ممكنة بكيفية عمل تلك الخدعة، من الزجاج المائل إلى الممثّلين أسفله وهم يتراقصون في ضوء كشّاف، فتتخلّق صور كظلال مقلوبة، تنعكس على الزجاج فتُنقل على خشبة المسرح. شعرت بذهول ويل الصغير حين اكتشف تخلّق تلك المخلوقات الضوئية لأوّل مرّة، وتذكّرت بوضوح، كما لو كنت أتذكّر مشهدًا من ماضيَّ الخاصّ، الأمسية التي فتح فيها ويل الصغير الكتاب الواردة به أسرار تلك الخدعة. لي أن أقول، مع ذلك، إنّ قراءة كتاب في ذاكرة رجل آخر كان شعورًا مريبًا، وبرغم نسيان فقرات كثيرة، ومن ثم بدت كأنّها مفقودة، لكن كان بوسعي أن أقرأ أهمّ الأجزاء كما لو كان الكتاب مفتوحًا أمام عيني.

ها هو جزء من مغامرتي لم أصفه بعدُ لئلّا أؤكّد للقارئ الانطباع بأنّني فقدت صوابي كليًّا ذاك اليوم في خيمة المعرض. مع ذلك على أن أسرد هذا اللغز الآن، وأنا هنا أتوسّل من القارئ المزيد من الحُلم، ذلك أنّ ما أودّ أن أصفه هو كيف تغيّر مجال رؤيتي حين كنت في «عالم أشباح» أذهانِ الآخرين هذا. في البداية لم يكن لديّ أدنى فكرة عن مدى رحابة هذا العالم ولا عن حدود حركتي فيه، مع ذلك فقد لاحظت في تلك الزيارة الأولى عدّة أمور مهمّة سأحاول الآن وصفها. حين يرى المرء العالم في التفاعل الاجتماعي العادي، أو فيما يغدو ويروح في يوم عادي، يراه كما لو كان داخل إطار، كأنّ العالم الخارجي صورة على جدار؛ أو صورٌ كثيرة ربّما،

فإن نظرتُ إلى يساري، فسأرى صورة، وإن التفتّ يميني، فسأرى صورة أخرى، قد يتساءل فيلسوفٌ ما إذا كان يوجد حقًا صورة خلفية، صورة ليس بمقدوري أن أراها، لكن لا ينبغي الآن سلوك هذا المسلك الاستفهامي.

إذا قبل المرء هذه الطريقة في النظر للعالم، كإطار ذي حوافّ مُدركة حسيًّا، وإن كانت مغبشة، فسيسهل عليه كثيرًا تصوّر الإطار المعدّل الذي كنت أطلّ منه على عالم ويل الصغير، كان إطار ويل الصغير يتضمّن إطاري أنا أيضًا مُركّبًا فوقه، ما ترتّب عليه سواد مسحة ضبابية على كلّ ما كنت أراه، كأنّني أراه من نظّارات سميكة أو من وراء غلالة رقيقة. إلى هنا ولم تنتهِ غرائب هذا الإطار الجديد بعد. كان بجانب حوافّ إدراكي لرؤية ويل الصغير غبش يشبه ذلك الغبش الذي يعترش حوافّ الرؤية العادية، لكنّ الغبش المحيط بإطار ويل الصغير كان أكثر حضورًا وذلك لوجود طبقات من صور صغيرة كأوراق اللعب في لعبة الصبر [سوليتير]، واحدة إلى اليمين وواحدة إلى اليسار، كانت لتلك الرؤية الجديدة خاصية أخرى أربكتني لحدّ كبير، إذ حين يقترب ويل الصغير من شخص آخر ويصير بصدده، تظهر بوَهنٍ من خلف الصورة التي أراها ـ ضبابية أصلًا ـ صورةُ بيتٍ آخر. ففهمت دون أن أستوعب ذلك بشكل كامل أنّ بوسعي في تلك اللحظات، إن شئت، أن أسير ببساطة لأدلف هذا البيت بدلًا من ذلك الذي أنا فيه. بمعنى آخر، يكون متاحًا لي أن أدخل ذهن هذا الآخر، على الأقلّ كانت تلك النظرية التي كوّنتها من الأدلّة المعروضة أمامي، لكنّي حين حاولت ذلك مع الصبي بيتر بدا لي كأنّما أُلقيَ بي من جدار غير مرئي وسقطت بدلًا من ذلك في الممرّ الخلفي المشترك بين البيوت.

أحاطني مرّة أخرى الإحساس بالسكينة والشبع. تجمّد فورًا الشعور بالجوع الذي شعرت به وأنا داخل ويل الصغير وأدركت أنّ قضاء الوقت داخل ذهن رجل آخر أمرٌ مُنهِكٌ للغاية. هناك في المشهد المفتوح لم يكن ثمّة شقاء، لكنّني تذكّرت مشاعر الفقدان واليأس التي شاركت فيها ويل الصغير، فكّرت أنّه من الأفضل أن أدع المغامرات الأخرى التي أتحرّق شوقًا لها لزيارة أخرى، فأخذت فرسي وتركته يعيدني للمكان الذي ولجت منه ذلك العالم.

بدا أنّ رحلة العودة في النفق استغرقت وقتًا أقصر بكثير، وهأنذا قد عدت على اللوح الخشبي في خيمة المعرض ـ إن جاز التعبير ـ إذ لم يكن ملاحظ ما ليراني

غادرت من عليه. مرّة أخرى سمعت دبيب قطرات المطر على قماش الخيمة، وجاهدت لأفتح عيني على العالم المألوف الذي تركته ورائي لوقت. تساءلت بعينٍ نصفِ مغمَضة ورأس مثقلة بالخيالات هل توهّمت حلمًا مدروسًا أم أنّني اتصلت حقًّا بعقل رجل آخر؟ فقرّرت لحظة أن استعدت وعيي كاملًا استجواب طبيب المعرض، لكنّني حين فتحت عيني، وجدتني وحدي في الظلام، كان المصباح السوقي الذي كان مضاءً من قبل مطفأً، ولم يكن الطبيب في أيّ مكان، سحبت من جيبي ساعتي وعلبة ثقاب وأشعلت عودًا بالقرب من وجه الساعة فوجدتها تعدّت الحادية عشرة، هببت واقفًا على قدمي مذهولًا وتحسّست طريقي خارجًا من الخيمة على ضوء عود ثقاب آخر. كيف ظللت فاقد الوعي طيلة هذا الوقت؟ كنت مذعورًا حقًّا وأنا أتخبّط طريقي خارجًا من خيمة المسرح الكبيرة إلى الهواء الطلق في المعرض المظلم المهجور. كنت عازمًا على إيجاد هذا الطبيب وتأنيبه على تركي وحيدًا أعزل لهذا الوقت الطويل، مع ذلك لم يكن الطبيب في أيّ مكان. عدت أدراجي لفندق ريجينسي منهكًا وفي حاجة ماسّة للطعام وعازمًا على أن أجد الطبيب في اليوم التالي.

ستّة

بحلول وقت الغداء يبلغ جوعي مداه، مع شعور بالبرد ورغبة في أن أقضي حاجتي. من نافذة حمامي يبدو العالم كأنّه مكسوّ بكامله بطبقة من الأسطح مطعّمة بسلالم خلفية ومداخن. بيت دمية تعمُّه الفوضى. أرى سطح حجرة لويجي الخلفية وسلّم النجاة المعدني المظلم، أسفل أحد الأسطح الأسمنتية الرمادية يقف رجلٍ أمام الباب الخلفي للمطعم الهندي ينفث دخان سيجارة باستعجال ويتلفّت حوله كلّ ثانية كمن يتوقّع إلقاء القبض عليه في أيّة لحظة، ثمّة أزقّة وباحات صغيرة غير متساوية لكنّ الغالب أسطح ومداخن وطوب أحمر وأسمنت. فجأة يبدو ما أراه بالخارج أقرب إلى لغزٍ ثلاثيّ الأبعاد، كيف يمكن نظم مبانٍ بهذه الكثرة في هذه المساحة الصغيرة؟ أفكّر، وليس للمرّة الأولى، في كمّ البشر الذين لا بدّ أنّهم يحيطون بي طوال الوقت بالرغم ممّا يبدو غالبًا من أنّي وحدي تمامًا. أتساءل كيف يكون «التخاطُر»؟ هل يخفّف وطأة الوحدة أم يجعلها بشكلٍ ما أثقل؟

أُعدّ بعض العدس الأخضر للغداء، ثم أعود به للكنبة وأُوازن الطبق على ركبتي بينما أواصل قراءة السيِّد واي وبحثه عن طبيب المعرض. حين وصل للمعرض في اليوم التالي كان كلّ شيء قد اختفى بما في ذلك الطبيب وشرابه العجيب. مسكين هذا السيِّد واي، كان على يقين من أنّه سيعود لعالم الأذهان مرّة أخرى لدرجة أنّه لم يهتمّ بالاستفسار عن كلّ شيء وهو

فيه أول مرّة. سأل في المنطقة المحيطة فعرف أنّ كلّ مَن بالمعرض تقريبًا رحلوا لموقع آخر خلف غابة شيروود مباشرة. لكنّه حين وصل هناك وجد المعرض ولم يجد الطبيب، وبالطبع حين سأل عن طبيب المعرض ذاك تحيّر معظم من سألهم وأكّدوا له أنّه لا وجود لمثل هذا الرجل.

عاد السيِّد واي للندن وبدأت الأسئلة التي تفرضها مغامرته تشغله شيئًا فشيئًا. هل استطاع حقًّا أن يقرأ الأفكار (أو كما يدعوها هو «التخاطر») وإن كان مجازًا فقط؟ أم لم يكن شراب طبيب المعرض سوى جرعة منوّم قوي؟ لا يعرف، وليس بيده حيلة ليعرف، لكنّه مال للتصديق بأنّه بالفعل قرأ أفكار ويليام هاردي. بالتأكيد قرأ أفكاره، كان يتذكّر قراءة الكتاب الذي تعلّم منه هاردي خدعة شبح بيبر، وكانت ذكراه عنه (من قراءته عبر ويل الصغير) سليمة تمامًا، مع العلم بأنّه لا أحد يتذكّر كتابًا لم يقرأه. استقرّ أمره في النهاية على أنّه قد شهد في ذلك المساء في معرض الأوزة شيئًا ما خارقًا للطبيعة، لكنّه فقط يجهل ماذا كان. وفي ظلّ غياب أيّ تفسير لائقٍ، يقوم بعمل فيكتوري أصيل ويأخذ في تسمية وتصنيف أجزاء العالم الجديد الذي تبوّأه. سمّي هذا العالم باسم «التروبوسفير» Troposphere [محيط التحول]، اتّبع نفس منطق اختراع كلمة أتموسفير اللاتينية [المحيط الجوي] من الكلمتين (أتمو) بمعنى جو و(سافيريا) بمعنى محيط، لكنّه استبدل بكلمة جو غير المحدّدة كلمةً لاتينيةً أخرى أكثر تحديدًا تعني تحوّلًا، (تروبو). استغرقه الأمر وقتًا أطول ليسمي الرحلة نفسها، لكنّه سمّاها في النهاية «تيليمانسي» [الاستبصار عن بعد] [Telemancy]: (تيلي) بمعنى من على بعد و(مانسيا) بمعنى الاستبصار، كان ذلك في نظره استبصارًا عن بُعد وكان يتحرّق شوقًا ليخبَره مرة أخرى.

بعد ذلك يبدأ السرد في التعرّف على أحوال عمل السيِّد واي. يمتلك متجرًا للملابس الجاهزة بشرق لندن، وكان عمله ناجحًا جدًّا، لكن بدا أنّ خطر الفشل يحيق به الآن، وسيضطر قريبًا لتسريح بعض العاملين لديه لأنّ أحد منافسيه افتتح متجرًا قريبًا جدًّا من متجره وعمل هذا الأخير يسير في

ازدهار. بالكاد تصف الرواية مالك المتجر المنافس هذا، السيِّد كليمنسي، كرجل داهية حقود يستمتع على ما يبدو بما يصبّه من دفقات بؤس على عاتق السيِّد واي، ويرى أنّ طريقته هو في تجارة الملابس ـ حبس العمّال في حجرة خلفية صغيرة حارّة وبالكاد يدفع لهم أجورًا ـ أفضل من طرق السيِّد واي التي عفا عليها الزمان. يقع السيِّد واي خلال وقت قصير فريسة هاجسين: التيليمانسي والانتقام، يتمنّى لو كان يعلم تركيبة شراب الطبيب ليعدّها بنفسه ويذهب للتروبوسفير مرّة أخرى، بلا شكٍّ سيدخل فور وصوله لهناك ذهن السيِّد كليمنسي، يعترف لنفسه أيضًا، ببعض الخجل، أنّه سيبتزّ منافسه إن استطاع لذلك سبيلًا.

بالإضافة إلى أنّ عمله يستمرّ في التدهور، يمرض والده وتصبح زوجته الوديعة حانقة ومزعجة. يعجز السيِّد واي عن تحمّل كلّ هذا، فيتجاهل أمر والده، ويعسّف زوجته، واضح أنّه يتّجه بقرنيه نحو سقوطه الخاصّ، لكنّه لا يرى ذلك، بل يجلس كلّ ليلة وينير المصباح ليقرأ «المواد الطبيّة»[1] بحثًا عن أعشاب تمدّه بخيط لحلّ لُغزِ ما شربه، لكنّه لم يصل لشيء، وظلّ عالم التروبوسفير، وبخاصّة المشهد الساكن الذي كان فيه على الفرس، يُغويه كمخدّر أدمنه بما لا رجعة فيه.

يخفت الضوء خارج نافذة مطبخي فأنظر لساعتي. تجاوزت لتوّها الرابعة. لديّ مصباح قراءة في حجرة نومي أجلبه وأصله بقابس الكهرباء خلف الكنبة وأضعه على أفريز النافذة، هكذا أفضل، يمكنني توجيهه مباشرة إلى صفحات الكتاب. مصباح واحد لن يستهلك الكثير من الكهرباء، بالتأكيد!

حوالي الخامسة والنصف أسمع صوت الباب بالأسفل ثم صليل جرس

(1) Material Medica: كتاب من 5 مجلّدات عن الأعشاب الطبية والموادّ الأخرى المستخدمة في صناعة الأدوية، انتشرت قراءته مدّةً تزيد عن ألف عام، ألّفه الفيزيائي بيدانيوس ديوسكوريدس في القرن الأول بعد الميلاد.

دراجة وولفجانج لدى خبطها بالجدار، برغم أنّه بودِّي حقًّا أن أنهي الكتاب، لكنّ عينيّ تؤلمانني ولم أتحدّث مع إنسان آخر منذ ساعات، فأصيح حين أسمع بعد دقائق قليلة خبطات رقيقة على بابي أنّ الباب مفتوح وأنهض لأعدّ قهوة.

يدخل وولفجانج ويجلس إلى طاولة المطبخ بطريقة خرقاء.

«يوم جيّد؟»، أقول برغم منظره الذي يجيب عن سؤالي.

«ها»، هي كلّ ما يقوله وهو يمسك رأسه بيديه.

«وولف»؟

«ما الغرض من يوم الأحد؟»، يسأل. «أخبريني».

«ممم. الكنيسة؟»، أخمّن. «الأسرة؟ النزهة؟».

تصفرّ القهوة فأرفعها عن الموقد. أصبّ كوبًا لكلّ منّا وأجلس قبالة وولف، أقدّم له سيجارة ثم أشعل واحدة لي، لا يستجيب لتخميناتي، فأفكّر في المزيد، أعود بسهولة دون قصد منّي لعالم السيِّد واي في أواخر القرن التاسع عشر ويستحضر ذهني صورًا من كتاب تلوين لنساءٍ يتنزّهنَ في حدائق بتنانير ذات خصور ضيّقة، وأطفال يلعبون بأطواق، وألعاب الوصْل بين النقاط المبهمة تصل لشاطئ البحر وتتخلّلها مظلّات وآلات عملات، برغم ظنِّي أنّ تلك الآلات لم تظهر إلّا بعد نهاية القرن، إنّها فترة ما بعد القدّاس، عالم ما بعد الظهر هذا الذي ليس بمقدوري حتّى أن أخطوَ عتبة فهمه، أحاول نزع نفسي من نهايات القرن التاسع عشر.

«الجنس؟»، أخمّن بدلًا من التخمينات السابقة. «قراءة الجريدة؟ التسوّق؟».

«ها»، يقول وولف ثانيةً وهو يرشف قهوته.

«ماذا حدث؟»، أسأل.

«عطلة نهاية أسبوع مع عائلة كاثرين»، يجيب ببعض التقزّز.

«لا يمكن أن تُمسي بهذا السوء». أقول «أين ذهبتم؟».

«سوسكس. منزل ريفي. وكان سيّئًا جدًّا..».

«لماذا»؟

يتنهّد. «من أين أبدأ؟».

أفكّر في الأوديسة. «جرّب الوسط»، أقترح عليه.

«آه. الوسط. حسنًا. في الوسط أدهس الكلب». لا يمكنني سوى أن أضحك، برغم أنّ الأمر كما يبدو ليس مضحكًا.

«هل الكلب بخير؟». أسأل.

يبدو وولفجانج حزينًا. «إنّه يعرج الآن».

أرشف قهوتي. «كيف بالضبط دهست الكلب؟».

وولفجانج لا يقود الدراجة، وكذلك الدرّاجة لا تقود نفسها.

«بأداة ما... ماذا تسمّونها...؟ ما هي الكلمة...؟».

هذه إحدى تكنيكات تصنّع وولف، فهو يتحدّث الإنجليزية أفضل من معظم طلبة قسم الأدب الإنجليزي لكنّه يحبّ أن يتصيّد الكلمات أحيانًا هكذا ليتاجر بصفته غريبًا ويضيف شيئًا من الدراما والسوداوية أيًّا كان ما يقوله، لا يستفزُّني تصنّعه بالطبع، بل أجده ممتعًا في الحقيقة، لكن هذا لا يمنع من أن أميّز التصنّع كأحد تكنيكاته.

ما زال يتصنّع. «آآآ... مثل جرّار صغير».

«دهست كلب عائلة صاحبتك «بجرّار صغير؟».

«لا.. حسنًا. نعم. أقصد ما الكلمة التي تعني جرّارًا صغيرًا؟».

«لا أظنّ أنّ هناك كلمة تعني جرّارًا صغيرًا، فيما تُستخدم؟».

«جزّ العشب».

«آه. جزّازة عشب».

ينظر لي وولف كأنّي جاهلة ويقول «أنا أعرف جزّازة العشب. جزّازة العشب ندفعها، لكنّ ذاك الشيء الآخر نجلس عليه».

«أوه، كأنّها جزّازة عشب تجلس عليها. آ... ياه، ماذا يسمّون تلك الأشياء؟» أفكّر لوقت ثم أقول «أظنّ أنّها جزّازة عشب تجلس عليها. ماذا تدعوها عائلة كاثرين؟».

«يدعونها الجزّازة على ما أعتقد. لكنّي متأكّد أنّ ثمّة كلمة أخرى».

«لست متأكّدة. لكن لماذا كنت تجلس على الجزّازة على أيّة حال؟».

«الوالد، السيِّد ديكرسون، عَلقت منه الجزّازة وأراد من أسماه «شابًّا قويًّا» يُخرجها له».

أضحك لفكرة أن يرى أحدٌ ما وولفجانج «شابًّا قويًّا»، إذ لا يحمل أيًّا من تلك الصفتين.

«ها ها، نعم»، يعلّق وولفجانج.

«معذرة، على كلّ حال كيف كانوا، العائلة؟».

«أغنياء». يقول ثم يردف «من السجاد».

«وهل يوجد مستقبل مع كاثرين؟». أسأل.

«بالنسبة لي»، يقول وهو يرفع كتفيه، «من يعلم؟» ينهض ويأخذ زجاجة البراندي من على الرّف، ويصبّ لنفسه كأسًا كبيرة، يعرض عليّ بعضًا منه فأهزّ رأسي. «على كلّ حال» يقول حين يجلس ثانيةً «ما أخبار لعنتك؟».

«ممم». أتمتم.»هل تحفظ السرّ؟».

«تعلمين ذلك. وقلت لكِ من قبل، لا يهمّني إن أصابني المزيد من اللعنات».

«لا أظنّها تصيبك بمجرّد السمع». أقول.

«ماذا هو إذن؟ شيء؟».

«كتاب».

«آه، لعنة المعرفة»، يقول فورًا.

«لا أظنّ ذلك». أقول. «إنّها رواية. ظنّي أنّ اللعنة ليست سوى خرافة،

لكنّه كتاب نادر جدًّا والأغلب أنّه ثمين جدًّا... برغم أنّ نسختي معيبة، لذلك فعلى الأرجح أنّها لا تساوي شيئًا حقًّا».

«هو الذي اشتريتِه يوم الجمعة؟».

«نعم، بكلّ ما لديّ من نقود تقريبًا».

«ما درجة ندرته؟».

«نادر جدًّا». أخبره كيف لا يوجد نسخ منه في أيّ مكان في العالم ما عدا النسخة المودعة بخزانة بنك بألمانيا. «حتّى مع عيبها، ما زال أمرًا رائعًا أن تكون لديّ، إنّها لهذا الكاتب الذي أدرسه توماس لوماس، وقد أكون الوحيدة في العالم التي تعدّ بحثًا عن الكتاب نفسه وليس عمّا يحيط به من ألغاز، لعلّي أكون الوحيدة الذي قرأته في المئة عام الماضية»، ما إن تأخذني الإثارة لهذا الخاطر، يقاطعني وولف سائلًا: «وما هي اللعنة؟».

أخفض نظري للطاولة «اللعنة أن تموت بعد أن تقرأه».

ما زال الكتاب على الكنبة حيث تركته، أرى نظر وولف يجول في الغرفة ثم يستقرّ عليه، ينهض ويتّجه للكنبة، لكنّه لا يمسك الكتاب، بل ينظر له من أعلى فقط كما لو كان معروضًا في مُتحف، للحظة أتخيّل أنّ خوفه الشديد من اللعنة يمنعه من إمساك الكتاب لكنّي أرى بعد ذلك أنّ ما منعه بكلّ تأكيد هو احترامه لتاريخ الكتاب وندرته، وولف لا يخاف من اللعنات... هكذا قال.

يعود للطاولة. «عمّ يحكي؟».

«عن رجل يُدعي السيِّد واي يذهب لمعرض فيكتوري»، آخذ في حكي القصّة لوولف حتّى النقطة التي توقّفت عندها، حتّى آخر مشهد قرأته حين كانت زوجة السيِّد واي تتوسّل إليه أن يكفّ عن قضاء الليل في قراءة الكتب الطبية فيخبرها أن تهتمّ بشئونها وتذهب للنوم ويستأنف قراءته.

«وممَّ عساه يكون الشراب؟». يسألني وولف.

«حتّى الآن ليس لدى السيِّد واي أدنى علم». أقول. «لكنّه يُرجح أنّه من اللودينيوم، شيءٌ ما من الأفيون والكحول، لكنّه ليس متيقّنًا، ويُنحّي جانبًا أكسيد النتروس - غاز الضحك - والكلوروفورم لأنّ كلًّا منهما يجب استنشاقه وهو يعلم أنّ الشراب فعّال في حالته السائلة. من بين التخمينات الأخرى الأثير، مادّة مصنوعة من حمض الكبريتيك والكحول والكلورال. يجلب أيضًا أعشابًا غريبة للغاية من حقل ناءٍ، ويلفّق نظرية غريبة عن طبيب أجنبي ساحر أعطى التركيبة لطبيب المعرض، إن صحّ ذلك فلن يجد المكوّنات في أيّ صيدلية فيكتورية، وهذا ما يلقي به في بئر الاكتئاب العميق، لكنّه يفكّر بعد وقت أنّها ليست تركيبة غريبة، لأنّها مقابل شلنين، لذلك على الأرجح لن تحتوي على لحاء شجرة من بيرو وسُم حيّة أفريقية أو دم يونيكورن[1] أو شيء من هذا القبيل. لقد حلّها هكذا: مقابل شلنين لا بدّ أنّ مكوّنات التركيبة رخيصة. لكن ما هي؟». أرفع كتفي. «حتّى وإن كانت ليست غريبة، فقد تكون أيَّ شيء».

«وليس لديكِ فكرة بعد؟». يسأل وولفجانج.

أهزّ رأسي. «لا. لكنّي أتطلّع لمعرفته، إن كان مذكورًا أساسًا، هكذا الأمر».

يشعل وولف سيجارة ويسقط في تأمّلات عميقة في كأس البراندي. أفكّر في إخباره عن تمهيد الكتاب والتلميح بوجود شيء ما «حقيقي» بشأن الكتاب، لكنّي أعدل عن هذا. أنهض لأسكب ما تبقّى من كوب القهوة الخاصّ بي في الحوض بينما يفرغ وولف من كأسه وينهض ليغادر.

«بإمكاني أن أعدّ شيئًا ما ذوّاقةً هذا المساء، إن شئتِ». يعرض عليّ.

الأمر مغرٍ. فما لدي هنا «ذوّاقة رفيعة» بأفضل الأحوال، لكنّي بودّي حقًّا أن أنهي الكتاب. .

(1) Unicorn: حيوان خرافي؛ حصان وحيد القرن.

«شكرًا وولف»، أقول. «سأواصل القراءة فقط على ما أظنّ».

«وتستكملين اللعنة؟». يسأل بحاجب مرفوع.

«لا أعتقد أنّ في الأمر لعنة حقًا». أجيبه.

حوالي الثامنة أكون قد تجمّدت بردًا فأشعل كلّ عيون الموقد، اقتربت من نهاية الكتاب ويبدو واضحًا أنّ السيِّد واي يسير بخطى ثابتة نحو الإفلاس والفاقة لهوسه بالتروبوسفير وبالعودة إليه. صارت عادته تجريب وتناول شتّى الأدوية والتركيبات والرقود على الأريكة محدقًا في نقطة سوداء، وما من دواء جرّبه أتى بمفعول، كان يثيره أن يرى في كلّ ركن إعلانات الشفاء من كلّ داء مثل رقاقات دكتور لوكوك الرئوية ومجموعة كهربائيّات بولفيرماشر من عصابات وأحزمة وبطاريات وأدوات الزينة، ما الذي في رقاقات دكتور لوكوك وقد يكون في قارورة طبيب المعرض؟ وماذا عن كهربائيّات بولفيرماشر؟ لعلّ طبيب المعرض قد كهرب بطريقة أيًّا كان الشراب هذا الذي اخترعه. بعدها أدرك السيِّد واي أنّه لن يستطيع كشف سرّ التركيبة مصادفةً، وأنّ الطريقة الوحيدة للعودة للتروبوسفير مرّة أخرى تكون بالعثور على الطبيب وإجباره على إخباره بكيفية تحقّق ذلك.

في بداية الفصل الثاني عشر، عرف السيِّد واي أنّ الكثير ممّن يرتحلون بعروضهم عبر البلاد خلال الصيف، يحطّون رحالهم في لندن شتاءً، يعرضون أهوالهم في حوانيت ومنازل متهدّمة في الشوارع الجانبية. كملاذٍ أخير، صارت عادة السيِّد واي أن يصرف وقته وكثيرًا من نقوده في جولات في تلك المعارض باحثًا عن خيط يقوده لطبيب المعرض.

استمرّ بحثي طيلة نوفمبر، كان الجوّ قد تحوّل إلى البرودة القارصة، لكنّي واصلت بحثي كلّ ليلة حتّى مع أنّني بدأت أظنّ وقتها أنّي لن أجد الرجل أبدًا. بدا لي أنّ لندن قد تحوّلت إلى المعرض للتفاهات بتلك المعارض الكثيرة في الشوارع الجانبية بمنطقة الويست إند وما وراءها ـ في ثوب من معلّقات ولافتات قرمزية مبهرجة عليها رسوم وصور تعبيرية كبيرة لعروض بغيضة كالمرأة ذات اللحية والصبي الأرقط وعملاقة بيرو وغيرهم آخرين من مسوخ الطبيعة وبربريتها ونزقها.

ومع أنّ أغلب تلك المنشآت تظلّ مفتوحة طوال اليوم، لكنّني اكتشفت أنّه في المساء فقط يمكنك استيعاب النطاق الأكمل لعروضهم. وهكذا كنت أخرج كلّ مساء بعد تناول العشاء وأدفع البيني على أبواب أيّ معرض سواءً باهت أو مبهرج ومزدحم أو خالي. رُحت في كلّ مكان أسأل السؤال نفسه وأتلقّى الردّ نفسه، ما من أحد سمع عن طبيب المعرض قطّ.

انصرم نوفمبر فصار أكثر رمادية، كان الجليد المتساقط يتزايد قليلًا كلّ ليلة، فقرّرت أن أُقصر مجال بحثي على المناطق المجاورة إلى أن يتحسّن الطقس، مع ذلك يحقّ لي القول إنّني لم أترك تمثالًا شمعيًّا أو هيكلًا عظميًّا حيًّا في لندن إلّا وقد رأيته وقتها. على كلّ حال، نمى لعلمي أنّ ثمّة معرضًا جديدًا على طريق وايتشابل قبالة مستشفى لندن، كان فيما سبق مِلك متعهد دفن ومن قبله متجر ملابس جاهزة كنت أتعامل معه. هكذا، انطلقت بعد عشاء متواضع من الخبز والدهن إلى طريق وايتشابل سيرًا على الأقدام، سرت مارًّا بجبّانة اليهود من خلف مستودع الفحم ثم بالجهة الجنوبية للورشة المجاورة لطريق بيكر. لم تكن المرّة الأولى التي يخطر لي فيها الهاجس الأثقل وطأة بأنّني إن أخفقت في مسعاي هذا، فسأكون بذلك قد دفعت بعائلتي للعمل في هذه الورشة. لم أتخيّل شيئًا أسوأ من هذا لأنّي لم أعرف ما هو أسوأ منه.

تتبعت خطّ السكة الحديد منحدرًا ناحية مستشفى لندن، أنظر خلفي طوال الوقت خوفًا من اللصوص الذين يقطنون مثل تلك المناطق. لم أكن أحمل معي نقودًا كثيرة بالطبع لكنّني قرأت تلك القصص الفظيعة عن السلالة الجديدة للصوص الإيست إند الذين إن وجدوا معك بنسات قليلة يفقؤون لك إحدى عينيك عقابًا لك ببساطة - أو الأنكي - كشكر عليها. يتساقط الجليد عليّ برفق إذ أسير في الهواء المشبع بغبار الفحم القادم من المستودع ليمتزج بالضباب الكثيف بالفعل أمامي. سعلت قليلًا وفركت يدي لأحظى ببعض الدفء. قلت لنفسي وقتها إنّني لو كنت أتمتّع بكامل قواي العقلية، ما كنت خرجت في ليلة كهذه قطّ، لكنّي مع ذلك واصلت سيري.

حين انعطفت لطريق وايتشابل وقعت عيناي فورًا على المعرض الذي سمعت عنه. كان الطابق العلوي للمنزل مزينًا بقطعة قماش كانافا كبيرة مرسوم عليها مشاهد متنوّعة منها كالعادة امرأة بدينة وأقوى امرأة في العالم وغيرهما من الغرائب. من اللافت

للنظر كيف يمل المرء سريعًا من ذلك النوع من العروض، لا سيّما حين يواظب على زيارة تلك المعارض بانتظام كما فعلت خلال تلك الأشهر، وإن تسنّى له كما حدث معي رؤية الحقيقة الكئيبة المختفية خلف العالم الممسوخ الصاخب البشع هذا الذي يظهره العارضون. حدث ذات مرّة صباح أحد أيّام السبت أنّ مررت بمعرض كنت قد زرته منذ ليلتين أو ثلاثة مضت. هناك في الحديقة المُهمَلة لمحت المرأة ذات اللحية «المذهلة»، التي لم تكن في المساء سوى مشهد كئيب نصف بشري بأضواء في خلفّيته، وهي تتسوّل تحت غسيلها المنشور وتتعارك مع «بربري» أفريقي تراه مساءً في تنّورة من القشّ وسترة ذهبية قصيرة وقرطين مستديرين ولا يصدر عنه أصوات سوى «أغ، أغ»، لكنّه ذاك الصباح كان في ملابس أقلّ غرائبية: جوارب بالية وسروال قطني قصير وقبّعة قماش رمادية، ويبدو أنّه يفهم جيّدًا ليس فقط الإنجليزية بل وكذلك عددًا وفيرًا من كلمات وتعبيرات دارجة. مرّة أخرى صادفت أيضًا الصبي ذا الرأس العملاقة، فتى في الثالثة أو الرابعة عشرة من عمره، كان وقتها خارج حجرته المظلمة وبدون ملابس العرض والإضاءة الخافتة والإعلانات المرسومة، فلم يكن ذلك المسخ البشع بل كان واضحًا أنّه صبي عليل في حاجة لرعاية طبية.

دفعت بيني الدخول إلى معرض وايتشابل بلا حماسة. كانت المعروضات التافهة المعتادة من سفن في زجاجات ورؤوس مسخوطة وما إلى ذلك معروضة في الطابق الأرضي بدون مقابل آخر. يوجد أيضًا تماثيل شمعية لشخصيّات سياسية بارزة، ومشهد يصوّر أمجاد الإمبراطورية، يلتفّ عدد من المحتالين حول طاولة ورق صغيرة منهمكين في ممارسة فنّهم الأسود في إخفاء السيِّدة من هؤلاء السادة الذين يريدون إيجادها مقابل شلن، وغير ذلك من أنواع احتيال مشابهة ومثيرة للشفقة. لدى تركي تلك الغرفة وصعودي الدرج أشارت لي فتاة صغيرة تدعوني لغرفة خلفية لتقرأ لي مدام دي بمبادور الطالع، أكّدت لها أنّي على دراية جيّدة بجميع احتمالات طالعي وصعدت. وجدت بالطابق الأعلى عرضًا مؤلمًا حقًّا: أحد عشر تمثالًا شمعيًّا كلّ منها لضحية من ضحايا سفاح وايتشابل. أشحت بنظري بعيدًا بعد النظر لوهلة في نسخة مشوّهة من ماري كيلي راقدة على فراش في قميص داخلي فضفاض وينبثق من عنقها دم شمعي ثخين. مع ذلك أثار حيرتي شيءٌ ما في ذلك المنظر المروّع الصغير - شيء ما غير الرعب الأساسي للمنظر - بينما أتوجّه للحجرة

المجاورة التي كان بها امرأة شابّة لها شعر أحمر ترفع أثقالًا بضفيرة شعرها الطويلة، عدت سريعًا مرّة أخرى لحجرة التماثيل الشمعية لأعيد النظر في مشهد قتل ماري كيلي، وبلا شكٍ كان هو، المصباح الأحمر المبهرج الذي رأيته من قبل في خيمة طبيب المعرض، منتصبًا كحلية لتلك اللوحة البشعة.

ذرعت الخطو بدون تردّد نحو سيدة تجلس على كنبة قديمة في ركن قصيّ من الغرفة، قدرت أنّها المسئولة عن مراقبة التماثيل الشمعية. ظللت واقفًا أمامها لثوانٍ قبل أن تترك قطعة قماش بالية في حجرها كانت تقوم بتطريز أجزاء منها بترتر، وترفع نظرها إليّ.

«أيّ خدمة؟»، قالت.

«أودّ أن أسأل عن صاحب هذا المصباح»، قلت.

«أتقصد تلك المسكينة ماري كيلي؟».

«لا»، قلت وحنقي يزداد سريعًا «لا. سيّد محترم، طبيب معرض. ربّما يشارك هنا؟».

عادت عينا المرأة لتطريزها قائلة: «آسفة يا سيّد. لا أظنّ أنّ أحدًا بهذا الوصف هنا».

ثم رمشت لي بعينيها الصغيرتين بسرعة ففهمت بغيتها. وجدت شلنًا في جيبي وأخرجته لها وأنا أسألها: «هل أنتِ متأكّدة أنكِ لا تعرفينه؟».

وقعت عيناها على الشلن فمدّت يدها وأخذته وهي تقول: «اسأل قارئة الطالع بالأسفل»، ثم أردفت في شبه همس: «صاحب هذا المصباح زوجها».

بدون تردّد شققت طريقي لأسفل واندفعت بصبر نافد لصالون قارئة الطالع. جلست هناك امرأة نحيلة شاحبة شعرها ملفوف بوشاح ملوّن، قلت لها فورًا قبل أن تبدأ كلامها حتّى: «أنا أبحث عن زوجك».

أخذت تؤكّد لي أن ليس لها أزواج وأنّه بإمكاني أن أدفع لها هي مباشرة مقابل خدماتها الخارقة للطبيعة، وفجأة هبّت في الغرفة ريح باردة ودخل طبيب المعرض.

«السيِّد واي» قال. «يا لَلسرور».

«مساء الخير يا دكتور». قلت.

«كنت تبحث عنّي إذن».

«كيف...»، بدأت القول ثم توقّفت فجأة. كلانا يعلم تأثير دوائه. فهمت بسرعة كيف تعمل قارئة الطالع تلك، يبدو أنّ الطبيب يقرأ أفكار كلّ من يدخل المنشأة ويمدّ زوجته بمعلومات شخصيّة عنهم لتستغلّها، خمّنت أنّه قرأ أفكاري بالفعل وعرف غايتي. وشعرت بأنّ ثمّة أملًا في أن يعطيها لي... بمقابل.

«تريد التركيبة»، قال لي.

«نعم»، قلت، لكنّي لم أخبره بمدى توقي إليها.

«حسنًا جدًّا. بإمكانك أخذها»، قال ثم أردف «مقابل ثلاثين جنيهًا ولا أقلّ».

لعنت أفكاري. هذا الرجل، بهلوان الغرف الخلفية هذا، يعلم يقينًا أنّي أضحّي بكلّ ما أملك مقابل جرعة أخرى من شرابه العجيب، وبالطبع لن يقبل سوى بكلّ ما أملك ولا أقلّ.

«رجاءً». قلت. «لا تسلبني نقودي كلّها، على شراء قماش للمتجر ودفع أجر مساعدي ودواء لوالدي الذي يحتضر أيضًا...».

«ثلاثون جنيهًا»، كرّر مرّة أخرى. «تعال هنا مساء غد ومعك النقود وسأعطيك التركيبة، وإن لم تأتِ سأعتبر اتفاقنا ملغًى. يُسعد مساؤك». ثم أشار للباب.

مساء اليوم التالي أخذت النقود من مخبئها ودسستها بحرص في حذائي حفظًا من لصوص الإيست إند. بقلب مثقل وفي غاية الاضطراب شققت طريقي عائدًا للمعرض المقابل لمستشفى لندن. المساء الماضي كان يقف خارج المعرض شابٌّ وحيدٌ يعزف الهارمونيكا، هذا المساء بصحبته الفتاة صاحبة الأرغن الذي كان ينوح ويأزّ بنفس الضجيج الذي أذكره من يوم معرض الأوزة، أسرعت الخطى مارًّا بالصِبية باعة فطائر البرقوق والنشالين والمتشرّدين نحو بيت الرعب لأدفع بيني آخر مقابل امتياز دخوله.

ساورني القلق من أن يكون المدعوّ طبيب المعرض قد اختفى ثانيةً، لكن لا بدّ أنّ الوعد بثلاثين جنيهًا كان حافزًا جيّدًا إذ وجدته يحييني بمجرّد أن دلفت...

وهنا موضع الورقة المنزوعة. لم أستطع إبعاد نظري عن الجملة الوحيدة في الصفحة 133، الصفحة التالية:

وهكذا، في ظلام ليلة نوفمبر القارسة تلك، سرت عائدًا، أثر كلّ خطوة من خطواتي على الجليد يشهد على خطوة أخطوها نحو سقوطي في طيّ النسيان الذي ينتظرني.

ماذا أفعل الآن؟ تبقّى فصلٌ واحد يبدأ بصفحة 135، هل أقرؤه وأغضّ الطرف عن فقدان ما يُعد المشهد المصيري بين السيِّد واي وطبيب المعرض؟ أم... ماذا؟ ما الخيارات الأخرى؟ ليس الأمر كما لو أنّ بوسعي التوجّه غدًا للمكتبة لأحصل على نسخة غير هذه، أو لأقرأ الورقة المفقودة حتّى، هذا الكتاب ليس في قوائم أيّ مكتبة أخرى في أيّ مكان بالعالم: إنّه ليس مدرجًا حتّى في مجموعات الكتب النادرة. هل فُقدت هذه الورقة للأبد؟ ولماذا بحقِّ الأرض ينتزعها أيّ شخص؟

سبعة

صباح الاثنين والسماء بلون حفلات الزفاف الحزينة. في طريقي للجامعة سيرًا برغم أنّي متأكّدة تقريبًا أنّها ستكون متوقّفة عن العمل. لكنّ التدفئة قد تعمل بطبيعة الحال، وطالما ظلّ مبنانا صامدًا سيظلّ هناك شاي وقهوة مجّانًا. هل سيكون مبنانا بخير؟ الأفضل أن يكون كذلك، أريد أيضًا أن أفتح جهاز بيرلوم، هو الوحيد الذي أعرف أنّه رأى نسخة من *نهاية السيّد واي* من قبل، وربّما أجد في حاسوبه شيئًا ما يخبرني من أين أتت نسخته أو بمن يمكنني الاتصال به لأرتّب موعدًا لقراءة الورقة المفقودة. في نهاية المطاف لم أقرأ الفصل الأخير الليلة الماضية، لا يجوز أن أفعل ذلك بدون الورقة المفقودة، جلست عوضًا عن القراءة أستمع لسيمفونية بيتهوفن التاسعة على الآيبود وكتبت كلّ ما كان يعتمل بذهني عن الجزء الذي قرأته من الرواية، لم آوِ للفراش حتّى الثالثة صباحًا لذلك لستُ في تمام صحوي هذا الصباح.

لم أذهب للجامعة سيرًا من قبل، ولا أعرف حتّى الطريق الصحيح إليها. كلّ ما أعرفه أنّها بربوةٍ عالية، ولا أودّ أن أصعد الطريق الذي هبطت منه يوم الجمعة الماضي لأنّي متأكّدة أنّ الطريق الصحيح لا بدّ أن يكون أقصر منه، هكذا أقوم بالشيء الوحيد الذي يخطر برأسي وأتوجّه لمكتب الاستعلامات السياحي القريب من الكاتدرائية. لا أحد هناك سوى سيّدة ذاتِ شَعرٍ رمادي مموّج ونظّارات بسلسلة خفيفة، تقف منهمكة في رصّ

أكواب تحمل صورة الكاتدرائية، أنتظر ثوانٍ قبل أن تنتبه لوجودي. تعطيني خريطة مجّانية لطرق السير في المدينة، أبدأ السير فورًا حسب اتجاهاتها، أنعطف مع جدران الكاتدرائية حتّى أرى علامة البوّابة الشمالية، أتتبّع العلامة وأمر بعدد من بيوت ذاتِ شرفات وقناة ماء صاخبة أمام حانة حيث توجّهني خريطتي أن أنعطف يسارًا، ثم يمينًا، ثم أعبر كوبري، أمر ببعض النباتات الشائكة وأنا أصعد ربوة حتّى أصل لممرّ مشاة يؤدّي لنفق سكّة حديد: فراغ أسطواني غريب بجدران ناعمة تتناثر عليها رسومات جرافيتي، ومصابيحه برتقالية مستديرة تضيء ما إن تسير أسفلها (على الأقلّ هذا ما أظنّه، لكن لعلّها روح شريرة أو حتّى عطل كهربائي). بعد ذلك أسير على حافّة حديقة مهمَلة، أحد تلك الأماكن التي يلعب فيها الفتيان كرة القدم عصر أيّام السبت أو تتعارك فيها الكلاب، ثم في زقاق، ثم أعبر طريقًا رئيسيًا، أمرّ بمصفّف شعر حريمي قبل أن أصل لمبانٍ سكنية، ظنّي أنّها مساكن الطلبة، مع أنّها تبدو كأحد تلك الأماكن التي لا يأتيها المرء إلّا إذا تقاعد أو اعتزل الحياة بصورة أو أخرى. لا أرى وأنا أصعد الربوة سوى بيوتٍ من طبقةٍ واحدة لها لونٌ كريمي وحدائقُ أماميّة: لا جرافيتي ولا ملاعب ولا محلّات ولا حانات. المكان كلّه يعمُّه ذلك النوع من السكون الذي تتوقّعه حين يُوشك العالم أن يبلغ نهايته.

في أيّام كهذه لا أخاف الموت، أو الألم، لكنّني لا أدري إن كان ما أشعر به اليوم بسبب الإرهاق أم الكتاب أم حتّى اللعنة. بينما أسير في هذا الحيّ السكني، أشعر بما يشبه الانشطار النووي في كلّ ذرّة من جسدي: ردّ فعل متسلسل من طاقة بإمكانها دفعي إلى حدود كلّ شيء. إذ أواصل السير أرغب بعنف أن أحيا، أن أموت، لمجرّد الخبرة بالأمر، تتملّكني فجأة طاقة فائقة لحدّ الرغبة في أن أضاجع العالَمَ أو أن يُضاجعني العالَم. نعم، أودّ أن اصطلي بألسنة اللهب من ملايين الانفجارات. أن أرى دمي. أن أموت مع الجميع: خبرة الارتباط المطلق، شرارة نهاية العالم. أنا أصير أنت، وأنت تصير نحن، ونحن نصير الأبد. موجة عنف متهاوية. في أيام كهذه أفكّر أنّه

نزل بي لعنة، ولا أستطيع سوى التفكير في أنّي أريد تلك الورقة المفقودة الآن. الآن، الآن.

أصل سريعًا لطريق يعلوه الحرم الجامعي. وأرى حواجز صدأت بفعل الطقس تقف لصدّ اندفاع راكبي الدرّاجات، ليس معنى هذا أنّ أحدًا ما سيندفع على هذا الارتفاع، إذ هو عمليًّا ميل بزاوية 45 درجة. وبرغم الإرهاق تنتابني رغبة حقيقية في الجري، فقط لأجد مخرجًا لهذا النشاط الزائد من نظامي. أعبر من بين مصراعي إحدى البوّابات، وأمر برقعة غابة إلى يساري، حينها أختبئ من السماء الشاحبة تحت أصابع أشجار الشتاء النحيلة. لدى اقترابي من قمّة الربوة يهطل مطر غزير وأرى من على بُعدٍ آلات بناء صفراء تزحف حول مبنى نيوتن المنهار كأنّها ألعاب في روضة أطفال. أصل لمبنانا ويبدأ شعوري بالجنون في الانحسار. استغرقت التمشية أكثر من نصف ساعة. آمل أن أستطيع تحرير سيّارتي وقت العودة، لكنّي كنت سأشتري بنزين في طريق العودة يوم الجمعة والآن لا يمكنني ذلك.

ما زال قسم الدراسات الإنجليزيّة والأمريكيّة قائمًا، وليس موصدًا. هذا يعني وجود أحد هنا. عفوًا، غالبًا ما يوجد أحد هنا حتّى أيام الآحاد، نادرًا ما اضطررت لإقفال الباب بنفسي، برغم أنّي اضطررت لذلك فعلًا مرّة يوم تعبئة الأشياء القديمة في صناديق. مع ذلك لا بدّ أنّ أحدًا هنا. لا أشعر بوجود أحد وأنا أسير في الردهة الطويلة، ليس فقط أنّي لا أسمع طنين الكهرباء أو الصوت الرتيب لضرب أصابع متوتّرة على لوحات مفاتيح رخيصة، بل لا أشعر بحضور أحد. أذهب لمكتبي وأجد التدفئة شغّالة، مع أنّي دافئة بالفعل من صعود الربوة سيرًا. أفتح النافذة وأرى المطر قد ضرب الزجاج بتشكيلات المختلفة: خطوط مائلة متكسّرة تبدو بشكل ما مقصودة، تذكّرني بصورة لمسرِّع جسيمات في أحد كتبي. أبدأ تشغيل جهازي وأتوجّه للطابق الأعلى لأجلب بريدي.

ماري هناك تتحدّث مع إيفون السكرتيرة.

«ظنّي أنّ أغلبهم لا يتفقّدون بريدهم الإلكتروني في البيت». تقول إيفون «أقصد أنّهم كانوا يتحدّثون يوم الجمعة عن إغلاق الجامعة لأسبوع. سأندهش إن رأيت أحدًا هنا قبل الاثنين القادم. أظنّ أنّ بعضهم سيأتي يوم الجمعة من باب الفضول. لكنّ الأساتذة طبعًا لا يأتون أثناء الإجازات».

جرت العادة أن يدير القسم كبار الأساتذة بأنفسهم، بالمشورة بينهم. الآن، كما في أغلب أقسام الجامعة، يدير القسم مدير إداري معيّن خصيصًا لإدارة الميزانية. اكتسبت ماري بطريقة ما هيئة الأساتذة. ربّما أملًا في كسب ثقتنا. لكنّها حقًّا لا تعرف الكثير عن الحياة الأكاديمية، وغالبًا ما تصل لمسامعي كلمات إيفون وهي تحيطها علمًا بما يقوم به الأساتذة عادةً.

تبدو ماري غاضبة. «من هنا إذن؟».

«ماكس هنا، أوه مرحبًا آرييل، وآرييل هنا».

كل منّا أنا وماري تعلم أنّ وجودي ليس بذي أهمّية لأحد، أقوم بتدريس فصل مسائي واحد فقط خلال الفصل الدراسي الحالي، وهذا هو كلّ شيء. ليست لديّ أيّة مسئوليات إدارية ولا عضوية في أيّ لجنة. أنا مجرّد طالبة دكتوراه، ولم أعد تحت إشراف أحد حتّى. لذلك أندهش حين تستقبلني ماري كشخص كانت ترغب في رؤيته.

«آه آرييل» تقول، «إلى مكتبي إن سمح وقتك بدقيقة».

أنتظر لتتجاوزني إلى الردهة ثم أتبعها حتّى مكتبها، تفتح الباب وتبقيه مفتوحًا لي لأدخل. لا أظنّ أنّني دخلت مكتب ماري من قبل، لديها اثنان ممّا يسمّونها الكراسي «المريحة» موضوعان على جانبي طاولة قهوة واطئة باهتة، أجلس على أحدهما وتجلس هي على الآخر. يسعدني أن ولّت الأيام التي كان علينا فيها مواجهة رؤسائنا عبر مكتب... لا يمكن هذا الآن وأجهزة الحاسب الآلي تعترض الطريق. الجميع في المكاتب الآن يواجهون الجدران أو شاشات الحاسوب.

لا تقول ماري شيئًا.

«هل قضيت إجازة جيّدة؟». أسألها.

«ماذا؟ آه، نعم. شكرًا. الآن...»، تصمت مجدّدًا، لكنّي أفترض أنّها على وشْك أن تقول شيئًا ما أيًّا كان، فلا أهتمّ بمحاولة بدء حوارات قصيرة. «الآن»، تقول ثانيةً. «أنتِ وحدك في مكتب كبير للغاية، أليس كذلك؟».

اللعنة، كنت أعرف أنّ هذا اليوم سيأتي.

«إنّه مكتب سول بيرلوم». أقول. «وأنا أشغل فيه ركنًا واحدًا فقط، حقًّا.

هذا كذب، فما أن مضى شهرين تقريبًا على غياب بيرلوم، قمت بإزاحة كلّ ما على مكتبه ونقلت حاسوبه على طاولة القهوة ورتبت لنفسي مكتبًا على شكل حرف L بمكتبه ومكتبي، وشغلت كلّ أرفف الكتب بكتبي، في حال إذا ما اضطررت للفرار من الشقّة بالمدينة، واتخذت من المكتب سكنًا عموميًّا بأكواب قهوة متعفّنة وجميع ملاحظات بحثي. لدي درج مليء بأشياء أظنّها قد تكون ذات نفع يوم ما: ثلاثة ألواح صغيرة من الشوكولاتة المرّة، ومفكّ فيليبس، ومفكّ عادي، ومجموعة مقابس، ومفتاح إنجليزي، وعدسة مكبّرة، وقطع معدنية عشوائية وعدّة أكياس بلاستيكية، وما يدعو للقلق أكثر من أيّ شيء آخر الجهاز الهزّاز الذي أرسله لي باتريك بالبريد الداخلي كهدية خطِرة.

«حسنًا، واضح جدًّا أن سول لن يعود في المستقبل القريب، ما يعني أنّ جزءًا كبيرًا من مكانك غير مستخدم».

ليس بيدي شيء سوى أن أوافق على هذا، نظريًّا على الأقلّ.

«صحيح»، تقول ماري. «اسمعي، لقد اتّفق جميع رؤساء الأقسام على توفير إيواء مكتبي مؤقت للعاملين الذين اضطروا لإخلاء مبنى نيوتن. سيكون الزحام علينا جميعنا تقريبًا، لكنّه واجبنا. واتفقنا أن نأخذ نحن أربعة: اثنان سيتشاركان حجرة المقابلات، واثنان سيشاركانك المكتب. اتّفقنا؟».

«اتّفقنا»، أقول. لكنّي لا بدّ بدوت مذعورة لأنّي أحبّ مكتبي، إنّه المكان الوحيد الدافئ والمريح المتاح لي في العالم.

«هيا آرييل، أنا لا أطلب منك أن تغادري مكتبك أو شيئًا من هذا. بل فقط أن تتشاركيه مع آخرين لفترة، كنتِ ستفعلين ذلك في جميع الأحوال لو كان سول هنا».

«أعرف، لا تقلقي، أنا لا أشكو أو...».

«وعلينا جميعًا مسئولية تجاه اللاجئين».

«نعم، كما قلتُ لكِ، أعرف، لا بأس». أعضّ شفتَي. «حسنًا، من هما؟ هل نعرف؟ أقصد هل أعرف من سيشاركني المكتب»؟

«حسنًا»، تنهض وتتناول ورقة من فوق مكتبها. «لك أن تختاري إن شئت. هنا... لنر. يوجد مُحاضر في علم اللاهوت، وطالبة دكتوراه في علم تطوّر الكائنات، وأستاذ في علم البكتيريا ومساعد إداري».

حسنًا، لن أسمح بأن يدخل مكتبي عالم بكتيريا، مع أنّه سيجد فيه الكثير لدراسته، وأخشى أن ينظر المساعد الإداري للمكتب أيضًا نظرة عالم البكتيريا نفسها.

«ممم» أقول. «هل يمكن أن آخذ اللاهوتي وعالم تطوّر الكائنات»؟

تكتب ماري شيئًا ما على ورقتها وتبتسم لي. «هاك، الأمر ليس بهذا السوء، أليس كذلك؟».

أغادر مكتب ماري، وأنا أتساءل هل تتحدّث مع الجميع هكذا كأنّهم أطفال، أحاول جاهدةً أن أتقبّلها لكنّها تجعل الأمر صعبًا، أعتقد أنّها تلقّت دورات تدريبية في الإدارة الجيّدة من تلك التي تخبرك كيف «تفوّض» العاملين معك وتجعلهم يشعرون بأنّهم هم الذين اتّخذوا القرار الرهيب الذي سيكون عليهم فيما بعد تحمّل عواقبه. أوه، حسنًا، ما زلت لم أتفقّد بريدي بعد، أتوجّه للطابق الأعلى مرّة أخرى.

تعلم إيفون بالفعل بشأن الترتيبات المكتبية الجديدة. «سأهبط لاحقًا لأساعد في ترتيب المكاتب». تقول لي. «وروجر سيأتي بمكتب آخر أيضًا، وبعض الأرفف الإضافية، وسننقل جهاز بروفيسور بيرلوم وأيّ شيء أو قصاصات بمكتبه، لذلك هل يمكنك البدء في تصنيفها...؟»

في النهاية لا يوجد بريد لي.

متى «لاحقًا» هذا الذي ستأتي عنده إيفون؟ أيًّا كان، فأمامي وقت أقلّ ممّا كنت أظنّ لتصفّح جهاز بيرلوم خاصّة وأنّهم سينقلونه للمخزن. أعيده على المكتب وأوصله بالكهرباء وأشغله، ليست تلك المرة الأولى التي أحاول فيها تصفّحه، مع ذلك كانت المرّة الأولى مجرّد محاولة فاترة حقًّا للبحث عن خيط يؤدّي لأين عساه قد ذهب، وقفت لي وقتها، كما الآن، شاشة الدخول تطلب اسم المستخدم وكلمة السر. أعرف اسم المستخدم: سابو تو، لكن لا سبيل لمعرفة كلمة السر، في المرّة السابقة تظاهرت أنّي في فيلم وطبعت عدّة تخمينات بثقة قبل أن أدرك أنّها فكرة غبية، هذه المرّة سأتبع تكتكيك اقتحام أكثر تعقيدًا، وقد قرأت في كتاب أنّ تكتيك الاقتحام الأكثر تعقيدًا لا يتضمّن التخمين أو خوارزميات أو لوغاريتمات أو ملفات قاموس أو برنامج لاندفاع الحروف عشوائيًّا، تكتيك الاقتحام الأكثر تعقيدًا هو ببساطة أن تقنع شخصًا آخر بأن يعطيك كلمة السرّ.

من يعرف كلمات سرّنا؟ قسم صيانة الأجهزة بالطبع، لكن هل تعرفها إيفون؟ أفكّر لدقيقة، غير وارد أن تعرف إيفون كلمات سرنا، لكن ماذا لو احتاجت واحدة منها لغرض ما؟ الأرجح أنّه ليس عليها سوى أن تتّصل بخدمة صيانة الأجهزة. لا يمكن أن يكون الأمر معقّدًا: إذ كلّ شيء هنا ملك للجامعة رسميًّا بطبيعة الحال، بما في ذلك كافّة الملفّات على أجهزتنا، وقد اختفى بيرلوم، لذا... هل يمكن أن أتّصل بخدمة الأجهزة وأتظاهر ببساطة أنّي إيفون؟ لا أظنّ هذا، الأرجح أنّها تتّصل بهم طوال الوقت، سيميّزون صوتها. مم، أفكّر لدقيقة ثم أمرّر أصابعي في شعري الملبّك عدّة مرّات وأضبط هيئتي على «قلقة جدًّا» وأعود للطابق الأعلى.

«آه»، أقول فور أن أدخل. «إيفون».

ترشف شاي. «نعم آريل؟ أيّ خدمة».

«مم، عندي مشكلة صغيرة. بل كبيرة في الحقيقة ولا أعرف ماذا أفعل فيها تحديدًا».

«أوه، هل يمكنني المساعدة في شيء؟».

«لا أعرف». أعقد حاجبي وأنظر إلى أسفل للسجادة البنية. «أظنّ أنّه لا فائدة حقًّا لكنّي...»، أتنهّد وأمرّر أصابعي في شعري مرّة أخرى، «حسنًا، تعرفين أنّ جهاز بيرلوم سينقلونه للتخزين اليوم؟».

«نعم؟».

«حسنًا، إنّ به ملفًا أحتاج إليه ولا أعرف كيف أحصل عليه، لا أظنّ هذا ممكنًا، فسول ليس هنا ولم يعد لدي كلمة السرّ، كانت لدي بالطبع، لكنّي نسيتها و... أوه، كيف أشرح هذا؟ ثمّة مجموعة مختارات أدبية وضعها شخص من وارويك، وكان من المفترض أن أنهي الـ.. الـ الـ الـ، أن أنهي قائمة المراجع وأرسلها إلى سول بالبريد الإلكتروني، لم يكن ذلك ضروريًّا مدّة شهر آخر، لذلك لم أشغل بالي بها، لكنّي كنت قد بدأت جمع الأشياء للتخزين كما طلبتِ ثم تذكرتها فجأة». أرفع كتفي «أظنّ أنّي في حاجة لمعجزة أو شيء كهذا، لا أظنّ أنّك تعرفين كيف تخرجين ملفًا من جهاز بدون كلمة السرّ، أليس كذلك؟ أقصد أنّك لست من باب المصادفة مقتحمة أجهزة محترفة في وقت فراغك؟». أضحك كأنّ أيًا منا لم تكن لتفكّر في اقتحام حاسوب آلي.

تحتسي إيفون شايها. «حسنًا، تلك مشكلة، أليس كذلك؟».

«أعرف. أظنّ أنّني كنت أقوم بتجميع البحث كلّه إلى أن يتّصل سول، ظننت أنّه سيتّصل قبل الموعد النهائي بوقت قليل، لكنّه بالتأكيد لن يعلم أنّ جهازه ذهب للمخازن، و... يا إلهي!. آسفة لإزعاجك بهذا، لكنّي ظننت أنّه إذا كان ثمّة أحدٌ يعرف ماذا يفعل بشأن هذا، فسيكون أنتِ».

أحرص على ألّا أتفوّه بعبارة «كلمة السرّ» كثيرًا. حدسي يخبرني أنّي لو جعلت المشكلة في كلمة السرّ سيبدو الأمر أكثر ريبة ممّا لو كان ببساطة «أنا في حاجة لملفّ ولا أعرف كيف أحصل عليه». وأعتقد أنّ الاستظراف بخصوص الاقتحام يفيد لكنّه يبدو مجازفة.

«هل حاولتِ مع قسم صيانة الأجهزة؟». تسأل.

«ليس بعد. ظننت أنّهم سيخبرونني أن أذهب بعيدًا، أعني أنّي بالنسبة لهم قد أكون أيَّ شخص، وقد يكون طلبي غريبًا بعض الشيء. أعني... أنتِ تفهمين بالطبع، لكنّي لست متأكّدة أنّهم سيفهمون».

«أتريدين أن أتّصل لكِ بهم؟».

«أوه، أيمكنك هذا؟ شكرًا جزيلًا إيفون».

«سأوقّع طلب كلمة سرّ جديدة وأحصل على واحدة منهم وأرتّب كلّ شيء لكِ. حين يعود بروفيسور بيرلوم سيكون عليه مع ذلك أن يضع أخرى جديدة لأنّ القديمة ستكون قد أُلغيت بطبيعة الحال. لا أعرف متى سيأتون إليكِ، لكن هل تخبرينني حين يصلون فنأتيَ ونقومَ بترتيب المكاتب وقتها؟».

الساعة الثانية عشرة ولم يأتِ فنّي الحاسب بعد وأشعر بالجوع. إن أمكنني الحصول على الخبز، فسيمكنني عمل ساندوتش شوكولاتة (لن يكون هذا أسوأ غداء تناولته)، لكن كيف أعلم إن كان المقصف يعمل حتى. أجرب فتح موقع الجامعة الإلكتروني لأدخل على الشبكة الداخلية وأرى أيّ المطاعم والكافيتريات تعمل، لكنّ كلّ ما أجده رسالة خطأ 404 بدلًا من الصفحة الرئيسية، لا جرم أن لا أحد هنا، إذ لو كانوا حاولوا الدخول على موقع الجامعة ليروا إن كانت تعمل أم لا فالمؤكّد أنّهم قد توقّعوا الأسوأ لدى رؤيتهم هذه الصفحة. أتنهّد، حتّى الشوكولاته وحدها لن تكون أسوأ غداء تناولته ـ بل هي بدرجة ما ذواقة في الحقيقة ـ لكنّها ستكون رائعة بالخبز، وهو في المقصف بعشرة بنسات فقط. أكتب ملحوظة وأعلّقها على الباب بدبوس مكتب. «سأعود خلال خمس دقائق». أرجو فقط ألّا يأتي وينصرف.

مبنى راسل مثل مبنى ستيفنسون الكائن بالجهة الغربية من الحرم، يحتلّ مساحة بشكل زهرةٍ ذاتِ أربع بتلات بأروقة قليلة في المنتصف، لم أقضِ

وقتًا طويلًا في مبنى ستيفنسون من قبل، يقول الطلبة إنّه مثل مبنى راسل تمامًا إنّما «من الناحية الأخرى»، ما يبدو مربكًا لا محالة، خاصّة مع اعتبار أنّ مبنى راسل في ذاته مربك بشكلٍ كافٍ. عادةً ما أضلّ طريقي في مبنى راسل في بداية كلّ عام دراسي، حين يكون جميع طلبة السنة الأولى من حولي بارتباكهم الذي يبدو أنّه يتسرّب من أذهانهم ليصيب الجميع.

الآن، أخرج من المدخل الجانبي لقسم إنجليزي وأسير في الممشى المؤدّي لأحد مداخل راسل الجانبية. أصعد بضع درجات أسمنتية وأهبط أخرى ثم أهبط أخرى لأصل لفم ردهة بيضاء طويلة بورق حائط مهترئ وجدران مطليّة بالأبيض. يبدو هذا المكان عاديًّا تقريبًا حين يكون الطلبة هنا، لكنّه الآن يشبه جناحًا طبيًّا لمحطّة فضاء مهجورة منذ الستينيات، أو ذكرى شخص ما عنها. يحتفظون بأثاث الجامعة المكسّر في إحدى الغرف هنا. أسمع وقع خطواتي وأنا أسير، ولأول مرّة على الإطلاق أشعر أن لا أحد غيري في المبنى.

الطاولات في مساحة تناول الطعام مرتبة بنمط هندسي يبدو عشوائيًّا، لكنّك إن صعدت لأعلى، عند مقصورة الأساتذة، ونظرت لأسفل من هناك، سترى أنّ الطاولات الطويلة كلّها تتّجه لقِبلة الكاتدرائية التي تنتصب بدورها في إطار النوافذ الكبيرة بالجدار الخلفي للقاعة. الأمر كلّه منطقي، من أعلى هنا، الأمر كلّه، وتشعر كأنّك جزء من صورة واحدة وأنّ الخطّ الواصل بينك وبين الكاتدرائية ليس عليه شيءٌ حقًّا.

أنت في الظلمة والكاتدرائية في إطار مستطيل من النور. اضطررت ذات مرّة للمرور بهذه القاعة القاتمة حين كنت أبحث في أجهزة العرض عن شريحة شفّافة تركتها خلفي بعد محاضرة، لأنّ أمينة المكتبة كانت بلا شكّ ستطلق النار على ركبتي إن لم أُعدْها. وجدت في الصندوق مع الشريحة (وكانت للوحة العذّاء لفيتوريو كوروونا[1]) شريحة أخرى لغلاف كتاب وهم

(1) Vittorio Corona (1901-1966): رسّام إيطالي..

النهاية لبودريّار[1]، رفعتها لأعلى لأراها في الضوء الوحيد المتاح: نافذة الجدار الخلفي للقاعة، وكان أن رأيتها. كانت الشريحة كلّها خلفية مموهة لكنّ الكاتدرائية لم تكن كذلك، بل كانت واضحة تمامًا. أدركت حين حاولت التدقيق في التفاصيل أنّي أنظر للكاتدرائية عبر الشريحة، فكانت الصورتان صورة واحدة، وقعت في غرام الشريحة وأخذتها معي لمكتبي وبحثت عن طريقة للنظر إليها على الجدار بجانبي، لكنّي لم أستطع، ولا أعرف أين هي الآن. ثم قرأت المزيد من أعمال بودريّار بعد ذلك.

اليوم الطاولات هنا بتشكيلها المعتاد، لكن بلا دوارق مياه ولا ناس، وكلّ شيء كما تخوّفت، مغلق. هل أذهب لمبنًى آخر؟ يبدو ذلك عبثًا من أجل لفافة خبز، أعود أدراجي وأتناول باكوين شوكولاتة كاملين، ثم أشرب كوب قهوة مع سيجارة وأجلس في انتظار الفنّي. أحاول ألّا تحزنني فكرة أنّ اليوم قد يكون آخر يوم لي وحدي في المكتب، لكنّ الأمر صعب، لن يعود بإمكاني التحدّث إلى نفسي هنا، أو التدخين خارج النافذة، أو النوم على المكتب الآخر، هل سيرغب القادمون الجدد في إغلاق شيش النافذة بزاوية مختلفة، هل سيحضرون نباتات في أُصُص؟ التفكير في الأمر كلّه ثقيل للغاية.

لقضاء الوقت أتصفّح الإنترنت على حاسوبي وأبحث عن كلمة تروبوسفير، لا أتوقّع ظهور شيء، لكن ثمّة شيء، الكلمة تعني إحدى طبقات المجال الجوّي للأرض: حيث يتكوّن أغلب الطقس. هل يُعقل أنّ هذا فات على لوماس؟ كنت أظنّ أنّها من اختراعه. أبحث عنها في قاموس أوكسفورد بدلًا من الإنترنت، وأجد أنّ أول استعمال لها كان عام 1914. لوماس أول من اخترعها إذن ولم يلحظ أحد. لكن لماذا؟ إنّها مجرّد رواية

(1) Jean Baudrillard (1929-2007): عالم نفس، وفيلسوف، ومصوّر فرنسي، ترتبط أعماله غالبًا بما بعد الحداثة وما بعد البنيوية. من أعماله: «كلمات السرّ»، «أنين القوّة»، «لماذا لم يختفِ كلّ شيء؟»، «مؤامرة الفنّ»، صدر كتابه «وهْمُ النهاية» عام 1992.

برغم كلّ شيء. بعد قراءة كلّ شيء عن الكلمة، أقوم ببحث عن «*نهاية السيِّد واي*»، فقط لأرى إن كان ثمّة نتائج بحثٍ لم أرها من قبل.

حين تبحث على الإنترنت عن *نهاية السيِّد واي*، تأتيك عادةً ثلاث نتائج: واحدة لمقتطَف من بحث بيرلوم القديم في مؤتمر جرينيتش، والثانية مشاركة شخص ما في منتدى نقاش بموقع للكتب النادرة يطلب فيها نسخة من الكتاب دون أن يردّ عليه أحد، والثالثة غامضة قليلًا، رابطة معجبين بالأساس، بخلفيّة سوداء وزخارفَ قوطيّة، كان لديهم، على حدّ علمي، معلومات كثيرة حقًّا عن الكتاب، وصفحة عن اللعنة، وصفحة أخرى لتخمين السبب في نفاد الرواية. بدا أنّ لدى مدير الموقع نظرية مؤامرة في هذا الشأن، إذ يزعم أنّ الحكومة الأمريكية قد تتبعت جميع النسخ المعروفة ودمّرتها، بما في ذلك النسخة المودعة في خزانة البنك الألماني (المزعوم أنّها لهتلر)، لكنّه لم يقل لماذا يظنّ هذا، بل ألمح لسرٍّ ما عظيم الشأن لا يعلمه أحد. الحقيقة فيما أعتقد أنّه منذ البداية لم تتوافر نسخ كثيرة من الكتاب، وحين يسقط كتاب في ظلمة الغموض لأكثرَ من مئة عام يختفي من العالم، هكذا ببساطة. على كلّ حال، حين تصفّحت موقعهم منذ ستّة أشهر أو يزيد وجدته مغلقًا، أتحقّق منه مرّة أخرى وأجده كما تركته مغلقًا. لا رسالة خطأ أو شيء كهذا، بل الصفحة الرئيسية فقط تقول ببساطة «أغلقوني وذهبت».

اليوم اندهشت حين وجدت رابطًا رابعًا لصفحة بها ذكر لـ*نهاية السيِّد واي*. مدوّنة بعنوان «أيّام من حياتي»، أضغط على الاسم فيأخذني لشاشة باللونين الأبيض والوردي بتدوينات لخواطر متنوّعة. أبحث لأعلى ولأسفل لكن لا أجد كلمة *نهاية السيِّد واي*، أستخدم خاصية Find بدلًا من ذلك فأراها. مدوّنة منذ الجمعة الماضية:

اضطررت للعمل في المكتبة مرّة أخرى برغم الدوار البشع الذي استيقظت به (الفضل لسام). قضيت اليوم أزيل الغبار عن الكتب وكان ذلك شافيًا بطريقة عجيبة. لم يأتِ زبائن سوى طالبة دفعت 50 جنيهًا مقابل كتاب عنوانه «*نهاية السيِّد واي*»،

لم أسمع عنه من قبل لكن يبدو أنّه نادر جدًّا. لعلّي سأتاجر في الكتب المستعملة. ما رأيك سام؟ قد نصير شركاء وندع الكلية المقرفة ونجمع ثروة من هؤلاء الذين يدفعون المئات مقابل الكتب القديمة. هل ذلك صعب؟

أسمع دقًّا على الباب فأغلق المتصفّح فورًا.

إنّه الفنّي. «آريل مانتو؟». يقول وهو ينظر لورقة في يده.

«نعم»، أجيبه.

«جئت لأضع كلمة سرٍّ جديدة».

«أوه، نعم، رائع». أقول. «هذا الحاسوب هناك».

أحاول الانهماك في شيء آخر بينما يقوم بمداعبة النظام ظنًّا منّي أنّه كلّما قلّلت من الضجّة حول المسألة، قَلّ الاشتباه في الأمر كلّه. لهذا لم أُفسّر أو أُبرّر له احتياجي لكلمة سرٍّ جديدة للحاسوب؛ فقط تركتُه يقوم بمَهمّته بينما أخذت أطبع على حاسوبي ملاحظاتي عن السيِّد واي. من منظورٍ مثالي، أرغب في تخصيص فصل كامل من رسالة الدكتوراه عن *نهاية السيِّد واي*. ستكون كتابته مُهمّة سهلة لفرط شغفي بالكتاب، وسيكون في حدّ ذاته أيضًا مقالة أو ورقة مؤتمر ممتازة. المشكلة الوحيدة أنّي لست متأكّدة من الطريقة التي أثبت بها أنّه تجربة فكرية.

التجارب الفكرية أو بالألمانية gedankenexperiments، هي التي، لأيّ سببٍ من الأسباب، لا يمكن تنفيذها ماديًّا، بل بدلًا من ذلك يجب إجراؤها داخليًّا في الذهن، بالمنطق والاستدلال. لمئات السنين، إن لم يكن لآلاف السنين ظلّ هناك تجارب فكرية أخلاقية وفلسفية، لكنّها سمِّيت «بالتجارب الفكرية» فقط حين بدأ استخدامها في سياق علمي، ترجمة حرفية لـ ge-dankenexperiments، مع أنّ لوماس ظلّ يدعوها بتجارِب الذهن. الأثير الكوني نتاج تجربة فكرية من هذا النوع، تفترض تلك التجربة أنّه إذا كان الضوء موجة، فلا بد أنّها موجة من شيء ما، إذ لا موجة ماءٍ بدون ماء ـ من أين إذن «يتدفّق» الضوء. هكذا اخترع الناس الأثير الكوني كإجابة، فقط

ليتخلّوا عن الفكرة مرّة أخرى حين أثبتت تجربة مايكلسون ـ مورلي أنّه، وللأسف، لا وجود للأثير.

كذلك استخدم إدجار آلان بُو مبادئ التجربة الفكرية لحلّ مفارقة أولبرز[1]، وربّما فيما يعتقد بعضهم لتأليف نظرية الانفجار العظيم قبل ذلك بمئة سنة تقريبًا. إذ تَعرِض قصيدته النثرية أيوريكا أفكاره العلمية والكونية، لكنّ بُو لم يكن عالِم تجارب، لذلك اتخذت تلك النظريات شكل التجارب الفكرية، أو ربّما اتخذت شكلًا يقترب من وصفه هو للأزلية، بأنّها «فِكر الفكر». كان حلّه لمفارقة أولبرز أحد أكثر التجارب الفكرية أناقة في التاريخ. عام 1823 تساءل فيلهلم أولبرز[2] لماذا نرى النجوم بشكلها الذي هي عليه في سماء الليل؟ كانوا جميعًا تقريبًا وقتئذٍ يؤمنون بأنّ الكون لا متناهٍ وسرمدي. إذا كانت السماء لانهائية إذن، فبالتأكيد سيكون بها عدد لا متناهٍ من النجوم؟ وإذا كان هناك عدد لا متناهٍ من النجوم، فيجب أن تكون سماؤنا الليلية بيضاء، وليست سوداء كما هو الحال. ظنّ أولبرز أنّ السبب وراء هذا سحابات الغبار، وكَتَب: «إنّه من سوء الحظّ ألّا تتلقى الأرض ضوء النجوم من كافّة أرجاء القبّة السماوية!». أمعن إدجار آلان بُو فِكرَه في هذا الأمر وقرّر أنّ الحلّ أكثر بساطة ومعقولية، إذ وجد أنّ «الفراغات التي تراها تليسكوباتنا في جميع الاتجاهات» سببها ببساطة أن بعض النجوم ما زالت بعيدة للغاية لدرجة أنّ ضوءها لم يصلنا بعد.

لعلّ أشهر تجربة فكرية في التاريخ حين تساءل آينشتاين عمّا سيحدث إن أمكنه اللحاق بشعاع ضوء. وجد آينشتاين أنّه إن أمكنه السفر بسرعة الضوء، فسيكون بإمكانه، منطقيًّا، أن يرى شعاع الضوء كما لو كان واقفًا لا يتحرّك. تمامًا حين تكون في قطار يتحرّك بنفس سرعة قطار آخر يتحرّك

---

(1) Olbers Paradox: مصطلح في الفيزياء والفلك، يعبّر عن المفارقة بين ظلمة السماء في الليل وافتراض وجود عدد لا متناهٍ من النجوم التي من شأنها أن تنير السماء بقدر أكبر ممّا تفعله الشمس.

(2) Wilhelm Olbers (1758-1840): عالم فيزياء وفلك، ألماني.

بموازاته وترى الركاب في القطار الآخر بجانبك كأنّهم لا يتحرّكون. كيف سيبدو الضوء إذن حين يكون ساكنًا، موجة صفراء جامـدة؟ طلاء جسيمـات مرشوشة؟ وماذا لو نظرت لنفسـك في مرآة وأنت تسافر بسرعة الضوء؟ ستبدو لا مرئيًا، بل لعلّك ستكون بالفعل لامرئيًا. أدرك آينشتاين أنّه لا وجود لمجال كهرومغناطيسي يسكن للحظة. كذلك أوضحت معادلات ماكسويل[1]، التي بدا أنّها تحمل نظريًا إمكانية اللحاق بشعاع الضوء، أيضًا، أنّ الضوء ليس شيئًا يطرأ عليه الثبات. لا بدّ إذن أنّ واحدة من تلك النقطتين كانت مخطئة، سيكون ممتعًا إن كانت الأخيرة، وأن يكون بالإمكان اللحاق بالضوء ورؤيته جامدًا، لكنّ ذلك ليس بالإمكان لأسباب عديدة لا بدّ لي من المزيد من محاضرات الفيزياء لفهمها. تقول نظرية آينشتاين عن النسبيّة الخاصّة إنّه مهما كانت السرعة التي تتحرّك بها، فسيظلّ الضوء من حولك يتحرّك أسرع منك بنسبة سي c، سرعة الضوء. سواءً كُنت تتحرّك بسرعة ميل واحد في الساعة أو ألف ميل في الساعة، فالضوء الذي تراه من حولك يتحرّك دائمًا أسرع منك، ودائمًا بسرعة سي. وإن كنت تتحرّك بنصف سرعة الضوء، لن يبدو لكَ أنّ الضوء الآتي تجاهك يتحرّك بضعف سرعتك. سيظلّ يبدو لك أنّه يتحرّك بسرعة الضوء، بسرعة سي بالنسبة لك.

«لنتخيّل صديقتنا القديمة عربة القطار تسافر على القضبان بسرعة في v»، يقول آينشتاين في كتابه النسبيّة، ثم يوضح أنّه إذا سِرْتَ داخل العربة في نفس اتجاه سيرها، فلن تكون سائرًا بسرعتها ولا بسرعتك لكن بمجموع الاثنين معًا، فإذا كان القطار يتحرّك بسرعة مئة ميل في الساعة، وأنت تتحرّك بسرعة ميل واحد في الساعة، فستكون سرعتك بالنسبة لما تمرّ به فعلًا مئة وواحد ميل في الساعة. كذلك، إذا جئت أنا على الدرّاجة البخارية أقود بمحاذاة قضبان السكّة الحديد بسرعة، قل مثلًا، خمسة وثمانين ميلًا في

(1) James Clerk Maxwell (1831-1879) عالم فيزياء، بريطاني، أسهمت معادلاته في تفسير ظهور الموجات الكهرومغناطيسية.

الساعة، ومرّ هذا القطار بي، فسيبدو بالنسبة لي أنّه يتحرّك بسرعة خمسين ميلًا في الساعة، وستبدو أنت لي، وأنت تسير بداخله، كأنّك تسير بسرعة ستّين ميلًا في الساعة، وإن نظرت أنت من النافذة للخارج، فستراني أقود الدرّاجة البخارية، لكنّي سأبدو لك كأنّي أعود للوراء. كلّ تلك السرعات النسبية النيوتنيّة لا تنطبق على الضوء.

توضح معادلات آينشتاين، خلاصة تجاربه الفكرية الأصلية، أنّ المادّة والطاقة تجلّيّات مختلفة للشيء نفسه، وأنّك إن حاولت الاقتراب من سرعة الضوء فستصير أثقل كلّما اقتربت منه إذ تتحوّل طاقتك لكتلة. أوضح آينشتاين أيضًا أنّ الزمان والمكان شيء واحد في الأساس. بالنسبة للوماس، البعد الرابع مكان به كائنات أو على الأقلّ فِكر. بالنسبة لأتش جي ويلز[1] هو عالم أخضر تسكنه نفوس. وبالنسبة لزولنر مكان يعجّ بأشباح يبدو أنّ تقديم العون للسحَرة ليس أحبّ هواياتها إليها. لكنّه بالنسبة لآينشتاين، لم يكن مكانًا أساسًا، وليس زمانًا بالطبع، بل زمكان: ليست مجرّد ساعة، بل ساعة تدقّ على جدارك أنت الخاصّ، بالنسبة لك أنتْ.

يتنحنح الفنّي. «انتهينا تقريبًا»، يقول.

«عظيم، شكرًا»، أجيبه.

أفكّر أحيانًا فيما كان سيجري لو كنت أنا آينشتاين، أجلس في مكتب اختراعات خانق... أنظر للخارج لقطارات ومسارات السكّة الحديد، ثمّة شيء رومانسي في هذا بالطبع، على نحو لا يتسنّى سوى لحياة الآخرين. أرفع عيني عن ملاحظاتي سريعًا وأشخص ببصري خارج النافذة ذات الإطار المعدني الكبير. تأتيني فجأة بعض وصلات غريبة بلوماس، أهبط بنظري للملاحظات. أكتب:

المجاز (كما في تمهيد لوماس...

(1) H.G. Wells (1866-1946): أديب إنجليزي معروف بأعماله في الخيال العلمي.

التحوّل ... (محيط التحوّل! - غريبة!) أساليب التفكّر في العالم. لا يمكنك استخدام القطار كمجاز ما لم تكن القطارات موجودة. في المقابل. نظرية الاختلاف - الإرجاء[1]، هل يمكن لفكرة أن توجد بدون اللغة التي توجد بها؟ كيف تؤثّر اللغة أو (المجاز) في الفِكر؟ في المقابل. فنّ الشعر. لولا الليل ما تذكّر أحدٌ العصور الماضية.

«كلّ شيء تمام»، يقول الفنّي. «كلّ شيء جاهز. تفضلي اطبعي كلمة السرّ الجديدة وسنكون قد انتهينا...».

ينهض ويبتعد للجانب الآخر من الحجرة وأجلس مكانه وأفكّر في كلمة سرّ جديدة، فقط سأستخدم كلمة سرّي، هكذا أبسط. تمرّ بذهني كلمات قليلة ممكنة. لكنّ شيئًا ما يجعلني أطبع في المستطيل بهدوء كلمة hacker [مقتحم]. تظهر في ستّة نجوم صغيرة فأضغط ok وأقول للفنّي تمام. يأتي ويقوم بأشياء أخرى قليلة ثم يعيد تشغيل الحاسوب.

«كلّ شيءٍ جاهز». يقول ثم ينصرف.

ما إن أحرّك الماوس ملليمتر على سطح الشاشة، يدقّ جرس التليفون. إيفون.

«ألم يأتِ الفنّي بعد؟». تسأل.

«نعم»، أقول «غادر لتوّه».

«لديكِ الآن الملفّ الذي كنتِ تريدينه إذن؟».

«إرر.. لا. ليس بعد. بدأت أبحث لتوّي».

«حسنًا، ابحثي وسأكون عندك بعد عشرة دقائق لنضع المكاتب. روجر هنا الآن، لكنّي سأقدّم له كوب شاي وننتظر قليلًا. لا مانع لديك من الانتظار عشر دقائق أخرى روجر أليس كذلك». أسمعه يهمهم أن نعم إن وُجد بسكويت أيضًا. «حسنًا أريل. أراك سريعًا إذن».

---

(1) نظريّة جاك دريدا.

عشر دقائق... لن يمكنني تصفّح حاسوب بيرلوم في عشر دقائق فقط. حسنًا: الخطّة ب. أخرج الآيبود من حقيبتي وأصلها بمؤخّرة حاسوب بيرلوم. أدعو (أدعو من؟ من أجل ماذا؟) ألّا يرفضها الحاسوب، وخلال ثوانٍ تظهر في قسم F. خيال. ليس عليّ الآن سوى أن أنقل مجلّد «ملفّاتي» الخاصّ ببيرلوم... وهكذا، يستغرق الأمر حوالَي عشرين ثانية. هل يخبّئ ملفّات أخرى بقسم آخر في الحاسوب؟ أقفز هنا وهناك داخل الحاسوب، مجازًا، لكنّ ضغطات قليلة على المجلّدات تؤكّد لي أنّه لا يستخدم قسمًا آخر سوى مجلّد ملفّاتي. لست راضية تمامًا لكن يكفي هذا. أتأكّد من نسخ الملفّات ثم أنزع الآيبود وأغلق الحاسوب تمامًا قبل أن يعلن خبط الباب وصول إيفون.

ثمانية

تنزعج إيفون من كمِّ الكتب في الحجرة.

«ما رأيك يا روجر؟». تسأل.

«حسنًا. ليس بإمكانك تعليق أرفف إضافية هنا».

أقوم بتفريغ أدراج مكتب بيرلوم بينما يتحدَّثان، كان ينبغي القيام بهذا من قبل. وجدت بالفعل بعض أوراق منفصلة تتعلّق بمنهج تدريس الأدب والعلوم، والآن أتعامل مع مخلّفات عادية، ملعقة شاي مسروقة من المطبخ على ما يبدو، أخبّئها قبل أن تراها إيفون، كيس قهوة، فلتر لم يُستخدَم بعد، أخبّئه أيضًا وأفكّر في مقولة «من يجد شيئًا، فهو له» وفي أنّ بيرلوم أيضًا لن يمانع من إعطائي قهوته للطوارئ. لا يوجد في أدراجه شيء آخر ذو نفع: الكثير من الأقلام الرصاص فقط. أوه، ومِبراة كهربائية. آخذها أيضًا.

«ما رأيك آرييل؟». تقول إيفون.

«عفوًا؟». أقول. استغرقت تمامًا في نهب أدراج بيرلوم لحدِّ أنّي على نحو ما أخرست صوتيهما.

«كنّا نقول إنّ علينا تخزين كتب بروفيسور بيرلوم أيضًا. هل تعبئينها إن جلبت لكِ صناديق؟ وسننهي الباقي غدًا صباحًا».

انتهيت من غالبية الكتب حوالي الساعة الرابعة، أو على الأقلّ الكتب التي لن أحتاجها أبدًا (الكلاسيكيّات الأدبية التي لديّ نُسخٌ منها بالأساس)،

وما يحنقني أنّها لم تملأ سوى صندوقين فقط من الصناديق الخمسة التي أرسلوها. وبالكاد أفسحت مساحة ضئيلة. أنظر حولي، يستحيل أن أرسل كتب بيرلوم النظرية للمخزن؛ لأنّني أحتاجها كلّها، كذلك النصوص الأدبية والعلمية يجب أن تبقى؛ لأنّني سأدرّس المنهج خلال أسبوعين، ماذا عن كتب القرن التاسع عشر العلمية؟ أظنّ أنّ لديّ الكثير منها في المنزل. خراء. ماذا أفعل؟

بينما أقلّب الأمر، يدقّ جرس التليفون.

«إذن...»، إنّه باتريك.

«إذن»، أجيبه، تطويلًا.

«خمِّني ماذا لديّ؟».

«ماذا لديك؟».

«مفاتيح».

«لـ...؟».

«لحجرات النوم بمبنى راسل. كنت أفكر إذن...».

أضحك. يرغب في أن يضاجع في الحرم الجامعي. هذا جديد. ثمّة شيء في صوته لم أنتبه له من قبل.

«باتريك» أقول كمن ستبدأ في إقناع طفل صغير بألّا يعبث بأعواد الثقاب. «ماذا لو... «؟

«لا يوجد أحد هنا. لمَ لا تحضرين معكِ ذلك الشيء الذي أرسلته لكِ».

هل أخبره أنّ لديّ صناديق يجب أن أعبِّئها بدلًا من هذا. ربّما لا. ماذا عن تفقُّد ملفّات بيرلوم؟ أفتح درج مكتبي وأنظر للشيء الذي يريدني أن أحضره ثم هكذا الأمر، تنهشني الرغبة، أشعر بها مثل سمّ دافئ يتغلغل في جسدي، أتجاهل الشيء الغريب في صوت باتريك، وأرى أنّها فكرة حمقاء، ثم، بعد أن أتّفق معه على ملاقاتي في ركنٍ ناءٍ بمبنى راسل، آخذ

حقيبتي وأذهب. أتلفّت خلفي وأنا أسير لأرى إن كان أحد يراقب ما يحدث. سأعبّئ الصناديق لاحقًا. ولن يستغرق الأمر طويلًا. مضاجعة سريعة قد تكون خاتمة مناسبة للنهار، آخرون يحتسون الشاي، أليس كذلك؟

بعد ذلك، حوالي الساعة السادسة، أجلس في الغرفة الصغيرة القذرة قليلًا بعد أن ينصرف باتريك، أفكّر في السبب الذي يجعلني أوافق على كلّ هذا، هل لأنّني أميل للتفكير في أنّه بإمكاني النجاة من كلّ شيء، لكنّي ما زلت أبحث عن دليل دامغ.

تكشّف أنّ صوت باتريك كان غريبًا لأنّ زوجته تتركه - لم تكتشف أمرنا، بل أغرمت بأحد صبيانها الدُّمَى. كان باتريك غاضبًا، وكان ذلك واضحًا. ليس معنى هذا أنّه دعاني ليُنفّس غضبه فيّ، فهو رجل لطيف حقًّا. لكنّنا ما إن دخلنا الحجرة حتّى اصطدم خياله على نحوٍ ما بالغضب والعنف الذي ظلّ يراكمهما في العالم الحقيقي، ما جعل كلّ شيء أكثر حدّة وبؤسًا وظلمة عن المعتاد. هل كان يعلم أنّه سيأخذ هذا المنحنى؟ مع ذلك كلّه، كان هو من طلب أن أحضر الجهاز الهزّاز الذي أرسله لي. لكنّه جاء بحبل أيضًا (ليس الوشاح الحريري المعتاد). بالتأكيد لم يكن في نيّته أن يصل للحدّ الذي تمادى إليه؟ أكان ينتظر منّي أن أقول له توقّف؟ لا أعرف لماذا لم أقل له توقّف؟ إلّا إذا كنت لم أرده أن يتوقّف؛ لأنّني، حسنًا، لعلّي أنا أيضًا أحبّ الظلمة والعنف. لعلّي في حاجة للظلمة والعنف كما للطعام والسجائر. ربّما... ربّما يجب أن أتوقّف عن التفكير في هذا.

أغادر الغرفة بعد عدّة دقائق أخرى، وبعد السير في رواق قذر على جدرانه ملصقات تنبّه الطلبة ألّا يتركوا نوافذ حجراتهم مفتوحة لئلّا تضع الحمامات بيضها بالداخل، أهبط الدرج المنحدر للردهة الرئيسية إلى رواق أبيض بأضواء بيضاء لأجد الباب الجانبي للمبنى موصدًا. لا يوصدونه مبكّرًا هكذا عادةً. خراء. أركله بقدمي عدّة مرّات، موصد بالتأكيد، عليّ إذن أن أسير كلّ هذا مجدّدًا من الناحية الأخرى، تتحرّك عيناي كعيني لصّ، سيبدو الأمر غريبًا إن التقيت بأحد الآن، ولن يكون بإمكاني حتّى أن أدّعيَ

أنّني كنت عند آلات العملات لأنّني لا أحمل أيَّ حلوى أو مقرمشات. هل أسير بشكل غريب؟ لن يكون هذا غريبًا بعد ما فعلته لتوِّي، أحد رجال الحرس الجامعي يومئ لي وأنا أتسلّل خارجة من المدخل الرئيسي للمبنى فأنظر له من فوق كتفي فاغرة بلا تعبير. عودة لمبنى إنجليزي، أعدّ قهوة في المطبخ الصغير المنعزل وآخذها لمكتبي، في البداية أتجاهل جوعي الشديد، لكنّي أتناول آخر باكو شوكولاتة مرّة.

أجلس القرفصاء على الأرض لفترة، فقط أنظر للكتب وأرشف القهوة وآكل الشوكولاتة. ثم أتفقّد سلخات الحبل الصغيرة على معصمي وكاحلي. ثمّة شيء ما مثير في بقع اللحم المسلوخة، شيءٌ ما باعث على السرور في التماثُل بينها. لكنّني على الأرجح لن أرى باتريك بعد ذلك أبدًا. قد أفعل أيّ شيء مرّة واحدة فقط على سبيل التجربة، لكن ذلك لا يعني بالضرورة أن أفعله ثانية. حتّى وإن كنت قد استمتعت به في وقت ما، أفكّر في إيفون، إنّها الآن في بيتها على الأرجح، تعدّ الشايَ لأطفالها في مطبخ بأضواء صفراء تسطع في كلّ مكان، وغسّالة أطباق، وتليفزيون كبير على أُهبَة الاستعداد لينفجر بالمزيد من البريق على ما تبقّى من المساء؛ أتساءل عند أيّ نقطة انحرف مسار حياتي ليتجنّب مثل هذا المآل، وما إذا كانت تلك الحياة أرقّ من الحياة التي أعيشها.

يخيّم الليل خارج النافذة وآخذ في تعبئة الصناديق بمزيد من الكتب المغبرَّة من بقائها على الأرفف لفترات طويلة، سرعان ما تصير يداي سوداء تقريبًا من الوسخ، أتجاهلهما وأبدأ تعبئة أول صندوق بأكبر قدر يمكنني الاستغناء عنه من كتب (سول بيرلوم الخاصّة بعلوم القرن التاسع عشر، يستغرق منّي هذا الأمر وقتًا أطول لأنّني أظلّ أتوقّف لأتحسّس الصفحات وأقرأ السطور الغريبة هنا وهناك. أطلت عن المعتاد في فيزياء ما وراء الطبيعة[1] لبروفيسور زولنر. نسخة بيرلوم غلافها بنّي مقوّى ومن القطع

(1) Transcendental Physics صدر في لندن عام 1880.

الصغير، صدرت عام 1901. أفتحه على صفحة عشوائية وأقرأ فقرة عن كانط والربّ والبُعد الرابع، مقابلها صورة لعُقَد. في صورة أخرى بعد هذا طاولة صغيرة تقف بذاتها، لها سطحان علويّ وسفليّ واسعان وصلدان، ويطوق جذعها الرفيع حلقتان خشبيّتان صلدتان. واضح أنّه إن كانت الطاولة والحلقات من الخشب الصلد فالحلقات بالتأكيد كانت هنا على الدوام؛ لكنّهما ليسا كذلك، فقد جُعلا هنا بسحرٍ ما. أقلّب الصفحة وأقرأ عن انبعاث أضواء غريبة ورائحة حمض الكبريتيك عند وضع الحلقتين حول الساق بأيدٍ لا مرئية، لعلّها قُوًى عُليا.

تخلّصت من حقيبة كتب كبيرة تقريبًا بهذه الطريقة في اختيار الكتب، أقرأ في الكتاب قليلًا ثم أضعه برفق وحزن في الصندوق. أحاول بعد ذلك ترتيب كتبي والكتب الأخرى التي «استعرتها» على رفّ واحد، لكنّه لا يكفيها. أنظر ثانيةً في كتب بيرلوم، لو وضعت المجلّدات الأربعة لكتاب زونوميا لإيراسموس داروين الصادر عام 1801 في الصندوق، لأتاح هذا مساحة قليلة، خاصةً لو وضعت بعض كتب أرسطو أيضًا. لكنّ زونوميا من الكتب المفضّلة لديّ، وكنت أنوي الرجوع إليه في الرسالة حقًّا، غير أنّه... في الحقيقة لن أرجع إليه، فقد أقنعني بيرلوم ألّا أُضمّنه. أتذكّر كلماته «انسَي السيِّد واي وانسَي زونوميا أيضًا». كان يرى أنّ 1801 وقت مبكّر جدًّا، وأنّ عليّ أن ألتزم بحدود زمنية... حسنًا، أظنّ أيضًا أنّي سأجد نسخة منه في المكتبة لو غيّرت رأيي. فلتذهب المجلّدات للصندوق إذن. يجب أن أقف على كرسي لأصل إليها، أحاول ألّا أنهمك في تحسّس كعوبها الخضراء السميكة، أفتحها وأمرّ بأصابعي على الورق القديم السميك وما به من آثار دقيقة من شجر. لم أعد أتعامل مع الكتب بحرص كعادتي، ربّما لأنّها نهاية يوم غريب، أو أنّهما ذراعاي المنهوكان، ترفرف الصفحات السميكة كلّما نزعت كتابًا من على الرفّ. لا تبدو المجلّدات بحالة جيّدة في الواقع، إذ حين أرفع المجلّد الرابع من على الرفّ، تسقط منه صفحة على السجادة مثلما تسقط ورقة شجر.

أنزل من على الكرسي وألتقط الصفحة، أجدها ليست من قطع الكتاب. ليس لها ملمس ذلك الورق ولا الطباعة السوداء السميكة بحرف الـ s الطويل الذي يبدو كحرف الـ f. انتبه أنّها ليست من زونوميا أساسًا. هذا الخطّ الصغير الرفيع مألوف لي وإن كان بطريقة ما في اللا وعي. آثار نزعِها من الكتاب. بها أيضًا تجعّد طفيف من طيِّها مرّة إلى أربع. تلك ليست صفحة سقطت من زونوميا بالمصادفة. إنّها الصفحة المفقودة من *نهاية السيِّد واي*.

ظللت واقفة مكاني لحوالي خمس دقائق كاملة أحدّق في الصفحة، لا أقرأ الكلمات، فقط ألمس الصفحة وأدع الدائرة تكتمل في رأسي. كان الكتاب لبيرلوم. كلّ الكتب التي كانت في صندوق محلّ الكتب المستعملة كانت لبيرلوم. وبيرلوم هو الذي، لسبب ما، انتزع الصفحة وخبّأها. بالتأكيد هو. لا شكّ أنّه هو الذي وضعها هنا. لا أحد غيري معه مفتاح المكتب. ولو كان أحد آخر هو من انتزع الورقة من الكتاب، لكان خبّأها في أشيائه وليس في أشياء بيرلوم. كما أنّني لا أعرف أحدًا آخر حقًّا غير بيرلوم سمع حتّى عن *نهاية السيِّد واي*. لكنّ لماذا يخبّئ بيرلوم ورقة من كتاب؟ وكيف بحقّ الأرض آل الأمر بالكتاب إلى مزاد. لا أفهم كيف تتّصل كلّ تلك الأشياء ببعضها. إذ، بعيدًا عن كلّ شيء، الكتاب بكامله نفيس لدرجة أنّ شيئًا ما حتمًا دفع ببيرلوم للجنون لينزع منه صفحة. ولماذا ببساطة لم يضع الكتاب كلّه على الرفّ؟

انسَي السيِّد واي. معذرة بيرلوم.. لن أستطيع الآن أن أنسى السيِّد واي.

وأتساءل الآن، أكان يريدني حقًا أن أنسى؟ لقد ربط بين السيِّد واي وزونوميا لأنّه يعرف أنّه ترك الصفحة هناك. لقد ربط بينهما في اللغة قبل وقت طويل من ربطي أنا بينهما في العالم الحقيقي.

ليس بإمكاني أن أقرأ الصفحة هنا، برغم صعوبة كبح نفسي عن ذلك، بل أضعها بحرص داخل كتاب زولنر الذي قرّرت أخذه معي للبيت، وبأسرع ما يمكنني، أنهي تعبئة الكتب في الصناديق وأغادر.

بعد ساعة من السير في البرد والظلام خلال هبوطي تلك الربوة، أنا الآن جالسة على كنبتي في المطبخ بكوب قهوة كبير، صار ذلك طقسًا دينيًا، أو لعلّه يجب أن يكون كذلك، لم أكن لأتخيّل أبدًا أنّي سأقرأ *نهاية السيّد واي*، ثم وجدت نسخة في ظروف أبعد ما تكون عن الطبيعي. لم أكن لأتخيّل قطّ أنّي سأجد الصفحة المفقودة، لكن ها هي الآن. وكلّ من تلك الأحداث يرتبط بالآخر، وإنّما ليس مصادفةً: فكلّ شيء محض سبب ونتيجة، المصادفة الوحيدة في كلّ هذا كانت حين بدأت الجامعة في الانهيار ونجم عن ذلك شقوق الفوضى تلك التي أتت بكلّ تلك الأحداث. بالطبع ما زلت لا أعلم شيئًا عمّا حدث لبيرلوم، لكنّي أعلم أنّ ما حدث له هو السبب الحقيقي وراء ما يحدث لي الآن. لماذا اختفى؟ أيًّا كان السبب، فلا بدّ أنّه أمرٌ سيّئ جدًّا، فقد آل بأثمن كتبه للبيع في صندوق في مزاد، وبالطبع الكتب الأخرى في الصندوق لبيرلوم أيضًا: أنقضّ عليها ما إن أدخل وأجد بعض ملاحظات على الهوامش بخطّه المدبّب الذي يعلو ويهبط، ما يؤكّد لي أنّ الكتب كتبُه. آخذ رشفة كبيرة من القهوة، ويقعقع قطار أسفل نافذتي وأنا أقرأ السطر الأول من الصفحة 131، ما تبقّى من السطر المقطوع بصفحة 130.

الحجرة المظلمة ذات المصباح الوحيد، وألقى عليه تحية المساء.

«أسعدت مساءً سيّد واي»، قال وابتسامة باردة حادّة تحتلّ وجهه. «هل نباشر العمل فورًا، يقيني أنّ النقود بحوزتك؟».

انحنيت لأسحب النقود من حذائي، ففقدت توازني قليلًا، ممّا زاد ابتسامة الطبيب حِدة.

«اسمح لي في القول، لديك حافظة نقود غريبة نوعًا ما سيّد واي».

«هذا كلّ ما أملكه من مال» أخبره، «ولم أكن لأدعه يُسرق منّي».

«بالطبع»، أجاب.

ثم طلب منّي أن أجلس إلى الطاولة، وجلس قُبالتي، كما لو كنّا سنبدأ مشاورات.

سلمّته النقود وشعرت بخواءٍ عميق يجتاح روحي. هل سيعطيني هذا الرجل بغيتي؟. عليّ أن أعترف أنّي توقّعت بنصف عقلي تقريبًا أن أرى في تلك اللحظة نفحة دخَان تعلن أنّ الخدعة تمّت. مع ذلك لم يكن ثمّة نفحات وظلّ الطبيب قُبالتي على الجانب الآخر من الطاولة.

«نسخت لك الوصفة» قال. «إنّها بسيطة ولا تتطلّب إعدادات خاصّة، مكوّنات شائعة كما سترى».

أرى عندئذٍ أنّه يمسك بيسراه ورقة زرقاء باهتة. المعلومات التي كنت أبحث عنها طيلة هذا الوقت هناك! لم أفهم لماذا كان هذا الرجل يجلس هناك بهذه الوضعية، يملك تلك المعرفة ببساطة، ذلك الشيء الأغلى من أيّ شيء. لماذا لم يعطني بسلاسة ما دفعت ثمنه. فجأة تملّكني شيطاني ورغبت في القفز من فوق الطاولة وانتزاع الورقة من يده. أعترف أنّي تماديت وتخيّلت إلقاءه أرضًا ومصارعته واسترداد نقودي، كان هذا في ذهني فقط، لكنّي في الواقع ظللت جالسًا هناك دون أن أفعل شيئًا، أنتظر بخنوع أن آخذ وصفتي.

«هذه التركيبة»، أقول، «لها نفس تأثير...؟».

«تودّ أن تعرف هل ستجعلك قادرًا على التخاطُر؟».

«أجل»، قلت. «إن كان ذلك ما حدث بالفعل في نوتنجهام».

عادت ابتسامة الطبيب الحادّة.

«هذا المزيج يجعلك قادرًا على التخاطُر إن كان ذلك كلّ ما تريده منه».

«إن كان ذلك كلّ ما أريده؟ ماذا تقصد بحقّ النعيم؟».

«سيأخذك المزيج للكثير من الرحلات المثيرة سيّد واي، أؤكّد لك هذا». واصل الطبيب في هذا الخطاب التنبُّئي لثانية أو اثنتين، بعدها بدا أنّ أمرًا مدهشًا يحدث له، إذ بدا جسده كلّه رخوًا كدميّة تتحرّك بخيوط وُضعت في الدولاب بعد العرض، وظلّ دقيقةً كاملة لم يحرّك ساكنًا ولم ينبس بشيء. ارتعش قليلًا حين عاد للحياة مرة أخرى كأنّ أحدهم أمسك بخيوطه مجدّدًا، نظر للورقة في يده كما لو أنّها تحيّره، ثم ودون أن ينبس بشيء، ناولها لي.

لم أكد أُلقي نظرة على كنزي حتّى دقّ على الطاولة مرّتين بمفاصل أصابع يده اليسرى لأنهض واقفًا.

«حسنًا إذن، سعدت مساءً سيّد واي، حظيت بما جئت لأجله».

تردّدت قليلًا لعلمي أنّ تلك قد تكون فرصتي الوحيدة لألقي السؤال الذي كان لساني يتحرّق منه.

«قبل أن أغادر»، قلت. «بودّي أن أسأل سؤالًا واحدًا».

رفع الطبيب حاجبه ردًّا على هذا دون أن يقول شيئًا. «أودّ أن أعرف كم عدد الآخرين الذين لديهم تلك الوصفة». قلت.

«تودُّ أن تعرف قيمة المعرفة التي تمتلكها»، قال الطبيب. «تودّ أن تعرف قدر القوّة التي تمتلكها الآن، وإمكان التقليل منها بين الآخرين، حسنًا، بإمكاني الإجابة عن سؤالك هذا بسهولة شديدة، أنت الوحيد الذي اشترى هذه الوصفة، ما من أحدٍ غيرك قَبِل بالرقود في خيمة وتناول شرابًا ناوله له غريب، فقط من أجل المعرفة. ربّما يكون من الشائع فعل ذلك لتسكين الألم، وربّما للذّة، لكنّني أؤكّد لك سيدي أنّك زبوني الوحيد حتّى الآن».

كانت لديّ أسئلة أخرى لكنّه أعلن أنّ المقابلة انتهت؛ فخرجت للردهة الباردة والمعتمة. رأيت في قاعة صغيرة إلى جانبي طفلًا يحاول إشعال نار، وكان يصدر عن هذا هسيس منخفض ومستمرّ وما يكفي من دخَان لِلَسع عينيّ. حين تأكّدت أنّ لا أحد يراقبني، فركت عن عيني العبوس ونظرت سريعًا في الورقة التي في يدي. كان ثمّة أربعة أسطر فقط مكتوبة بخطّ خائب لا مبالٍ وبلون بنفسجي باهت.

أعد الشراب بالطريقة التالية:

امزج معيارًا من الكربون النباتي، أي الفحم النباتي،

بقوامه البديل الألف، مع 99 نقطة ماء مقدّس

في قارورة تقطير أو قنينة ورجّ المزيج عشر مرّات.

ط. م 1893.

دسست الورقة الزرقاء في حذائي واتّجهت للباب.

أنهي قراءة الصفحة المفقودة من *نهاية السيّد واي* بريق جافٍ ونبض عنيف كأنّ قلبي سيندفع للخارج. لا أصدق. أعيد قراءة الصفحة فورًا في محاولة لاستعادة هذا الشعور بالهياج الذي اجتاحني حين وصلت

للوصفة، تقريبًا كما تعود لتقف في طابور ركوب أرجوحة ملاءٍ بعد أن أذهلتك وأثارتك للمرّة الأولى، لكنّ الأمر ليس كذلك. ليس جولة أرجوحة بإمكانك تكرارها مرّة أخرى، بل هي، على ما أظنّ، جولة أرجوحة يستحيل الخروج منها ببساطة. لا أستطيع البقاء جالسة بعد هذا. أنهض وأذرع الخطى في الغرفة، أشعر أن عليّ فعل شيء أكبر من هذا للتعبير عمّا يعتمل بداخلي، لكن لا أعرف ماذا. ضحك؟ دموع؟ ذهني مضطرب عصبيًّا، وفي النهاية لا أفعل شيئًا للتنفيس عنه. فقط أذرع الخطى وأدخن وأفكّر... أفكّر في التمهيد الغريب والتلميح بأنّ ثمّة شيئًا حقيقيًّا في *نهاية السيّد واي*. أفكّر في أنّ أحدهم، بيرلوم على الأرجح، قصد إخفاء هذه الصفحة التي ليست أيّ شيء سوى طريقة إعداد شربة. أفكّر في أوهام لوماس الغريبة عن التخاطُر، وأتذكّر تلك الفقرة عن «الحركة التلقائية الذهنية»:

كما صنع روبرت هودين الباردين ليقدّم بهم سحره، لي هنا أن أقدّم «حركة تلقائية ذهنية» قد يرى المرء بها أوهام الغيب وحقائقه، وقد يمكنه، إن عرف كيف، أن يَثِب للحركة التلقائية لجميع الأذهان وشحناتها.

حين أتأكّد من فهمي لأهمّية الصفحة والسبب المحتمل لإخفائها، أجلس وأنهي بقيّة الكتاب، تشوّش على رغبتي في العثور على المكوّنات وإعداد الشربة بنفسي.

الجزء الثاني

تنفلت الموادّ من مدى إدراك الحواسّ الإنسانية تدريجيًّا. لدينا مثلًا المعدن، قطعة الخشب، قطرة الماء، الهواء، الغاز، السعرات الحرارية، الكهرباء، الأثير الكوني. نسمّي كلّ تلك الأشياء مادّة، ونضع كلّ ما هو مادّة تحت تعريف عامّ؛ مع ذلك، فلا توجد فكرتان أكثر تناقضًا فيما بينهما من تلك التي نربطها بالمعدن، وتلك التي نربطها بالأثير الكوني.

حين نصل للأخير نميل على نحو لا إرادي تقريبًا لتصنيفه مع النفس أو العدم. لا يقيّدنا سوى تصوّرنا عن تكوينه الذرّي، وحتّى هنا نطلب العون من تصوّرنا للذرّة كشيء يتّسم بدقّة متناهية وصلب الملمس، وله وزن. لو دمّرنا فكرة التكوين الذرّي، لما اعتبرنا قطّ أنّ الأثير كيان، أو على الأقلّ، مادّة. وللحاجة لكلمة أفضل قد نطلق عليه «روحانيّ». الآن تقدّم خطوة لما وراء الأثير الكوني - تصوّر مادّة أندر كثيرًا من الأثير، بقدر ندرة الأثير مقارنة بالمعدن، ستصل فورًا (برغم كلّ عقائد العلم...) لفوضى لا نظير لها - مادّة ليست من جسيمات. إذ برغم إقرارنا بالدقّة اللامتناهية للذرّات، فإنّ دقّة الفراغات بينها هي التي لا تعقل.

إدجار آلان بُو

«تجلّيات التنويم المغناطيسي»

لمّا كانت جميع الأشياء المادّية قد أثبتت ترابطها وتكاملها جميعًا كجزءٍ لا يتجزّأ من شيء واحد؛ ظلّ الرباط وثيقًا بين الحصى عند أقدامنا وأبعد نجم من تلك التي تطلّ علينا من أعلى بلا جدوى. كذلك أيضًا تظلّ الصلة وثيقة بين سؤال «هل تمطر بالخارج يا عزيزي؟» والسؤال الميتافيزيقي الأكثر كآبة.

صامويل باتلر

«المفكّرات»

تسعة

تنظر للمرآة، فتخبرك هذه المرّة أن نعم، أنت ملعون.

صباح الثلاثاء، كانت الشمس بالكاد أشرقت حين وصلت لمكتبة الجامعة قبل أن تفتح أبوابها بخمس دقائق. ذهني مخدّر قليلًا من صعود الربوة في الضوء الرمادي القاتم تخنقني سماء الشتاء وتنفّسي في حدٍّ ذاته كسماء شتوية منمنمة. لأول مرّة على الإطلاق أسمع الآي بود وأنا أسير، رأيت أنّ الموسيقى تلائم تجربة صعود الربوة في الفجر، في يومي الأول ربّما كشخص تصحبه لعنة، استمعت لديكسيت دومينوز هاندل، نفس السيمفونية التي دارت ليلةَ قابلت بيرلوم في مؤتمر جرينيتش، أكرهها وأحبّها في نفس الوقت، أشعر بها حين أسمعها كشيء يزحف عليّ، على السطحين الداخلي والخارجي لجلدي.

قد يراني باتريك ما بعد حداثية لأنّ لديّ آيبود، لكنّي ما زلت أفضّل المكتبات على الإنترنت حين يتعلّق الأمر بالبحث. وبرغم علمي بما هو الماء المقدس ومن أين يمكن الحصول عليه، فليس لدي أدنى فكرة عن المكوّن الآخر في وصفة السيِّد واي، الكربون النباتي (أو الفحم النباتي)، حسنًا، لا بأس، يوحي الفحم النباتي بخشب أو نبات محروق، لكن ما هو قوامه البديل، قد تجيبني شبكة الإنترنت على نحو سريع لكن ليس بدقّة، إذ يجب البحث أيضًا عن معناه بالنسبة لكاتب بالقرن التاسع عشر... من يدرى؟ لعلّ المصطلح لم يعد مستخدمًا بعد، أو صار يعني شيئًا آخر الآن.

انظر كيف تغيّرت كلمة ذرّة على مدار القرون. عقدت العزم على إعداد تلك الشربة وتجربتها، برغم استيقاظي هذا الصباح بذلك الضمير الممزق الذي يأتيك أحيانًا وقت الاستيقاظ، وشيء ما يخبرني ألّا أفعل هذا، لكن لـِمَ لا؟ ليس الأمر أنّ الشراب قد يكون له أثرٌ مُضرٌّ، الفحم ليس سامًّا ولا الماء أيضًا، وعلى ما يبدو أنّ الوصفة جزء من الكتاب وأنّ لوماس يقصد، لأيّ سبب كان، أن يجرِّبَها القارئ.

أجد قسم تاريخ الطبّ في الطابق الرابع من المكتبة، في ركن صغير بجوار السلم، خلف كتب الدين والفلسفة. يوجد قسم بأكمله للطبّ البديل: وفرة من الكتب العتيقة بأغلفتها المقوّاة والتزامها الكتوم بألوان الأخضر القاتم والأحمر القاتم والرمادي، آخذ كتابًا أخضر سميكًا وأنظر إلى عنوانه: ذخيرة كنت[1]، تاريخ النشر: 1897. أجلس القرفصاء على السجّادة الباهتة وأتصفّحه، ترتيبُه غريب لا أفهمه، يدرج الكتاب قوائم أعراض مصنّفة تحت عناوين مثل النوم، العيون، الأعضاء التناسلية، الذهن. أنظر سريعًا في عنوان النوم، وأجد أشعارًا غريبة في قسم تحت عنوان الأحلام. أنظر في الصفحة كلّها وألمح كلمة أو جملة أحيانًا. مثل: أفاعٍ، جنسي، خزي، صيد، هياكل عظمية، رائحة كبريت، أسفل هذا أيضًا، نجوم تهوي، سرقة فاكهة، صعقه رعد، رأى أنّه.

تحت كلّ نصّ حروفٌ صغيرة لا أفهم معناها، يبدو أنّها اختصارات. في نصّ «يحلم بثعابين» يوجد الكثير من هذا: alum., arg-n, bov., grat., iris., kali-c, lac-c, ptel., ran-s., rat., sep., sil., sol-n, spig., tab. لا أعرف معنى الاختصارات، ولا لماذا طُبع بعضها بخطّ مائل.

أقلّب صفحات الكتاب للخلف لأرى قسم الذهن، وأسفل كلمة «أوهام» أجد مدخلات غريبة منها «الوهم بأنّه حيّ على جانب وميت

---

(1) James Tayler Kent (1849-1916) طبيب أمريكيّ، يعرف بكونه الأب الروحي لحركة الطبّ البديل المعاصرة.

على الجانب الآخر» والأكثر غرابةً «أولع بوهم أنّه». في قسم الأعضاء التناسلية الذكرية أجد إشارة للانتصابات الطائشة التي لا تحدث إلّا بعد الظهر أو أثناء السعال، أحبّ هذا، لكنّي لا أفهمه، أغلق المجلّد الثقيل وأتصفّح عدّة كتب أخرى على الرفّ نفسه. أمر مدهش، لطالما ظننت أنّ الطبّ البديل ليس سوى نوع غريب من طبّ الأعشاب، تجعلني رؤيةُ كلّ تلك الكتب أُدرك تمامًا مدى الجدّيّة التي يحمله بها بعضهم، أو بالأحرى كانوا يحملونه بها في منعطف القرن وقت صدور أغلب هذه الكتب لأول مرّة. جميع المؤلّفين لهم أسماء فخمة أو غريبة: د. كونستانتين هيرنج، د. جون هنري كلارك، د. ويليام بويرك، وثمة نساء حتّى، د. مارجريت تايلر، ود. دوروثي شبرد. لديهم جميعًا تلك الحروف قبل أسمائهم، ما ينبئ بأنّ الأعلام البارزة من ممارسي الطبّ البديل كانوا أطباء. في النهاية أجمع كومة من الكتب الصادرة منذ 1880 وحتّى بداية القرن العشرين، آخذها لطاولة صغيرة وأبدأ محاولة استيعابها كلّها.

بعد ساعتين من القراءة الصرف أخرج لأدخّن سيجارة. السماء الآن بلون واحد، أزرق اصطناعي، ولوهلة يبدو أنّ شيئًا ما قد انمحى منها. يجري سنجاب رمادي على النجيل أمامي، جسده الليّن يعلو ويهبط كموجة. أتابعه بنظري حتّى يتسلّق شجرة ويختفي. وراء الشجرة من بعيد أسفل الربوة تومض المدينة في ضوء واطئ مزيّف. كعادتها تطغى الكاتدرائية على المنظر، تبدو في هذا الضوء كأنّها بعدسة سيبيا أصفر داكن، كملف JPEG لصورة فوتوغرافية قديمة. أفكّر وأنا أنفث الدخَان في الهواء البارد فيما تعلّمته هذا الصباح: يبدو أنّ الطبّ البديل اختُرع أو بالأحرى اكتُشف أول مرّة عام 1791 على يد صامويل هانيمان، كيميائي كتب عن طرق الشفاء من السفلس والتسمّم بالزرنيخ، لم يكن راضيًا عن الممارسات الطبّيّة في عصره، وخاصّة الفصد. رأى هانيمان أنّ الملك ليوبولد ملك النمسا قُتل على يد أطبّائه الذين أجروا له أربع عمليّات فصد دم خلال أربع وعشرين ساعة كعلاج من حمى متأجّجة. أتت هانيمان لحظة تبصّر مدهشة أثناء

ترجمته للموادّ الطبية لكولينز، فأدرك أنّ لحاء السنشونا يشفي من الملاريا لأنّه مُرّ. كان هانيمان يعلم أنّ أعراض التسمّم بلحاء السنشونا مشابهة لأعراض الملاريا، بما في ذلك الاستسقاء الداخلي والهزال، فلاحظ أنّ المادّة التي تعالج الملاريا تسبّب أيضًا أعراضًا مشابهة جدًّا لها. فهل يمكن أن يصحّ هذا مع أعراض وأدوية أخرى؟ هل يمكن هذا، تساءل هانيمان، أن يكون الدواء من الداء؟

كانت تلك أولى لحظات هانيمان الإيوريكية التي أدّت في النهاية إلى نظام علاج دوائي مختلف تمامًا تحت شعار «الدواء من الداء». وكانت لحظته الإيوريكية الثانية حين اكتشف أنّ الجرعة الأصغر هي الشافية، إذ لا بأس من أن تعطي أحدهم بعضًا من لحاء السينشونا ليشفى من الملاريا، لكنّ لحاء السينشونا نفسه سامّ وقد يؤذي مَن يتناوله. لم تبدُ مداواة السمّ بالسمّ بالفكرة الحساسة، لذلك قام هانيمان بتجارب لتخفيف لحاء السينشونا، ووجد أنّه بالإمكان تخفيف أيّ مادّة خامّ إلى حدّ بعيد ويظلّ لها مفعول. فيما بعد، اكتشف علماء الطبّ البديل في القرن التاسع عشر أنّه كلّما خفّ التركيز، زاد المفعول: الاقتراب من متناهي الصغر اقتراب من أمر مدهش جدًّا، وقوي جدًّا. مفارقة، لكنّه هكذا، متى كانت المفارقات عقبة أمام فيزياء الكمّ، أو أمام آينشتاين.

البرد قارس بالخارج هنا برغم زرقة السماء. أطفئ سيجارتي وأعود للطابق الرابع بالمكتبة لأواصل القراءة، آخذ أول كتاب نظرت فيه من على الرفّ وأتصفّحه ثانيةً. أدرك الآن أنّه شيء يبحث فيه علماء الطبّ البديل عن الأعراض للعثور على الموادّ المشتركة التي تلي كلًّا منها. يبدو أنّ تلك الاختصارات الصغيرة الظريفة تشير لموادّ الطبّ البديل، Ars من Arsenicum [زرنيخ]، bry تعني Bryonia [الفشارا السوداء] Carb-v تعنى Carbo Vegetabilis [الكربون النباتي]. يعنّ لي حين أستوعب طريقة سير الأمر أن أبحث عن أعراضي الغريبة كلها ـ الاستيقاظ مبكّرًا، التوق للملح، التدخين، والكحول، تفضيل الجنس الآثم، تفضيل الوحدة على صحبة

الآخرين ـ لكنّ لا وقت لكلّ هذا. على معصمي وكاحلي سلخات متماثلة تلمع على جلدي كأجزاء صغيرة من البلاستيك الذائب. هل أجرّب البحث عن دواء لها. قد أقوم بهذا بسرعة، مع ذلك ربّما لا، إذ أحبّها تقريبًا.

أتثاءب دون أن أداري فمي بيدي: لم يأتِ أحد هنا طوال الصباح. ما زلت لا أعرف ما هو الكربون النباتي، ولا قوامه البديل الألف، أبحث في كومة الكتب على الطاولة إلى أن أجد أخيرًا نصيّن مفيدين. أحدهما سيرة ذاتية قصيرة للطبيب الإسكتلندي توماس سكينر، ممارس الطبّ البديل الذي زار الولايات المتّحدة عام 1876 وطوّر شيئًا ما يسمّى «حاوية تذويب المئويّات» لإعداد ما يشير إليه الكتاب باسم «قوامات ما فوق الألف»، بعد المزيد من التصفّح والقراءة أصل للنصّ المفيد التالي، فهرس عام 1925 لمدخلات صيادلة بويرك آند تافل للطبّ البديل بفيلادلفيا، يشرح هذا النصّ بتفصيل شديد كيف يتمّ صُنع (أو كان يتمّ صنع) أدوية الطبّ البديل. يبدو أنّها عملية مجنونة. إذ تُنقع المادّة الخام (لحاء السينشونا، أو الزرنيخ، أو الكبريت، أو سمّ الأفعى، أو أيًّا كان) في الماء «حتّى تتحوّل، في أفضل الحالات، لحبوب متماسكة». ثم يُصنع الدواء بأخذ نقطة من هذا «المنقوع الأم» ومزجها مع 99 نقطة كحول، ثم يُرجّ المزيج عشر مرّات، ثم تؤخذ نقطة من المزيج الجديد وتُمزج مع 99 نقطة كحول أخرى، وهكذا دواليك. ينتج القوام الثلاثين، الشائع في الطبّ البديل على ما يبدو، من تكرار تلك العملية ثلاثين مرّة. بذلك يكون القوام الألف (الذي يسمّونه م1) نتاج تكرار تلك العملية ألف مرّة. هذا على الأقلّ ما فهمته، لكنّه يبدو مستحيلًا، أقرؤه مرّة أخرى. نعم. صحيح.

خراء. أما زالوا يقومون بهذا حتّى الآن؟ أما زال هناك شيء يسمّى قوامات تافل العليا، أو حاوية سكينر. هل سأخرج من هنا لأعثر على فحم وأبدأ العبث بعِصِيّ المصاصات والبراندي (هل سيعتبر هذا القوام الأخفّ؟ على الأرجح لا) هل سيصمد مرفقاي حتى لكلّ هذا الرجّ؟ لا أملك ذراعين خارقين وليس لي صبر على هذا بأيّ معنى. انتهيت من محو

الهوامش التي خططتها بالقلم الرصاص في مئات الصفحات التي أردت أن أنسخها (استغرق ذلك طويلًا) شعرت بعدها كأنّني كنت أداعب أعضاء عملاق عمره مئة سنة.

إذ أفكّر في هذا وأتمنّى لو أجد صيدليًّا فيكتوريًّا يساعدني، يربّت أحد ما على كتفي. حتّى مع علمي أنّي هنا وحدي، لا أقفز، بل أكون مستغرقة تمامًا في تلك المشكلة الجديدة لحدّ أنّي أزيح اليد عن كتفي بلا اهتمام وأواصل القراءة. أشعر أنّه باتريك على كلّ حال. أشمّ عطر ما بعد الحلاقة الخشبي الذي يضعه ورائحة الليمون التي تنبعث من ملابسه النظيفة. يمسّ كتفي مجدّدًا وأضطر هذه المرّة للردّ عليه.

«أهلًا»، أقول دون أن أنظر إلى أعلى حقيقةً.

«مرحبًا»، يقول وهو يحوم على يميني. «عمّ تقرئين؟».

«الطبّ البديل بالقرن التاسع عشر». أقول وأنا أريح باطن يدي على الكتاب بدلًا من فتحها. لا أريده أن يرى معصمي.

«ياه»، يقول. «هل وُجد الطبّ البديل وقتئذٍ؟».

«كان عصره الذهبي على ما أظنّ»، أقول.

صمت طويل. ليته يذهب.

«آربيل». يقول.

«ماذا؟».

«هل لي أن أدعوكِ لكوب قهوة لأعتذر لكِ؟».

أتنهّد. «أنا مشغولة جدًّا في هذا».

«آربيل؟».

لا أردّ. يقف خلفي صامتًا ولا أعرف هل أستدير وأنظر إليه أم أبقى هكذا إلى أن تصله الرسالة ويغادر. لا أعرف الرسالة التي أريدها أن تصله بالتحديد، شيء ما مثل «دعني خارج وَحْلك العائلي الزاني». بعد أن

أتجاهله لوقت، يقترب وهو ينظر إلى أسفل في الكتاب الذي أمامي بنفس طريقة من ينظر لصور فوتوغرافية في حجرة مهجورة.

«حسنًا، سأتركك له»، يقول دون أن يتحرّك. «هيي». يضع أصبعه النحيل على النصّ أمامي، «فوسفورات، لقد أخذت هذا من قبل».

أنظر إلى أعلى. «أخذت أدوية طبّ بديل؟».

«نعم بالطبع، لست متأكّدًا من أنّها نجحت، لكن...».

«اسمع، ربّما علينا أن نشرب قهوة سريعًا»، أُخبره. «لكن اتركني عدّة دقائق لأنهي هذا هنا وأتحقّق من بعض الكتب. قل مثلًا بالخارج بعد خمس دقائق».

«رائع».

بكلية شيلي، (تيمنًا بماري شيلي[1]، وليس بيرسي بايش شيلي[2]) درج حلزوني وثريّا من الستينيات وكافتريا صغيرة اسمها مونستر مونش، هي المكان الوحيد الذي لا أحبّه فيها، إذ صمّم برمته من حوافّ وثَنْيات باللونين البرتقالي الصريح والأبيض القوى، وطاولات بلياردو جديدة وشاشة بلازما. أُفضّل الكافتيريا الصغيرة المتداعية بمبنى راسل بمنافض السجائر المنتصبة وطاولات الخشب الحُبيبي. لا يحب الطلبة كافتيريا راسل، لهذا يكون المبنى عادةً خاليًا، يذهبون هناك من حين لآخر للمراجعة، أو للتقوقع بدوار ما بعد الشرب على الكنبات القديمة المصفرّة، إنّما ليس على نحو متكرّر. عمومًا، في مونستر مونش ممنوع التدخين، يُسمح فقط بالأمور البرّاقة؛ بالداخل هنا يجب أن تظهر كشخص برّاق ونظيف، إذ يحول كلّ من ضوء الفلورسنت والمرايا المعلّقة على الجدران دون أن تكون أيّ شيء آخر.

---

(1) Mary Shelley (1797-1851): روائيّة إنجليزيّة أشهر أعمالها «فرانكنشتاين أو بروميثيوس العصر الحديث».

(2) Percy Bysshe Shelley (1792-1822): شاعر إنجليزي من أعلام الرومانسيّة.

أجلس على كرسي بلا مسند ولا ذراعين إلى طاولة بيضاء صغيرة بجوار النافذة وأشدّ أكمام السترة لأسفل لأغطي معصمي ريثما يحضر باتريك قهوتينا: نوع قهوة ما بلبن مخفوق له، وأمريكانو لي (يدعونها بمبنى راسل قهوة سوداء). أمامي كومة من كتب الطبّ البديل، تبدو هنا كأنّها خطأ ما، وأنا أيضًا. تعكس المرايا بشرتي العليلة باهتة مقارنة بشعري الأحمر، والجزء البالي بمؤخّرة سروالي الجينز، لم أكن أعرف أنّه ملحوظ هكذا. ارتديت هذه السترة السوداء صباحًا دون حتّى أن أفكّر فيها، لكنّي الآن أرى كيف نحُلَ وبرُها وكيف تجعلني أبدو مشوّشة. لولا شعري لبدوت حتمًا كصورة ضوئية باهتة.

يضع باتريك قهوتي أمامي وينظر عبر النافذة «واو، بإمكانك أن ترى اليوم طريقًا طويلًا»، يقول وهو يجلس. ما زالت السماء زرقاء بطريقة غير حقيقية ما.

«نعم، لكن لا يمكنك رؤية الكاتدرائية». لا ترى من هنا سوى حقول خالية، وراءها على البعد أبراج صناعية غريبة.

«هل يجب أن ترى الكاتدرائية؟».

«ظنّي هكذا، أقصد أنّها الشيء الوحيد لتنظر إليه من أعلى هنا، أليس كذلك؟».

«ربّما». يعبث باتريك بملعقة فضّية رفيعة في مخفوقه. ألحظ رعشة خفيفة في يديه، وانعكاس ضوء رقيق على جبينه من لمعان طفيف لقطرات عرق. «إذن».

«إذن». أجيبه. «هل تشعر... ؟». ماذا أقول، كنت على وشك أن أسأله هل يشعر بتحسّن؟ فأجد أنّه من السخف قول هذا، إذ لا أهتمّ حقًّا بما يشعر به، يُحلّق فراغ حذف الكلمات لدقيقة في الهواء، قبل أن يملأه باتريك بالسؤال وجوابه معًا.

«نعم، عادت إيما. أنــا...». ينخس مخفوقه مجدّدًا. «أنا آسف إذ

بدوت في مزاج غريب نوعًا ما بالأمس. وأتساءل ما إذا كنت قادرة على مسامحتي».

«لا بأس» أسمع نفسي أقول. «الأمر ليس لأنّني قلت... أنت تعرف، أقصد...».

«لا. لكن لم يكن لي أن...».

«أقصد... ربّما علينا تجنّب... في المستقبل...».

مونستر مونش ليس المكان المناسب لإجراء هذه المحادثة، هذه محادثة لما بعد منتصف الليل، ما بعد الاستحمام، محادثة في بار موسيقى. وها نحن نحاول خوضها في مكان يبدو تحت المراقبة بالفعل.

«على كلّ حال...»، أقول.

«أنا آسف حقًّا».

«لا بأس».

أفكّر في فرانكينشتاين المسخ، الشخصية الخيالية الذي منح اسمه لهذا المكان بشكل غير مباشر. كانت هنا، بلا حياة ولا حركة، ملقاة على الفراش، رأسها يتدلّى وملامحها الباهتة نصف مطموسة تحت شعرها، على عنقها إشارة القاتل على عناقها للشيطان، وانحسر نفسها وهو يندفع من بين شفتيها[1]. هذا ما صنعه خلق فيكتور فرانكنشتاين بخطيبته، إليزابيث، لعلّه المكان المناسب حقًّا لإجراء هذه المحادثة برغم كلّ شيء.

«أنت...»، أبدأ في نفس الوقت الذي يقول فيه باتريك «أنا..».

«أنتِ أولًا»، يقول.

«لا، تفضّل».

«لا، حقًّا».

---

(1) من رواية «فرانكينشتاين أو بروميثيوس العصر الحديث» لماري شيلي.

«أنا فقط.. لا أريد أن أكون بديلة لزوجتك، خاصّة حين تكون غاضبًا منها. لم يكن ذلك اتفاقنا قطّ».

«لا. أنا آسف. لن يتكرّر هذا».

ظللنا صامتَين لعدة دقائق. أرشف قهوتي وأتمنّى بشكل مبهم لو أدخن سيجارة. تدخل سيّدتان وتطلبان عصيرًا من البار ثم تأتيان وتجلسان إلى طاولة خلفنا.

«كيف إذن أخذت دواء الطبّ البديل؟». أسأل باتريك.

يهزّ كتفيه. «أشار عليّ أحدهم منذ فترة أن أزور ممارسًا للطبّ البديل».

«وكيف كان؟».

يرشف قهوته وألحظ غياب رعشة يديه.

«كان مثيرًا». يقطب حاجبيه. «يسألونك الكثير من الأسئلة الغريبة. يجب أن يعرفوا الأطعمة التي تتوقين لها، أحلامك، ماذا تفعلين لكسب عيشك، وشعورك تجاهه. الأمر بطريقة ما يشبه زيارة طبيب نفسيّ».

زرت طبيبًا نفسيًّا مرّة من قبل. كان مدرس الرياضة قد رأى الندوب على قدمي وأرسلني إلى لطبيب الذي أحالني لوحدة المراهقين في المستشفى المحلّي، أتذكّرني أشاهد مسلسلًا كوميديًّا في حجرة الانتظار، كان بها إلى جانب شاشة التليفزيون الملطّخة، مقاعدُ بلاستيكية خضراء وملصقات حول الإيدز. كان الطبيب شابًّا صغيرًا بوجه مستدير ونظارات. أخبرته عن مدى الإثارة في أن تكون قادرًا على إمتاع نفسك من خلال الألم، وبأنّني أعلم أنّه إدمان لكنّي لست مدمنة بعد، وتضاحكت وأنا أقدّم له كشف حساب عن حياتي، كان ينظر إليّ متحيرًا وأنا أخبره بهذا. بعدها بأسبوع تسلّمت خطابًا يقول إنّهم ليس لديهم ما يتطلّبه علاجي «في الوقت الراهن». ما زلت أذكر حجرته المكعّبة الصغيرة ذات الجدران الرقيقة، كان بها رائحة دخان، ولاحظت منفضة سجائر فضّية من ورق الفويل على الطاولة بجوار علبة المناديل الورقية، وإناء الزهور البلاستيكي الأزرق.

كان حينها أن خطر لي أن أدخّن، لكنّ الندوب ما زالت على قدمي. باتريك يحبّها.

أرشف قهوتي بينما يواصل باتريك كلامه عن زيارة ممارس الطبّ البديل.

«لا أعرف لماذا يجب أن يعرفوا هذا الكمّ من التفاصيل عن حياتك»، يقول، ويضحك سريعًا. «ذهبت فقط لعلاج الصداع والأرق».

أُنهي قهوتي. «وانتهيت للفوسفور إذن؟».

«نعم. عندما أفكّر الآن أجد أنّني لم أعانِ من الصداع منذ حينها. مع أنّني ما زلت لا أنام جيّدًا».

«هل تصدّق في هذا فعلًا؟».

«ممم. لا أعرف. شاهدت فيلمًا وثائقيًّا يقول إنّ الأدوية ليست سوى جرعات وقائيّة، ولا شيء بها له أيّ أثر على أيّ شيء، إذ يُخفّفون من الدواء حقًّا حتّى لا يتبقّى منه، كيميائيًّا، سوى الماء.

الواضح أنّ الطبّ البديل يعني أنّ للماء ذاكرة، ما يبدو غريبًا جدًّا».

«وكيف كان الدواء؟». أسأله. «أين تجده؟».

«آه، أعطتني إيّاه الطبيبة. كان لديها تلك الخزانة الخشبية الضخمة...»، يحاول تمثيل حجم هذا الشيء فيوسع ما بين ذراعيه مسافة ثلاثة أذرع تقريبًا رافعًا أصبعًا من كلتا يديه لأعلى، أراه وهو يفعل ذلك لا ينظر ليديه بل للحائط ورائي، يخطر لي فجأة أنّ من يصفون الحجم بهذه الطريقة يعتمدون على منظور ما لمساعدتهم، فهو لا يقول «إنّها بهذا الحجم» بل يقول ستبدو بهذا الحجم من هنا إن كانت هناك.

يواصل كلامه، «فيها أدراج صغيرة مُلصَق عليها بطاقاتٌ مرتّبة أبجديًّا. فتحت واحدًا من تلك الأدراج وكان بداخله زجاجات صغيرة كثيرة، بكلٍّ منها حبوب سكر بيضاء صغيرة، وشرحت لي أنّ الدواء في الأصل سائل

لكنّ الحبوب الصغيرة تمتصّه وتجعله أنسبَ للاستخدام. آسف لا بدّ أن هذا مُملّ».

«لا. أنا مهتمة فعلًا. فقط ليس لديّ تصوّر في ذهني عن شكل هذه الأشياء»، أحاول تمرير أصابعي في شعري لكن توجد عقدة ضخمة في المقدّمة فأحاول تسليكها وأنا أتكلّم. «هذه الحبوب أعطتها لك إذن ممارسة طبٍّ بديل».

«آه. لا». يضحك باتريك. «ألا تذهبين لبووتس أبدًا[1]؟ إنّ أدوية الطبّ البديل في كلّ مكان الآن. بإمكانك إيجادها في أيّ متجر غذاء صحي كذلك. أنا أتناول (ناكس فوميكا) لسوء الهضم. يمكنك شراؤها ببساطة».

«ممم». أقول. «مثير. لم أتخيّل أنّها شائعة هكذا؟».

«إنّه استثمار كبير الآن»، يقول. «لديّ بعض حبوب ناكس في مكتبي، إن أردتِ أن ترى شكل الحبوب فعلًا».

«لا بأس».

تميل معظم مكاتب الآخرين للفوضى. رأيت بعضًا ممّن يبدون داخل مكاتبهم كأنّهم قد سقطوا في فخّ. هؤلاء يضطرون لمواصلة العمل حتّى الثامنة مساءً لأنّهم لا يجدون مخرجًا فعلًا من بين أكداس الكتب والمفكّرات القديمة والإيميلات المطبوعة. حجرة مكتب باتريك، على النقيض من ذلك، واسعة ومربّعة ونظيفة. ليس لها بريق مونستر مونش بالضبط، لكن يمكنك فهم لماذا يحبّ تناول قهوته هناك. لديه مكتب حرف L مثل مكتبي، لكنّ مكتبيه أكبر ولأحدهما سطح زجاجي. المكتب ذو السطح الزجاجي في مواجهة الباب ولا شيء عليه سوى ثقالة ورق شبه شفافة ومصباح إضاءة أبيض، والآخر في مواجهة النافذة ولا شيء عليه سوى الحاسوب ويبدو أنّه تمّ تلميعه مؤخّرًا. الحجرة واسعة جدًّا لحدّ أنّها تَسِعُ أيضًا طاولة قهوة وأربعة مقاعد مريحة.

---

(1) Boots: سلسلة صيدليّات كبرى في المملكة المتّحدة.

يغلق الباب خلفنا ويتّجه لدرج مكتبه. «ها هي»، يقول وهو يمسك بقارورة بنيّة صغيرة ويُريها لي.

أضع كتبي على طاولة القهوة، وآخذ منه القارورة، تقول البطاقة ناكس فوم 125 .30 حبّة. التعليمات على جانبها تقضي بتناول حبّة كلّ ساعتين في الحالات المزمنة، وثلاث حبّات يوميًا في الحالات الأخرى. أفتح السدادة وأنظر بداخلها لكومة حبوب مسطحة ضئيلة، بيضاء كلّها مثل حبوب أسبرين منمنمة.

يوصد باتريك الباب ويسدل الشيش.

«ما مدى مسامحتك لي؟». يقول.

«مممم؟». أقول وأنظر لأعلى، لكنّه كان بالفعل قد جذبني ويقبلني الآن بنهم. باتريك أقول ما إن يتوقف. لكن ماذا سأقول بعدها؟ تسري بداخلي، برغم ما حدث بالأمس، أو الأغرب، بسببه، قطرات من إحساس مألوف، وبدلًا من أن أخبره أنّها فكرة سيّئة أتركه يخلع عنّي السترة ويسحب بنطلوني وملابسي الداخلية ثم يسندني على المكتب ذي السطح الزجاجي وهو يمسك بشعري. صدري ينضغط على الزجاج البارد، وبينما يضاجعني باتريك أتساءل كيف سيبدو صدري من أسفل الزجاج.

«يا إلهي، آرييل»، يقول بعدها وهو يجفّف قضيبه بمنديل ورقي بينما أسحب بنطلوني لأعلى. «لا أعلم هل تخرجين أفضل ما فيّ أم أسوأه».

«أسوأه على ما أظنّ». أقول مبتسمة.

يجيبني بابتسامة. «شكرًا لتسامحك معي».

أضحك. «لست واثقة من هذا بعد». أحمل كتبي وأتوجّه للباب. «أوه، حسنًا، الأفضل أن أذهب لأرى رفاق المكتب الجُدد».

يُلقي باتريك بالمنديل الورقي. «رفاق؟».

«لاجئين» هكذا تدعوهم ماري. ناس من مبنى نيوتن. اثنان منهما يشاركانني مكتبي».

«أوه. حظّ سيّئ». ينحني باتريك على المكتب الزجاجي وينظر لي. «حسنًا، مرحبًا بك هنا في أيّ وقت».

«سيلقون القبض علينا».

«نعم، على الأرجح». يتنهّد. «عودة للفنادق إذن».

«سنرى». وأخفّف من وطأة هذا بابتسامة خبيثة، إذ خطر لي توًّا شيء ما، «أوه، باتريك؟ أقول ويدي على مقبض الباب، كما لو أنّه تفكير عارض.

يعبث بأصابعه في أزرار بنطلونه ليتأكّد من أنّه أحكم غلقها.

«ماذا؟».

لقد نسيت محفظة نقودي في البيت. لديك مثلًا عشرة جنيهات؟ ليست مشكلة كبرى لكن على أن أضع بنزينًا في السيارة وأنا عائدة للمنزل، وسأعيدها لك غدًا أو في أقرب فرصة».

يمدّ يده فورًا لمحفظة نقوده ويسحب ورقة بعشرين. «لا تقلقي». يقول، ثم يضيف ما إن أخرج من الغرفة، وبصوت أكثر خفوتًا: «هناك دائمًا المزيد من حيث جاءت هذه».

أغادر وأنا أسأل نفسي ما إن كان هذا أفضل من السرقة من صندوق القهوة والشاي في المطبخ، أم أسوأ منه.

عشرة

توجد في غرفة مكتبي شابّة من سنّي تقريبًا، أو أصغر قليلًا، بنظّارات سوداء سميكة وشَعر أشقر مجعّد وقصير. تنهمك في وضع الكتب على الرفوف التي أفرغتها أمس. أسفل قدمها حوالَي خمسة صناديق أخرى يخرج منها أشياء من كلّ صِنف: كتب بشكل أساسي، وكذلك أقراص مدمجة، وسمّاعات صغيرة، وضِفدع أخضر محشوّ، ومعطف معمل مجعّد.

«أهلًا» أقول وأنا أشقّ طريق بين الصناديق، «أنا آرييل».

«أوه، يا إلهي. أنا آسفة جدًّا لهذا. أنا هيثر». لكْنتها سكوتلندية، إدنبرج ربّما.

تبتسم لي، وتترك الكتاب الذي تمسك به، وتمدّ يدها لتصافحني. أترك كومة كتبي على مكتبي الوحيد الآن وأصافحها.

«حقًّا»، تقول. «سأكون خارج دماغك بأسرع ما يمكن، مع ذلك فإنّه كرم بالغ منك أن تشاركينا مكتبك. أنا ممتنّة حقًّا».

«إررر. يجعلني هذا أبدو كشخص أفضل ممّا أنا عليه حقًّا»، أقول. «ليس لأنّي لم أكن لأعرض، لكنّي بالفعل كنت أشارك المكتب مع المشرف عليّ، وهو ليس هنا الآن، لهذا، يكون من المنطقي أن أشارككما المكتب، ومع ذلك فهو في الحقيقة اقتراح رئيسة القسم».

«حسنًا، شكرًا جزيلًا على كلّ حال. أعني أنّه كان بإمكانك أن ترفضي».

لم يكن لي أن أرفض أيضًا.

«سأتفقّد إيميلي فقط»، أقول وأنا أجلس إلى مكتبي. «وسيكون بوسعي مساعدتك خلال دقيقة، إن شئتِ».

«لا. كلّه تمام، سأحاول ألّا أحدث فوضى كبيرة. لا أريد أن أدمّر مكتبك تمامًا».

«بأمانة» أقول. «لا بأس».

كانت هيثر قد وضعت حاسوبها على المكتب المواجه للنافذة. سيكون على مُحاضر اللاهوت إذن أن يأخذ المكتب الذي ورائي، حاسوبها يواجه الحائط الآخر بشاشة عرض كبيرة مسطّحة، يبدو أنّها على وضع الاستعداد. أضغط زر تشغيل حاسوبي وأنهض أتحسّس طريقي خارج متاهة الكتب لأصعد للطابق الأعلى وأتفقّد بريدي وأحضر قهوة من المطبخ.

«أترغبين في قهوة أو أيّ شيء؟». أسأل هيثر وأنا على الباب.

«حقًّا؟ أوه، لا. لا يمكنني أن أطلب منكِ قهوة».

«ليست مشكلة. سأعد لنفسي أيضًا».

«أوه، حسنًا. لكن فقط إن لم يكن يزعجك، في الأغلب أنا في حاجة لها لأواصل».

«أعرف هذا الشعور». أقول.

فور العودة لمكتبي أبدأ البحث على الإنترنت عن أدوية الطبّ البديل. أعرف ممّا أتوصّل له أنّ ثمن القنينة حوالي ثلاثة أو أربعة جنيهات. بإمكاني أن أطلبها من على الإنترنت، لكن ليس لديّ بطاقة ائتمان لذلك سيكون عليّ أن أذهب للمدينة إذن. أشعر بجوع شديد لحدّ أنّي سأفقد الوعي، لكنّي أفكّر ألّا أهدر نقودي في المقصف. أقرّر أن أنهي قهوتي ثم أحرّر سيارتي وأعود للبيت، أتناول بعض الحساء وأستحمّ، ثم أخرج لأشتري الكربون النباتي. توجد في المدينة صيدلية «بوتس» ضخمة ومتجر أو اثنان

من متاجر الغذاء الصحي، وإن كانت تلك الأدوية شائعة كما قال باتريك فلن أجد مشاكل في تحقيق مسعاي.

بينما أقوم بهذا تنتهي هيثر من رصّ كتبها على الرفّ.

«يا لَلمسكين»، تقول.

أرفع عيني فأراها تنظر للأرفف. «هل أنت بخير؟».

«أوه، معذرة لا أريد أن أقاطعك إن كنت تعملين».

«لا»، أقول. «ما الأمر؟».

«لم أترك مساحة للرجل الآخر».

تنظر كلتانا للأرفف. لقد تدبّرت فعلًا أن تملأ مكتبة بكاملها لحدّ أن وضعت كتبًا بالعرض فوق الكتب والمجلّدات البارزة للخارج كما لو أنّ الكتب الأخرى تحاول لفظها. حتّى الضفدع الأخضر يبدو مسحوقًا هناك. تعضّ على شفتها، منزعجة حقًّا لهذا. ثم تلتقط عيناي عينيها ونضحك.

«أوه، حسنًا»، أقول وأنا أرفع كتفي.

«قد لا يكون لديه أشياء كثيرة. أنا معي أشيائي لأنّها كانت كلّها في المخزن بينما يعيدون تجديد مكتبي في الإجازة. إن كان لديه أشياء كثيرة، فبإمكاني دائمًا أن أعيد بعض الأشياء للصناديق. تتّجه لمكتبي وتلقي نظرة على كتب الطبّ البديل. تلمس واحدًا منها كما لو كانت تظنّه ملوّثًا، ثم تُبعد يدها. «أنت من قسم الأدب الإنجليزي أليس كذلك؟».

«امممم، نعم، نوعًا ما».

«لماذا كتب الطبّ البديل؟».

«أوه، لدي دائمًا كتب غريبة، أنا أعد رسالة دكتوراه عن التجارب الفكرية، للحقّ أظنّ أن القسم يريد التخلّص منّي، الأمر كلّه علمي قليلاً، حتّى وإن تضمن أشعارًا وموادّ من هذا القبيل».

«التجارب الفكرية. رائع».

«نعم. ممتعة فعلًا. وأنت عالمة تطوّر كائنات، أليس كذلك؟». «نعم، أعددت بحث ما قبل الدكتوراه في الوراثة الجزيئية، نوع من التطوّر منذ بدء الخلق، أو على الأقلّ منذ بدء الحياة، يصيب بالجنون حقًا. وأدرّس لعدد قليل من الأطفال ـ هكذا كان المشرف على سابقًا يدعو الطلبة ـ أثناء الفصل الدراسي، لكنّي في الغالب أصنع نماذج الحاسوب تلك. بالمناسبة، ألكِ رغبة في رؤية شيء ظريف؟».

«نعم». أقول. «ما هو؟».

«انظري». تلمس فأرة الحاسوب على مكتبها وتعود شاشته المسطحة للحياة ثانيةً، فأرى فجأة أرقامًا وحروفًا بيضاء تغطي الشاشة السوداء بأكملها، تتغيّر كلّها، مثل الأرقام في البورصة، أو مثل معلومات مصفوفة حاسوب [ماتريكس]، كما لو كان يجب أن يصدر عنها ضجّة تك... تك... تك وهي تفعل ذلك. «هذا للوصول لأصل الحياة»، تقول. ثم تضحك؛ ضحكة ذات جرس عالٍ تحتاج عادةً لمزيد من الأشخاص في الحجرة لامتصاصها. «يبدو هذا فكريًا قليلًا في الحقيقة. معذرة».

«واو»، أقول وأنا أحدق في الشاشة.

«نعم. حسنًا. يجعلها المقترح تبدو أكثر مللًا من هذا، لكن هذا ما أحاول فعله بالأساس. هذا كلّه للبحث عن لوكا LUCA، أو في الحقيقة للبحث فيما وراء لوكا، إذ لم يعد أحد يصدق في وجود لوكا».

مازلت أحدّق في الشاشة، لكنّ هيثر تستدير وتلتقط قلم رصاص من على مكتبها وتعبث به، وهي تستند بظهرها للشاشة على مكتبها. تظلّ الحروف والأرقام تتغيّر وتتكرّر أمامي. يمكنك أن تظلّ تشاهد هذا الشيء لوقت طويل، أن تظلّ تشاهده طوال الليل ثم تغمض عينيك وترى آلاف الأرقام والحروف ما زالت تتدافع بجنون في الظلام.

«وما هي لوكا؟». أسأل.

«آخر الأسلاف المشتركين عالميًا». [Last Universal Common Ancestor LUCA]

«الذي هو...».

«الذي هو الشيء الذي انحدرنا منه جميعًا».

«آها»، أقول. «وهذا البرنامج. ماذا يفعل؟».

تمرّر هيثر يدها في شعرها. «يا إلهي. هذا هو السؤال»، تقول. ثم تضيف: «أهلاً».

يجيبها صوت ذكوري: «أهلاً».

ألتفت ورائي. يقف لدى الباب رجل يحمل صندوقًا صغيرًا، له شعر أسود يصل لكتفيه ويرتدي ملابس عشوائية من درجات الأسود والرمادي والأبيض الفاتح. تحت السترة القطنية السوداء التي تصل لفخذيه قميص رمادي مفتوح. يبدو من تحته قميص أسود رقيق. تحته تيشيرت أبيض. بالرغم من كلّ تلك الملابس إلّا أنّه نحيل وله هيئة الزاوية الحادّة، بأنف مستدق شامخ قليلًا، وعظمتي وجنتين كعظمتي جثّة، يبدو أيضًا كمن لم يحلق ذقنه منذ ثلاثة أيّام، صغير، في بداية عقده الثالث ربّما، لكنّ عينيه بلونهما البني الداكن يبدو عمرهما ملايين السنين.

«أهلاً». أرد. «لا بدّ أنّك... ؟».

«آدم. فهمت أنّ لي مساحة للعمل هنا».

تتولى هيثر الأمر فورًا فتظلّ تتردّد في أنحاء الحجرة ككرة سكواش.

«أهلًا آدم. أنا هيثر. هذه آريل. ها هو مكتبك، وهنا لوحة ملاحظاتك، آسفة جدًّا لكن انظر لما فعلته بالأرفف...». أسمع الضحكة العالية مرّة أخرى على نحو مبهم، وتقول هيثر شيئًا ما آخر. لست متأكّدة من أنّ آدم يسمعها، عيناه منكبّتان على عيني. ليس لديّ أدنى فكرة لماذا، لكن تحدوني الرغبة في أن أعبر الحجرة وأتّحد معه: ليس للتقبيل ولا للمضاجعة، بل فقط للاتحاد، هذا سخف... إنّه أصغر منّي بكثير، أفكّر أنّه سيقطع تلك النظرة العميقة المطلقة في أي ثانية، لكنّه لا يقطعها، هل سيستمرّ هذا للأبد؟ لا، أفكر فجأة في باتريك، وكلّ ما يتعلّق بماضيّ البائس، فأشق

اللحظة بالالتفات والنظر لشاشة الحاسوب. لأول مرّة ألاحظ كم التراب على حوافّ الشاشة. كلّ شيء يبدو قذرًا. أنظر ورائي لآدم مرّة أخرى، منشغل بطمأنة هيثر بشأن الأرفف.

«ليس لدي شيء حقًّا»، يقول. «انظري».

يريها صندوقه. بداخله ثلاثة أقلام رصاص ودفتر ملاحظات الجامعة، ومفكّرة حمراء، والكتاب المقدّس.

«أنت تسافر خفيفًا حقًّا»، تقول هيثر.

يرفع آدم كتفيه. «احتفظي بالأرفف، أنا ممتن للمكتب فحسب».

يجلس إلى مكتبه ويبدأ تشغيل الحاسوب. لا تتوقّف هيثر عن التحدث إليه، وأعلم من الاستماع لمحادثتهما أنّ آدم لا يعمل على شيء أكثر إثارة من تنظيم حلقات دراسية لطلبة الماجستير خلال الفصل الدراسي القادم. غالبًا كنت سأجد تلك المحادثة مملة، لكنّ صوت آدم مثل منوِّم مغناطيسي لا يسعني سوى أن أنصت له، لا أستطيع تحديد لكنته، أظنّها في البداية من شمال لندن؛ ثم أعيدها لجنوب لندن بلمحة من نيوزيلندا، ثم أرجعها لنيوزيلندا بلمحة أيرلندية، ثم أترك التفكير فيها وأفكّر مجددًا في العودة للمنزل. لا يمكنني تطوير شعور نحو رجل يسير حاملًا صندوق به الكتاب المقدّس، خاصّة وأنّني ما زلت أشعر بسائل باتريك يتقاطر من بين فخذي. أوه أنا بشعة. أنهض وأبدأ ارتداء معطفي.

«إذن». تقول هيثر، «أظنّ أنّ علينا أن نحتفل». تنظر لي. «آرييل؟ أوه هل ستغادرين؟ ما رأيك؟»».

«هاه»؟ أقول وأنا أضع كتب الطبّ البديل في حقيبة لآخذها معي للبيت.

«عشاء في منزلي الليلة؟ كنت أفكّر في أن أخبركما عن لوكا، ويخبرنا آدم عن كيفية خلق الله للإنسان، ونشرب جميعًا. حسنًا، نحن الاثنتين، إذ لا أظنّ أنّ آدم يشرب الخمر، ما رأيك آدم؟»».

«سآتي فقط إن قررت أن أشرب». يقول.

أبتسم لهيثر. «إرر، نعم تبدو فكرة جيدة».

«رائع»، تقول «السابعة؟ ها هو عنواني». تخطّ شيئًا ما على ورقة وتناولها لي.

هذه المرّة لا أجد رجالًا في ساحة انتظار السيارات التابعة لمبنى نيوتن وأجد الشريط الأصفر ممزقًا تطايره الريح، من ورائه المبنى المنهار بدون توازن تنتصب حول أحد جوانبه عواميد ترميم. تقف سيارتي وحيدة الآن ويسرني أن أعتقها. غالبًا ما أتوقّع حين أدخل سيارتي أن أجدها دافئة، لكنّها كالعادة، باردة كثلاجة، رطبة قليلًا وتعبق برائحة دخان. مع ذلك يدور المحرك من أول محاولة.

المرور في الطريق للمدينة مزدحم، وإذ أقترب من إشارة المرور تبدأ الأضواء في الوميض وتنغلق الإشارة ببطء. خراء، هذا يعني أنّي سأعلق هنا لعشر دقائق أخرى. أمامي حافلة تميل بزاوية خرقاء فتسدّ نصف فتحة المنعطف الجانبي في الطريق، والسيارات القليلة التي عبرت قبل الإغلاق بدأت محاولة الالتفاف حولها. ثمّة متجر مخبوزات على هذا الجانب من الطريق، بجوار الحانة تمامًا، أخرج من السيارة وأذهب لأشتري خبزًا، تبتسم لي السيِّدة في متجر المخبوزات مواسيةً كأنّ كلّ من أعرفهم قد ماتوا لتوّهم. في طريق عودتي للسيارة أدرك سبب الزاوية الخرقاء للحافلة: شاحنة بيضاء تقف بحذاء الرصيف أمام الحانة، الحروف على جانبها تقول سيليكت أميوزمينت [اختر ترفيهًا]. بعد ثوانٍ قليلة يخرج من الحانة رجل يجرّ عربة بعجلات عليها ماكينة فواكه[1] عتيقة بأسلاك تتدلّى من ظهرها، يتركها على الرصيف ريثما يفتح الباب الخلفي للشاحنة، لدى مروري به أرى ستًّا أو سبعًا ماكينات تقف داخل الشاحنة، أزرارها ملطخة، لعلّ على الواحد منها بصمات الآلاف والآلاف من البشر. أرى رجلًا آخر داخل الشاحنة يمسح ماكينة بمنشفة بيضاء، يتوقّف حين يرى زميله يقترب بماكينة

(1) أو ماكينة عملات، من ألعاب المقامرة.

أخرى ويقفز من السيارة ليرفعها معه ثم يربطها بحبل. يخطر لي فجأة أنّ الماكينات حيّة وهذان الرجلان يأخذانها للسجن. ثم تفتح الإشارة، ويبدأ المرور في الحركة مرّة أخرى، فأقفز في سيارتي وأنطلق. أصل لمحطّة البنزين دون مشاكل وأشتري بنزينًا بخمسة جنيهات.

أستأجر مساحة لانتظار سيارتي عند المطعم الصيني وراء شقتي، ولحسن الحظّ لم يشغله أحد اليوم بالخطأ. بعد أن أتناول بعض الحساء أذهب وأرقد في البانيو ومعي كتابان من كتب الطبّ البديل. محاضرات كِنت عن أدوية الطبّ البديل، ومجلّد آخر له شكل غريب نوعًا ما بعنوان بورتريهات أدبية لموادّ متعدّدة النفع. سأقرأ عن الكربون النباتي ثم أذهب لأشتري بعضًا منه. لا يهمّ مدى قذارتي، ولا يهمّ أنّني أتظاهر أن لا شيء بي، أو أنّني أتوق بشدّة لرؤية وجه آدم مرّة أخرى، أو أن على التفكير في العودة للعمل على رسالة الدكتوراه ومقالتي الجديدة للمجلّة. هذه مهمّتي. هذه ليست حياة حقيقية. الحياة الحقيقية تدع الرجال يضاجعونك على أسطح مكاتبهم (ويستمتعون بذلك، وهو، على نحو ما، أسوأ ما في الأمر). الحياة الحقيقية تستنفد نقودك بانتظام، وتحتاج فيها لطعام. الحياة الحقيقية ليس بها تدفئة مناسبة. الحياة الحقيقية مادّية. أعطني كتبًا بدلًا منها: أعطني محتويات الكتب، الأفكار، التفكّرات، الصور. اجعلني جزءًا من كتاب وسأتخلّى مقابل هذا عن كلّ شيء. لا بدّ أنّ لعنة السيِّد واي تعني أن تصير جزءًا من كتاب؛ كائنًا من نسج النصّ، كائنًا فضائيًّا... كتابيًا، أو ربّما، مع اعتبار أنّ الكتب ليست فضاءً، كائنًا نصّيًّا. الأشياء في الكتب لا تتّسخ، والحياة الحقيقية، حسنًا، إنّها من تراب في نهاية الأمر. حتّى الكتب تصير إلى تراب، كالبقايا المفتّتة التي وجدها المسافر عبر الزمن بطل أتش جي ويلز في المتحف. لكنّ الأفكار نظيفة.

قبل أن أبدأ القراءة، أفكّر لثانية واحدة في تجربة ذهنيّة. ماذا لو كانت تلك هي الحياة الحقيقية؟ ماذا لو كان عليّ لعنة وسأموت مثلما حدث للوماس وكلّ من قرءوا *نهاية السيِّد واي* في أواخر القرن التاسع عشر؟ إن

كنت أرى هذا حقًّا، فلن أعدم بعضًا من غريزة البقاء لتمنعني من الاستمرار فيه، مؤكّد؟ لكن إن لم يكن هذا حقيقيًّا، فلماذا أزعج نفسي؟ أمسك الكتاب الأول، محاضرات كِنت، وأبدأ القراءة عن الكربون النباتي.

سنتناول فيما يلي دراسة الفحم النباتي ـ الكربون النباتي. هو مادّة خاملة نسبيًّا تتحوّل لدواء وتكتسب قوّة وتصير وسيلة شفاء عظيمة عند طحنها بقدر كافٍ. وبتجزئتها على النحو الصحيح تتشبه بطبيعة المرض وتشفي المصاب به.

تستخدمها المدرسة القديمة بجَرعات بقدر مِلعقة صغيرة لمعالجة حموضة المعِدة. لكنّها بمثابة إرث جليل تركه هانيمان، إذ هي خاملة حقًّا في شكلها الخامّ ولا تبرز قدراتها الدوائية إلّا بتخفيفها لدرجة مناسبة. وهو أحد الأدوية المضادّة للحكّة التي تأتي بأثر عميق ولمدى طويل، إذ تنفذ بعمق في النسيج الحي، وقد أثبتت قدرتها على علاج أعراض استمرّت وقتًا طويلًا، وكذلك على شفاء حالات مزمنة... تلك التي تأتي ببطء ومن الداخل.

يلي ذلك قائمة طويلة للأعراض التي يمكن معالجتها بهذا الدواء بجرعاته التي يقترحها الطبّ البديل. أكثرها لا يبدو مثيرًا بشكل خاصّ، أو يحمل أيّ تلميح خاصّ لسبب اختيار لوماس له لتركيبته. أقرأ عن البلادة والكسل وتقيّؤ الدم. ثم أقرأ إلى آخر الصفحة فأعرف أنّ الذين يحتاجون للكربون النباتي يشعرون أيضًا بالبرد، ويكونون غالبًا شديدي الشحوب. أُغلق هذا الكتاب وألتقط بورتريهات أدبية لموادّ متعدّدة النفع. مكتوب على الغلاف الداخلي للكتاب أنّه بالإمكان «استقراء» أو فكّ شفرة الشخصيات الأدبية بنفس الطريقة التي يستقرئ بها المرء أنّ شخصًا ما مصاب بمرض ما. أرى كيف سيعمل هذا: كلّ تلك الأعراض الصغيرة التي قرأت عنها من قبل، كلّ التأكيدات على معرفة ما إذا كان الشخص يشعر أسوأ الساعة 11 صباحًا (كبريت) أو الساعة 4 مساءً (كبريت نباتي). أفتح كتاب البورتريهات وأقرأ ما يلي:

يُعرف الكربون النباتي بأنّه منعش الجثث... وبوسع أيّ ممارس للطبّ البديل أن يخبرك لماذا. حين يبدو أنّ المريض يلتقط أنفاسه الأخيرة، فالكربون هو العلاج الذي ينبغي إعطاؤه له بأعلى قوام ممكن. عادةً ما تكفي م1 أو م10 للإنعاش، أو للحقّ، لإعانة المريض على الوفاة.

بعد المقدّمة، يُدرج هذا الفصل الشخصيّات الأدبية الشهيرة التي، من وجهة نظر المؤلّف، قد تكون في حاجة لهذا العلاج. حظي مينا موراي[1] وجوناثان هاركير[2] بصفحات قليلة، وقضى المؤلّف وقتًا طويلاً في التفكير في الشخصية المتوفّاة في قصّة إدجار آلان بُو القصيرة «تجلّيات التنويم المغناطيسي». ثم، بالطبع، فصل عن إليزابيث لافينزا من فرانكينشتاين. وينتهي الفصل بهذا:

أَمِنْ عجبٍ أنّ الكربون هكذا لغز؟ فهو ليس سوى الحياة نفسها مضغوطة، هو وقود أفراننا وماكيناتنا التي تعتبر بدورها وقود حياتنا. لا جرم إذن أنّ الكربون، الذي تصير إليه جميع الكائنات الحيّة في النهاية (رماد لرماد، وتراب لتراب)، هو المادّة الأكثر غموضًا من بين كلّ الموادّ، وعلى هذا فلا يمكن تلافي موازاته للموت. لكنّ الكربون حياة أيضًا، إنّه بداية الحياة ونهايتها. وهو لا يحتفظ بداخله مادّةً، بل بطاقة، التي هي معنى. ومعنى الكربون بسيط ومركّب في آن. حياة. موت. حدود كلّ شيء.

أخرج من الحمام مبلّلة ونظيفة لكن بالقطع ليس أدفأ، أشعر بذهني يصدر تكتكة مثل شاشة حاسوب هيثر. مُنعش الجثث. الآن على الأقلّ يبدو هذا مثيرًا. وكلّ هذا الكلام عن الكربون وكونه جوهر الحياة والموت. أتذكّر وجود شيء مثير عن الكربون في كتاب العلوم العامّة لجيم لاهيري، فأذهب بروب الحمام للمطبخ وأعدّ بعض القهوة وأنا أبحث عن الكتاب على الأرفف، أجده ويخبرني بما تذكّرت أنّي قرأته: في أتون الانفجار

---

(1) البطلة في رواية «دراكولا» لبرام ستوكر، أديب أيرلندي، صدرت عام 1897.

(2) إحدى الشخصيّات الرئيسة في الرواية نفسها.

العظيم كان الهيدروجين أول العناصر المتكوّنة من الحساء البلازمي الساخن للإلكترونات والبروتونات، كأمر عفوي قليلًا، إذ كلّ ما يحتاجه الأمر لتكوين ذرّة هيدروجين مجرّد بروتون مفرد وإلكترون. كتلة جزيء الهيدروجين هذا إذن واحد... لأنّ به بروتون واحد (ليس للإلكترونات كتلة حقًا). في تلك الحرارة التي لا يدركها عقل، تكوّنت أيضًا نظائر هيدروجينية بكتلة اثنين (الديوتريوم.. ببروتون واحد ونيترون واحد)، وثلاثة (الترتيوم والتريالفيوم)، وأربعة (الهيليوم). لكن لا توجد ذرّة مستقرّة بكتلة خمسة؛ لأنّه لا توجد ذرّة بكتلة خمسة، لم يفهم أحد قطّ كيف تكوّن الكربون. إذ تكوّن كلّ عنصر جديد من تفجير العناصر السابقة له، لكن بإمكانك أن تدور في خلاط كوني إلى ما تشاء ولن يمكنك تكوين كربون.

تلك مشكلة؛ لأنّه مع استحالة تكوين كربون بهذه الطريقة، ستبدو بقيّة الجدول الدوري مستحيلة أيضًا. لكن لأنّ كتلة الكربون الأكثر شيوعًا هي اثنا عشر، سيكون عليك لتصنعه أن تأتي بثلاث ذرّات هيليوم لتتصادم - في الوقت نفسه تمامًا - في درجة حرارة عالية، بدا هذا مستحيلًا، لكنّ عالِمَ الكونيّات فريد هويل[1] فكّر أنّه لا بدّ من وجود الكربون؛ إذ إنّه - هو هويل - مصنوع منه، وتوصّل على نحو صحيح لسدّ (فجوة الكتلة خمسة). كتب جورج جامو[2] عن كلّ هذا محاكاة ساخرة لسفر التكوين، جعل فيها الإله يخلق كلّ الكتل الكيميائية الممكنة لكنّه في غمرة فرحته ينسى خلق الكتلة خمسة.

كان الإله محبطًا للغاية، وفي البدء أراد أن يُعيد بناء العالم مرّة أخرى، أن يُعيد الخلق كلّه مرّة أخرى، لكنّ ذلك يسيرٌ جدًّا؛ ولأنّه هو العظيم القادر، قرّر أن يُعيد خلق هذا بأكثر الطرق استحالة. وقال: «ليكن هويل»، وكان هويل. ونظر الربّ لهويل... وأخبره أن يصنع العناصر الثقيلة بأيّ طريقة يشاء.

---

(1) Fred Hoyle سير فريد هويل (1915-2001) عالم فلك ورياضيات إنجليزي معروف برفضه لنظرية الانفجار العظيم من أعماله: الغيمة السوداء، و أندروميدا، وأول أكتوبر وقت متأخر جدًّا.

(2) Goerge Gamow (1904-1968) فيزيائي روسي وكاتب عبقري في العلوم العامة، من أعماله: واحد، اثنان، ثلاثة.. إلى مالا نهاية: حقائق ومزاعم العلوم.

الآن، بالطبع، الكربون أساس الحياة، وكما يشير كتاب الطب البديل، الناتج الحتمي للموت. فإن كنت تريد تركيبة غامضة من أيّ نوع سيكون الكربون مكوّنًا غامضًا تمامًا... خاصّة إذا خفّفته لحدّ ألّا يكون موجودًا، لحدّ أن يكون مجرّد ذكرى.

أَصِلُ لمتجر الغذاء الصحي حوالَي الساعة الرابعة والنصف، برغم صدق باتريك فيما أخبرني به فلديهم بالفعل قسم لأدوية الطبّ البديل لكنّهم ليس لديهم كربون نباتي. بعد أن بحثت في صيدلية بوتس وهولاند آند باريت أشعر بثقة أقلّ في أنّي سأحصل على غايتي. ليس لدي بوتس أيّ كربون نباتي أساسًا، وهولاند آند باريت ليس لديهم سوى في قوامه ج 6، أكثر تركيزًا ممّا أريده بحوالَي 994 مرّة. تقترب الساعة من الخامسة حين أدلف المتجر الصغير المجاور لسينما أوديون. لم أجئ هنا من قبل قطّ ولا أعرف حتّى ماذا يبيع. يبدو لك للوهلة الأولى كأنّه باب بلا متجر وراءه، لكن إن دققت النظر، تجد في الجدار المجاور له نافذة عرض زجاجية مبنيّة فيه، بها عدد من القدور الزجاجية تحوي أعشابًا على ما يبدو، ونسخة من التاو تي تشينج وعلبة بطاقات التاروت. اسمه سيلين، أي القمر بالإغريقية، على الباب يافطة قديمة بخطّ يد منمّق تدعوك «لتدخل وتلقي نظرة». أخبرتني السيّدة في هولاند آند باريت أن أجرّبه، آمل أن يكون لديهم أدوية طبّ بديل.

أفتح الباب، ويصلصل جرس بالداخل بصوت واهن. من وراء الباب سلّم خشبي رفيع، أصعده في شبه ظلمة. أجد أعلاه باب آخر بزجاج بللوري، أفتحه وأدلف المتجر الضئيل حيث أجد رجل أصلعَ نحيل جالسًا خلف مكتب يقرأ في كتاب. المكان مرتّب كمستطيل صغير ويعبق برائحة بخور صندل ثقيلة، وُضع المنضد بالقرب من ضلعه الأيسر، ويبدو كشيء كان يستخدمه مهندس معماري من القرن التاسع عشر: ضخم وواسع وبأدراج كثيرة لا يرتفع أيّ منها عن بوصتين، وعرضها حوالي ثلاثة أذرع. لا توجد ماكينة مدفوعات نقدية. خلف المنضد ملصق بال ومجعّد بخطّ لا أتبيّنه، وبجواره باب خشبي قرمزي مغطّى بستائر من كريّات برتقالية.

لا ينتبه لي الرجل لكنّي أتجوّل بين المعروضات بهدوء على كلّ حال. في أقصى الجانب الأيسر أرفف خشبية رثّة، عليها قوارير بنيّة صغيرة لأدوية الطبّ البديل. أجد الكربون النباتي، لكنّه هذه المرّة في قوامه ج 30. أتنهّد وأستدير للجانب الأيمن مارّة بأحواض بلاستيكية تحوي كريستالات، وصفوف من قدور كبيرة، من تلك التي يبيعون فيها الحلوى ببيني، مملوءة بالأعشاب. أسفلها رفّ صغير مترّب، عليه قنينات وقوارير زجاجية بعضها مقفول بسدادات فلين وأخرى بسدادات برغية. آخذ واحدة للماء المقدّس. لا أرى أيّة أدوية طبّ بديل في أيّ مكان. أسير للمنضد وأنتظر أن ينتبه لي الرجل.

«أبحث عن أحد أدوية الطبّ البديل». أقول.

«في الركن هناك»، يقول ثم يعود لكتابه.

«أعرف»، أقول. «لكنّي أريده بتخفيف أعلى مع ذلك».

«أوه»، يقول. ينظر في ساعته. «نحن على وشك أن نغلق، لذلك...».

«ليس لديكم تخفيف أعلى له إذن؟».

«بل لدينا»، يقول. «لكن لا نبيعه على المنضد».

أقطب حاجبي. «ماذا؟ هل يجب أن يكون معي وصفة من طبيب أو شيء كهذا؟».

يهزّ رأسه نفيًا ويقول «بل تدفعين مقابل استشارة». ثم يتنهّد. «ما الدواء الذي تريدينه؟».

«كربون نباتي»، أقول وأحمر خجلًا بينما ألفظ الكلمات غير المألوفة.

«عفوًا؟».

«كربون نباتي. منعش الجثث. هذا ما يسمّونه على الأقل، وجدته في مكان آخر لكن ليس بالتخفيف الذي أريده».

«منعش الجثث؟ من أين عرفتِ هذا؟».

«أوه، من كتاب». أقول بمبالغة شديدة لأبدو كمَن يتحدّث عن شيء يعلمه جيدًا.

«حسنًا، لدي منه في جميع تخفيفاته حتّى م 10»، يقول.

«أريد م 1»، أقول. «فاعليته الألف، هذا صحيح، أليس كذلك؟».

يقطب حاجبيه مجدّدًا. «اعلمي أنّ الفاعلية العالية قد تكون خطرة.. إن كنت لا تعلمين ماذا تفعلين».

أحجم عن قول ما أفكر فيه: «لكنّه مجرّد ماء».

«نعم»، أقول. «أعرف. لا شيء يدعو للقلق».

«وهو كذلك»، يقول. «لكن سيكون عليّ أن أقدم لكِ نوعًا من الاستشارة. ما المشكلة؟». يتثاءب بينما أقول شيئًا ما عن الصداع، يتركني أتحدّث قليلًا ثم، وبينما أتحدّث، يفتح أحد الأدراج الكبيرة ويُخرج منه قارورة بنية.

«نعم، نعم، حسنًا. أوصى بكربون نباتي»، يقول. «ثمانية جنيهات مقابل الاستشارة، والدواء مجانًا».

«شكرًا»، أقول وأنا آخذ القارورة، أدفع مقابل الاستشارة والقارورة الفارغة التي أخذتها من قبل وأغادر.

أحد عشر

بشكل ما تكون الساعة قد تجاوزت السادسة حين أعود لبرد الشارع القارس مرّة أخرى. أضواء الكشافات الأمامية للسيارات تعلق بالضباب الرقيق بحزن، وبشرٌ يسيرون برءوسهم مغطّاة وقفّازات سميكة، يحملون حقائب العمل أو حقائب بلاستيكية مليئة بمشترياتهم خلال التسوّق أو الاثنتين. أقرّر أن أعود للبيت ثم أحاول جلب بعض الماء المقدّس وأنا في طريقي لمنزل هيثر. الكاتدرائية في طريقي لمنزلها على كلّ حال.

حين أصل للمنزل أجد درّاجة وولفجانج في الرواق. يداي متجمّدتان مع أنّني أبقيتهما مقبوضتين في جيبي طوال الطريق، القارورة في واحدة والكربون النباتي في الأخرى. أول شيء أفعله أن أخبّئ الدواء في علبة صفيح قديمة في الصف الخلفي بأحد الخزّانات؛ لستُ متأكّدة تمامًا من سبب فعلى هذا، ثم أضع القارورة الفارغة على الطاولة وأغسل يدي بماء دافئ في محاولة لإزالة البرودة عنهما. أضع بعض القهوة على الموقد ثم أذهب للحمام. أحاول تصفيف شعري لكنّه مليء بالعقد، فأجمعه لأعلى بشريطة بدلًا من تصفيفه. أنظر لنفسي في المرآة، وكالعادة أتساءل: لأيّ مدى أنا ملعونة؟ طبقًا للمنطق العامّ لا وجود للعنات، لكنّ حينها يخطر لي أنّني سأعد الليلة تركيبة لوماس، وأشربها، وسأرى ما سيحدث، لا يبدو على انعكاسي في المرآة ردّ فعل لهذا الخاطر، ما خلا خيبة أمل طفيفة في عيني. إن لم يأتِ الشراب بمفعول، ماذا بعد؟ سأعود حينها للحياة

الحقيقية والعمل الحقيقي دون مكتب خاصّ بي حتّى. أضع بعض البودرة على وجهي الباهت أساسًا، ثم بعض أحمر الشفاة الوردي الباهت. أخلع حذائي وسروالي الجينز وأغتسل بالملابس التحتية. ثم أرتدي حذاءً آخر والسروال الجينز نفسه.

بعد تناول قهوتي، أسير في الرواق وأدقّ باب وولفجانج. يفتح على الفور تقريبًا ويدعوني لمطبخه. ليس لأحد منّا مطبخ لائق، مجرّد مجموعة من الأرفف والخزانات، تعجّ أرفف وولفجانج بعلب كرتون لمكسّرات وحبوب وفواكه مجفّفة، وليس في خزّاناته سوى خمور، ولهذا أنا عنده. حين أدخل ألحظ أنّ رائحة المطبخ أنظف من المعتاد، في العادة لا يضع في المطبخ سوى طاولة بسطح فورمايكا ومقعد واحد، عليّ أن أجلب مقعدي معي حين آتي لتناول طعام هنا. لكنّ هذا المساء يوجد مقعدان وآنية زهور صغيرة في منتصف الطاولة.

«هل تعتقدين أنّه مكانٌ مناسب لقضاء أُمسيَة؟». يسألني.

«بالطبع»، أقول. «خاصّة بمقعدين. هل ستأتي كاثرين؟»

«كاثرين؟ لا، لقد انتهيت من كاثرين. أنا في انتظار الأعز من كاثرين».

«حياتك العاطفية تتحرّك سريعًا». أقول.

«ها، نعم، سريعًا وعلى نحوٍ غير متوقّع».

«حسنًا، في هذه الحالة لن أطيل عليك».

«لم تأتِ لتناول العشاء، لأنّه... كما تعرفين... في أيّ ليلة أخرى...».

«لا»، أقول. «لا تقلق. برغم أنّي أتمنّى لو كنت أبحث عن مكان لأتناول فيه العشاء. أنا في الحقيقة ذاهبة للقاء محتلّي مكتبي». أهز رأسي. «لا أعلم لماذا أذهب. حقًا».

«آه»، يقول. «إن لم يكن لإحدى وجباتي الذواقة، فأنت تريدين شيئًا آخر إذن»؟

«مممم. نعم، هل لديك المزيد من ذلك النبيذ المُهرّب»؟

تحصّل وولفجانج قبل رأس السنة بقليل على حوالي ثلاثين زجاجة نبيذ أحمر بلغاري من شخص أو أشخاص مجهولين، وكان يبيع لي الزجاجة بجنيه. لم أشتر منه منذ عدّة أسابيع، لكنّي أودّ أن آخذ معي زجاجة لهيثر ولا أريد أن أدفع خمسة جنيهات في المتجر بينما لم أعد أملك من العالم سوى عشرة جنيهات فقط.

يهزّ رأسه. «مُهرّب؟ نبيذي مُهرّب»؟

أضحك. «بالطبع، من نبيذك القانوني تمامًا».

تحلّق عيناه عموديًا تجاه إحدى الخزانات. «لدي زجاجات قليلة باقية».

«هل لي بواحدة»؟

«بالطبع». يأخذ واحدة من الخزانة. ملصقها مكتوب باللغة البلغارية فيجعلها تبدو أصلية وباهظة الثمن إن جاز القول. «كيف الحياة إذن»؟ يسأل وهو يناولني الزجاجة.

«لا بأس». أقول وأنا أعطيه الجنيه. «مبهمة. أوه ـ هل أخبرتك إنني أنهيت الكتاب»؟

«الكتاب ذا اللعنة»؟

«نعم».

«والتركيبة كانت مذكورة؟ هل حصلتِ على المكوّنات»؟

لا أعرف لماذا بحقّ الأرض يفترض وولفجانج ـ على نحو سليم تمامًا ـ أن أول شيء سأفعله فور أن أعرف المكوّنات هو أن أحصل عليها.

«لا». أكذب. «للأسف ليست مذكورة».

«ماذا حدث للسيد واي إذن»؟

«كلّ ما كان يتخوّف منه تقريبًا. الشيء الجيّد الوحيد أنّه يعد التركيبة ويتناولها وتنقله حقًا للتروبوسفير، لكنّه يجد كلّ شيء مروّعًا، إذ يدخل

ذهن زوجته ويكتشف كم جعلها حزينة، ثم يدخل ذهن منافسه ويكتشف أنّه لن يستطيع هزيمته أبدًا، لكنّه يستكشف التروبوسفير قليلًا قبل أن يضطر هو وزوجته للذهاب للورشة، بإمكانك حقًا أن تقفز من ذهن شخص لذهن شخص آخر، تمامًا كما ظنّ السيِّد واي، وبذلك يكون بإمكانك السفر عبر الذكريات، مثل تصفّح الانترنت تقريبًا، لكنّ السيِّد واي يدعوها بيديسيس[1]» [تواثب].

«عبر الذكريات...؟ أي كالسفر عبر الزمن تقريبًا»؟

«ظنّي أنّ هذا هو المعنى المستتر».

أتذكّر المقطع قبل الأخير من الكتاب.

لم أجد السعادة، أو للحقّ، لم أجد حظّي في ظلال التروبوسفير. ما زلت أشعر بداخله كطير يحلّق في الهواء: كنت طوال الوقت الذي أتجوّل فيه على علم بأنّي حرّ، ومع أنّني فشلت في العالم الحقيقي فقد حلّقت في عالم الأذهان، ربّما ليس كطير يحلّق، بل كرجلٍ يتواثب على أحجار لا تُحصى، كلّ حجرٍ بمثابة منبر يمكن منه الوثوب لأحجار أخرى كثيرة. بعد أن صرت ماهرًا في سبر أغوار عالم الأذهان بأخفّ وأسرع الخطوات وبسهولة تحرّك الزبَد على الماء الجاري، سأدعو تلك الحركة «التواثب»، بالإغريقية πήδησις. هذا النهر بأحجاره، ومشهد المرج وبيوته، كان يترامى للأمام - نعم - لكن أيضًا للخلف. قرّرت أن أرتحل تواثبًا لغياهب الزمن، وهكذا بلغت قصتي نهايتها، إذ عقدت العزم أن أقوم هذا المساء عند منتصف الليل بتلك الرحلة لأعماق التروبوسفير. لا أظنّ أنّني سأعود أبدًا لإنهاء قصّتي، فحينها سأكون بعيدًا جدًّا عن بدايتها.

«ماذا يحدث إذن للسيد واي»؟ يسأل وولفجانج. «ما معنى نهايته»؟

«أوه، يتلاشى في التروبوسفير».

---

(1) Pedesis كلمة مشتقّة من الإغريقية بمعنى التواثب: وهي الحركة العشوائية للجسيمات متناهية الدقّة العالقة في سائل أو غاز، أو النظام الرياضي المستخدم لوصف تلك الحركة ويسمّى أيضًا الحركة البراونية نسبةً لعالم النباتات روبرت براون الذي لاحظها بالميكروسكوب أول مرّة عام 1827.

«ماذا؟ بجسده»؟

«لا»، أهزّ رأسي نفيًا. «فيما بعد يجدون جثّته».

تتّسع حدقتا وولف. «يموت»؟

«نعم»، أقول. «يوجد في النهاية ملحوظة كتبها محرّر الكتاب ليشرح كيف عثروا عليه ميتًا باردًا على الأرض في قبو منزله. كان قد أغلق على نفسه من الداخل وانطلق في رحلته من هناك. ظنت زوجته أنّه خرج ولم يعد لكنّها اكتشفت بعد ذلك القبو الموصد وأخطرت الشرطة. لقد مات جوعًا».

«ومؤلّف هذا الكتاب، مات أيضًا»؟

«نعم».

«من الجيّد إذن أنّك لم تعثري على تلك المكوّنات، أليس كذلك»؟

«ممم».

أحيانًا، في الليل، تبدو بوّابات الكاتدرائية مثل فَمٍ فاغر: تعبير دهشة فوق شارع يعجّ بمبانٍ قديمة منخفضة ترتصّ وتتكدّس على مدار السنين كالأسنان في الفم. الفم مقفل هذا المساء. يوجد على البوّابات الخشبية الكبيرة يافطة تخبر الزوّار أنّ الفناء سيُفتح غدًا في الساعة الثامنة والنصف صباحًا.

لا ماء مقدّس الليلة. لا تواثب إذن.

لكنّي أعلم أنّ هذا ليس حقيقيًا، لعلّي فقط أماطل في تأكيد هذا. كان بإمكاني الذهاب للكاتدرائية في أيّ وقت مع ذلك، إنّها الحياة الحقيقية مجدّدًا هذا المساء، لكنّها تحمل وعدًا صريحًا بشيء آخر، شيء من القصَص. قضاء أمسيَة أخرى بها ليس في غاية السوء، مع ذلك أتمنى وأنا أرى البوابات المقفلة الآن لو كان لديّ ماء مقدّس: أتمنّى لو كان لديّ شيء ما خطِر لأقوم به فيما بعد.

أسير على الأرصفة الزلقة بالصقيع، أبحث في خريطتي الجديدة عن الشارع الذي تقطنه هيثر، في طريق جانبي خلف الكاتدرائية تمامًا: له

شرفة صغيرة بطوب أصفر وباب أسود، أدقّ مرتين بالمطرقة الفضّية ثم أعود خطوة للوراء في انتظار أن تجيب هيثر.

«آرييل، أهلاً»! تقول حين تفتح الباب. «شكرًا جزيلًا على مجيئك. نبيذ؟ رائع... أحتاج لأكبر قدر منه بعد هذا اليوم الذي قضيته. كيف حالك؟ أوه، معذرة، دائمًا أثرثر على الباب. ادخلي».

يفتح الباب من الشارع إلى حجرة المعيشة مباشرة. نمط البيوت الذي يبدو أنّ أغلب الأكاديميين يمتلكونه قبل الزواج وإنجاب أطفال: ألواح أرضية من خشب الصنوبر، سجّاد، وفرة من الأرفف، نسخة من إحدى لوحات بيكاسو في إطار، دثارات ملقاة على الكنبة والمقاعد، طاولة قهوة عليها كتب مصوّرة، وعدد من مصابيح الإنارة. تمامًا مثلما كما كان منزلي سيبدو عليه إن كان لديّ تدفئة وليس فئران، وإن اهتممت بإعمار أكثر من حجرة واحدة فيه. أشمّ رائحة طهوٍ بالثوم، ممزوجةً بشيء ما كزيتٍ مقدوح، ومزيج من النعناع واللافندر. المنزل دافئ. تنبعث موسيقى جاز من جهاز صوت صغير. لا إشارة إلى وجود آدم.

«أبيض أم أحمر»؟ تسأل هيثر. «أوه، تصرَّفي كأنّك في بيتك بالمناسبة. ضعي معطفك في أيّ مكان.. المكان هنا فوضى دائمًا تقريبًا».

لماذا يدّعي الناس دائمًا أنّ بيوتهم فوضى بينما هي ليست كذلك؟

«إرر. أحمر، من فضلك. شقّتك رائعة بالمناسبة. أحبّ هذه الصورة».

«أوه، لطيفة، أليس كذلك»؟ تقول هيثر من خلف كتفها وهي تتّجه للمطبخ لتأتي بنبيذ، تعود وتناوله لي في كأس ضخمة بساق وردية لامعة. «أحبّ بيكاسو».

«أحب هذه بالأخص». أقول وأنا أحدّق في اللوحة «أحبّ أيّ شيء عن الأربعة أبعاد، كأنّه هوس».

«أربعة أبعاد». ثم تكشّر قائلة: «استمرّي، أخبريني بما لا أعرفه. أنا لا أقدّر الفنّ على نحوٍ لائق أبدًا، أفكّر أنّ «هذه صورة جميلة» فحسب، ثم

أعلّقها على جداري، هذا ما يحدث حين تكونين عالمةَ أحياءٍ، تحتاجين لأهل الإنسانيّات ليشرحوا لكِ الحياة الحقيقية».

أضحك، وبعد أن أؤكد لهيثر أنّي لا أعرف سوى القليل عن التكعيبيين والطليعيين، وليس بأكثر منه عن الفنّ، أقول شيئًا ما عن إمكانية الزعم بأنّ وضع رأس المرأة يمكّنها من تحريكه عبر الزمن، أو بدلًا من ذلك، إمكانية أن يكون الناظر إليها كائنًا ذا أبعاد رباعيّة..

«واو. أمرٌ ظريف جدًّا. أنا أفضّل الصرخة على ما عداها من لوحات. لكنّي فكّرت أنّ تعليقها سيجعلني أبدو طالبةً جدًّا، لذلك اخترت لوحة أكثر تعقيدًا. أحبّ الصرخة جدًّا برغم هذا. إنّها شعوري أغلب الأيام».

«لماذا»؟

«أوه، امم...». ثمة دق على الباب «هذا آدم، أرجو ذلك، وليس سفاحًا». تضحك. «انتظر».

أشعر بيدي وقد بدأت ترتعش بلا داعٍ. أضع كأسي، ثم أمسك بها مرّة أخرى، تندفع من الباب دفقة هواء بارد حادّة حين تفتحه هيثر وتحيّي آدم. يبدو مثلما بدا من قبل تمامًا، الفرق الوحيد أنّ شعره أكثر فوضى.

«أهلًا،» يقول لي بينما يخلع معطفه.

«مرحبًا»، أجيبه.

تخبره هيثر أن يضع معطفه في أيّ مكان وتكرّر اعتذارها عن «فوضى» المكان، ثم تتّجه للمطبخ لتأتي له بكأس نبيذ أبيض. يحدّق أحدنا في الآخر دون أن نحرّك ساكنًا أو ننبس بشيء.

«إذن»، تقول حين تعود. «أعدّ مكرونة وخَضرَوات محمّرة. عشاءً بسيطًا، أرجو أن يناسبك... آدم».

«نعم، شكرًا»، يقول وهو يتناول منها الكأس وما زال ينظر لي. أنظر

له بدوري، لكنّه هو هذه المرّة من يشقّ اللحظة وينقل بصره لهيثر. «يبدو رائعًا».

يستقرّ آدم في ركن الكنبة الكبيرة على الجانب الآخر من الحجرة بالنسبة لي. دون أن ينظر لأيٍّ منّا، ينحني للأمام ويتفقّد الكتب على طاولة القهوة. يلقي نظرة عليها كلّها، ثم يتناول كتابًا كبيرًا ذا غلاف مقوّى عنوانه أسماك غريبة. ويأخذ في تقليب صفحاته. سكوت يمتدّ لعدّة ثوانٍ. لا بدّ أنّ هيثر شغّلت الموسيقى على وضع الدوران دون توقّفٍ، لأنّه ما إن توقّفت موسيقى الجاز، بدأت نغمة جيتار أكوستيك حزينة ووصلنا صوت رجل يغني عن وحدته في ساعات النهار الأولى.

«الأفضل أن أعدّ المكرونة».

«حسنًا»، يقول آدم ما إن تذهب هيثر. «كيف تسير الحياة»؟

«لا بأس»، على ما أظنّ. «ماذا عنك؟ هل تستقرّ بشكل جيّد»؟

«نعم، وشكرًا على سماحك بمشاركة مكتبك».

«لا بأس، كما كنت أقول لهيثر من قبل، لم تكن لي حرّية الاختيار بالضبط على كلّ حال».

«آه، نعم، لقد اقتحمنا مكتبك»؟

« لكنّي لا أمانع على الإطلاق، حقًّا».

حوار صغير، فحوارٌ صغير، والآن عاد يقلّب صفحات الكتاب على ركبتيه.

تدخل هيثر مرّة أخرى.

«إذن، كيف حال عالم الدين»؟ تسأله هيثر. «كيف الحياة مع الربّ»؟

«أنّى لي أن أعرف». يقول آدم.

«ألست متديّنًا»؟ تقول. «ظننت أن...».

يبتسم آدم. «سأجيبك بالإجابة القصيرة. لا».

«أوه، هيا» تقول هيثر. «ما هي الطويلة. آها!».

شيء ما في المطبخ يصدر صوت دنج فتقفز وتذهب؛ لترى الأمر. «معذرة، إنّها مكرونتي على ما أظنّ».

ينظر لي آدم نظرة كأنّنا على وشْك السطو على بنك معًا. يبدو عليه أنّه لا يريد ذلك حقًا.

«نجدة». يقول.

أبتسم له. «لسوء الحظّ. مع ذلك». أقول. «كان بودّي أن أسمع الإجابة الطويلة، أنا أيضًا».

«آه...»، يتنهّد ويمرّر أصابعه في شَعره.

«هيي.. لا يهمّ»، أقول. «أنا أمزح فقط. ليس عليك أن تخبرني بشيء».

«أفضّل مشاهدة الأسماك، لأكون أمينًا معكِ»، يقول.

أبتسم. «نعم، أظنّ أنّي أعرف ما تعنيه».

«غريبة تلك الأسماك. أرأيتِها»؟

«لا».

«تعالي انظري».

إذ أتحرّك لكنبته، أتذكّر الأوقات التي قضيتها مع رجال وقادتنا سلسلة من الأكاذيب للمنزل نفسه أولًا، ثمّ الكنبة نفسها، ثم الفراش نفسه. أنا مرهق، أشعر بالبرد، تعالي. بودّي أن أريكِ شيئًا. ينتهي الأمر دائمًا بالمضاجعة. أجلس بجانبه تفصل بيننا بوصتين بالكاد، لكن، بالطبع، هيثر هناك في المطبخ. أشدّ أكمام السترة لأخفي معصميّ.

«انظري»، يقول ويشير بأصبعه.

الكتاب مفتوح على صورة بحجم صفحة كاملة لسمكة شفّافة تبدو كواقٍ ذكريّ مُستخدم له أسنان حمراء.

«يع»! أقول. لكنّها في الحقيقة تعجبني فعلًا. «هل لها اسم»؟

«لا أظنّ، انظري لهذه».

يقلب آدم الصفحة ويميل بالكتاب ناحيتي. أرى ما يبدو أنّه سمكة، لكنّها ليست سمكة عادية، بل «وجهًا» بعينين جاحظتين وفم صغير، يبدو هذا الشيء كرأسِ قردٍ حجري، كأنّ أحدهم لطم الشيئين معًا، جسد سمكة ورأس قرد، كمزحة أو حتّى بالخطأ.

«ماذا تدعو هذا»؟ أقول.

«لا أعرف، سمكة قردة؟ أو قرد يدّعي أنّه سمكة»؟

يقلّب الصفحة. ثمّة صورة أخرى. سمكة تبدو كدودةٍ لها فرج منفصل يخرج منها. يغالبني الضحك لكنّي لا أضحك.

«سمكة الأوركيدا»، يقول. حينها تدعونا هيثر لغرفة الطعام لتناول العشاء.

«إذن، أرجوك قل لي إنّك لا توافق على تدريس نظرية الخلق للأطفال»، تقول هيثر لآدم بعد حوالي خمس دقائق من جلوسنا للطعام. «أم ماذا يدعونها الآن: التصميم الذكي[1]».

نتناول مكرونة وخَضراوات محمّرة كما قالت، وطبق سلطة من قطع كبيرة. ظلّت قبل أن تبدأ في هذا الحوار تتحدّث عن مشكلاتها في العثور على رجال محترمين في الجامعة. تتحرّك المكرونة بجنونها المعتاد، إن لم تنتبه لها جيّدًا ستنزلق الحلزونات البيضاء من الشوكة. الخَضراوات: طماطم صغيرة وفطر وباذنجان وبصل ـ عليها زيت زيتون وليمون، يجعلها دبقة كالكرامل. ثمّة خبز بالثوم أيضًا، آكل بقدر ما يمكنني. في الحقيقة كنت

(1) نظريّة الخَلق هي النظريّة القائلة بأنّ بعض خواصّ الكون والكائنات الحيّة لا يمكن تفسيرها إلّا بوجود مسبّب ذكي وليس مسبّبًا غير موجّه كالانتقاء الطبيعي كما تفترض نظريّة التطوّر، وهي نظريّة علميّة تسمّى أيضًا التصميم الذكي وتمثّل دليلًا علميًّا معاصرًا على وجود الله، يؤكّد أنصارها بمعهد ديسكفري أنّها تقف على قدم المساواة أو تتفوّق على النظريّات الحالية عن أصل الحياة وتطوّرها. أثارت جدلًا قانونيًّا حول تدريسها في المدارس مع نظريّة (دارون) في عدّة بلدان بالغرب وقضت محكمة أمريكية مؤخّرًا برفض تدريسها في مناهج التعليم.

حتّى تلك اللحظة أستمتع بالطعام أكثر من الحوار. أميل لكراهية حوارات دعوات العشاء، لكن حتّى أنا أستطيع أن أتنبأ أنّ هذا الحوار سيكون ممتعًا.

«بأيّ معنى»؟ يقول آدم.

«كجزءٍ من منهج العلوم». تقول هيثر.

«أليست نظرية الخلق والتصميم الذكي أمرين مختلفين»؟ أقول.

«لا في الحقيقة»، تقول. «التصميم الذكي يدّعي أنّه مسألة علميّة، لكنّه ليس كذلك: فبرغم كلّ شيءٍ تتعامل النظرية مع أشياء ليس بوسعك أن تعرفيها أبدًا».

«أنصار التصميم الذكي هم الذين يقولون إنّ التطوّر أمر معقّد جدًّا على أن يحدث كله بنفسه، أليس كذلك»؟

«نعم»، تقول هيثر. «مثل، همف. فقط لأنّهم لا يفهمونه...».

«تدريس الدين ليس كتدريس العلوم». يقول آدم. «لكنّنا ندرِّس بعض العلوم في الفصول الدينية، إن كان ذلك يفيد في شيء».

«مثل ماذا»؟ تقول هيثر.

«أساطير الخلق»، يقول آدم، «الانفجار العظيم إحداها».

«كيف ـ تحديدًا ـ يعتبر الانفجار العظيم أسطورةً»؟ تسأل هيثر.

«لأنّها حكاية»، يقول آدم. «تمامًا كتلك التي تقول إنّ العالم فقسته بيضة عملاقة، أو أنّ الربّ قال: «ليكن النور» وصار فجأة هناك نور. كلّها مجرّد حكايات عن أصل العالم.. ولم يكن أحد منا هناك ليجمع حقائق مشهودة، لذا ننتهي إلى أنّ الأمرَ كلّه غير قابل للعلم به».

«لكنّنا ما زلنا بالفعل جزءًا من الانفجار العظيم». تقول هيثر. «ونشهده طوال الوقت. نحن «هناك» الآن. وفي جميع الأحوال، للعلوم أن تعرف أشياء دون أن تشهدها، لم ير أحد ديناصورًا من قبل أيضًا. بالمناسبة، تصرّفوا كما لو كنتما في بيتكما صُبّا نبيذًا كما تريدان».

«لا أريد أن أحدث ضجّة أو شيئًا كهذا»، يقول آدم مبتسمًا ثم يضيف

«لكن ليس بوسعي أن أوافق على نظرية الانفجار العظيم بأكثر ما أوافق هؤلاء الذين يقولون إنّ العالم تحمله سلاحف عملاقة».

«ليس بإمكانك ألّا تتّفق مع الانفجار العظيم». تقول هيثر.

«ولم لا»؟

«حسنًا، إنّها ليست رأيًا، بل نظرية مؤسّسة جيّدًا، بوفرة من الأدلّة، لذا فهي بالتأكيد ليست شيئًا ما توافق عليه أو ترفضه. يمكنك دحضها، هذا أمرٌ مختلف».

«إذن لكِ أن تُكوّني رأيك، مثلًا، في الخلق، أو ما إذا كان هناك ربٌّ أم لا، وليس لي أنا أن أُكوِّن رأيًا فيما يقال بأنّ الكون قد بدأ على نحوٍ لا يمكن تصوّره من نقطة سوداء انفجرت بلا سببٍ محدّد هكذا ببساطة».

«حسنًا معك حقّ، جزء البداية يستعصي على الفهم حقًّا». تقول هيثر.

«وهناك مشكلة فيما قبل البداية». أقول.

«نعم، نعم»، تقول هيثر. «لكن يمكنكما أن تنحيا كلّ هذا جانبًا وتنظرا لكافّة الأدلة على حدوث الانفجار العظيم، ما إن تدركا أنّ الكونَ كلَّه يتحرّك، وأنّ كلّ قطعة تبتعد عن القطع الأخرى، تدركان أيضًا أن... حسنًا، بالأمس، كانت كلّ القطع أقرب قليلًا معًا، وأول أمس كانت أقرب. عودا بالشريط لبدايته، ترَيَا أنّه، منطقيًّا، لا بدّ أنّ كلّ شيء كان ملتصقًا. لذلك... آدم يستحيل أن تعترض على هذا».

«فعلًا؟ آه، هل لي في المزيد من الخَضرَاوات من فضلك»؟

«فقط إن وافقتني». تقول هيثر وهي تضحك.

«آه، حسنًا، والحال هكذا...»، يرفع آدم يديه كما لو أنّه يتوقّى التصادم بشيء ما ضخم.

«لا، أنا أمزح فقط، تفضّل...»، وتدفع طبق الخَضرَاوات ناحيته. «لكنّي ما زلت لا أفهم كيف لا يمكنك الاتفاق مع واقعة علمية».

«واقعة» هي مجرّد كلمة. العلوم ليست في حدّ ذاتها سوى مجموعة من الكلمات. في ظنّي أنّ الحقيقة تكمن وراء اللغة، ووراء ما ندعوه «الواقع». لا بدّ من ذلك؛ حسنًا، إن وُجد هذا الما وراء أساسًا».

«مرّة أخرى»؟ تقول هيثر وتقطب حاجبيها.

«آها». أقول وأنا أومئ وأرفع حاجبًا. «لقد تغلّب عليكِ بهذه النقطة».

«الأمر كلّه نسجُ خيالٍ»، يقول آدم. «أساطير الخلق، الدين، العلم. نخبر أنفسنا كيف يسير الزمن... بإمكانِكِ مثلًا تخيّل شريط حياتك يعود إلى الوراء لتتأكّدي ممّا اكتسبتِه في هذا القدر من الوقت الذي ندعوه بالأمس، لكنّ الأمس لا يوجد إلّا لأنّنا نتذكّره: ليس واقعًا. لا يمكنك أن تثبتي لي أنّ الأمس حدث حتّى. كلّ ما نقوله لأنفسنا لنصدّقه مجرّد خيال، قصص».

«حسنًا»، تقول هيثر. «ليس بوسعك الجدلُ بهذا، فهذا يتركُني في شكٍّ. وعلى كلّ حالٍ، لو أنّ الواقع كلّه مجرّد نسج خيال، فلماذا الإزعاج»؟

«أيّ إزعاج»؟

«محاولة فهم الأمر كلّه. محاولة العثور على الحقيقة».

«حاولي العثور على الحقيقة خارج الواقع»، يقول آدم.

«كيف بالضبط؟».

يرفع آدم كتفيه. «التأمّل، حسبما أظنّ. والسّكْرُ البيِّن أمرٌ واردٌ أيضًا».

كنت على وشْك أن أقول شيئًا ما قويًّا عن دريدا، لكنّ هيثر بدت حزينة حقًّا، فعدلت.

«التأمّل ليس علمًا»، تقول.

«هذا هو المطلوب». يقول آدم.

«بحقّ الله»، تقول وهي مأخوذة الأنفاس قليلًا. «كلّ تلك الضبابية والخرافات... لا إهانة، لكنّك في حاجة للكلمات والمنطق لتعمل في العلم. كنت أدرس هذا المساء فصلًا عن التفكير العلمي للدراسات العليا، ودائمًا

أعطيهم مثال بيت العنكبوت الموجود خارج قاعة المحاضرات. هناك هذا الرواق الطويل بأضواء برتقالية معلّقة في الحائط. المصابيح دائمًا مضاءة، وفي المساء تريان بيوت العنكبوت الممتدّة عليها، وسيقانها الطويلة أيضًا، وحشرات الليل الأخرى التي وقعت في شباكها. قد تنظران لهذا وتفكّران: «أليست العنكبوت حاذقة لأنّها تبني لنفسها بيوتًا، بينما الحشرات الأخرى تطير منجذبة للضوء؟» تقدّما خطوة أخرى على نفس النهج؛ لتُدركا أنّكما لا تريان بيت العنكبوت إلّا بالقرب من الضوء لهذا نفترض أنّها الوحيدة الموجودة. قد يقف هناك شاعرٌ ويحلُم بمهارة العنكبوت، بينما العالم يسجّل بدقّة عدد بيوت العنكبوت ومواقعها، ويستنتج أنّ موضع بعضها بالقرب من الضوء لا بدّ حدث مصادفة».

«لكنّ هذا كلَّه يثبت ما أقوله»، يقول آدم. «لم أكن لأستنتج أنّ العنكبوت قصدت استغلال الضوء للإيقاع بالحشرات، بل سأفترض أنّي لن أستطيع فهم ما تفعله العنكبوت أبدًا، لماذا؟، لأنّني لست عنكبوتًا».

«لكنّ على العلماء محاولةَ فهمِ الأشياء. عليهم أن يسألوا لماذا».

«نعم، لكنّهم لن يحصلوا على إجابة معقولة أبدًا». يقول آدم.

«على كلٍّ». أقول، بصوت أعلى ممّا قصدت. «احم، على كلٍّ كنت فقط سأقول إنّ هذه الأمور عن العلم واللغة مثيرة حقًا في علاقتها بشيء قرأته عن الانفجار العظيم، شيء معقّد قليلًا، لكنّه يوضح أنّك إذا بدأت بقليل من الافتراضات الأساسية عن الانفجار العظيم، سيقودك المنطق إمّا لموقف أن نكون جميعًا أحياءً في أكوان متعدّدة، أو في كونٍ واحد من خَلق الربّ. لا خيار آخر حقًا».

«دماغي سينفجر الليلة»، تقول هيثر.

«اشربي المزيد من النبيذ فقط»، يقول آدم، وهو يبتسم لها.

فرغت لتوّي من التهام آخر قطعة خبز بالثوم، وهيثر وآدم وضعا سكينتَيهما وشوكتَيهما. أمدّ يدي لحقيبتي وأخرج علبة السجائر.

«إن كنت تقوم بكلّ هذا التأمّل، أليس من المفترض ألّا تشرب نبيذًا»؟ تسأل هيثر.

«أوه، هذا نادر جدًّا»، يقول آدم.

لا أعرف هل يعني التأمُّل أم شرب النبيذ، أتوقّع أن تستفسر هيثر عن هذا لكنّها بدلًا من ذلك تلتقط ورقة جرجير ملقاة على المائدة وتعيدها مرّة أخرى في طبق السلطة.

«أتمانعين إن دخنت»؟ أسألها.

«لا. إطلاقًا. سأفتح الباب الخلفي مع ذلك إن لم يكن لديكِ مانع».

تنهض؛ لتفعل ذلك، ونأخذ أنا وآدم بالإتيان بحركات مختصرة تعلن عن بدئنا في تنظيف المائدة قبل أن تخبرنا ألّا نُحدث فوضى ونترك كلّ شيء كما هو.

«لا. هيا»، تقول. «أخبرني بكلّ شيء عن الربِّ أو الأكوان المتعدّدة هذه».

«حسنًا»، أقول وأنا أشعل سيجارتي، «هل لديك شيء يصلح كمنفضة سجائر؟ بإمكاني أن أخرج إذا أردتِ...».

«لا. سآتيك بطبق فنجان».

«الربّ أو الأكوان المتعددة». يقول آدم بهمس بينما تجلب هيثر طبق الفنجان. «هممم».

«هل يعرف أحدكما شيئًا عن فيزياء الكمّ(1)»؟ أقول.

«ليس بشكل جوهري، فقط الأشياء التي تجدينها في كتاب علوم عامّة، تعرفين، وظيفة الموجة والاحتمالية وأشياء كهذه».

---

(1) الكمّ أو الكوانتم quantum: وحدة فيزيائية، تدلّ على أصغر مقدار يمكن أن يظهر بشكل مستقلّ ومنفصل عن الإشعاع الإلكتروني. وفيزياء الكمّ فرع من علم الفيزياء يقدّم وصفًا رياضيًّا لثنائيتَي الموجة والجسيم والمادّة والطاقة. طوّرها (فيرنير هايزنبرج) عالم الفيزياء الألماني عام 1925.

يهزّ آدم رأسه نفيًا. تميل هيثر رأسها جانبًا كما لو كانت تحاول إسقاط كلّ المعلومات من منزلق ما في ذهنها؛ لتجد منفذًا له.

«كان يجب أن أعرفها». تقول. «أظنّ أنّي كنتُ أعرفها في وقتٍ ما. لكنّك تتجاهلين كلّ هذا حين تعملين على مستوى جزئي، فلا يكون للأمر أيّة تأثيرات قابلة للاستيعاب، فيتمّ إهماله».

«أخشى أنّني عن نفسي في الجانب المظلم تمامًا». يقول آدم.

«حسنًا، باختصار، لكنّي أُنوّه هنا، أنا أعدّ رسالة دكتوراه في الإنسانيات لذلك لكما أن تتحقّقا من كلّ هذا من مصدر أكثر ثقة... تتعامل فيزياء الكمّ مع الجسيمات دون الذَّرِّية، أي الأصغر من الذرّات».

حينئذٍ، يقطب آدم حاجبيه قائلًا: «قولا عنّي مجنونًا لكنّ لديّ إحساسًا غريبًا أنّي رأيت أحد تلك الجسيمات من قبلٍ». يقول. «لعلّي مخمورٌ. لا بدّ أنّي درست هذا من قبل ثم نسيته. على كلِّ حال، عقلي يتوسّل إليَّ أن أسألك: ماذا على وجه الأرض أصغر من الذرّة»؟

«أوه، حسنًا، الكلّ يعرف أنّ الذرّة مكوَّنةٌ من نيوترونات وبروتونات وإلكترونات»، تقول هيثر.

«وتلك الأجزاء مُكوّنة جميعها من كواركات[1]»، أقول. «بعيدًا عن الإلكترون، الذي لا يمكن تجزئته ـ أو على الأقلّ هكذا يعتقدون ـ إذ كانوا منذ مئات السنين يعتقدون أنّ الذرّة لا يمكن تجزئتها، ومن قبل لم يكونوا على علم بوجودها أساسًا، لذلك فالحقيقة أنّنا لَسنَا على علمٍ بكلّ شيء».

الجوّ بارد والباب الخلفي مفتوح، تنهض هيثر وتأخذ سترة صوفية من على ظهر المقعد وترتديها.

(1) الكوارك هو الجسيم الأولي، وأحد المكوِّنَين الأساسيَّين للمادّة حسب نظرية النموذج القياسي لفيزياء الجسيمات (المكوّن الآخر حسب هذه النظرية هو الليبتونات)، ابتكر الكلمة الفيزيائي الأمريكي «موري جيلمان» (1929) في مقترحه لنموذج الكواركات للجسيمات النووية وسمّاه بهذا الاسم على اسم صوت البطّ. ويوجد ستّة أنواعٍ من الجسيمات (العلوي، والسفلي، والساحر، والغريب، والقمّي، والقعري).

«أظنّ أنّنا على يقين من أمر الإلكترون»، تقول هيثر. «بررر الجوّ برد».

نتبادل أنا وآدم نظرة.

«على كلٍّ». أقول. «تتعامل فيزياء الكمّ مع تلك الجسيمات الضئيلة من المادّة. لكن في بادئ الأمر، حين بدأ الفيزيائيّون وضع نظرياتهم عن تلك الجسيمات وملاحظة حركتها في مسرعات الجسيمات وما إلى ذلك، وجدوا أنّ عالم ما دون الذرّة لا يتحرّك بالطريقة التي نتوقّعها».

«كيف»؟ يسأل آدم.

«كلّ تلك الأمور عن المنطق العام... حدوث الماضي قبل المستقبل، السبب والنتيجة، فيزياء نيوتن وشاعرية أرسطو، لا شيء من ذلك يمكن تطبيقه على المستوى دون الذرّي. في كون حتمي، كالذي رأى نيوتن أنّنا نعيش فيه، بالإمكان دومًا التنبُّؤ بما سيحدث لاحقًا إن توفّرت ما يكفي من معلومات عمّا حدث من قبل. وبالإمكان دومًا العلم بأشياء على وجه اليقين. الأمر مثلًا إمّا نهار أو ليل، لم يكن الاثنان معًا قطّ. على المستوى الكوانتي/ الكمّي. لا تسير الأشياء بالمنطق نفسه».

«لا يكفّ هذا عن الدوران في رأسي». تقول هيثر.

«نعم. أمر غريب»، أقول. «الأمر كأنّه... ثمّة جسيمات بإمكانها النفاذ عبر الحائط هكذا. إذ لها نظائر مقابلة تبدو كما لو كانت متّصلة بها وتبقى متّصلة بها بطريقة ما حتّى وإن فصل بينها مئات الأميال. آينشتاين يدعوها «حركة مريبة من على بعد» ويرفضها تمامًا إذ تُنبئ بقدرة المعلومة على السفر بأسرع من الضوء».

«ولا شيء بإمكانه السفر بأسرع من الضوء»، تقول هيثر. «أتّفق مع آينشتاين في هذا».

«بأيّة حالٍ، أحد أغرب الأمور بشأن تلك الجسيمات دون الذرّية هو حدوث شيء غير مألوف حين تلاحظها. إذ تظلّ حتّى تبدأ في ملاحظتها، طافية في جميع المواقع بالذرّة: العلوي أو القميّ».

يهزّ آدم رأسه قائلًا: «أخشى أنّكِ فقدتِني هنا».

«حسنًا»، أقول. «تخيّلا أنّكما بالخارج تتمشّيان وأنا لا أعلم أين أنتما، قد تكونان في الجامعة، في الحديقة، في المتجر، في سفينة فضاء على بلوتو، أينما تكونان، كلّها احتمالات، برغم ترجيح بعضها على الآخر».

«وهو كذلك»، يقول آدم.

«حسنًا، حسب المنطق التقليدي أنتما حتمًا في مكان ما أو آخر، بغضّ النظر إن كنت رأيتكما هناك فعلًا أم لا، أو هل أعلم على وجه اليقين أنّكما هناك أم لا، أنتما في مكان ما، أنا فقط لا أعلم أين».

يومئ آدم، وأتخيّل لوهلة حياةً عاديّةً جدًّا لحدّ أن أكون فيها مع شخص مثله، في منزل كهذا ربّما، أفكّر في تلك الفكرة العاديّة والمثيرة مع ذلك: هل هو في المتجر أم في العمل؟

«على كلّ حال»، أقول. «واضح أنّكما الجسيمات في هذا المثال... حسنًا، تقول فيزياء الكمّ إنّه حين يكون موقعكما غير محدّد ـ فقد تكونان في المتجر أو في الحديقة، أو ما إلى ذلك ـ فأنتما في الواقع في كلّ مكان حتّى يعلم أحد ما مكانكما على وجه اليقين ويلاحظكما فيه. ومن ثم، فبدلًا من «واقع» واحد واضح، ثمّة مادّة دبقة. أنتما في المتجر وفي الحديقة وفي الجامعة، وفقط حين أخرج للبحث عنكما وأرى أنّكما في الحديقة تذوب كلّ الاحتمالات الأخرى ويتّضح الواقع».

«للملاحظة إذن أثرُها على الواقع»؟ يقول آدم.

«نعم، حسنًا... بالنظر للأمر من هذا المنظور. تسمّى فكرة وجود جميع الاحتمالات كدالّة موجية إلى أن ينظر إليها رقيب خارجي فتنهار هذه بتفسير كوبنهاجن[1]».

---

(1) تفسير كوبنهاجن هو التفسير الذي تبنّاه العالمان (نيلز بور) و(ورنر هايزنبرج) لتفسير النتائج المحيّرة لميكانيكا الكمّ ويعتمد أساسًا على مدّ فكرة التفسير الاحتمالي للدالّة الموجية الذي قدّمه (ماكس بورن) في محاولة لتفسير ظواهر كمومية غريبة مثل المثنوية (جسيم/ موجة) وإشكالية القياس.

«هل هناك تفسير آخر»؟

«نعم. هناك تفسير الأكوان المتعدّدة، يختلف مع تفسير كوبنهاجن فقط في أنّ المراقبة لا تهوِي بجميع الاحتمالات في واقع واحد، بل يقترح وجود أكوان متعدّدة، وأنّ جميع الاحتمالات قائمة في وقت واحد لكنّ لكلٍّ منها عالمه الخاصّ الذي يسلكه. وهكذا فثمّة، بالمعنى الحَرفيّ، عوالم عديدة بينها فوارق طفيفة. إذ في أحد العوالِم أنتما في الحديقة، وفي آخر أنتما في العمل، وفي ثالث أنتما على القمر، أو في حديقة الحيوان، أو أينما تكونان.

«هذان هما الاحتمالان الوحيدان، أليس كذلك؟ بمعنى أنّ الغالبية يؤمنون بواحد أو آخر منهما»؟

«نعم، على ما أظنّ»، أقول. «ظنِّي أنّ الغالبية يفضِّلون تفسير كوبنهاجن، مع ذلك».

«وما علاقة هذا بالانفجار العظيم إذن»؟

«حسنًا»، أقول. «لو تخيّلتما الجسيم الأصلي: الشيء الذي انفجر منذ 14 مليار سنة... لا بدّ أنّ ذلك الجسيم كان كأيٍّ جسيم آخر. له دالّته الموجية الخاصّة به... سلسلة من الاحتمالات عن أين كان وماذا كان يفعل. فما نعلمه في فيزياء الكمّ أنّه لولا وجود رقيب خارجي ليلحظ موقع الجسيم بالتحديد، لَمَا كانت دالّته الموجية لِتنهَار. بكلماتٍ أخرى، كان سيصبح في حالة جميع الاحتمالات في وقت واحد؛ سريع وبطيء معًا، يتحرّك يمينًا ويسارًا، وهنا وهناك في وقت واحد. لا بدّ أنّ الرقيب الخارجي هو الربّ. لذلك فربّما تسبّب الربّ في انهيار الدالّة الموجية التي صارت الكون. بكلمات أخرى، من بين جميع الاحتمالات الأخرى جعل الجسيم الأصلي ينهار إلى كون واحد، ذلك الذي نحيا فيه الآن. وهذا تفسير كوبنهاجن مطبقًا على الجسيم الأصلي. إن رفضتما ذلك، فليس لديكما سوى تفسير الأكوان المتعدّدة، الذي يقول بعدم وجود رقيب خارجي ولا انهيار للدالّة الموجية. بل بدلًا من ذلك، جميع الاحتمالات موجودة «هناك في الخارج»... كلّ عالم قد تفكّران

فيه موجود مع هذا الذي نحيا فيه: بعضها دافئ، بعضها بارد، بعضها به بشر، بعضها بلا بشر، بعضها يلد «أكوانه الوليدة»، وبعضها عقيم...».

تتبرّم هيثر. «كنت أعرف أنّ وراء نسياني هذه الأمور سببًا ما».

«ماذا لو رفضتِ فيزياء الكمّ تلك»؟ يسأل آدم.

«حينها على ما أظنّ لن يعمل مشغل الأقراص المدمجة الخاصّ بك ولا بطاقة الائتمان».

«ليس لديّ مشغّل أقراصٍ مُدمَجة ولا بطاقة ائتمان».

أكشّر له. «نعم لكنّك تعرف ماذا أقصد. التكنولوجيا الحقيقية قائمة على فيزياء الكمّ. يجب أن يدرسها المهندّسون. أقصد أنّها جنون، لكنّها تأتي بأثر هناك في العالم الخارجي».

«الربّ أم أكوان متعدّدة»، تقول هيثر. «أيّهما تختارين»؟

«لا يرضيني أيهما». أقول. «لكنّه الربّ على الأرجح... أيًا كان ما يعنيه هذا حقًّا. سمِّه تفسير (توماس هاردي): أُفضِّلُ أن يكونَ ثمّةَ شيء ما يعني شيئًا ما، عن الشعور بأنّي في محيط شاسع من اللاشيء».

«وماذا عنك يا آدم»؟

«الربّ»، يقول. «برغم ظنّي بأنّي أقلعت عن كلّ هذا».

يبتسم مطبقًا شفتيه، كما لو أنّ وجهه سيتهشم إن زاد عن هذا. «لا. الأمر معقول: فكرة وجود وعي خارجي في جميع الأحوال، ذلك إن كان لي الخيرة».

«أوه، حسنًا، أنا وحدي إذن في الأكوان المتعدّدة»، تقول هيثر.

«لست وحدك أبدًا في الأكوان المتعدّدة». أقول.

«ها. ها». تقول. «بجدّية، لا يمكنني تصديق أنّ الربّ خلق الحياة، ليس وأنا أعدّ البحث الذي أعمل عليه، أعني أنّه فقط لا يوجد دليل على ذلك.

كذلك ثمّة رسائلُ تهديدٍ كثيرة من أنصار نظرية الخَلق بحيث لا يمكنني الزجُّ بنفسي في صفوفهم بأيّة حالٍ».

«لا أظنّ أنّ ذلك يعني الزجّ بنفسك في صفوف أنصار نظرية الخَلق»، أقول. «بالطبع ربّما انبثق كيانٌ خارجيٌّ ما في بداية الكون ثمّ تطوّر كلّ شيء آخرَ كما يرى العلماء».

مع ذلك، أفكّر وأنا أقول هذا «بطريقة نيوتن في السبب والنتيجة»، وأُدرك أنّ هذا يتعارض على نحوٍ غريبٍ مع فكرة الكون الكمّي، وفجأة لا أعرف ماذا أقول.

«عن ماذا بحثك بالضبط»؟ يسأل آدم.

«عن لوكا». تقول. «حسنًا، كذلك يدعونها في عناوين الأخبار حين يكتب عنها محرّرو صفحة العلوم. لوكا اختصار لآخر سلفٍ مشتركٍ عالمي. بكلماتٍ أخرى، بحث عن أمّنا جميعًا».

«لديها هذه المصفوفة على الحاسوب»، أقول. «يجب أن تراها حين تكون في المكتب المرّة القادمة. حين رأيتها لم أفهمها، لكنّها بطريقة ما تجعلني أقشعرّ».

«الأمّ الكونية»، يقول آدم. «مثير».

«لا تقل لي... خطرت لك جنّةُ عدنٍ، مع...»، تقول هيثر لكنّ آدم يُقاطعها قائلًا: «لا. لا، الأمّ العظيمة. بداية كلّ شيء. التاو تسمّى الأمّ العظيمة: فارغة لكنّها لا تنضب، تلك عوالم لا نهائيّة. هذا من التاو تي تشنج[1]».

«أوه»، تقول هيثر. «هذا سيّئ بنفس القدر. من يريد بودنج»؟

---

(1) أي نموذج الطريق والفضيلة وهو أحد كتابَين (الآخر شوانج ـ تزو) يُؤسّسان معًا لفلسفة الطاوية الصينية وديانتها التي ظهرت في الصين في القرن الثاني قبل الميلاد.

اثنا عشر

بعد البودنج، وخوخ مطهوّ بالعسل، ومكسّرات وبراندي،. وحوار طويل عن لوكا وكيانات أخرى مثل فلو [The First Living Organism أول كائن حي] نشكر أنا وآدم هيثر ونغادر معًا جاهدين ألّا ننزلق على الرصيف المكسوّ بالثلج.

ما إن نبتعد بما يكفي عن مرمى سمع المنزل، يضحك آدم.

«ما الأمر»؟ أقول.

«حسنًا، لا أحبّ أن أقول ذلك، لكنّي لا أريد أن أعرف نوع البكتيريا الذي تطوّرنا منه».

«دائمًا ما يميل علماء الأحياء للتفسيرات التي هي أكثر كآبةً للأمور»، أقول. «لم يقنعني أيضًا ردّها على فكرتي عن وعي الآلات».

«لا، إنّها تفضّل الوضع الراهن على ما أظنّ».

«أظنّ هذا أيضًا، لكنّي لا أرى خطأ في الزعم. إذ عند نقطة ما تطوّرت الحيوانات من النباتات وتشكّلت الحياة الواعية، فما الوعي؟ واضح أنّه من الكواركات والإلكترونات نفسها مثله مثل أي شيء آخر، لعلّها تنتظم بنمط آخر فقط، لكنّ الواضح أنّ الوعي شيء يمكنه أن يتطوّر. هذا إلى حدٍّ كبيرٍ ما قاله صمويل باتلر في القرن التاسع عشر. إذا كان للوعي الإنساني أن يتطوّر من لا شيء، فلماذا لا يحدث ذلك لوعي الآلات»؟

ثمّة اعتراضات شديدة على هذه الفكرة، أشارت هيثر إلى بعضها، منها على سبيل المثال: ماذا لو أنّ الوعي لا يوجد سوى في أشكال الحياة العضوية؟ لكن ما هو شكل الحياة العضوية؟ بإمكان الآلات أن تتوالد ذاتيًّا، إنّها مصنّعة من الكربون، وتحتاج لوقود مثلنا تمامًا.

«إلّا إذا لم يكُن الوعي مادّة»، يقول آدم.

«نعم، حسنًا، وارد أيضًا»، أقول. «لكنّني بالفعل أتساءل أحيانًا: إن حدث وقرأ حاسوبٌ كلّ كتبِ العالم، أفلن ينتهي به الأمر إلي فَهم اللغة»؟

«ممم»، يقول آدم. ثم يردف بعد فترة صمت طويلة: «الجوّ بارد».

«نعم، أنا تجمّدت».

يغلفنا صمتٌ تامٌّ تقريبًا ونحن نتّجه لوسط المدينة. تجاوز الوقت منتصف الليل وإذ نقترب من الكاتدرائية لا نسمع صوتًا سوى همهمةٍ بعيدةٍ لشاحنات قبالة المتاجر؛ همهمةِ الرجال وهم يفرغون الملابس والشطائر وعلب السلاطة وعلب البن والجرائد؛ لتظهر كلّ تلك الأشياء في المتاجر غدًا كما لو كان بسحر ساحر.

«هل تعرفنا من قبل»؟ يسأل آدم فجأة.

أتمهّل قليلًا ثم أقول: «بأيّ معنى»؟

«أعني أنّني حين رأيتك اليوم ظننت أنّي أعرفك».

آخذ نفسًا عميقًا: هواء بارد في رئتيّ. «ظننت نفس الشيء».

«لكنّي لا أعرفك. أنا متأكّدٌ من ذلك».

«حسنًا...»، أرفع كتفيّ. «ربّما تقابلنا من قبل ونسينا».

«لم أكن لأنسى. لم أكن لأنسى لو كنت قابلتك».

«آدم...» أبدأ، فيقاطعني قائلًا: «لا تقولي شيئًا. انظري فقط».

نمرّ حينها ببوّابة الكاتدرائية، إن توقفت ونظرت إلى حيث يشير آدم، سترى المسيح، منحوتًا بالحجر، ينظر إليك من أعلى.

«مذهل»، أقول دون تفكير. «حتّى إن لم تكن تؤمن بكلّ الباقي، يظلّ المسيح شخصية مميَّزة». ثم أضحك. «يبدو هذا منتهى الغباء والتفاهة. آسفة. أنا متأكّدة أنّه ما من أحدٍ يمكنه إنكاره».

«ستندهشين»، يقول آدم.

«أوه»، أقول، وأتذكّر فجأة وقوفي من قبل في نفس المكان لكنّي كنت أنظر إلى البوّابة وليس إلى أعلى إلى المسيح. «هل تعلم شيئًا عن الماء المقدّس»؟

«هذا سؤالٌ غريب».

«أعلم». نأخذ في السير مجدّدًا، ننعطف في شارع جانبي صغير مفروش بالحصى نسير في اتّجاه شقّتي. يخطر لي أنّنا ربّما نعود لشقّتي وننام معًا؛ ربّما أستطيع هذا، لكن بدلًا من فرحتي المعتادة بالأمر، أجدني أشعر بشيء آخر: الشعور نفسه الذي انتابني وأنا أنظر إلى شاشة حاسوبي هذا الصباح وأرى كم كانت قذرة. أنا قذرة، ومشغولة بشيء يُعينني على الهرب. لكنّنا نسير تجاه شقّتي على كلّ حال.

«ماذا تريدين أن تعرفي»؟

«ممم، حسنًا، كلّ شيء، لكن بشكل أساسي من أين أحصل على بعض منه».

«تحصلين على بعض منه»؟ ليس بوسعي رؤية تعبير وجهه في الظلام، لكنّي أميّز تقطيبه حاجبيه من صوته. «هل أنت كاثوليكية»؟

«لا. لست متديّنة أساسًا. كانت أمّي تؤمن بالكائنات الفضائية».

«آه».

«نعم. لكن لماذا تسأل»؟

«الكاثوليك فقط من يتناولون الماء المقدّس. بإمكانك إيجادُه في أيّ كنيسة كاثوليكية».

«ليس في الكاتدرائية»؟

«لا، ليس في العادة».

«كنت متأكّدة أنّي رأيت قدور ماء في الكاتدرائية. كنت سأذهب إلى هناك من قبل، لكنّها كانت مغلقة».

«ثمّة قدورٌ لكنّها فارغة. فقد تخلّت الكنيسة الإنجيلية عن الماء المقدّس منذ قرون».

«أوه، هكذا إذن، لنفترض أنّك تريد ماءً مقدّسًا من كنيسة كاثوليكية، أَلَا بُدّ أن تذهب هناك خلال النهار»؟

«لا. ليس دائمًا. أنتِ...». يتوقّف قليلًا. «هل تريدينه الآن»؟

«ربّما. نعم. ربّما. لا أعرف».

«هل لي أن أسأل لماذا»؟

«لعلّه من الأفضل ألّا تسأل. الأمر... حسنًا، شيء ما على الأرجح لن تستحسنه، هل سمعت من قبل عن الفيزيائي جورج جامو»؟

«لا. هل تخبرينني عنه ونحن نسير في الناحية الأخرى؟ سأريكِ من أين تحصلين على ماء مقدّس».

«حقًّا»؟

«نعم. معي مفاتيح كنيسة القديس توماس. من هنا».

أتبعه، نعبر ساحة انتظار سيارات، ثم ممرًّ مُشاةٍ صغير، ثم إلى منطقة بورجيت. منزل بيرلوم هناك في الجهة الأخرى من الطريق الدائري. نمرّ بكنيسة القديس (أوجستين) بطريق سكني تحفّه الأشجار. أتساءل ماذا سيكون شكل منزله الآن؟ أتخيّل الباب موصدًا بصليب خشبي ثم أدرك أنّ هذا سخف: لم يعد الناس يوصدون منازلهم بصلبان خشبية منذ زمن بعيد. قد يكون باعه. أو لعلّه هناك الآن حتّى. ذهبت العام الماضي بالفعل وطرقت الباب، لكن لم يجبني أحد. ننعطف أنا وآدم يسارًا ونمرّ بمتجر للكتب والمجلّات المصوّرة، نافذة عرض كاملة من الأبطال الخارقين والأشباح، الطيبين منهم والأشرار. ونحن نسير أُنحّي بيرلوم جانبًا من رأسي وأبدأ في إخبار آدم عن جورج جامو وكيف احتفظ، وهو طفل، بخبز

المناولة بدلًا من تناوله ليضعه تحت الميكروسكوب ليرى إن كان يختلف في أيّ شيء عن أي خبز عادي. أخبر آدم أنّي أريد الماء المقدّس لأمر مشابه لهذا بشكل ما... مجرّد تجربة ليس لها صلة بإحياء الروح الكاثوليكية. ثم نصل أمام الكنيسة.

«سأتفهّم تمامًا إن لم ترغب في إدخالي الآن». أقول.

«لا. لقد أحببت تجربتك، والأمر ليس مهمًّا بالنسبة لي عمومًا».

داخل الكنيسة مظلم ويعبق برائحة بخور وأحجار باردة. لا ندخل مباشرة: تبيّن أنّ الماء المقدّس في قدر صغير في المدخل. ألمح آدم يرسم الصليب على نفسه أمام أيقونة لمريم العذراء. أُخرج قارورتي.

«أنا متأكّدة أنّه ليس لك أن تسمح لي بفعل هذا». أقول.

«إنّه مجرّد ماء»، يقول آدم. «لا مانع من أن تأخذي بعضه. وكما قلت لك من قبل، لم يعد كلّ هذا يعني لي شيئًا بعد الآن».

لكنّه لا يراقبني وأنا أغمس القارورة في القِدر. بل يتركني ويأخذ في تصفّح مطويّات ونسخ من الكاثوليك هيرالد. ثمّة ملصق على الحائط كُتب عليه «ضريح القدّيس جود». يرفع آدم أصابعه ويمسّه برفقٍ. لا أظنّ أنّه يشعر بمراقبتي له. أبعد نظري عنه.

«هل لي أن أسأل عن سبب حيازتك لمفاتيح الكنيسة»؟ أقول له ونحن نغادر.

«أوه، أنا قسّ»، يقول. «أو كنت كذلك على الأقلّ. هل نعود لشقّتك»؟

في نظر أحد غيري سيبدو مطبخي بالتأكيد مكانًا مظلمًا ونتنًا ومفعمًا برائحة ثقيلة للثوم والسجائر. على رفّ الموقد أيضًا كتابٌ تصحبه لعنة: مجلّد هزيل شاحب لن تلحظه إن كنت أحدًا غيري.

«آسفة»، أقول لآدم إذ ندخل المطبخ.

لكنّي لا أعرف علامَ أسفي تحديدًا. أعلى إطار الباب المكسوّ بترابٍ رماديٍّ كثيف؟ أم مسند الأريكة المكسور؟ أم البقع المحروقة على سطحِ

المطبخ القديم؟ أم قشور مشمّع الأرضية الأخضر؟ وأنا وحدي هنا لا أنتبه حتّى لتلك الأشياء. بودّي أن أفتح نافذة لكنّ الجوّ بارد جدًّا. أن أشعل كلّ عيون الموقد كما أفعل عادةً، لكنّي لا أفعل.

«آسفة، المكان بارد جدًّا». أقول.

«شقّتي ثلّاجة»، يقول آدم. «أقيم في المساكن الجامعية».

«حقًّا؟ أين؟»

«في حجرة بكلية شيلي. حجرة صغيرة لها رائحة المكرونة بالجبنة طوال الوقت. هذه رفاهية... صدِّقيني».

«أتودّ بعض القهوة»؟ أسأله.

«لا، بعض الماء فحسب من فضلك، إن لم يكن ثمّة مانع».

أملأ له كوب ماءٍ من الصنبور ثم أعدّ لنفسي قهوة. يمرّ قطار بالخارج ويقعقع إطار النافذة الرقيق برفق. أرى حركة طفيفة في ركن الحجرة ـ هناك ـ ثم تختفي، كجُسيمٍ ساحر. فأر.

«أحبّ المكان هنا». يقول آدم وهو يجلس على الكنبة.

حين تجهّز قهوتي آخذُها وأجلس على الكنبة القديمة بجواره. لا أتذكّر أنّي جلست من قبل على تلك الكنبة بجوار كائن حيٍّ آخر. الأمر يشبه بصورةٍ ما الجلوس في قطار عكس اتجاه السير. كلانا يحذر لئلّا تتماسَّ ركبتانا.

«ما ضريحُ القدِّيس جود»؟ أسأله.

«آه، هذا، هل لاحظتِه»؟

«لمحت الاسم فقط على جدار الكنيسة. سمعته من قبل: القدِّيس جود. قدِّيس ماذا هو»؟

«المسائل الميئوس منها. ضريحه بفافيرشام. أذهب هناك حين...».

«حين ماذا»؟

«فقط حين تسير الأمور على نحوٍ خاطئ. أنتِ لا تسألين السؤال الواضح».

«أيّ سؤالٍ واضح؟»

«عن كوني قَسًّا».

«لست ماهرة في طرح هذا النوع من الأسئلة»، أقول.

فترة صمت. يجب أن أقول شيئًا آخر؛ أعلم أنّه دوري في الحوار، وبودّي حقًّا أن أعرف، لو اتبعت عاداتي كنت سأسأله كيف يكون المرء قَسًا وكيف يكون قَسًا ثم لا يعود كذلك، بودّي أن أسأل مثلًا لماذا لا يزال يرسم الصليب على نفسه حين يدخل الكنيسة، لكنّي لديّ الآن الماء المقدّس والكربون النباتي، كتلك الأيّام حين كنت أحتفظ بموسى للحلاقة في صندوق ولا أرغب في شيء سوى أن يدعني الجميع وحدي لأفعل ما أريده، وحدي.

«هل تمانع إن دخنت»؟ أسأل آدم.

يرفع كتفيه. «البيت بيتك».

«نعم، أعلم، لكن...».

«بأمانة، لا تعيريني اهتمامًا».

يرشف من كوب الماء إذ أشعل السيجارة، وأرى الرعشة الطفيفة في يده اليسرى وهو يُمسك بالكوب، ثم أبعد نظري عنها، يذهب بصري للندوب على سطح المطبخ: وقت أن حرقت الرز، وقت أن سلخت جلدي؛ وقت أن جرحت أصبعي.

«كيف كان الأمر»؟ أسأل وأنا أجبر أفكاري على التوقّف، «أو حتّى كيف هو الأمر»؟

«أي أمر»؟

«أن تكون متدينًا هكذا، أقصد، أن تكون متديّنًا بما يكفي لتصير قَسًّا».

يضع كوب الماء ويمدّ جذعه للأمام ليسند مرفقه على ركبته ويحمل وجهه بيده اليمنى. يدور بسبابته على حافّة وجهه، كما لو كان أعمى يتلمّس ملامح وجهه.

«كنت أفكّر في هذا»، يقول. «كنت أحاول صياغته في كلمات، لكن لم يكن لديّ أحد لأخبره بها و... الآن بعد أن قابلتك، أظنّ أنّك ستفهمين. في الواقع، أنا أعرفك جيّدًا».

«لماذا تظنّ هذا»؟

يضع الآن كلتا يديه على وجهه ويترك رأسه تسقط فيهما.

«لا أعلم».

«آدم»؟

«آسف. لست حتّى متأكّدًا أنّي أودّ الحديث عمّا تودّين الحديث عنه. لم أفقد صفة القَسّ حتّى لأنّي لم أكن متدينًا بما يكفي... كنت مجرّد مغفّلٍ هناك في منزل هيثر، لم أفقد إيماني لأنّي أردت مضاجعة غلمان أو رجال كبار أو شابّات أو أيّ شيء من هذا القبيل، درست الطاوية ـ منذ سنوات ـ وقرّرت أن أتبع «الطريق» برغم كوني قَسًا، ليس هذا غريبًا... الكثيرون يفعلونه، لكنّه قوّض إيماني، لا أرغب في شيء سوى أن تنعدم رغبتي في كلّ شيء، لكن هذا في حدّ ذاته رغبة، واضح، وهذا ما قادني للجنون. لم أعد قادرًا على منع نفسي من التفكير في المفارقات، فكّرت في ميلاد العذراء ولغز الإيمان وكلّ شيء آخر، لم أكره المفارقات ـ فهي أساس الكنيسة برغم كلّ شيء ـ لكنّي صرت في حاجة للمزيد منها، رغبت في أن أرى كيف تبدو مفارقة صرف، في النهاية أدركت أنّي ببساطة أريد الصمت، ثم نذرت الصمت لعامين، ولم أفكر في شيء، ثم توقّفت، ليس بوسعي شرح ذلك جيّدًا... وأنتِ على حقّ، لماذا أخبرك بهذا؟ أين رأيتك من قبل؟ خراء، يجب أن أذهب».

«آدم...».

ينهض. «آسف لفرض نفسي هكذا، هذا ليس المكان المناسب لي».

إنّه محقّ. أنا أضاجع رجالًا كبارًا ومهووسة باللعنات والكتب النادرة، وهو في حاجة لشخص أكثر حساسية منّي ليتحدّث إليه. أنظر إلى ملابسه القديمة وشعره المشعث وأتخيّل ساعديه الأسمرين القويين. أتساءل هل نام مع أحد من قبل قطّ؟

آخذ نفسًا عميقًا. لماذا أنا دائمًا الشخص الخطأ؟

ثم، ودون أن يقوم أيٌّ منّا بشيء، نتعانق، نتبادل القبل كما لو كنّا في منتصف الليل في حفلة نهاية العالم. أشعر بعضوه ينتصب وأضغط بجسدي عليه، أحسّ بشعور مختلف، ثمّة شيء ما حقيقي في هذا كنت أظنني نسيته.

«آسف»، يقول بعد حوالي عشرين ثانية وهو يبتعد. «لا يمكنني ذلك».

«لا أعرف ماذا حدث»، أقول وأتصرّف كأنّني أوافق على كونها فكرة سيئة. ليس في وسعي التقاط عينيه. أستدير ناحية الموقد كأنّني سأعدّ شيئًا مهمًّا. هل يمكنك إعداد كعكة خيبة أمل؟ كعكة رفض؟ كعكة عيد ميلاد بائس؟

«آسف»، يقول آدم من خلفي. «أنا... لم يكن لي أن أشرب. لست معتادًا على هذا».

وقت أن قلت آسفة كان قد انصرف. أنا غبية زانية. أم لست كذلك؟ حين يعرض عليّ شبّان صغار جذّابون شيئًا ما، يستردونه غالبًا مرّة أخرى سريعًا جدًّا، لذلك فالأفضل ألّا يحدث هذا أبدًا. ما الذي سيحصل عليه رجل كآدم منّي على كلّ حالٍ؟ إن كنت رجلًا مثل آدم، فسيكون بوسعك أن تنام مع من شئت. إن اغتسل وأرتدي بذلة أو شيئًا من هذا القبيل، حسنًا، لا أتخيّل أن ترفضه امرأة. شخص مثل آدم لن يهمّه أنّ لدي آي بود ولا عنقي الناعم ولا صدري الذي لم يترهّل «بعد»، لم أُجْرِ عملياتِ شدٍّ، لذلك يشعر الرجال ممّن فوق الخمسين بأنّهم محظوظون بمضاجعتي. ماذا لديّ ممّا قد يكون آدم في حاجة له؟ في اقتصاديّات المضاجعة، لديّ الملايين في

حساب جارٍ يُدعى «الرجال الكبار»، لكن لا أظنّ أنّ لديّ حسابًا غيره في مكان ما آخر.

كان لديّ قلمٌ بخطٍّ أسودَ سميكٍ لكنّي لا أعلم أين ذهب. كان كبيرًا كقضيبٍ له رائحةٌ كيميائية، استخدمته لكتابة رقم هذه الشقّة على إحدى السلال في باحة لويجي الخلفية، إلّا أنّ ذلك كان منذ... ماذا؟ سنة ونصف تقريبًا؟ ليس في درج المطبخ، وليس في كوب الأقلام على الرفّ. اللّعنة. أقرب شيء له يمكنني إيجاده قلم بيرو أسود. قطعة ورق مقوّى بيضاء مع ذلك. كانت في كيس جوارب شبكية اشتريتها الربيع الماضي من السوق وظلّت راقدة في خزانتي منذ ذلك الحين. وهكذا أرسم الدائرة السوداء على الورقة: يستغرق الأمر خمس دقائق فقط لتلوينها كلّها بالأسود.

لديّ أيضًا علامة سوداء على ذراعي؛ حيث نغزت نفسي بسنّ القلم لأعرف كيف يكون الشعور؛ لأعرف هل لم يزل بعد كما اعتدته.

يبدو الماء المقدّس في القارورة عكرًا. أجلب الصفحة من *نهاية السيّد واي* وأضعها على طاولة المطبخ لأتحقّق من التعليمات. حسنًا. يجب أن أمزج الكربون النباتي في الماء المقدّس وأرجّ الزجاجة عدّة مرّات. مجرّد هزّ بالتأكيد. هذا حسبما أتذكّره من كتب الطبّ البديل. أمدّ يدي للخزانة لأحضر الكربون النباتي من علبة السكر الصفيح، تطير الصفحة المنفصلة من كتاب لوماس وتسقط على الأرض. ألتقطها فأجد حافّتها رطبة قليلًا. أتذكّر أنّي رأيت شريطًا لاصقًا في درج المطبخ، فأحضره وأقضي الدقائق القليلة التالية في إصلاح الكتاب بحرصٍ. ألائم القطع الممزّقة في الصفحة مع القطع الممزّقة في الكتاب ما بين الصفحتين 130 و133. بالإمكان رؤية اللصق بوضوح، لكنّها عادت الآن جزءًا من الكتاب مرّة أخرى.

أتذكّر أنّه لا ينبغي لمس أدوية الطبّ البديل باليد، فأُسقط حبّة في ملعقة معدنية، تُصدر رنة دقيقة. ثم أنزع سدادة القارورة وأضع الحبّة بداخلها، تطفو على السطح لثانية ثم تغوص في الماء، تُزيد عكارة الماء وهي تذوب

فيه. قلبي ككرة مطاط صغيرة ترتدّ بقوّة في قفصي الصدري. لا أدري لماذا أنا متوتّرة: فكلّ ما أفعله أنّي أضيف حبّة سكّر صغيرة في بعض الماء. مع ذلك، أتذكّر وأنا أقف هناك، أرجّ المزيج لعدّة دقائق، شيئًا قرأته من قبل، فأخبط بالقارورة عدّة مرّات على منشفة مطويّة على منضدة المطبخ. أنظر فأرى أنّ الحبّة قد ذابت تمامًا في الماء. سأتناوله الآن إذن.

هل سأتناوله؟ هل الماء المقدّس نقي؟ أو حتّى صالح للشرب؟ كم عدد مَن غمسوا أصابعهم فيه؟ ليسوا كثيرين على الأرجح. هيا آرييل. لكنّ هل أخرجه القَسّ مساءً أم في الصباح؟ هذا غباء. أنزع السدادة وأجبر نفسي على شرب جرعة ملء فمي. ها أنا. ليس على أن أفكّر في الأمر بعد الآن. آخذ البطاقة وأرقد على الكنبة ثملة ومجهدة وأشعر بإعياء قليل الآن.

النقطة السوداء، النقطة السوداء. بقعة. ثم أسقط في النوم.

أحلم بالفئران طوال الليل. عالم فئراني أكبر من هذا العالم وصوت واهن يقول لي «لديك خيار»، أو شيء ما من هذا القبيل.

لا استيقظ إلّا بعد أن تتجاوز الساعة العاشرة، أرتجف بردًا على الكنبة في سروالي الجينز وسترتي، وضوء الشتاء القاسي يحملق في من نافذة المطبخ. لا بدّ أنّني أسقطت البطاقة وأنا أسقط في النوم، لأنّها على معدتي الآن. تبدو في ضوء النهار مثيرة للشفقة: مجرّد شخبطة على قطعة مجعّدة من كرتون أبيض فاتح. كان بوسعي أن أعمل ما هو أفضل من هذا، حقًّا، لكنّني كنت ثملة تمامًا. لهذا لم يفلح الأمر. أو لم يفلح لأنّني أفسدته. مع هذا، كم تظلّ تحاول قبل أن تدرك أنّك انخدعت بالروايات (مرّة أخرى) وأنّ العالم المألوف المخيِّب للآمال هو العالم الحقيقي؟ لديك خيار. لدي الخيار لأتوقّف عن هوسي بأنّ على لعنة؟ لكنّي أعلم، حتّى وأنا أفكّر في هذا، أنّي لن أترك هذا الأمر. وهكذا سأحتفظ بالكتاب لكنّي سأعود للوضع العادي. سأكتب شيئًا ما عن اللعنات في مقالة المجلّة. سأواصل العمل في رسالة الدكتوراه. فصل عن لوماس، عن الغبش بين الخيالي والحقيقي والتجربة الفكرية التي تصير مادية. حيلة تُريك عالـمًا جديدًا...

لكنّني لا أشعر أنّي أرى عالمًا جديدًا، أشعر أنّني لم أنم، ومعدتي تؤلمني ألم الدورة الشهرية أو أقوى قليلًا، لا بدّ أن هذا الماء ملوث. ربما يجب أن آكل شيئًا. فقد يساعد هذا.

ما زال لديّ بعض لبن الصويا في الثلاجة، أضع عصيدة على الموقد، وقهوة. حين أذهب لحجرة النوم لأغيّر سترتي أدرك حِدّة شعوري بالبرد والإرهاق حقًّا. أظنّ أنّي سأرتدي وشاحًا أيضًا. أرتدي السترة السوداء الثقيلة وألف وشاحًا طويلًا من الصوف الأسود حول عنقي وأنا أنظر من النافذة، ندف ثلج قليلة علقت بالإطار من الداخل. تفصيلة تقسم حين تراها أن تتذكّرها وترويها لأصدقائك في نقطة ما في المستقبل، حين تستقرّ حياتك وتودّ أن تحكي موقفًا يدلّ على مدى فقر وبؤس شقّتك ذاك الشتاء. لكنّني، يومًا بعد يوم، تقل ثقتي في مجيء هذا المستقبل. ولست على يقينٍ بأنّي أريده على كلّ حال. «ها ها. عندما كنت فقيرة... ها ها... هل رأيت تلك المسرحية؟ ها ها، أعرف أنّ هذا سيّئ حقًّا، لكنّني كنت أفكّر مؤخّرًا بأنّه سيكون من المنطقي أن صوّتنا للمحافظين». سأنحرف لأتجنّب تلك الحياة مهما كلّفني الأمر. قد أعيش هكذا للأبد. لذلك لا يعنيني كثيرًا معنى ندف الثلج. ثمّة ندف ثلج. أبتسم ابتسامة مقتضبة، حتّى وإن لم يشهدها أحد، وألفّ الوشاح حول عنقي مرّة أخرى.

أعود أدراجي في الرواق الطويل إلى المطبخ، أعبر من الباب الخشبي الذي أضافت عقود من الطلاء اللامع إلى سُمْكه. ينتابني حينئذٍ شعور غريب بأنّ الباب صار أكبر كثيرًا أو أنّني صرت أصغر كثيرًا. كأنّها رؤية مكرّرة[1]. كما لو كنت أنكمش وأنظر لباب أكبر منّي حجمًا بمئات المرّات، وليس أطول بقدم أو حتّى أطول منّي بكثير. لكن هذا لا يحدث؛ بل يحدث فقط في ذهني: فكرة موازية؛ لعلّه شيء يحدث لنسخة أخرى منّي في العالم متعدّد الأكوان. يذكّرني هذا الشعور بوقت أن أعطاني أحدهم شاي

(1) بالفرنسية في الأصل De ja vu.

الفطر[1] دون أن أعلم وقضيت الأمسيَة كلّها أرقب غرفة المعيشة تلك ـ كان لها سمات غرف المعيشة بالضواحي، بدرجتين من اللون الوردي ـ تتّسع وتتقلّص من حولي. أتذكّر التليفزيون في أحد الأركان، يبثّ أحد برامج المسابقات التي تذاع ليلة السبت بصوت عالٍ، تتسابق أُسر سعيدة تتألّق بالصحة على الفوز بسيارة أو إجازة، عند نقطة ما تضخّم التليفزيون كما لو كان بوسعي دخوله من الشاشة. لكنّ ما أتذكّره بوضوح أكثر من أيّ شيء هو حين تقلّصت الحجرة حتّى صارت في حجم مكعّب السكر. كنت أنظر لها من أعلى، للحجرة التي كنت فيها، لكنّي لم أعدّ في الحجرة. بعد ذلك سألت صديقي عن رأيه في نكتة أين كنت إن لم أكن في الحجرة؟ ابتسم فقط وقال «في فخّ سيّئ، يا صاحية». غبي. أغمض عيني وأفتحهما مجدّدًا. الباب عادي. لا بدّ أنّني شربت كثيرًا حقًّا الليلة الماضية.

بعد تناول الإفطار أفكّر في الذهاب للجامعة، لكنّني أقرّر البقاء في البيت. حسنًا، التدفئة هنا تكلّف مالًا، لكن طالما بقيت عيون الموقد مشتعلة فلا بأس، ليوم واحدٍ على الأقلّ إلى أن أستجمع شتات أفكاري. هل ألقيت بنفسي على آدم الليلة الماضية أم هو الذي ألقى بنفسه عليّ؟ في جميع الأحوال لا أستطيع أن أكون في حجرة واحدة معه اليوم. ما زال الجوّ باردًا، أشعل الموقد ثم أجلس على الكنبة بركبتَيّ مضمومتين لجسدي أدخّن وأفكّر فيما يجب أن أفعله بعد هذا. هل أكتب؟ لا أستطيع. هل أقرأ؟ ماذا تقرأ بعد السيِّد واي؟ هل أظلّ جالسة هنا طوال اليوم في انتظار أن تحلّ عليّ اللعنة؟ لا توجد لعنة. اللعنة الوحيدة في حياتي هي أنا.

لديك خيار.

ماذا كان يجري في حلمي؟

أتذكّر وأنا أنظّف أسناني وأرتجف في الحمام الرطب (أكثر الأماكن برودة في الشقّة حتّى الآن) أنّ القلم، ذا الخطّ السميك، في خزانة الحمام.

---

(1) مشروب يُصنع من فطريات روحانيّة أو كيميائية، وأحد أنواع المخدّرات.

بالطبع. فقد اشتريت غسول شعر غريبًا في زجاجة مبهمة وأردت أن أكتب عليها لئلّا أخطئها في حال اشتريتُ شيئًا آخرَ من نفس القسم في المتجر. أفعل هذا حين يكون عليّ أن أعمل: أكتب بطاقات على زجاجات غسول الشعر، أو أكوي السراويل الجينز؛ أو أفكّر في طيور النورس. أفتح خزانة الحمام وها هو، قلم أسود سميك بجوار حبوب باراسيتامول قديمة وفرشاة شعر مكسورة. يتدحرج ما إن أفتح باب الخزانة فألتقطه قبل أن يسقط في الحوض. لا بأس.

بعد عشر دقائق أكون جالسة على الكنبة مجدّدًا، هذه المرّة بكوب قهوة مُعدٍّ لتوّه، وسيجارة، ودائرة سوداء تامّة على ظهر بطاقة بيضاء تامّة. بحثت في البريد المُلقى بأسفل إلى أن وجدت بطاقة عيد ميلاد داخل ظرف أزرق باهت، تاريخها منذ سنة تقريبًا، «عشرينيات سعيدة (تامسين)» هكذا تقول. «سنأتي لزيارتك قريبًا»، والتوقيع عليها (ماجي) و(بيل)، لكنّ هذا الجزء منها في سلّة المهمَلات الآن، لديّ الجزء الآخر؛ على أحد وجهيه منظر طبيعي من الريف الفيكتوري وعلى الوجه الآخر... حسنًا، الآن على الوجه الآخر مساحة بيضاء من اللاشيء بدائرة سوداء في منتصفها، سوداء تمامًا.

أطفئ عقب سيجارتي وأرشف آخر ما في القهوة. أدير البطاقة لوجه اللوحة الفيكتورية مرّة أخرى. تاريخها عام 1876 واسمها منظر طبيعي صيفي، مع ذلك تبدو ألوانها خريفية. يبدو كمكان هادئ: تربة حمراء مفروشة بعشب كثيف وأشجار زمردية وبرونزية؛ ممشى على النهر يمكنك السير عليه في صمت تامّ. أدير البطاقة للوجه الآخر وها هي الدائرة السوداء مجدّدًا. دائرة. منظر مهدّئ. دائرة. منظر مهدّئ. يمكنني رسم أفضل بطاقة عيد ميلاد. حقًّا. هل عليكِ أن تنتظري 20 دقيقة أخرى لتفعلي هذا؟ تقول كلّ كتب الطبّ البديل التي قرأتها أمس أنّه يجب تعاطي الأدوية بفمٍ نظيف، بعد 15 دقيقة من تناول طعام أو شراب. لكن لا بأس. إن لم يفلحِ الأمر، فسأعزو الفشل للقهوة وأجرّب مرّة أخرى لاحقًا. طالما ظلّ ثمّة خطأٌ ما، سيكون لديّ شيء ما لأفعله طوال النهار. ثم يمكنني هذا المساء أن

أعلن انتهاء تلك المغامرة وأعود للحياة العادية. لعلّي سأقرأ(إريهون) مرّة أخرى. يبهجني هذا عادةً.

هكذا أمسك القارورة وأرجّها مرّة أخرى. أيّ جحيم؟ أخبطها مرّتين على مسند الكنبة بقوّة. أظنّ أنّني رججتها بما يكفي الآن، لكن أيجعلها هذا أكثر فاعلية حقًّا وليس أقلّ؟ أعود بتفكيري لكتب الطبّ البديل وأتذكّر أنّني إذا أخذت قطرة من هذا السائل ومزجتها في بعض الماء ورججته أكثر ستكون فاعليته أقوي من هذا السائل، حتّى وإن كان أخفّ تركيزًا من منظور علمي. كيف هذا؟ هيا آريل. توقّفي عن التفكير في الأمر وسايريه فحسب. ها أنتِ وها هو السائل. لا بأس. أشربه: شربة كبيرة ملء الفم، ثم أرقد على الكنبة وأحدّق في الدائرة السوداء، أركّز بكلّ طاقتي، وهذه المرّة، لا أسقط في النوم، بل أراها تنقسم لدائرتين، وأحاول ألّا أرمش بعيني وهي تتشكّل على البطاقة، ترتفع وتستدير.

ثم وفي لحظة أحدّ وأرقّ من شفرة الموسى، أهوي. أهوي في نفق أسود. النفق الأسود نفسه الذي وصفه السيِّد واي في الرواية. لكنّي لا أهوي إلى أسفل، بل، إن جاز القول، أهوي إلى الأمام، أفقيًّا. تمرّ بي جدران النفق كأنّني في سيارة، لكنّي لست في سيارة: أينما كنت؛ ثمّة سكون تامّ ولا شعور بجسدي على الإطلاق. أنا متأكّدة إلى حدٍّ ما أنّ جسدي معي هنا، لكنّه بلا أحاسيس ولا رغبات. لست متأكّدة حتّى ممّا إذا كنت أرتدي ملابس أم لا. عقلي فقط الذي يشعر بأنّه على قيد الحياة. أرى - برغم ما يبدو أنّي لا أرى بعيني حقًّا - مثلما رأى السيِّد واي تقريبًا: سوادًا في كلّ ناحية تبزغ فيه فجأة أضواء صغيرة تتحوّل لخطوط متموجة يبدو أنّها تستمرّ إلى الأبد. ثم يظهر عضو ذكري ضخم، مرسوم بنفس أسلوب رسم الرجل الوقح[1]، لكنّه هنا بالضوء، ثم العضو الأنثوي أيضًا، يبدو غريبًا قليلاً، ثم يختفي. ثم يبدو أنّني أتحرّك أسرع. أرى الطيور والأقدام والعيون التي رآها

(1) يسمّى أيضًا العملاق الوقح، أو عملاق كيرن عبّاس وهو صورة التكوينات الصخرية لرجل عملاقٍ عارٍ على تلٍّ في قرية شمالي (دورشيستر بدورست)، بإنجلترا.

السيّد واي لكنّها تبدو لي كحروف الهيروغليفية، من النوع الذي تتعلّمه في المدرسة الابتدائية، ثم حروفًا كثيرة: إغريقية ورومانية وكوريلية، لا أعرفها جميعها لكنّها بعد فترة تنظم نفسها في أبجديّات مرتّبة وتمرّ عدّة دقائق دون أن يتغيّر شيء في النفق. هل بمقدوري وقف هذه التجربة إن شئت؟ لست واثقة من ذلك. هل بإمكان عقلي حتّى أن يتعامل معها، أيًّا كانت؟ لم أحبّ حبوب الهلوسة قطّ لأنّها تفقدك إمكانية السيطرة وتجبرك علي استكمال الرحلة لآخرها؛ ليس بإمكانك أن تضغط زرًا ببساطة لتوقّفها. أنا هنا الآن وأعرف أنّي لا أستطيع وقف هذا. قد أفقد صوابي. لعلّي فقدته بالفعل. لعلّ هذا هو العبور من العقلانية للجنون، ربّما لن أخرج من هنا أبدًا. يصيبني هذا الخاطر بغثيان، فأحاول التوقّف عن التفكير وأنظر بدلًا من هذا لجدران النفق مرّة أخرى.

تبدو الأبجديّات أكثر ألفة، تتضمّن أرقامًا الآن، مع أنّها في تراتبيات لا أتعرّف عليها فورًا، تركيبات عجيبة من الأرقام الرومانية لا أفهمها تتخلّلها متتابعات بدايتها 19 ,17 ,13 ,11 ,7 ,5 ,3 ,2 و 13, 8, 5, 3, 2, 1, 1, 21. على الأقلّ أفترض أنّها متتابعات، لكنّها سرعان ما تتفكّك لخطوط طويلة تبدو كأرقام تليفونات فلكية، أرى معادلات تومض هنا وهناك ثم تختفي. أنا على يقين أنّي رأيت قانون نيوتن (f=ma)(1)، ثم معادلة آينشتاين (E=mc2)(2). أرى أيضًا علامات حسابية لا أفهمها، وأخرى أفهمها كعلامتي = و +، ثم قطع متنوّعة من متتابعات مثل{100... ,3 ,2 ,1 =1} ثم المزيد من متتابعات الأرقام التي تستمرّ لدقائق طوال، أرى تتابعات لا منطقية البتة مثل: 1431, 1731, 1831, 2432, 2732, 2832, 3171, 3181, 3272, 3282, 11511, 31531, 31631, 32532, 32632, 33151, 33161, 33252, 33262, 114311, 117311, 118311, 124312, 127312, 128312,

(1) أحد قوانين (نيوتن) للحركة المعروف بقانون القصور الذاتي... السرعة = القوّة ومعامل التناسب هو كتلة القصور الذاتي للجسم.

(2) أي الطاقة تساوي حاصل ضرب الكتلة في مربع سرعة الضوء.

214321, 217321, 218321, 224322, 227322, 228322. أفكّر في بادئ الأمر أنّها لا بدّ تواريخ، لكنّ الأرقام تصير كبيرة جدًّا مرّة أخرى، ثم يحدث شيء جديد، شيء لم يرد بوصف لوماس: تختفي جميع الحروف الأبجدية وتتحوّل لأرقام، ثم تختفي كذلك جميع الأرقام ما عدا 1 و0 وأبقى مع ملايين وملايين الأصفار والآحاد تنهمر حولي على الجدران.

01101110110101000010101100010100010100011101010001
1101011110001100101010

01101111010101000010101100010100010100011101010001
1101011110001100101010

01101110110101000010101100010100010100011101010001
1101011110001100101010

01101110110101000010101100010100010100011101010001
1101011110001100101010

01101110110101000010101100010100010100011101010001
1101011110001100101010

01101110110101000010101100010100010100011101010001
1101011110001100101010

01101110110101000010101100010100010100011101010001
1101011110001100101010

01101110110101000010101100010100010100011101010001
1101011110001100101010

01101110110101000010101100010100010100011101010001
1101011110001100101010

01101110110101000010101100010100010100011101010001
1101011110001100101010

11001101001101110110101000010101100010100010100011
101010111100011001010

01101110110101000010101100010100010100011101010001 1101011110001100101 01

01101110110101000010101100010110100011101010001110 1011110001100101 01001

01101110110101000010101100010100010100011101010001 1101011110001100101 01

01101110110101000010101100010100010100011101010001 1101011110001100101 01

00101010000111000111001101010001110101101101100100 110001110101000111010

ثم يصير كلُّ شيء أبيض تمامًا، وأخرج من النفق.

ثلاثة عشر

أقف في شارع يكتظّ بشدّةٍ بالمباني بحيث أصبح ضيّقًا على نحو لا يُعقل. ثمّة أسفلتٌ تحت قدمي، وأمامي مبنى شاهق قَذِر، ربّما كان ناصعًا في زمن ما. على جانبيّ واجهات محلّات رثّة تعرض بطاقاتٍ بريدية وصحفًا وأحذية وكاميرات وقبّعات وحلوى وألعابًا جنسية وأثوابًا وأقمشة، وليس أيٌّ منها مفتوحًا. أظنّ أنّ المساء هنا هكذا: السماء يصعُب فهمُها، لكنّ الضوء الصناعي يُتيح لي رؤية مظلّة سوداء من فوقي، بلا نجوم ولا قمر. كلّ ما حولي لافتاتُ نيون مكسّرة ومشقّقة مثل ندوب حَبِّ الشباب. تُومض اثنتان أو ثلاثة منها بألوان جنسية ـ أحمر شفاه، ورديّ متوهّج، أبيض بودرة ـ وبقيّتها تبدو كأنّها تعمل منذ وقت طويل. في أعلى الواجهات تتداخل أضواء صوديوم خافتة، ولافتات مرور، ومصاريع حديدية متعرّجة ونوافذ لما يبدو أنّه مئات الشقّق والمخازن. تبرز اللافتات في كلّ مكان، معلّقة بالمباني بزوايا قائمة كأنّها ملحوظات صغيرة ألصقت بكتابٍ قديم. لكن لا أستطيع قراءتها.

هل باستطاعتي التقدّم في هذا المشهد؟ نعم. بإمكاني أن أخطو خطوة، ثم أخرى، أرى زقاقًا متفرِّعًا إلى يساري: مساحة أخرى ضيّقة بشكل لا معقول، في نهايته يقع بصري بشكل مبهم على ما يبدو أنّه سور حديدي تعلوه أسلاكٌ شائكة متعرّجة. تمتدّ سلالم نجاة حلزونية وملتوية في كلّ مكان أعلى جدران من طوب متهدِّم وأسفلها. ثمّة ضوءٌ أزرقُ يتراقص

خلف نافذة في طابق علويّ: تليفزيون؟ توجد حياة غيري هنا إذن، مع أنّي لا أحسّ أنّني في حدّ ذاتي حياة، لا أشعر بالبرد ولا بالدفء، لست حيّة ولا ميتة، ولا ثملة ولا صاحية... لا أشعر بشيء. أمرٌ سارٌ حقًا ألا تشعر بشيء، برغم أنّه ليس «سارًّا» بشكل مباشر. إذ لا شعور بشيء. هل سبق لك أن ما شعرت بشيء على الإطلاق؟ الأمر مدهش. لعليّ أشعر بهدوء شديد لعدم وجود أحد هنا. سبق أن كنت في أمكنة كهذه من قبل - سوهو، طوكيو، نيويورك - لكن كان هناك دائمًا جموع من البشر يتسوّقون، ووميض كاميرات، وبشر يتحدّثون، ويهرولون، ويسيرون، ويأملون، ويرغبون. أشعر بالاختناق في المدن الكبيرة، تبتلعني كلّ تلك الرغبة المحشورة في مكان واحد صغير. كلّ هؤلاء البشر يحاولون حشو أنفسهم بكلّ تلك الأشياء: شطائر، كولا، سوشي، علامات تجارية عالمية، سلع، سلع، سلع. لكن هنا لا يوجد أحد. ثمّة موقفُ حافلات، لكن لا توجد حافلات؛ إشارات مرور، لكن لا حركة مرورية. أتقدّم في سيري وبالفعل أسمع وقع خطواتي الرتيب على أرض الشارع الصلبة. يفضي منعطف على اليمين لميدان صغير تتوسّطه نافورة ماء لها خرير. أرى مظلّات مقاهي تشغل الأرصفة المظلمة بطاولاتها ومقاعدها، وثلّة من شجرات المدن الصغيرة تنبت بين أحجار أسمنتية. لا أريد أن أضلّ طريقي هنا، فأعود أدراجي سريعًا للشارع الرئيس، لست واثقة ممّا عليّ فعله بعد هذا. أستدير، يختلط كلّ شيء في مجال رؤيتي.

أين عساي أذهب؟ أفكّر.

يخبرني حينها صوت أنثوي معدني: لديك الآن أربعة عشر خيارًا.

فجأة تغطّي الصورة التي أراها للشارع أمامي صورة للوحة مراقبة: شيء ما يشبه تصوّري لخريطة تخطيط مديني على شاشة كمبيوتر. تومض في اللوحة مناطق قليلة بلون أزرق شاحب مثل لون الحاسوب الآلي، كأنها مناطق الحروب على خريطة للعالم. هذه هي الخيارات. أفهم هذا. لكن...؟ لكنّي لا أفهم شيئًا ممّا يحدث حقًّا. «الخيار» الأقرب، إن كان هذا

ما يعنيه، هو الطابق الثالث من مبنى يقع بجوار نقطة دخولي، أسير خطوات قليلة وأبدأ في صعود سلّم النجاة الحلزوني، النعل المطّاطي لحذائي يلطم المعدن لطمات جوفاء. سرعان ما أجد أمامي بابًا أخضر تقشّر طلاؤه، أدفعه فينفتح للداخل، ماذا أفعل الآن؟

لديك الآن خيار واحد، يقول الصوت غير المجسّد.

أنا من الداخل. لديك الآن خيار واحد.

أنت.. أقف ساكنة على أربعة أقدام و... أوه، خراء... أنا في مصيدة. كلّ ما يحيط بي جدران بلاستيكية سميكة ومغبّشة ولا أستطيع الحركة. يمكنني التحرّك للأمام قليلًا، وللوراء قليلًا - أعرف هذا - لكنّي ساكنة حاليًا. اللعنة. بالكاد أستطيع أن أتنفّس. أظلّ أرمش لأنّ رؤيتي ليست كما هي: يبدو كلّ شيء خارج سجني بنيًّا ومغلّفًا، وثمة انعكاسات من كلّ جهة. وأنا جائعة؛ جوع من نوع لم أخبره من قبل قطّ، ينبعث من مكان لا أدركه في معدتي. أيًّا ما أكونه، هذا هو الجحيم: شعور قد ينتابك في كابوس لثانية أو اثنتين قبل أن تستيقظ من نومك صارخًا. لا أستطيع أن أتحرّك، لا أستطيع أن أستدير. ذراعاي، أو قدماي أو جناحاي، ينضغطان لجانبَيْ جسدي، أظنّ أنّ لي ذيلًا لكنّي لا أستطيع تحريكه لأنّه مثبّت إلى أسفل بشيء ما، كما أظن أنّني في الغالب سألقى حتفي هنا، وحدي، عاجزة حتّى عن تحريك رأسي. هيا آريل. ما زلت آريل. نعم. آريل زائد...ماذا؟ من أكون الآن؟ مع أيّ ذهن تخاطرت؟ أريد - أم»نريد»؟ تلك المشكلة نفسها التي واجهت السيد واي - أن أهرش. أن آكل؛ أعرف أنّ هذا ما قادني إلى هذا الصندوق، كان هناك شيءٌ ما حلو ومفتّت أكلته بالفعل، لكن ليس منذ وقت قريب. لكنّي أريد أن أهرش بقدر ما أريد أن آكل تقريبًا. أعشق هذا الشعور حين تربّت قدمي الحادّة على أذني فتزول الحكّة، وأضحّي بأيّ شيء لأفعله الآن (ليس كأنّني أعي بالمقايضة مقابل تحقيق أمل). لقد حاولت... في الحقيقة ما زلت أحاول. لِمَ لا أستطيع الحركة؟ أنا، آريل، بإمكاني أن أرى الجدران البلاستيكية الشفّافة، لكن «أنا» الأخرى لا تدرك

مايجري. إنّها ـ أنا الأخرى ـ مذعورة، منذ ساعات مضت. ليس بوسعها فعل ما تعوّدت فعله في تلك المواقف، أن تحاول الهرب بسرعة لمكان واطئ ومظلم لتختبئ فيه. لكن يصعب التفكير في هذا الكيان، هذا الشيء الذي صرت جزءًا منه الآن، بصفتها «هي». تنبعث من فرائي الآن (فرائي؟ حسنًا، هذا ما يبدو) تنبعث منه الآن رائحة الخوف: رائحة رطبة، حلوة، بسكويتية. أعرفها من الآخرين، من هؤلاء الذين عادوا بعلامات أسنان في أجسادهم.

رؤية بعيدة. استعادة ضمير الغائب. كرامة للربِّ آرييل، أنتِ لست فأرة. لكنّي بالفعل كذلك. أعرف كيف أمشط فرائي. كنت حامل لعدّة مرّات (لا أظنّ أنّ بإمكانها العدّ، لكن أنا بإمكاني. لست متأكّدة أنّ لديها لغة، لكن أنا لديّ. بإمكاني أن أعدّ أشياء في ذاكرتها لعلّها هي حتّى لا تدري بوجودها). أتذكّر الشعور بآلام الوضع، كالضغط على كدمة حديثة. أعلم أنّي سألقى حتفي هنا، لكنّي بالتأكيد لا أعرف ما هو الموت؟ الأفيال فقط هي التي تعرف الموت... أين قرأت هذا؟ ليس لديّ فكرة عن الوقت الذي قضيته هنا، لكنّي أريد أن أخرج. دعوني أخرج! أحاول أن أصرخ، لكن لا أسمع سوى أنفاس الفأرة اللاهثة، ونبضات قلبها هي وليس نبضات قلبي.

ماذا أفعل الآن؟ أعرف كيف أهدّئ نفسي في هذه المواقف. وقفت سابقًا في زحام قطارات المترو والمصاعد وأنا أقول لنفسي «هانَت»، و«تنفّسي». لكنّني الآن أشعر باندماج وعيي في وعيها، وأعرف، لأنّها هي تعرف، أنّي في خطر، أنّه لا مهرب الآن. لكنّنا لا نستطيع التحرّك. خراء، خراء، خراء. كيف أخرج من هنا؟ أين المعلومات التي قال السيد واي إنّه رآها على حوافّ رؤيته؟ ما إن أفكر في هذا، حتّى يظهر فجأة في مجال رؤيتي شيء ما كشاشة الحاسب الآلي. بإمكاني الآن أن أرى ما تراه الفأرة: قاعة فسيحة مغلفة بالبلاستيك لها مسحة بُنّية (برغم أنّها لا تعي هذا، بل تدرك فقط أنّها في مكان لم تكن فيه من قبل، إذ إنّ الرائحة في هذا الصندوق البلاستيكي مختلفة). يعلو طبقة الرؤية هذه لوحة مراقبة

عليها خياراتي. يصعب وصفها، إذ لا أعلم كيفية تشغيلها. تبدو كأنّها شاشة حاسوب لكنّ كلّ ما عليها غير مألوف. لا أعلم كيف أتصفّحها. لكن يبدو أنّها تحضر حين أستدعيها، ستحضر. والمحتمل أن تُخرجني من هنا.

بالركن الأيمن لرؤيتي مربّع أزرق يومض حين أنظر إليه (أم حين أفكّر فيه؟) يغطّي بقيّة الشاشة مربّعات صغيرة ضبابية، يبدو في كلّ منها منظر باهت لا أتعرّف عليه، كأنّ مئات الأفلام الوثائقية العلمية تدور معًا في شاشة واحدة. ما تلك الصور؟ فور وقوع نظري على واحدة منها تومض للحظة أكثر من الأخريات، مثل الوصلات على الإنترنت، فأدرك (لا أدري كيف) أنّ لي أن أختار الوثوب لواحدة منها: من المحتمل أن هذا ما أطلق عليه لوماس التواثب. لكنّي لا أريد أن أفعل هذا. أريد أن أخرج من هنا أن أخرج من التروبوسفير - وأطلق سراح الفأرة من المصيدة. أجول بنظري في الصور الضبابية مرّة أخرى، تجذبني إحداها أكثر من الأخريات: المنظر فيها يبدو فوق أرضي. لكن... أوه، لا... لحظة أن تستقرّ أفكاري عليها وأفكر أنّ هذا «مثير»، يحدث شيء ما. أتغبّش - هذا هو الفعل الوحيد الذي بإمكاني استخدامه - من هذا الواقع، وأصير في آخر. أفكّر «توقّف! لا أقصد!». لكن بلا جدوى.

على الأقلّ لم أعد سجينة.

الآن تلمس لبدة مخلبي سطحًا باردًا صُلبًا. أشعر بنهاية مؤخّرتي تتأرّجح كلّما مست مخالبي الأرض: يمين أمام؛ يسار خلف؛ يسار أمام؛ يمين خلف. لي ذيل يمكنني تحريكه! يبدو هذا أمرًا مألوفًا وغير مألوف في آنٍ: شيء ما كان دائمًا معي؛ شيء ما ظلّ معي منذ أمدّ بعيد. الأسمنت الباهت تحتي (وأشعر بنفسي أضع كلمتي الخاصّة له. أسمنت) بارد كمكعّب ثلج (كلمتي أيضًا)، فأسير عليه أسرع. لكنّي دافئة بما يكفي. بالكاد تركت جُحري، وذكرى فراء غزير، ورائحة عائلتي (وهنا أُترجم وأنا أسير، كلمة «عائلة» هي الأقرب للتعبير عن هذه الذكرى عن المعيّة والاتّصال) تُهدئني كمشروبٍ دافئ (كلمتي أيضًا). أنا فأر مرّة أخرى (على ما أظنّ). لكنّي حُرّ.

ثمّة شيء ما بين ساقيّ الخلفيّتين: شيءٌ مألوف لهذا الفأر، لكن ليس لي. شعور غريب، مثل ذيلي، لكنّني أشعر بذيلي كطرف إضافي، بينما أشعر بهذا منتصبًا كأنّه بظر، لكنّ به شيئًا آخر، ويمتدّ من معدتي لمكان ما آخر بالخارج، إنّه يرتعش الآن ويتدفّق منه على الأسمنت سائل ساخن. وأفكّر أنّ هذا سيُبعد عنّي الآخرين، ولهذا أفعله دائمًا. ينتفش فرائي بأسماء مجرّدة، غير قابلة للترجمة، إحساس لا إنساني بالكبرياء، والتملّك، والتخطيط للمستقبل، ورغبة لا تنطفئ في العنف ولها رائحة المسك - مخالبي في مؤخّرات فرائسي الصغار الشاحبين تمزّق لحمهم - والجنس، لعلّ هذا ما أحيا له من بين كلّ شيء: الطريقة التي يرتعش بها مخّي ويهدأ مع تحرّك هذا القضيب الشبيه بالبظر للداخل والخارج في التجويف الضيق الدافئ في الكائن الآخر، والشعور بعدها بانسيال عصير حلو في معدتي ومؤخّرتي وقدمي وحنجرتي، شعور تجعلني حلاوته أسقط عليها، أشدّ عليها قبضتي، هي، أيًّا من كانت هي. لي رغبات - لعلّ هذا ما أتكون منه - لكن لا يبدو أنّي أمعن الفكر فيها. لا يعمل عقلي على «أريد، أريد» فحسب، بل بالأحرى على «لديّ، لديّ». لا يزعجني سوى شيء واحد وأنا أتجوّل في هذا الفضاء بصناديقه الأكبر منّي التي تقف على عجلات. أين هي؟ واحدة بالأسفل. واحدة مفقودة. واحدة ذهبت. قد لا يمكنني العدّ لكن بالتأكيد يمكنني الطرح. ملعون هذا.

أدرك، حتّى مع ذهولي من قدرة فأر على السبّ، أنّ تلك أفكاري تندمج مع أفكاره: مشاعره تصوغها لغتي. أولى بي أن أفكّر في كيفية الخروج من هنا، لكن الشعور بوجودي هنا، أنّي هو، كالإدمان تقريبًا. كلّ شيء به مشحون. حتّى شاربه/ شاربي يرتعش بذبذبة وترقب كأنّه أسلاك حيّة تخرج من وجهي. الآن يتحرّك، وزنه على قدميه أخفّ كثيرًا من وزني على قدمي، تجعلني حركته أشعر كأنّني في جولة بمدينة المعارض، نتحرّك على الأسمنت متجهين لسلة أخرى، أعلم وجهتي لكنّي في الوقت نفسه لا أعلمها، وكلّ حركة مفاجأة في حدّ ذاتها. كأنّني السائق والراكب في آن

واحد. ثمّة شيء ما يقيني في تلك التحرّكات، وفي هذا االذي أشعر به الآن: وأنا أقضم قطعة خبز متعفّنة مبلّلة بماء المطر ـ قطعة خبز أعرف أنّها متعفّنة لأنّني أنا التي ألقيت بها، لكنّها تبدو لي الآن شهية ولذيذة، مثل توست بالمربّى.

لكنّ عليّ حقًا أن أخرج من هنا، هذا الفأر بخير، لكنّ الفأرة الأخرى ليست كذلك، إنّها في مصيدة أعددتها أنا لها وعليّ أن أطلق سراحها. أفكّر «لوحة»، كأنّني ألعب لعبة غزاة الفضاء أو أتابع فيلم خيال علمي، وها هي، تظهر اللوحة، تدور مثل الفيلم فوق مجال رؤيتي. أتجاهل الصور الضبابية، لكن حينئذٍ يحدث شيئان في وقت واحد: يظهر غبش برتقالي أسفل اللوحة، في مجال رؤية الفأر، مثل بقعة مربّى برتقال؛ وأرى في اللوحة كذلك مربعًا الصورة فيه ليست غريبة، مربعًا الصورة فيه لفأر رمادي بجوار سلّة على عجلات يقرض قطعة خبز. هذا أنا، وشيء ما ينظر إليّ.

يرتبك الآن كلّ شيء. رأى فأري القطّة البرتقالية، وأحسّ كلانا بوخزة كأنّها حقنة ماء مثلج، ووصلنا لأعلى درجات التنبّه. إنّه الخوف، لكنّه نوع من الخوف لم أعتد عليه. الموت، الموت، الموت آتٍ. اللعنة. تحوّلت أحشائي كلّها لعصيدة مثلجة ويجب أن أهرب؛ أن أختبئ... لكن انتظر. الماء المثلّج يتجمّد، أنا أتجمّد في مكاني. أعرف (على مستوى ما من معرفة لم أخبره من قبل قط) أنّ عليّ أن أقف ساكنة الآن. وأنا، آرييل، أريد أن أخرج من هنا فحسب، لكنّها غريزة ما لم أكن أعلم أنّها لديّ، غريزة فأرية ما تداخلت مع غرائزي ـ ترى مخرجًا أيضًا (مخرجًا رماديًا، رسميًا) يحلق فوق القطّة، ما يجعلني أنظر للمربّع الضبابي الذي فيه الفأر، مربّع القطّة التي تنظر للفأر الحلو المتجمّد الذي أشعر بذعره من الرعشة الضئيلة في جسدي/ جسدنا، وأفكّر «انتقل، انتقل!».

أتغبّش الآن مرّة أخرى، أصير شيئًا أكبر. أشعر بذيلي أخف وأنا أضرب به برفق بينما أربض هنا، يصيبني التلهف بالجنون، لساني رقيق يلعق أسناني الحادّة. يا لَها من متعة لعينة، حتّى أنّي لست واثقة من قدرتي على الانتظار قبل الانقضاض. أحرّك مؤخّرتي في قوس متكرّر، أوازن نفسي. الآن؟ لا.

انتظر. لم تحِنِ بعدُ اللحظة المناسبة، اللحظة المناسبة تمامًا. لقد فعلت هذا آلاف المرّات من قبل، لا أملّه أبدًا، مطلقًا. لا أخطط لتفاصيل هجومي، لكنّي حين أتذكّرها أراها كلّها مثل عروض باليه دموية، وأنا مُخرجها، أنكز الراقص بمخلبي، لأجعل الطعام يتراقص، هريسة على أقدام مكسورة، لأنّي أحبّ الطعام المتحرّك. آكل حقًّا من هذا الخراء البني الذي يوضع لي في الوعاء البلاستيكي، لكنّي لا أستمتع به: له مذاق الموت. آكله فقط لأظلّ على قيد الحياة، لأنّني أضطر نصف الوقت تقريبًا لارتداء جرس ملعون يخيف الطعام ويجعله يهرب، لكنّ بإمكاني نزعه إن بذلت قصارى جهدي مدّة طويلة، بإمكاني رفعه عن رقبتي بمخالبي الدقيقة. الجرس ليس في رقبتي الآن وأمامي هنا طعام. أتوق لتذوّق السائل الدموي الثخين الدافئ ينطلق في فمي فور أن أمزق الفراء الذي يغلف هذا الشيء الذي يرتعش أمامي، يحاول أن يبدو ساكنًا. أتذكّر المذاق... أوه، يا إلهي.

أوه، يع. كأنّه لحم مفروم ساخن ممزوج بحبوب حديد وصدأ. أفكّر الآن أنّه مقزّز، حقًّا، لكنّ التشابكات (أو أيًّا كانت هذه) بين ذهني وذهن القطّة تتقافز الآن إلى أعلى وإلى أسفل كالأطفال في مناظرة للصغار. أقتنع بعد ثوانٍ قليلة بأنّ للدم مذاقًا طيّبًا برغم كلّ شيء، لكنّ ما تبقّي من آدميتي ونباتيتي يفكّر: «لا!». أشعر بهذه الفكرة تمتزج بأفكار القطّة، ولهذا، فحين يقرّر الفأر أنّ هذه اللحظة المناسبة ليختبئ تحت السلة، أتردّد. ويقوم ذهني القططي بارتدادة عكسية، لثانية واحدة فقط، لكنّها كافية لإفساد الأمر كلّه. ثمّة صوت في ذهني يأمرني ألّا أفعل هذا. لا أفهم هذا. ليس لديّ في لغتي كلمات مثل «لماذا»؟ شيء ما كآلام الرأس، ذكرى ما لحجرة بيضاء وطاولة وأنا معلّقة من رقبتي وشيء ما حادّ يشقّ جسدي. حسنًا، لا أحد يعلّقني الآن.

ابتعد أيّها الراكب.

لا.

كأنّك برغوث داخل رأسي.

حسنًا... ربّما أنت على حقٍّ. لماذا أدع الطعام على كلّ حال؟ ما هو «أن أدع»... لا أفهم شيئًا... آرييل: أنت لست قطّة لعينة. لقد كنت ذلك الفأر. كنت تتذكّرين الجُحر. لكنّي لست فأرًا أيضًا. وأنا الآن أريد أن أتذوّق دمه.

ززز

طنين في رأسي لا أدري ما هو، مادّة كيميائية أقوي من الخوف.

الآن أتقدّم للأمام ببطء. يتحرّك الطعام لأسفل السلّة. إستراتيجية جديدة. ليست نهاية اللعبة. أجثم وظهري قوس تامّ: أحد الكتفين أعلى قليلًا من الآخر، مخلبي الأيسر أمام الأيمن. سأطحن جمجمتك بأسناني، ولا يهمني إلى متى سأظلّ أرقص معك قبل هذا. سأ... لقد ذهب. أين أنت؟ أين طعامي اللعين...؟

فرّ الفأر. أمان الآن. في ذهني الآن حفلة وجنازة في الغرفة نفسها.

لوحة. لابد حقًّا أن أخرج من هنا الآن. يظهر في رؤيتي هذا الشيء مرّة أخرى، تهتزّ فيما يتمايل وعيي مع تحرّك القطّة إلى أعلى وأسفل وهي تسير نحو الجدار، ثم ـ واو ـ تقفز إلى أعلى عليه. يا إلهي. كم أحبّ هذا. لكن عليّ أن أخرج من هنا. لقد أنقذت فأرًا واحدًا وما زال هناك أخرى يجب أن أطلق سراحها. أجول بنظري مرّة أخرى سريعًا في اللوحة، أتجنّب النظر للصور الضبابية في المنتصف، لم يبقَ في اللوحة غيرها سوى هذا الشيء/ صورة زرقاء، فأركز بفكري فيها. توقف الآن؟ يقول الصوت الأنثوي الذي سمعته من قبل. «نعم» أفكر. «نعم، نعم، نعم...»، يظهر أمامي باب وأعود أنا مرّة أخرى، أدير مقبضه وأعبر منه بقدمين ثقيلتين، بلا ذيل. لكنّي لا أعرف هذا المكان. يبدو أنّني في رواق طويل مفروش بسجادة رمادية وجدران بلون بني فاتح. أوه. خراء. أين سلّم النجاة؟ كيف أخرج؟

أسير في الرواق الخالي مارّة بلوحات إعلان خالية من القصاصات، وأبواب مكاتب بيضاء برّاقة، حتّى أصل إلى قاعة فيها أربعة مصاعد

مصفوفة. لا شيء على الجدران سوى صورة إرشادات سلامة واحدة: رجل أخضر مرسوم بخطّ واحد ورجل آخر أخضر مثله على مقعد بعجلات يتحرّك كلاهما نحو مخرَج أبيض برّاق. الرجل المرسوم بخطّ واحد يكسب، لا أدري ماذا يمكنني غير هذا، فأضغط على زر استدعاء المصعد، فتنفتح الأبواب الأربعة في نفس اللحظة، أبتسم لهذا، أحقًّا لا أحد غيري هنا؟ مدينة كاملة لي وحدي... إن كنت لا أزال فعلًا في المدينة نفسها التي بدأت منها رحلتي... لكن لا يمكنني أن أبقى هنا. يجب أن أعود. أختار عشوائيًّا المصعد الثالث من اليسار وأضغط على زر الطابق الأرضي. يهبط لأسفل بأسرع ممّا أودّ، لكنّي لا أشعر بالغثيان، ما زلت لا أشعر بشيء. أصل للطابق الأرضي فأجد مجموعة من الأبواب الدوّارة أعبر من أحدها لأصير في الشارع مرّة أخرى. ثم أرى شيئًا غريبًا: بطاقة عمل بيضاء صغيرة ملقاة هناك على الأرض. في مدينة عادية لن تبدو كشيء غريب وهي ملقاة على رصيف متهدّم وسط أكياس مقرمشات وأعقاب وإيصالات وجرائد ممزقة. في مدينة عادية لن تلحظها. لكنّها هنا مميّزة حقًّا. أنحني وألتقطها. الاسم المكتوب عليها بالحبر البنّي أبوللو سمينثيوس، لا شيء آخر. آخذها وأضعها في جيب سروالي الجينز.

أجدني في طريق رئيسي مهجور تصطف على جانبيه مبانٍ إدارية هادئة. ثمّة علامات مترو الأنفاق، لكن لا حركة مرورية. أعبر الطريق، وأقفز من فوق الحاجز الفاصل بين الحارتين. لي الآن أن أتّجه يمينًا أو يسارًا أو للأمام في طريق صغير. يبدو شيء ما في الطريق الصغير مألوفًا فأسلكه، خائفة، لكن لا أشعر بالخوف حقًّا، كأنّني أراقب نفسي في فيلم. أسير حتّى أجد على يميني الزقاق ذا سلالم النجاة الذي كان على يساري من قبل. فهمت الآن. بطريقة ما وصلت للمبنى الكبير الذي كان أمامي حين وصلت إلى هنا أول مرّة. هكذا إذن، ظنّي أنّه ليس عليّ سوى أن أسير للأمام لأعود أدراجي، للأمام في هذا الطريق ثم ـ نعم ـ إلى النفق ذي الأصفار والآحاد وحروف كافّة الأبجديات التي رأيتها من قبل. ثم أفتح عيني.

عودة على الكنبة. أنا حيّة. في البيت. أنا آدمية. أشعر بالبرد. أريد أن أبول. تحوّل الإحباط الذي يعتريني غالبًا ما أن أستيقظ من أحلام عادية لشيء آخر: الإحباط لكوني أنا، هنا، الآن.

الفكرة التي تستولي عليّ: أرغب في العودة للتروبوسفير...

وفكرة أضعف منها: لكنكِ أردتِ الخروج...

غريب كيف أظلّ أفكّر في المخدّرات، لكنّ هذا ما ظنّه السيد واي أيضًا. أما أنا فأتذكّر دورة مياه، كان هذا منذ وقت بعيد، لا بدّ أنّه كان قبل الذهاب لأكسفورد حتّى، كنت في دورة مياه في مانشيستر مع رجل كبير أعطاني غليونًا صغيرًا جدًّا مطليًّا بمينا خضراء. أتذكّر كيف سحبت نفسًا منه ثم شعرت بما لم أشعر به من قبل قط: رضا تامّ، شيء ما يشبه ما تشعر به بعد الوصول لذروة اللذّة، لكنّه أكثر من ذلك... حيث العالم برمته لحاف كبير ناعم وأنت ستأوي للنوم حالًا بشعور أنّه لن يؤذيك شيء مرّة أخرى. كان لهذه المادّة حين سحبتها لرئتي مذاق الأمونيا، فسألت الرجل عنها.

«فري بيز» [قاعدة حرّة]. قال. «دخان مسحوق كوكايين. الأفضل ألّا تتعاطيه مرّة أخرى: سيدمّر دماغك».

الآن أرغب في العودة للتروبوسفير بقدر رغبتي وقتها في نَفس آخر من ذلك الغليون.

لعلّ هذه هي اللعنة إذن.

أفكار مشوّشة، أفكار مشوّشة. واضح جدًّا أنّني سقطت في النوم مرّة أخرى. يستحيل أنّي كنت في التروبوسفير. إنّه مكان خيالي، مكان من كتاب. ما زلت لم أنهض من على الكنبة، وقبل الحمام وقبل أي شيء، أنظر إلى مصيدة الفئران تحت الحوض، فأشعر بالغثيان. ها هي، المخلوقة التي شاطرتها أفكارها وذكرياتها، ترتجف في الصندوق الصغير، ذيلها عالق في المصيدة. لا أظنّ أنّني نظرت من قبل بإمعان للفئران في المصيدة، أو حتّى فكّرت فيها كثيرًا اللّهم لتذكّر إطلاق سراحها بالخارج بأسرع ما يمكن.

لكنّني وأنا أنظر لها الآن أفكّر، هل كان «مجرّد حلم» أم ماذا، أنا أعرف، بدقّة، كيف تشعر وهي هناك داخل الصندوق. أفتح الصندوق، تتلعثم يداي على المصيدة وأنا أحاول تحرير ذيلها برفق قدر ما يمكنني.

«آسفة». أقول لها «آسفة».

أضع الصندوق على الأرض برفق وتخرج منه ببطء في البداية وهي تتشمّم بأنفها. أتوقّع أن تتحوّل لخطّ رمادي يعبر الأرضية وهي تفرّ باحثة عن مخبأ، لكنّها بدلًا من ذلك تجلس هناك وتنظر إليّ، تحكّ أذنها ـ أعلم كم كانت تتوق لهذا ـ ثم تجلس هناك فحسب، عيناها السوداوان الضئيلتان مثبتتان على عيني. أعرف هذه النظرة من مكان ما، فأجيبها بها بشكل غريزي. نبقى هكذا لدقيقة كاملة وأنا متأكّدة أنّها تعرف. يقيني أنّها ـ على مستوى ما ـ تعرف أنّي كنت في ذهنها، وأنّي أفهمها. وهي ليست خائفة مني. ثم تذهب، تختفي تحت إحدى الخزانات. أتحقّق من المصائد الأخرى فأجدها فارغة. ثم أرميها كلّها.

ثمّة خطأ ما في الضوء. يستغرق الأمر وقتًا لأدرك ما هو... أذهب للحمام لأبول، وأقضي حوالي أربع دقائق أو خمسًا؛ أحدّق في صورتي في المرآة، أتساءل ماذا سيجد أحد ما في رأسي إن دخلها. لكن حين أعود للمطبخ وأضع القهوة على النار... أدرك الخطأ. لقد انقضى النهار بالفعل. ثم أنظر للساعة وأرى لماذا. الساعة الرابعة. أمر غريب. لقد تناولت المزيج حوالي الحادية عشرة، على ما أظنّ. وقد قضيت في التروبوسفير حوالي نصف ساعة على الأقلّ، حسب تقديري. لعلّني أفقد صوابي.

أبحث في جيب السروال. لا توجد بطاقة.

أطلّ من النافذة: لا توجد قطّة.

لكنّي سأبحث عن أبوللو سيمنثيوس فيما بعد؛ لأري إن كان شيئًا حقيقيًّا.

لا بدّ أنّ الموقد قد انطفأ وأنا مستلقية على الكنبة، والآن أرتجف من

البرد. أتذكّر كيف كان التروبوسفير: اللاشعور فيه، لا درجات حرارة. أريد العودة لهذا مرّة أخرى، وإن لم يكن سبيل لهذا، فأنا أريد أن أدفأ، أدفأ، أدفأ. أشعل عيون الموقد الأخرى وألتصق به بقدر ما يمكنني. سرعان ما تكون قهوتي جاهزة، لكنّي لا أذهب بها لأيّ مكان، فقط أقف بجوار الموقد، أرتعش وأفكّر، يجب أن أكون دافئة الآن، هل أنا مريضة؟ هل أثر على هذا المزيج بطريقة ما؟ تراه يُخرِّب نظامي كلّه؟

ثم أفكّر إن كنت حقًّا قد تبوّأت بُعدًا آخر غريبًا، في أذهان فأرين وقطّة، وعدت منه مرّة أخرى، فالأرجح أنّ هذا سيجعلني أشعر بأشياء غريبة قليلًا. أعني أنّ هذا سيجعل أيّ شخص يشعر بأشياء غريبة! تجعلني هذه الفكرة أبتسم، ثم أضحك، ألم يسعني سوى التخاطر مع فأر مهووس جنسيًّا وقطّة شرّانية. هذه حكاية جيّدة لأحكيها، غير أنّني لا أحكي حكايات، ولن يصدّقها أحد على كلّ حال. أتوقّف عن الضحك. كلّ من قاموا بذلك من قبل ماتوا. إن أضفت هذا للحكاية، فلن يضحك أحد.

ينبعث من حقيبتي أزيز. رسالة.

باتريك. معذرة لإلحاحي هكذا تقول الرسالة لكنّي أحتاجك مرّة أخرى بأسرع ما يمكن.

أوه، يا لَلمسيح.

بعد البحث في كلّ موسوعة لديّ عن أيّ ذكر لأبوللو سيمنثيوس، أتناول عشاءً مبكرًا: طبق أرز مع آخر ما تبقى لديّ من صلصة الصويا. ثمّة شيء ما خطأ في شقّتي هذا المساء. ليس الأمر أنّ الوقت مرّ بسرعة شديدة فقط: لكنّها تبدو خالية وباردة وأقذر من المعتاد. دونما اكتراث بمسألة فاتورة الكهرباء، أضيء اللمبة الكبيرة بالمطبخ ومصباح الإنارة معًا، وأشغل المذياع بينما آكل، لا أستمع للمذياع في هذا الوقت من اليوم عادةً، وليس لديّ فكرة عمّا يذيعونه الآن، أريد شيئًا مريحًا: نصف ساعة من حوار أشخاص غريبي الأطوار عن كتب الرحلات مثلًا، أو البستنة. أجد بدلًا من ذلك نقاشًا دينيًّا، أنظر للساعة، أظنّ أنّه بدأ منذ عشر دقائق تقريبًا. ثمّة حوالي أربعة أصوات مختلفة، من بينهم المذيع.

ـ ... لكن توضّح مانترا اثنين أنّ المرضى الذين يدعو لهم آخرون لم يتحسّنوا عن المرضى الآخرين الذين لم يدعُ لهم أحد.

ـ لا أتّفق معك...

ـ [ضحك] هيّا... لا يمكنك الاعتراض على حقائق علمية. إنّها هناك بالأبيض والأسود في اللانسيت [جريدة طبيّة].

ـ لهؤلاء الذين لا يعرفون مانترا اثنين أو مانترا، هي على ما أظنّ اختصار لـ (رصد النشاطات العقلية وإدراكها) وهي دراسة أجريت بداية هذا العام بقصد تحديد ما إذا كانت الصلاة من أجل مجموعة من مرضى القلب تساعد فعلًا في تحسّن حالتهم أم لا، لم يكن المرضى على علم بأنّ الآخرين يدعون لهم بالشفاء، كذلك تنوع العابدون ما بين مسيحيين ومسلمين ويهود وبوذيين...

ـ مانترا اثنين ليست الدراسة الوحيدة في هذا المجال... يجب أن أوضح هذا. ماذا عن دراسة راندولف بيرد الكلاسيكية عام 1988؟ أو دراسة ويليام هاريس بكنساس سيتي عام 1999. في دراسة هاريس التي أجراها بمستشفي سانت لوكاس، تحسّن المرضي الذين صلّى من أجلهم الآخرون بنسبة 11 في المئة عن هؤلاء الذين لم يصلّ من أجلهم أحد. وقد ظلّ العلماء يبحثون في هذه المسألة لعقود. دون أن يتأكّدوا على وجه اليقين أنّ الصلاة من أجل البشر لا تساعدهم. في الحقيقة، من الواضح جدًّا أنّ للصلاة أثرًا ما، برغم أننا ما زلنا بعيدين جدًّا عن تحديد ماهيته.

ـ بالتأكيد، ما لاحظته من خلال خبرتي أنّ الصلاة لها أثرٌ في العالم. وبالعودة لمانترا اثنين...

ـ لكنّ هذا كلّه مجرّد سخف! أين الدليل؟ في دراسة هاريس التي ذكرتها يا روجر ـ والتي درستها عن قرب في كتابي ـ أقرّ الباحثون أنفسُهم أنّ النسبة واحد إلى خمسة وعشرين. أي أنّ لكل مريض واحد من بين كل خمسة وعشرين مريضًا فرصة واحدة في نتائج الدراسة، بالمصادفة، مجرّد حظّ،

وهذا بالتأكيد ليس كافيًا لإقناعي. لن يكون اليانصيب مربحًا لمدّة طويلة إن لم يكن فيه سوى خمسة وعشرين رقمًا ليس أمامك سواها لتختار من بينها!

ـ كما قلت، بالعودة لدراسة مانترا اثنين ـ وعلى ما أظنّ أنّ لذلك صلة بدراسة هاريس أيضًا ـ يجب أن نسأل عن الذين يقومون بتحليل البيانات وكيف يفسرونها...

ـ أوه.. أي أنّها مؤامرة الآن إذن؟ «هل أخفى الباحثون الحقائق»؟

ـ لا. بالطبع لا. لكن لعلّ الصلاة شيء ما لا يمكن استيعابه بالبيانات والأرقام والاحتمالات. كيف بإمكانك حتّى أن تبدأ في قياس هذا؟ مثلًا، ما هي وحدة الصلاة؟

ـ هنا على ما أظنّ سؤال أخلاقي مثير عن الربّ... بغض النظر عن كيفية تفسيرنا للبيانات الواردة بدراسات مثل مانترا اثنين، يجب أن نسأل: بفرض أن الصلاة تساعد الناس... ما نوع الربّ الذي لا يساعد سوى من يسألونه أو من لديهم آخرون يسألونه نيابة عنهم؟ بالطبع يحمل هذا شيء من التفرقة في التعامل مع الناس من قِبل الربّ، ألسنا جميعًا أبناء الربّ، ألسنا كلنا متساوين أمامه؟

ـ نعم هذا سؤال مثير. لعلّ مفهوم الصلاة برمته بمثابة مفارقة. فأنت ربّما لن تصلّي لربّ يعاملنا جميعًا على قدم المساواة، فحينها ربّما تضحى الصلاة أمرًا غير ذي أهمية، فلو أنّ الربّ يحب الناس جميعًا بقدر متساوٍ، فلن يحتاج المرء على الأرجح لتذكيره بأن يهتمّ! لن يكون ثمّة منطق عقلاني للتوسّط.

ـ أوافق أنّ هذه نقطة عميقة. ومع ذلك قد تسأل: ماذا لو لم يكن الربّ؟ ماذا لو كانت إجابة الدعوات دليلًا بالفعل على شيء ما ذي صلة بقوّة الفكر؟ هل يمكن حقًا أن يؤثّر الفكر في المادّة؟

ـ كالملعقة المثنية[1]؟

ـ نعم. [ضحك] أعتقد أنّ بإمكاننا النظر للأمر على أنه يشبه الملعقة المثنية قليلًا.

أفرغ من تناول الأرز وأشعل سيجارة بينما يواصلون نقاشهم في خلفية سمعي. على الأقلّ هناك أصوات تذكّرني بوجود عالم ملموس فيما وراء هذه الحجرة، فيما وراء ذهني. أين بحق الجحيم ذهبت ظهر اليوم؟ لا يمكنني التوقّف عن التفكير في هذا السؤال: «متى أعود إلى هناك مرّة أخرى»؟ لعلّ عليّ أن أحاول مرّة أخرى في أسرع وقت لأرى: 1) إن كان المكان حقيقيًّا كما بدا لي ظهر اليوم، 2) وإن كان حقيقيًّا (أيًّا كان ما تعنيه كلمة حقيقي في هذا السياق) إن كان بإمكاني التجوّل فيه بمهارة أكبر من المرّة السابقة.

يقعقع قطار في الخارج وأتساءل إلى أين يتجه. لم أخرج من البيت اليوم.

أدخّن سيجارة أخرى وأحاول أن أدفأ قليلًا، لكنّي لا أفلح. ربّما لهذا السبب وحده يجب أن أعود للتروبوسفير مرّة أخرى: فعلى الأقلّ لا أشعر هناك بالبرد. فقط لو لا ظنّي أن أحداث اليوم تدلّ على إصابتي بمرضٍ عقلي ما (التعاطف مع الفئران.. هناك ما يقلق في هذا على ما أظنّ) وشعوري بالبرد اللعين هذا... لكان اليوم، وعلى نحوٍ لا لبس فيه، أمتع يوم في حياتي. لذلك سأكرّرها مرّة أخرى، سأرى إن كان حقيقيًّا أم لا (وسأحاول تجنّب القطط). ثم ماذا؟ سيتملّكني الذعر؟ سأحتفل؟ سأصاب بانهيار عصبي؟ لا شيء منطقي لأفعله قبل أو بعد أو أثناء هذا الموقف، سوى أن أترك كلّ ما أفعله الآن، وألّا أدعَ شيئًا يحدثُ من قبل أو أثناء أو بعد. لكن هذا ما لن أفعله. يجب أن أعود مرّة أخرى.

---

(1) تعبير يدلّ على القدرة علي تغيير شكل الأشياء، خاصّة أدوات الطعام المعدنية سواء بدون قوّة مادّية أو بقوّة أقلّ من اللازم في العادة، نوع شائع من الخدع السحرية.

بينما أستقرّ هنا في الكنبة بأدوات إدماني الجديد ـ البطاقة ذات الدائرة السوداء، وقارورة السائل ـ أسمع دقّات على الباب. هل هو وولف؟ أتجاهله وأثبت نفسي في الكنبة مرّة أخرى، ويخطر لي بشكل غامض كيف أنّني لم أرقد قطّ على كنبة طبيب نفسي، أشرب المزيد من السائل وأرفع البطاقة أمام عيني.

النفق.

الطريق.

لوحة.

أربعة عشر

لديك الآن سبعة وعشرون خيارًا.

لماذا اختلف العدد عن ذي قبل؟ على الأقلّ أنا في المكان نفسه، في الشارع المهجور ذاته، أرى اللافتات نفسها. مازالت جميعها بلغة لا يمكنني قراءتها ما عدا واحدة مضاءة الآن ويمكن قراءتها، تقول فأر 1. لا بدّ أنّني جننت حقًّا، لكن هنا، في التروبوسفير، لا يبدو الجنون كشيء يثير القلق، مثله مثل الخوف الذي انتابني المرّة السابقة ـ الذي لم يبدُ خوفًا ـ ثمّة قلق لكن ليس له أي أثر، لا تسارع لضربات القلب، ولا تعرّق. أتابع نفسي في فيلم مرّة أخرى. ألعب بنفسي في لعبة فيديو. لديّ إذن سبعة وعشرون خيارًا. ما زلت لا أدري معنى هذا، وللحقّ، يسرّني أن أبقي هنا فحسب في طريق اللامكان هذا، أتبارك باللا شيء، هل يسرّني حقًّا ألّا أعرف؟ لا. يجب أن أكتشف كيف يعمل هذا، ما التروبوسفير؟ اللوحة المغبشة كأنّها خريطة نصف شفّافة تعلو مجال رؤيتي، تُبين الأماكن «الحيّة»: الأماكن التي يمكنني دخولها. على الأقلّ هذا ما بدا لي المرّة السابقة. كانت الشقّة التي عليها الآن يافطة فأر 1 هي أقرب مكان أمكنني دخوله المرّة السابقة، والآن يبدو لي على الجانب الآخر من الشارع محلٌّ مضاءٌ على بعد عدّة مبانٍ، محلٌّ موسيقي صغير على واجهته صورة بيانو. أطلب في ذهني من اللوحة أن تنطفئ فتغيب عن نظري. يمكنني الآن النظر للمحلّ جيدًا. أرى البيانو: شيء أسود يقف منتصبًا عليه نوتة موسيقية تستند على حامل، أدقّق

النظر فأجد اسم المحلّ بالألمانية، اليافطة على الباب بالألمانية أيضًا: offen [مفتوح]. أفتح الباب ويصلصل جرس صغير. أتوقّع أن أرى ما بداخل المحلّ لكن، بالطبع، لا أرى هذا.

لديك الآن خيار واحد.

أنت... أنا الآن شخص آخر: بني آدم ذكر. أجلس في مقهى، أنتظر. لست في حاجة لترجمة أفكار هذا الشخص: شعور غريب حقًّا أن تكون شخصًا آخر، لكنّه الآن أسهل كثيرًا بالطبع من أن تكون فأرًا أو قطّة... يمكنني... يمكنني التحدّث بالألمانية... حتّى أنّني أفكّر بالألمانية... أعرف كيف أقرأ الموسيقى... أنا... حسنًا آريل، فقط اتركي نفسك للأمر.

أجلس إذن في مقهى، أنظر في كوب أبيض ملطّخ برغوة كابتشينو رمادية قديمة، حانق، لكنّه ليس شعورًا جديدًا عليّ، كيف يفعل معي هذا ثانية؟ ثانيةً، تدفعني الكلمة لحافّة البكاء، أشعر بها في جلدي، في وجنتي، تسري في صدري: حشرات الفشل الصغيرة تزحف عليّ، تكرّر جميعها نفس الكلمة: ثانيةً. قال إنّ الأمر سيتمّ سريعًا، الآن يبدو أنّه لن يتمّ أبدًا. بالتأكيد بسبب شيء ما لم أقله، بالتأكيد بسبب شيء ما لم أفعله. فكرة أنّ هذا كان سيحدث بطبيعة الحال فكرة بغيضة جدًّا. لا بدّ أنّه هذا القميص. لقد قال إنّه يحبّ الأزرق، لماذا إذن أرتدي هذه القطعة الحمراء الحمقاء؟

حينذاك تأتي النادلة، وكما وصف لوماس تمامًا، يظهر على جسدها بشكل واهن صورة محلّ آخر، وأدرك أن بوسعي الدخول لهذا المحلّ بدلًا من البقاء «هنا» ـ أيًّا كان ما تعنيه كلمة «هنا» في هذا السياق ـ ترى هل أجرّب هذا؟ ماذا عن ما حدث للسيد واي حين جرّب هذا ووجد نفسه مجدّدًا في التروبوسفير؟ أحاول استدعاء اللوحة، لكنّها لا تأتي. لن أجرب شيئًا بدونها.

أستدعيها مرّة أخرى.

لا تأتي.

قضيت معه على الأقلّ ربع ساعة أخرى. لكن ما قيمة ذكرى ربع ساعة مقارنة بعمر كامل كنّا سنقضيه معًا؟ مستقبلي الذي كان يجب أن يكون معه. كان يجب أن أقول هذا. أعلم أنّه يرغب في هذا كما أرغب فيه، لكنّه جبان برغم كلّ شيء. ربّما كان يجب أن أقول هذا. روبرت، أنت جبان. ربّما أنا الجبان. إذ لا يمكنّني أن أقول له شيئًا كهذا. تخيّل وجهه لو قلت له شيئًا كهذا. سيثور. سيقول إنّني تجاوزت الحدّ. أيّ حدّ؟ تعبير إنجليزي غبي. تجاوزت الحدّ. أيّ حدّ؟ أين هو هذا الحدّ؟ آه، نعم، الحدّ الذي تضعه بيني وبين كلّ ما أريد أن أقوله وكلّ ما أريد أن أكونه. الحدّ بين الحياة «العادية» والحياة الأخرى، الخيار الآخر. كان بوسعك أن تتجاوز هذا الحدّ أنت أيضًا. لقد وعدتني أن تتجاوز هذا الحدّ. وعدتني. وعدتني. وعدتني. وكنت لطيفًا جدًّا معك خلال الأسابيع القليلة الماضية. أتحدّث حين تريد التحدّث، أقبل دموعك بينما ما أرغب فيه حقًّا هو أنّ أمصّ قضيبك. لقد فعلت كلّ ما أردته.

رأيته يدخل منذ ساعة مضت، متأخّر عشر دقائق بالفعل، كما لو لم يكن لديّ شيء أفضل لأفعله (لكنّي ليس لديّ يا روبرت: الشيء الوحيد الذي بودّي أن أفعله هو أن أغرم بك).

«لم أستطع أن أترك الأطفال»، هكذا قال، «كانوا يبدعون».

تعبير إنجليزي آخر غبي. يبدعون ماذا؟ خراء؟ أعمالًا فنية؟ الاثنين معًا؟

أطفاله. وراء حدّ آخر تمامًا. لكنّني ادّعيت الاهتمام بهم بما يكفي. وهو كذلك. حسنًا، كنت مهتمًّا بشكلٍ ما. تخيّلت قضاء عطلات معهم عند نقطة ما في المستقبل، حين تتجاوز «أيًّا كان اسمها» كلّ شيء، نزهات في الحديقة العامّة، آيس كريم كبير، لا يعد هذا اهتمامًا بالضبط، لكن كان بإمكاني أن أعدّ نفسي له، كان بإمكاني أن أقوم بهذا من أجلك يا روبرت.

الطاولة أمامي عمل فنّي في حدّ ذاتها. ماذا تسمّيها؟ ما بعد خيانة صغيرة.

أحبّ هذا. بقايا الغدر: كوبان، طبقان صغيران، رجل واحد. بإمكانك أن تنظر إليها وتدرك أنّه منذ قليل كان يوجد هنا رجلان، لكنّ أحدهما ذهب الآن، أحدهما لديه اجتماع، ترتيبات أخرى، حياة. والآخر، لم يعد لديه شيء آخر في العالم سوى كوب القهوة هذا. لعلّك قد رأيت الرجل الذي ذهب بالفعل، ذا الشعر الخفيف ذاك والسروال الجينز الأسود. دخل منذ ساعة ولم يكن شيء على هذه الطاولة سوى مفرش الطاولة البلاستيك ذي المربّعات الحمراء والبيضاء، وقائمة طعام مغلّفة، ورشّاشة فلفل (لا يوجد ملح). اعتذر وجلس، وكان بإمكاني أن ألمح رعشته.

«قهوة»؟ قلت، بينما كان بودّي أن أصفعه، ما هذه الفوضى المرتعشة؟ أردت أن أخبره أن يتصرّف كرجل، إن كنت أرغب في مضاجعة بنات ما تبقّى من حياتي فلن أكون هنا لأفعل هذا، أليس كذلك؟

أتت نادلة. جميعهم يتحدّثون الفرنسية هنا، أو على الأقلّ يُوحون فقط بهذا بتلك المصطلحات الفرنسية، قال: «كافيه أوليه» بلكنة (إنجليزية ـ فرنسية) غبيّة، ثم أضاف، «ميرسي».

يا لَه من مغفل. والآن؟ الآن أريد أن أبول على وجهه، أن أغرقه في خرائي، أن أصوّره وهو يغرق في خرائي وأرسل الصور لصاحبته. أريد أن أؤلّف سيمفونية كاملة عن غرقه في خرائي وأعزفها في جنازته، أجعلها تنبعث من مكبّر صوت مثبّت على قبره ليظلّ أقاربه يسمعونها إلى الأبد.

لكنّ الأمل لم يفارقني وهو ينظر لي عبر الطاولة.

سألني «كيف حالك»؟ كأنّي مريض بالسرطان.

(أنت السرطان روبرت، أنت الورم الصغير البائس. لقد أصبتني بسرطان القلب).

«ماذا تتوقّع»؟ قلت.

أظنّ أنّ ما عنيت أن أقوله كان: «بخير، عظيم. حياتي مليئة ببالونات وردية. حسنًا، هذا أكثر جاذبية أليس كذلك»؟

أشعل سيجارة بيدين مرتعشتين. أنا من علمته التدخين بالطبع، علمته كيف يدخن وكيف يشرب وكيف يضاجعني، أريته ما كنت قد شككت في وجوده، أنّ رجلين معًا أكثر مقدرة من أسطورة القضيب والمهبل و(الينج) و(اليانج)[1] تلك التي عفى عليها الزمن. اكتشفناه معًا: جمال الجسد الذكوري. ألا تتذكّر روبرت؟ حتّى إنّي أهديت لك نسخة من تمثال داوود[2] لدوناتيللو بينما كنت بالكاد أستطيع أن أعول نفسي، وأهديتني لقاءه تمثالاً نصفيًا للإسكندر الأكبر.

وقلت إنّك ستنتقل للعيش معي.

كان جالسًا إلى هذه الطاولة منذ ساعة ولم يبد كرجل ينوي هجر أسرته والانتقال للعيش معي. من الناحية الأخرى... ظننته حزينًا لأنّه ترك صاحبته لتوّه (ليسا متزوجين برغم الطفلين). لعلّ هذا ما في الأمر، هكذا ظننت، لعلّه حزين لأنّه أخبرها ولأنّ عليه أن يعود معي الليلة، سأصبّ له فودكا وأمصّ قضيبه بقسوة لئلا يتركني مرّة أخرى أبدًا. كل ما أردته أن يمنحني الفرصة لأقنعه أنّ عليه أن يبقى معي أنا. أرى روبرت كسمكة ما زالت الصنارة في فمها، إن سحبته بقوّة سيعود: أنا متأكّد من هذا الآن.

جلس روبرت هناك بالسيجارة، جمّده الزمن. لن يدير ذهني هذه الذكرى كبكرة فيلم. يسحبني في كلّ مكان ككلب إلزاسي ويذهب بي هنا وهناك... والآن أفكّر في كتابة دليل إرشادي للآخرين الذين قد يقفون موقفي. أو... نعم، موقع إلكتروني... وقد أرسل لها الرابط، لأخطرها فقط.

«كيف تأخذه حتّى كفليك» دوت كوم.

قد يكون هناك موقع بهذا الاسم بالفعل. وليس ما أريده على كلّ حال.

«روبرت وغد» دوت كوم

---

(1) رمز صيني لوصف كيفية عمل الحياة كلّها من خلال الأبيض والأسود.

(2) تمثال لداود المنتصر في معركة طالوت وجالوت، نحته الفنان الإيطالي (دوناتيللو) عام 1408.

ليس عامًا بما يكفي.

«حين يعد الرجال العاديون بأن يصيروا مثليين ثم لا يفعلون ذلك» دوت كوم.

رشف قهوته. كنت جالسًا في مواجهة الباب، أجلست نفسي هناك كممسحة أقدام كُتب عليها مرحبًا، (اختراع إنجليزي آخر غبي ولعين) في انتظار أن يمسح قدمه فيّ. هكذا جلس هناك يرشف قهوته وينظر للجدار المنتصب خلفي والذي عُلِّقت عليه بطاقات بريدية من باريس، وكنت أنا أشاهد البشر يغادرون مثل بكتيريا تبحث عن مضيف جديد لتغزوه. في هذا الوقت من اليوم لا يأتي زبائن، كأنّ المكان تعاطى مضادًا حيويًّا.

«هل أنت بخير»؟ سألني روبرت.

«أنا مرتبك».

كان يجب أن نلتقي في شقّتي ليلة أمس لنحتفل بحياتنا الجديدة معًا. كنت قد أنهيت علاقتي بكاثرين، ولم يتبقَّ سوى أن ينهي هو علاقته بصاحبته. لكنّه لم يأتِ. بل اتصل عند منتصف الليل وقال بهمس غبي إنّ كلّ شيء تعقّد وإنّه سيقابلني هنا غدًا. قلت له إنّي اشتريت أزهارًا. قال إنّ عليه أن ينهي الاتصال. اقترحت أن نلتقي في شقّتي بدلًا من هنا، إذ شقّتي فعليًا بجوار هذا المكان. قال إنّها ليست فكرة جيّدة.

ها نحن ذا إذن. وكنت أعلم أنّه لم يصارحها.

«لم تخبرها»، قلت.

كان لا يزال يرتعش. «أخبرتها»، قال. «أخبرتها ليلة أمس».

«أوه يا إلهي»، قلت. «لم أعرف هذا. آسف. خراء. هل أنت بخير»؟

انحنيت على الطاولة لألمس ذراعه، بالطبع سامحته، لقد صارحها، لقد قال لها، حسنًا، هذا ما أردته، في الحقيقة هذا ما أردناه نحن الاثنين، لكن أين ذهب الليلة الماضية؟ وجدته ما أن بدأت التفكير في هذا يُبعد ذراعه عن يدي.

«لا».

«روبرت»؟

«لقد أخبرتها. أخبرتها أنّني سأتركها».

«لكنّ هذا أمر جيّد، أليس كذلك؟ إلّا إذا... حسنًا، بالطبع ستحزن، لكنّي سأساعدك في هذا، كلّ شيء سيكون على ما يرام».

«آسف جدًّا وولفجانج، لقد غيّرت رأيي».

ضع روحي الزانية في الفرن الكهربائي، ولمَ لا؟

«لقد أخبرتها، قلت لها «سأتركك» فقالت لي «لا لن تفعل». هكذا، كانت تعرف أنّ شيئًا ما يحدث لي، إنّها ليست غبية. سَنُـ... أوه يا إلهى، حتّى إنّني لا أعرف أين أنا، أنا مرهق جدًّا».

«سَنُـ... ماذا»؟ قلت. «ماذا كنت ستقول الآن»؟

«سَنُحاول مرّة أخرى...».

هذا المغفّل يعتبر العلاقة مثل لعبة المغزل التي يلعبها الأطفال. أوه، سأحاول مرة أخرى فقط! لكنّي لم أقل شيئًا، ظلّ هو يتحدّث ويتحدّث عن كيف أنّه ظنّ في بادئ الأمر أنّه مثليّ، ربّما، أو على الأقلّ مزدوج، لكنّه الآن ليس متأكّدًا، قال إنّه يظنّ أنّ هناك احتمالًا أنّه مزدوج جنسيًّا، وأنّ هذا يعني أن بوسعه البقاء مع صاحبته. وفوق كلّ ذلك، فلديهما بالفعل طفلان، وكانت هي على حقّ حين قالت إنّ عليه أن يفكّر فيهما بدلًا من السير وراء قضيبه.

لوحة!

لوحة؟

لوحة؟

خراء. عليّ حقًّا أن أخرج من هنا. لم يكن لديّ أدنى فكرة أنّ هذا ذهن وولف، مع ذلك كان يجب أن استنتج هذا من إشارات كثيرة، أوه، يا إلهي، يا إلهي، لا أصدق أنّي اقتحمت حياته هكذا، لم يكن ينبغي أن أعلم شيئًا

من كلّ هذا، لم تكن لديّ أدنى فكرة... أوه... وولف... أنا آسفة حقًا. أين ذهبت النادلة الآن؟ لا يمكنني أن أجول بنظري للأسف: كلّ ما يمكنني رؤيته هو ما يراه وولف، وهو ينظر للطاولة فقط. لا توجد أبواب ولا صور ضبابية.

لوحة؟

لكنّها لا تأتي. أنا عالقة هنا.

ينهض الآن ليغادر المقهى. وما زال لا ينظر لأحد.

أعرف كيف يشعر. منذ متى تقريبًا؟ سبعة عشر عامًا الآن، يا لَلمسيح، هذا يجعلني أشعر بالعجَز. كنت واقعًا في الحبّ، غارقًا فيه ببراءة، المرّة الأولى والوحيدة في حياتي، مع شابّ كان يعد بحثًا أكاديميًا في المدينة التي كنت أستكمل فيها الدراسة الثانوية. كان له شعر داكن يصل لكتفيه، ويقود سيارة ميني زرقاء صغيرة، كان مجرّد رؤيتها في ساحة انتظار السيارات بالجامعة تجعل قلبي ينتفض شوقًا، مثلما يحدث حين تلمس قلب الرجل المزيف (أو الرجل الذي على هيئة فتحة) في لعبة أوبريشن. ثم هجرني لأنّي كنت صغيرًا جدًا. وقضيت حوالي عام وأنا أطارده تقريبًا (تركت له مرّة نبتة صبار رائعة أمام بابه) قبل أن أقرّر أن أقلع تمامًا عن الحبّ.

وولف لن يطارد أحدًا مع هذا. وولف فقط سيسكَر...

سأسكَر.

بدأت السماء تمطر ثلجًا، يسحقه البشر البكتيريا في الطين فور سقوطه على الأرصفة، قوام عصير الليمون الذي كانت تعده لنا والدة هايك بعد عودتنا وقت الظهيرة بزيّ الطلائع، لكن ما على الرصيف قذر وبنّي، وهذي هي الحياة في لحظة، تبدأ بمشروب ليمون صافٍ بثلج مجروش وتنتهي بفوضى خرائية. هذا ما تصير إليه. وأنا أعرف إلى أين أتّجه الآن، أسير في الوحل البني بتكنيك الطيران الآلي، لا أبكي، لا أبكي بعد.

لكن كلّ شيء سيكون على ما يرام. إن شربت ما يكفي من البربون،

فستبدأ آدميتك في الذوبان، وعند الثالثة صباحًا لن يهمّني شيء، لعلّي خلال ساعة سأكون مخدّرًا بما يكفي لأتوقّف عن الشرب وأبدأ في البكاء. ثمة ريح قارصة بثلج خفيف، لكنّي لا أستطيع الاهتمام بغلْق أزرار معطفي، وأظنّ أنّي نسيت وشاحي في المقهى، حسنًا، ربما أتجمد بردًا حتى الموت، تصورني جثّة مجمّدة في الحديقة، قلبًا جريحًا على الدكّة الخشبية، سيقرأ روبرت الخبر في الجريدة المحلّية و.. ها هي صورة أكثر بؤسًا: أموت كما قلت على دكّة خشبية في الحديقة وما إلى ذلك، وابن الزانية لا يقرأ الخبر حتّى. قد أموت ولا يلاحظ أحد أساسًا. قد تلاحظ آرييل جارتي الأمر بعد عدّة أيّام، مع ذلك لن تهتم كاثرين بعد الآن، لم تقل شيئًا بعد أن أنهيت علاقتنا، لم تبك حتّى، لم تقل لي إنّي أرتكب خطأ، لم تتوسّل لي لأتوقّف عن التفكير في الرجال. يجعلني هذا أسير في خطّ مستقيم حتّى الحديقة وأفكّ كلّ أزرار قميصي الأحمر الكريه، لكن، على الرغم ممّا أقوله للجميع، لست ممّن بوسعهم الانتحار.

يسير نحوي رجل أعمال، يرفع جريدة فوق رأسه ليقى صلعته من زخّات الثلج. هيي يا مغفل! هل سبق ورضعت شيئًا من قضيب أحدهم؟ أنا فعلت هذا.

مع ذلك فهو أمرٌ شائع أكثر ممّا يعتقد بعضهم. لعلّه هو الآخر فعله.

(يحلّق مدخل فوق الرجل لكنّني أتردّد، ثم يشيح وولف بنظره عنه ويذهب الرجل)

أريد شيئًا مؤذيًا، ألم بدني وليس هذا الخراء الذهني، هذا توقيت ممتاز للذهاب لطبيب الأسنان. مرحبًا سيدي الطبيب. قم بما يحلو لك...

لعلّي سأنطح عامود الإنارة. قد أبحث عن لاعب كرة قدم يكره المثليّين ليركلني بعنف في الرأس بينما أرقد على الأرض بوضع الجنين أو بوضع الاستشفاء. أسير نحو برج البوّابة الغربية، فتحة الشرج الضيقة تلك لوسط المدينة. استخدمت هذا الوصف ذات مرّة فأُصيب مستمعي أيًا من كان

بالصدمة. «لكن هل سبق وشاهدت الحافلات وهي تحاول أن تنحشر فيه بصعوبة»؟ قلت. «تبدو جميعًا كأنّها في حاجة لدهان لتنزلق». ها. إن كنت أبغي عراكًا فأنا في الجهة الخطأ من المدينة. يمكنني العودة إلى طريق المنزل لأتجوّل حول محلّ الكباب وأنتظر عُصبة «شباب»، ماذا سأفعل حينذاك؟ ما عليّ سوى أن أحدّق في أحدهم، لا أحتاج حتّى أن أدعوه بـ (لوطي). هل تعلم من الذي أريده أن يسحقني ضربًا حقًّا، مثليّين ممّن يلكمونك في وجهك بعد أن يقضوا وطرهم منك. أريد شيئًا ما يؤلمني أكثر ممّا يؤلمني هذا.

لوحة؟

لوحة؟

ما زالت لا تجيب. وولف لا ينظر لشيء غير الرصيف.

نسير إلى الأمام، نحو كنيسة القديس (دانستان)، إلى أن نصل إلى باب لم ألحظه من قبل قطّ - لكنّي في الوقت نفسه أدرك أنّني أجيء إلى هنا كثيرًا جدًّا - يقود أسفله لحانة تحت الأرض. أظلّ هناك أشرب (جاك دانييل) إلى أن يحين موعد إغلاقها وأحدّق في كلّ شاب يمرّ بي، أظنّ أنّ أحدهم سيأتي بردّ فعل، أحدهم سيرغب في ضربي أو في مضاجعتي، لكن لعلّي أيضًا غير مرئي، لعلّي هكذا. لعلّي غير مرئي. حين يأتي وقت الطلب الأخير أنهض وأتّجه للبار وأشرب ثلاثة كئوس أخرى.

«هل أنا مرئي»؟ أقول للساقي. «هل تراني»؟

يلقي بي البلطجية في الخارج. ولست مخمورًا بما يكفي حتّى الآن. فأذهب للفندق.

المدير الليلة هو حارس الأمن السابق المدعوّ ويسلي.

«هيي. نوبتك ليست الليلة»، يقول لي.

«جئت لأشرب»، أقول. «أريد فقط أن أشرب».

بداخلي بركان محموم. يجب أن أفعل شيئًا حياله. أفكّر في شرح هذا لويسلي، لكنّه يقول ببساطة، «حسنًا، كأس أو اثنتين فقط يا صاح».

(ميليسا) تعزف على البيانو الليلة. أجلس في الكابينة بجوارها تمامًا، وأحدّق فيها جيّدًا جدًّا إلى أن أجعلها تخطئ في ثلاث نوتات في جملة واحدة. حسنًا، ظنّي أنّها أخطأتها. العالم كلّه يبدو لي في الطريق الخطأ الآن. لماذا أنا هنا؟ آه. نعم ذلك الوغد روبرت. ربّما لو عدت للمنزل سأجده هناك في انتظاري يحمل حقيبة صغيرة يمسح عينيه بمنديل مكوّر.

في أحلامي. أو كما تقول آرييل، في عالم آخر.. ربّما نفس العالم الذي أكون فيه غنيًا. هذا شيء آخر: بعد هذه الليلة سأكون مفلسًا تمامًا. هل ستقرضني نقودًا؟ لا. ألم تقل إنّها أنفقتها كلّها على هذا الكتاب؟ هل أسرق الكتاب؟ لقد قالت إنّه من أندر الكتب في العالم... ماذا أفعل؟ سأذهب إليها لكأس قبل النوم وأترك الباب مواربًا وأنا أغادر، ثم أعود و...

يا لَك من وغد وولفجانج، أنت صديقها.

البيانو برّاق للغاية ويبدو أنّ بإمكانه الخروج من هنا سائرًا على أقدامه الأربعة. هل سأتقيّأ؟ اثبت، اثبت. سأذهب لأقضي حاجتي. هذا سيفيد.

وحدي في الحمّامات الفلورسنتية، أبول في المبولة الخزفية، حينها يدخل ذلك الرجل، ربّما سيبدو أكثر جاذبية في صورة فوتوغرافية عنه في الحياة الحقيقية. ربّما هو صورة فوتوغرافية. حاجباه الضخمان لا يتناسبان مع عينيه المستديرتين الضئيلتين، أو ربّما الأنف هو ما يبدو مصفوعًا لأعلى، أو كأنّه تلقى لكمة لتوه. يأتي ويقف بجواري ويُخرج قضيبه، لكنّه لا يبول، يحملق فيّ؛ ثم لأسفل في قضيبي، ثم لأعلى في عينيّ، أنظر لقضيبه، ينظر لقضيبي ثانيةً، هل هذا نوع من الشفرة السرية؟ قبل أن أعي ما يحدث، أجدنا نحن الاثنين في إحدى الحمّامات المكعّبة، أنا راكع على ركبتي على الأرضية الدبقة بينما يضاجع هو ما بداخل فمي، كلّ ما أتذوّقه بولٌ بارد.

حين ينتهي ينعتني بالعاهرة ثم يغادر. أفكّر مرّة أخرى في تمثال داود لدوناتيللو، وحينها أبكي، بعد أن أتقيأ في التواليت أمامي: شرائط من جاك دانييل ومنيّ ومجرّد ذكرى لقهوة. النساء أسهل من هذا. سأجد امرأة تساعدني. سأ... أوه، يا إلهي. لا أشعر حتّى بالرغبة في ممارسة الجنس لما تبقى من حياتي. لكنّك لا تحصل على أيّ شيء بدون جنس، أو الوعد بالجنس (إلا إذا كنت أخطئ فهم هذا، وما أعنيه فعليًا هو العنف، لكني مخمور قليلًا). ربّما سأحاول شنق نفسي، لأحصل على بعض التعاطف على الأقلّ. هل يسهل أن تخطئ فهم شيء؟

تسير الدقائق القليلة التالية على نحو مربك، يأتي ويسلي - أنا متأكّد أنّه ويسلي - يدخل وأنا أفتح باب الحمام، ويجرّني عبر الرواق إلى المطبخ حيث أتدبّر أن أغرس مرفقي في وعاء آيس كريم مليء بكوكتيل جمبري، قبل أن يضغط وجهي على المنضد المعدني النظيف.

«إيّاك أن تفعل هذا في فندقي اللعين مرّة أخرى، أيّها الشاذّ الحقير»، يقول ويسلي. ليس لديّ حقًّا أيّة فكرة عمّا يتحدّث عنه. لا أعتقد أنّه يطردني من العمل. أظنّ أنّ هذا فقط إنذار رسمي أول. شيء ما يؤلمني: ذراعي وراء ظهري. «دافع عن نفسك يا بوسي»، يقول وهو يشدّني للوراء من ياقة قميصي.

أضحك، متجاهلًا أنّ بوسي في هذا السياق لا تعني «القطّة بوسي».

«هل تضحك منّي»؟

أدير رأسي، أرى لكمة، ثم يصير كلّ شيء إلى سواد.

لوحة؟

لا شيء.

في الطريق إلى المنزل أحاول أن تدهسني سيارة. حتى إنّني أمر ببرج البوابة الغربية وأنا أتمتم «شرج، شرج»، لكن المرور يبطئ من خلفي فحسب، كما لو كنا نسير في جنازة، وليس مجرّد مخمور في حاجة لمن

يركله. في الحديقة أحاول مضايقة شابّين يجلسان على الدكة، لكنّهما يبديان استياءهما ويبتعدان فحسب. أظنّ أنّي نسيت أين منزلي، لكنّي بعد ذلك أجد نفسي هنا، وها هي درّاجتي.

أبصق على الأرض مرتين قبل أن أدخل. ثمّة رجلان في سيارة سوداء ينظران لي شذرًا قبل أن يوقفا السيارة عند المنعطف. لعلّهما سيخرجان من السيارة ويأتيان ليضرباني. هل ما زلت أرغب في هذا؟ لكن لا شيء يحدث: يبدو كأنّهما أويا إلى النوم هناك.

النوم. فكرة جيدة جدًّا. ربّما أنام ولا أستيقظ فحسب. ترى هل لدى آرييل حبوب منوّمة؟ غير وارد. ترى هل أذهب إليها الآن؟ هل أنا في حالة جيّدة؟ بموضوعية، هل سأبدو «حالة مَرَضية» إن طرقت باب أحد الآن؟ في الواقع لست قادرًا على صعود الدرج حتّى. الأسمنت يبدو مريحًا جدًّا. أظنّ أنّني فقط سأ...

«أوه، ممم، آسف».

من قال هذا؟ أوه... أحدهم يهبط الدرج. واو. أنظر لعظمتي الوجنة هاتين. لكن، آوتش. إنّه مُغطّى بالكدمات. هل نامت آرييل معه؟ لو كنت مكانها لفعلت، يبدو كشخصٍ قد تنام معه، لو كانت رجلًا طويلًا بشعَر داكن. إنّه النسخة الذكورية من آرييل، آرييل الذكر. لماذا هو هنا؟ أتراه آرييل متنكّرة؟ لكن لماذا تتنكر وتصطنع لكنة مختلفة؟ إنّه آسف. هو آسف لأنّني آويت للنوم في المكان الذي يريد أن يضع قدمه فيه. لا أفهم ماذا يحدث. الأمر كلّه معقّد جدًّا. أعتقد أنّي سأذهب للبيت لأنام وفقط.

«إسكيوزي موا» [معذرة]، أقول بالفرنسية، لأخدعه. وأنهض.

«هل تريد مساعدة»؟ يقول.

«ناين، دانكي». [لا شكرًا، بالألمانية]

نعم. أنا متعدّد اللغات. الآن هذا مضحك.

(ذهني ليس في حالة أفضل كثيرًا من ذهن وولف وكأنّ الشراب أثر عليّ أنا الأخرى. لكنّي ما زلت واعية. آدم. ماذا يفعل آدم هنا)؟

«هل أنت جار آريل»؟

«سي» [نعم بالإيطالية]. أقول ضاحكًا. «ياه» [نعم باللهجة الأمريكية].

يمرّر يد في شعره الأشعث ويتنهّد.

«يجب أن أجدها».

«إنّها تقيم بالأعلى... في السحاب». أقصد. «في الطابق الأعلى». هذا مضحك جدًّا.

«أعرف أين تقيم. لكنّها لا تجيب».

«لا بدّ أنّها بالخارج... مع الأوغاد... مع العمال، في العمل...».

«مع ماذا»؟

«في العشاء. مع زملائها في العمل. أم كان هذا بالأمس؟ أنا آسف... أنا مخمور قليلًا. أرأيت، لقد حدث شيء ما غريب ومأساوي للغاية هذا المساء...».

«اسمع، أنا آسف يا صديقي. إن لم يكن بوسعك مساعدتي، فلا بأس إذن، لكن لا تضيع وقتي اللعين، اتفقنا. هذه مسألة جادّة جدًّا، لأنّ حياتها في خطر، إن كان ذلك يعني شيئًا بالنسبة لك».

«خطر؟ من قضيب»؟

«ماذا؟ بحق الزنا، تماسك قليلًا».

«خطر. خطر! آريل في خطر؟ علينا أن نساعدها. أين القنابل»؟

«أوه، لا عليك».

«أنا آسف، أنا هكذا، من فضلك دعني أساعد. آريل صديقتي، أتعرف»؟

يتنهّد الرجل. «هناك رجلان، حسنًا؟ أحدهم يرتدي بذلة سوداء والآخر يرتدي بذلة رمادية، لكلّ منهما شعر فاتح مثل شعرك أو أفتح قليلًا، وأحدهما له ذقن جِدي». هذا الرجل يصف لي بيديه كما لو كان بإمكانه تحضير الرجلين بسحر ما بمجرّد رسمهما في الهواء. «أظنّ أنّهما يقودان سيّارة سوداء كبيرة. هل رأيتهما»؟

«من؟ هل هما هنا؟ لا. لا أعرف. ثمّة سيارة سوداء...».

«أين»؟

«ماذا»؟

«قلت شيئًا ما عن سيّارة سوداء».

«هل قلت هذا؟ أنا آسف. لا أتذكّر».

«اسمع. أعتقد أنّهما يحملان مسدّسات. إنّهما خطيران جدًّا. لقد ذهبا لمتجر كُتبٍ وحصلا على معلومات عن آرييل. لقد اشترت كتابًا يريدانه... هذا كلّ ما استطعت فهمه».

«أوه، هذا، حسنًا، آرييل لن تبيع الكتاب أبدًا، لن تفعل».

«ما هذا الكتاب»؟

لا تخبره وولف. لا تخبره.

«إنّه... أوه. ثمّة صوت في دماغي يقول لي ألّا أخبرك».

«ما هذا الكتاب»؟

أهزّ رأسي. «لا. آسف هير، إنّها أوامر الطبيب».

لا أستطيع فهم جميع الأصوات في دماغي. أحدهم يخبرني ألّا أخبره، والآخر يخبرني أنّ عليّ أن أذهب وأحصل على الكتاب الآن. و.. آوتش.. ليس لأبيعه، بل لأعطيَه لهذا الرجل اللطيف حين يطلبه...

يتراقص باب كنسي نوعًا ما حول جسد آدم. «انتقل!»، أصدر الأمر. «انتقل!» يجب أن أعرف ماذا حدث. أبدأ في التغبش، مثلما حدث من قبل، لكن بدلًا من التغبش لأصير داخل ذهن آدم أجدني أسقط، لكن ليس لأسفل، قبل أن أعي ما يحدث، أو كيف يمكن السقوط في اتجاه مختلف عن الأسفل أجدني خارج محلّ الموسيقى. عدت للتروبوسفير مرّة أخرى، راقدة على الأسفلت أتطلّع للافتات النيون التي تتراقص أضواؤها وسماء سوداء بلا نجوم. كأنّ أحدهم أطفأ كلّ شيء: قرع الطبل في دماغ وولف، رائحة الرطوبة

على الممشى الأسمنتي، البرد، أصوات المرور بالشارع خارج البناية. كما من قبل، سكون تام تقريبًا في التروبوسفير. لا صوت بالمرّة: لا طيور، لا مرور، لا بشر. الصوت الوحيد الذي أسمعه في التروبوسفير صوت وقع خطواتي. هل أصدرت المصاعد صوتًا؟ لا أتذكّر حتّى.

يجب أن أخرج من هنا الآن وأجد آدم.

لماذا يبحث رجال بمسدّسات عن الكتاب؟ لا أعرف آدم جيّدًا، لكن كان من الواضح أنّه صادقٌ في ما يقوله وأنّه يحاول مساعدتي حقًّا. أتراه قد قاد الرجلين إلى مسكني؛ اللذين كانا في السيارة؟ أم أنّني بطريقة ما أحلم بكلّ هذا؟ يزعجني ما قاله عن الفتاة في محلّ الكتب. واضح أنّه لم يعرف ما حدث، أم لماذا، لكنّي أعرف. الأمر منطقي: إن أردت *نهاية السيد واي*، عليك أن تواصل البحث عنها؛ أعرف هذا. لا بدّ أنّ هذين الرجلين بحثًا عنه على جوجل ووجدا الوصلة الجديدة: فتاة تقول إنّها باعته في متجر للكتب المستعملة. وهكذا وجدا المحلّ، ذهبا إليه، وسألاها لمن باعته. لا تتذكّر شيئًا على ما أظنّ، سوى أنّني شابّة تعدّ رسالة دكتوراه في الجامعة. ماذا بعد ذلك إذن؟ يبحث الرجلان على موقع الجامعة عن كلمة لوماس، فيجدانها هناك تحت اهتماماتي البحثية في صفحة العاملين. ويحددان الفتاة التي اشترت الكتاب. فيأتيان بحثًا عنّي... ولست ممّن يصعب العثور عليهم. كلّ الطرق تؤدّي إليّ، وسأكون هناك: آرييل مانتو... اسمي الحركي، اسمي للمراسلة، اسمي الذي أطلقته على نفسي حين كنت في الثامنة عشرة ولم أعد راغبة في أن أكون أنا بعد ذلك. آرييل مانتو، الاهتمامات البحثية: دريدا، العلوم والأدب، (توماس إي. لوماس).

على الأقلّ اسم آرييل حقيقي. ونعم، من الشِّعر، وليس المسرح[1].

---

(1) اسم آرييل في الشعر: اسم ملاك غليظ وإله وثني بـ«الفردوس المفقود» لـ(جون ميلتون)، وكذلك اسم الراوي في قصيدة ألكسندر بوب «اغتصاب القفل». وفي المسرح: اسم الروح التي تساعد الساحر بروسبيروي في مسرحية «العاصفة» لشكسبير.

يعمّ السكون التامّ بالتروبوسفير دون أن يتملّكني الذعر، فأنهض من على الرصيف وأستدير بهدوء ناحية باب الخروج، جزء منّي يودّ لو أبقى هنا فحسب، حيث لا يمكنهم إيجادي، مدينة بأكملها لي وحدي، خير من رجلين يحملان مسدّسات. لكنّني أفكّر في العالم الحقيقي، لا بدّ أنّي ملقاة على كنبتي لا أسمع خبط الباب، هيا آرييل اخرجي واهربي، تحدّثي مع آدم وافعلي ما عليك فعله، لكن إن كان في الأمر رجال بمسدّسات فالأفضل أن تهربي. اخرجي واهربي. اخرجي واهربي. اخرجي واهربي.

ثمّة أزيز خلفي.

وصرير: نغمة كهربائية طويلة لصوت حادٍّ وعالٍ. ألتفت. هذا كلّه خطأ. يجب أن أكون وحدي هنا. يجب أن أكون...

إنّه باب. باب ينفتح. باب محلّ الموسيقى. أوه، يا للزنا. ورجل... لا، رجلان، يخرجان ويسيران في التروبوسفير كمخلوقات فضائية تخرج من سفينة فضاء. مثلما وصفهما آدم تمامًا: أحدهما يرتدي بذلة رمادية والآخر بذلة سوداء وكلاهما له شعر أشقر. لكن بهما شيئًا ما كارتوني قليلًا. كأنّهما مركّبان على الخلفية بعملية فصل ألوان. معهما ـ هاه؟ ـ طفلان أيضًا، ولدان صغيران، كلاهما له الشعر الأشقر نفسه الذي للرجلين، أفتح قليلاً ربّما.

«ها هي»، يقول أحدهما، ذو البذلة الرمادية، فمه لا يتحرّك بدقّة مع خروج كلماته. «لقد عرفت فعلًا كيف تدخل».

لكنة أمريكية. خراء. هل أجري في الأزقّة هاربة منهما؟ شيء ما يخبرني أنّ هذا ليس من الحكمة.

«لا تقلق بخصوص هذا»، يقول الآخر. «يمكننا التعامل معها بسهولة حقًّا». ثم يوجه كلامه لي. «افسحي الطريق. هيا. لا شيء يستحقّ القلق، فقط سندع الطفلين يعبثان بدماغك قليلًا؛ لنرى أين خبّأت الكتاب، لن تتألّمي وهما يفعلان ذلك».

يتراقص الولدان بينما يتقدّمان نحوي كالدُّمَى الخشبية. جلدهما وردي

مثل اللحم النيئ المثلج. أحدهما يرتدي ملابس راعي بقرٍ، والآخر يرتدي رداءً أزرق.

«دعينا ندخل». يقول أحدهما بنبرة غنائية كأنّه بطلُ فيلم استعراضي مأخوذٍ عن إحدى روايات ديكنز.

«نريد أن نلعب»، يقول الطفل الآخر.

لكلٍّ منهما عينان ساخرتان، ووجهاهما شاحبان لونهما يكاد يكون أبيض تقريبًا.

«افسحي الطريق»، يقول ذو البذلة السوداء ثانيةً. «دعي الطفلان يلهوان قليلًا».

افسح الطريق؟ لا أظنّ هذا. لن يقترب منّي هذان المسخان؛ سواءً كان الرجلان أو الولدان. أتراجع للوراء بينما يقترب الأربعة منّي، أتعثّر في شيء: أظنّ أنّه إحدى اللافتات المنتصبة خارج أحد المتاجر، لكنّه حاملًا معدنيًّا للجرائد والبطاقات البريدية. أوازن نفسي سريعًا وأركل الحامل بقدمي في طريقهم. يراه الطفلان ويقفزان من فوقه. لكن لا يبدو أنّ الرجلين قد رأيا ما فعلته.

«أيًّا كان ما تظنّين أنّك تفعلينه»، يقول ذو البذلة الرمادية «فقد انتهى. هيا. تحرّكي الآن. نريد أن نعبر. آوتش! خراء، ما هذا بحقّ الجحيم؟ هيا. أنتِ تزيدين الأمر سوءًا فقط. أتعلمين، لا ينبغي أن يكون بهذه الصعوبة».

يريدون دخول ذهني...؟ كيف؟ فكّري آرييل. أين هم الآن؟ حسنًا، إنّهم في التروبوسفير، مثلي تمامًا. هيا. حلّي هذه. لأعود لنفسي على أن أسير في الطريق خلفي إلى أن أصل للنفق. عليّ إذن أن أمنعهم من الوصول لهناك. قد لا يكون ذلك صحيحًا، لكنّه أفضل ما يمكنني التوصّل إليه.

ساعدني، أفكّر. فيحدث شيء ما. يوجد الآن على الأسفلت قضيب من الصلب. أنحني وآخذه.

«من أنتم»؟ أسألهم.

يواصلون الاقتراب منّي، محتلّين معظم الشارع الضيق.

«نحن هنا لنستعيد الكتاب فقط». يقول الرمادي.

«عليك أن تتعاوني معنا قليلًا فقط»، يقول الآخر.

«ومع ذلك فإن لم تفعلي... حسنًا، نحن لا نهتم حقًا بما علينا أن نفعله من أجل هذا الكتاب. أرأيتِ كيف كنت تعبثين في ذهن صديقك، تراقبين فقط، هذا هو المستوى واحد. ما إن يصر الأطفال في ذهنك، سيحوّلانه لمكرونة سباجيتي».

«أعلى الدخنة القديمة[1]». يغني الطفل الأول.

«ابتعدوا عنّي». أقول. «يا لَلجحيم اللعين. ابتعدوا عنّي...».

ألوّح بالقضيب الصلب في وجه الرجل ذي البذلة الرمادية، الأقرب لي. لا يأتي بأيّ ردّ فعل حتّى يسلخ القضيب أحد جانبي وجهه بعنف: كما لو كان لا يرى القضيب إطلاقًا. تمامًا مثل حامل الجرائد.

«أيّتها المهبل الصغير»، يقول لي بينما يميل برأسه ويمسكها. ثم يضيف: «مارتن. إنّ لديها سلاحًا».

«تعرف إذن ما عليك فعله». يقول الآخر. «بوسعنا أيضًا أن نقضي عليها هنا، ثم نذهب لمسكنها ونجلب الكتاب، أراهنك بأيّ شيء أنّه هناك على رفّ ما أو شيء كهذا».

يعبث أحد الولدين في أنفه، الأرجح أنّه يتابع فقط ما سيفعله الكبار بعد هذا، الولد الآخر الأكبر قليلاً ينظر إليّ.

«عندما أدخل ذهنك سأبول على ذكرياتك»، يقول. «ثم سأخري على كلّ أفكارك الأخرى من محجري عينيك. لن تقدري على منعي».

أرى نفسي في ملجأ ما ولعابي يسيل. ماذا حدث لها؟ أوه، لقد جُنّت. في البداية ظنّت أنّ بإمكانها التخاطر، ثم لسببٍ ما توقّف مخّها عن العمل، تحوّل لمكرونة سباجيتي، هكذا ببساطة، يالَلأسف، لقد كانت تعد رسالة

(1) موال شعبي أمريكي شهير.

دكتوراه. ولن أستطيع أبدًا أن أخبر أحدًا بما حدث لي. لن يكون لديّ ذاكرة. سأكون... حسنًا. الآن أنا خائفة.

لوحة؟

يظهر الشيء. يعلو الرجلين والولـدين الآن ضوءٌ أحمر. خطر. نعم ـ أظنّ أنّي أدركت هذا بنفسي ـ يبدو الزقاق الضيق من ورائهم رماديًّا باللونين الأبيض والأسود. هذا جديد.

ليس لديك خيارات، يقول صوت المرأة.

كيف لا تكون لديّ خيارات؟

لا طريق مفتوح الآن.

حسنًا. أخبريني ماذا أفعل. هل ثمّة خيارات؟

يمكنك الخروج بأن تتوقّفي.

لا أريد أن أتوقّف. إن توقّفت، فسيدخل هؤلاء المجانين لذهني.

ليس لديك خيارات.

أهذا كلّ شيء إذن؟ أن أتوقّف ثم أموت، وفقط؟

يمكنك استخدام بطاقة أبوللو سيمنثوس.

ماذا؟

الخطر يقترب...

اللوحة على حقٍّ. الرجل ذو البذلة السوداء يقترب مني بـ... آوتش. أوه، خراء. ظننت أنّه لا شعور بالألـم هنا. أوه، أيّها الزاني. كأنّها آلام الدورة الشهرية في رأسي. آلام أسنان المخ... أخِرّ على ركبتي. حسنًا. أقول للوحة. سأستخدم بطاقة أبوللو سيمنثوس. افعلي هذا الآن. افعلي هذا الآن. أوه، يا إلهي.

خمسة عشر

كم استغرق هذا؟ لا أعلم. لكنّ الرجلين والولدين الصغيرين المرعبين لم يقتربا منّي، ويوجد الآن شيءٌ ما أو شخص ما يقف بجواري. ما زلت راكعة على ركبتي على الأسفلت الأسود، أمسك رأسي بيدي، أضغط عليها بأصابعي في محاولة لإزالة الألم عنها. كنت مخطئة تمامًا بشأن التروبوسفير. ظننت أنّني لن أشعر بشيء هنا، لكن الألم هنا أكثر حِدّة من أيّ شيء آخر في العالم الحقيقي. إنّه أسوأ أنواع الألم: ليس كجرح حادّ لنصل سكين، أو إبرة وشم، أو خربشة قطّة. هل سبق وكان الصداع لطيفًا قطّ؟ لا أظنّ هذا. وهذا أسوأ صداع عانيته على الإطلاق. شيء ما يعتصر مخّي من الخارج كأنّه لوفة غسيل صحون مبللة. يبدو أنّه ليس بوسعي أن أغمض عيني، برغم تراقص أضواء النيون الذي يصيبني بالدوار، في الحقيقة، ينهار النيون المتراقص الآن من حولي، ينهار كلّ شيء ويتحوّل لنوع من الكهربائية الرمادية: المتاجر، المباني، الشارع نفسه، التروبوسفير كلّه يفور ويفرقع كأنّه يُبث عبر موجة خاطئة.

صار السكون من حولي صاخبًا جدًا بالفعل. ثم يتحوّل الفوران والفرقعة لأصوات طقطقة، كصوت انتشار النيران في غابة جافّة، يبدأ حينها الرجلان في قول أشياء من قبيل «ما هذا بحقّ الجحيم؟». أتمنّى أن أموت سريعًا ليتوقّف هذا الشعور. «هذا الشيء» الذي ما زال واقفًا بجواري يرتدي عباءة حمراء طويلة وحذاء أسود برقبة، لكن بوسعي أن أرى من تحت العباءة أنّه

حيوان: نوع ما من فأر هجين، بفراءٍ رمادي على قدميه. ألحظ هذا فقط قبل أن تأخذ الصورة في الانهيار مثلها مثل كلّ شيء آخر. كلّ ما أريده الآن أن يحدث الأمر بسرعة، أن ينطفئ كلّ شيء ويبتعد.

أبوللو سيمنثوس، إن كان هو هذا الشيء، يقول شيء ما بلغة لا أفهمها فيزول الألم، وتذهب الكهرباء، وكأنّ قناة البث قد عادت واضحة ونقية. أقف. أتأرجح قليلًا. أبوللو سيمنثوس أطول منّي: لا بدّ أنّ طوله ثمانية أقدام، يقف على قدميه الخلفيتين، يحمل على ظهره كنانة مليئة بالسهام. فمه الفأري المستدقّ مغطّى بالفراء الرمادي، ولديه شارب. أغرب مخلوق رأيته في حياتي تقريبًا، يتحدّث الآن الإنجليزية بلكنة أمريكية.

«حسنًا»، يقول. «لم أر هذا من قبل. من هؤلاء»؟

«لا أعلم». أقول.

«إنّهم الأشرار مع ذلك».

«نعم. إن أمكنك مساعدتي...»، أشعر برغبة في البكاء. «أرجوك...».

«حسنًا. لا تقلقي».

يأخذ في التحدّث باللغة الأخرى مجدّدًا وهو يُمسك بقوسه ويأخذ من كنانته سهمًا ويضعه في القوس. يطلق السهم على الرجل ذي البذلة الرمادية، الذي يبدو أنّه يصرف السهم عنه بطريقة ما. لا أفهم كلّ ما حدث بعد هذا. يختبئ الولدان وراء الرجلين؛ ثم يبدو شيء ما آتيًا تجاه أبوللو سيمنثوس ـ شيء ما ككرة من ضوء أصفر ـ لكن أبوللو سيمنثوس يرفع ذراعه بهدوء ويعكسها تجاه الرجل ذي البذلة السوداء، الذي يسقط الآن على الأرض ويُمسك برأسه مثلما فعلت من قبل. ينظر إليه الولدان، ثم ينظر كلّ منهما للآخر، ويستديران ويركضان هربًا حتّى نهاية الشارع. يضع أبوللو سيمنثوس الآن سهمًا آخر ويطلقه مجدّدًا على الرجل ذي البذلة الرمادية، فينغرس السهم في رقبته، لكن لا ينبثق دم، بل يتخبّط الرجل وهو يرى ما حدث له، ثم يمسك السهم بكلتا يديه وينزعه، كاشفًا فجوة بألسنة من الجلد، كأنّها صورة إباحية مقزّزة على الإنترنت.

أرى حنجرته تتحرّك حين يبدأ في التحدّث.

«يا ابن الزانية»، يقول بسوقية. «لماذا تدافع عنها»؟

«أوه، لأنّها طلبت منّي ذلك»، يقول أبوللو سيمنثوس.

«ماذا بحقّ المسيح فعلته لتستحقّ مساعدة إله»؟

«لقد فعلته على الطراز القديم. ساعدت فأرة». يقول أبوللو سيمنثوس وهو يمسك بقوسه ثانيةً. «والآن، كما يقولون في إلينوي: اذهب إلى الجحيم، يا وجه الزاني».

إلينوي، إله؟ لا بدّ أنّه حلم. لم يقابل السيد واي شيئًا كهذا، لا بدّ أنّه تأثير التليفزيون والسينما وألعاب الفيديو ـ التي كنت ألعبها كثيرًا ـ على ذهني الضعيف. هذا جنون بحقّ. لكن، لأكون صادقة، أستمتع جدًّا الآن بينما يطلق أبوللو سيمنثوس سهامه على الرجلين الأشقرين كما لو كانا هدفين مسطحين وضعا له على مرمى ليتدرّب. لم يموتا بعد لكنّهما سقطا. ماذا يجب أن تفعل لتقضي على أحد هنا؟ الآن يسير أبوللو سيمنثوس نحوهما، ويسحب حبلًا من تحت عباءته، ويربطهما معًا بإحكام، ثم يعود إليّ، متمتمًا بشيء. وبينما يتمتم بهذه اللغة الغريبة، يتشكّل قفص حول الرجلين: كقفص العصافير الذي يشبه الجرس ومصنوع من سلك فضي، فور أن يعود ويقف بجواري ويستدير، يكتمل سجن الرجلين ويغيبا عن وعيهما، كأنّهما من الحواديت.

«ها هما». يقول.

«شكرًا لك». أقول. «شكرًا جزيلًا لك. أنا...»، أنظر عبر الشارع. لا أثر للطفل ذي الرداء الأزرق ولا للآخر صاحب زي راعي البقر.

«ماذا عن هذين الولدين»؟

«لا تقلقي بشأنهما. أترغبين بكوب قهوة»؟ يقول أبوللو سيمنثوس. «بإمكاننا أن نذهب لمسكني وسأشرح لكِ. آسف لوقاحتي. بإمكاني أن أحضر مسكني لهنا. بالطبع. لكن ربّما لك أن تحضري مسكنك»؟

لا أدري عمّا يتحدّث، فأكتفي بأن أومئ برأسي وأقول. «مسكنك».

يأخذ أبوللو سيمنثوس في التمتمة مرّة أخرى، فتنفتح بين محلّ الموسيقى على الجانب الآخر من الطريق وما يبدو أنّه قاعة بلياردو (لم أنتبه لها من قبل) قنطرة مقوسة. تبدو كنسخة حيّة للكبار من جحر الفأر الذي يظهر في مغامرات (توم وجيري). لست متأكّدة أنّ بوسعي تحمّل المزيد من هذا. إن كان كلّ هذا يجري في مخيّلتي، فأنا مشوّهة لحدٍّ أبعد بكثير ممّا ظننت، وقد أكون في حاجة لعلاج.

«من هنا».

نلج الفتحة المقوّسة إلى ما يمكن وصفه بأنّه مزيج من جحر فأر مع مسكن فقير بمنهاتن. المكان أبيض، وقد يكون مضيئًا وهادئًا إن وُجد هنا شيء مثل النهار، وإن لم تكن بطاطين بنية خشنة معلقة على النوافذ في الجدار الخلفي. فيه أرفف من خشب الصنوبر معلّقة على كلّ الجدران، لكنّها جميعًا خالية. لا شيء على أيّ منضدة. وتبدو الأرضية كأنّها مغطّاة بألواحٍ من خشب مزخرف مصقول وداكن لكن يصعب تمييزه تحت كلّ هذه النشارة. في ركن من الحجرة يوجد فراش: زغب أبيض وفير ملفوف على شكل كرة. يقودني أبوللو سيمنثوس عبر هذه الحجرة إلى أخرى، تبدو الأخرى كبهو من القرن الثامن عشر: بمدفأة تشتعل فيها النيران وكرسيين هزازين.

«تفضّلي اجلسي»، يقول. «سأعدّ القهوة».

أتوقّع أن أراه يُمسك بإبريق ماء من الطراز القديم ويضعه على النار لكنّه لا يقوم بشيء على الإطلاق. مع ذلك، حين أنظر للطاولة أجد عليها كوب قهوة سادة يتصاعد منه البخار على طبق خوص صغير.

«إذن»، يقول. «لستِ إلهة».

«لا أظنّ هذا»، أقول وأنا بودّي أن أبتسم، لكنّي ما زلت أرتعش وما زلت مذعورة من صراعي مع الرجلين.. والطفلين المدمرين. «هذان الرجلان...»، أقول. «لم يموتا أليس كذلك»؟

«لا. ليس بإمكانك القضاء على الأشياء هنا».

«إلى متى سيظلّان في القفص»؟

يتأرجح أبوللو سيمنثوس بكرسيّه. «طالما بقيت لديّ طاقة على إبقائهما هناك، وطالما رغبت في إبقائهما كذلك. ماذا فعلا لكِ؟ لماذا كنت تتعاركين»؟

«قالا إنّهما سيدخلان ذهني ويدمّرانه»، أقول. «أو أظنّ أنّهما كانا سيرسلان هذين الولدين».

«أوه يا عزيزتي».

«نعم. أظنّ... أظنّ أنّك أنقذت حياتي».

«ليس بإمكانهما فعل شيء لكِ هنا حقًّا»، يقول أبوللو سيمنثوس. «لكنّي أظنّ أنّهما كانا في طريقهما إلى...»، ثم يقول كلمة ما بتلك اللغة الغريبة ثانيةً.

«إلى ماذا»؟

«ماذا تسمّونه؟ بالطبع ليس لدى أصدقائي من إلينوي كلمة لوصف هذا. إلى بوّابة وعيك. ألديك كلمة لوصف هذا»؟

أهزّ رأسي. «لا. هذا شيء جديد تمامًا عليّ. ما زلت أشكّ أنّي أحلم».

«حسنًا، أنت تعرفين ما أقصده».

«نعم. هذا ما كنت أحاول الدفاع عنه على ما أظنّ. الأمر كلّه مُربِك جدًّا».

«كيف وصلتم جميعًا إلى هنا إذن»؟ يقول. «ليس من المفترض أن تكونوا هنا».

«عفوًا»؟

«لستِ إلهة. ولستِ كائنًا ماديًّا. كيف وصلتِ إلى هنا»؟

«قرأت كتابًا كان به وصفة... هذا ما كان الرجلان يريدانه بالمناسبة. الكتاب».

لا بد أن يكون الجوُّ دافئًا بالداخل هنا مع وجود النار، لكنّي لا أشعر بشيء يزيد على درجة حرارة الجسم العادية أو يقلّ عنه. أمسك كوب القهوة وأحسّ بسخونة الكوب من الخارج بالفعل، لكن بطريقة ما لا تنتقل الحرارة ليدي. آخذ رشفة. ألذّ قهوة تذوّقتها في حياتي، لكن ما إن أبتلعها لا تذهب لأيّ مكان حقًّا. لا أشعر بشيء على الإطلاق في معدتي.

يقطب أبوللو سيمنثوس حاجبيه. «لماذا يريدان هذا الكتاب»؟

آخذ رشفة أخرى من القهوة. «لا أعرف، أقصد أنّه من الواضح بالطبع أنّ لديهما علمًا بكيفية الوصول لهنا، لذلك لا يمكن أن تكون الوصفة هي ما يريدانه. غير معقول».

«لا يريدانك أنتِ أن تأتي إلى هنا. يريدان منع الآخرين من المجيء لهنا. مم.. ظنّي هذا. ليست فكرة سيئة. إذ ليس من الجيّد أن يأتي أحدٌ إلى هنا. في الحقيقة أنت أول من أراه هنا، لكنّك لست أول من أسمع عنه. أوافق بالطبع على مجيئك ومساعدتك للفئران. لهذا فزت بأيّ كان ما فزت به ومكّنك من استدعائي لمساعدتك».

«كانت بطاقة عمل».

«أوه»، يقول مبتسمًا. «أمر راقٍ جدًّا».

«لديّ سؤال: لماذا لا يجب أن يأتي أحد لهنا»؟

«هذا البُعد... أظنّ أنّ هذه هي الكلمة الصحيحة... ليس شيئًا بإمكانك استيعابه أبدًا. قولي لي ماذا ترين أمامك الآن»؟

«ممم. طاولة وكرسي تجلس أنت عليه. نار. و...».

«ما من شيء من هذا هنا»، يقول. «غيري أنا. وأنا لا أرى أي شيء ممّا ترينه».

«ماذا ترى»؟

«لا شيء يمكنك وصفه بكلماتك، و... من باب الفضول، ماذا أكون»؟

«أنت...»، ما هي أفضل طريقة لصياغة هذا؟ «شخص في هيئة فأر»!

يضحك. «شخص في هيئة فأر... هل لديّ فراء»؟

«نعم».

«ما لونه»؟

«رمادي».

«هل معي القوس والسهام».

«نعم».

«هل أرتدي شيئًا»؟

«نعم. عباءة حمراء».

«عباءة حمراء»؟ يضحك. «من أين أتي هذا؟ لا أرتدي هذا في أي صورة لي».

«أيّ صور»؟

«أعتقد أنّك تعلمين من أكون، أليس كذلك؟ هل بحثتِ عنّي»؟

«نعم. أنت أبوللو سيمنثوس، إله الفئران».

«هل كانت هناك صور لي»؟

«نعم، عملة ما... لم تكن واضحة».

«أنا بالطبع لست فأرًا، ليس في العادة».

«أوه. آسفة...». لسبب ما يبدو أن عليّ أن أعتذر؛ عمّا بدا لي.

«أنا تجسّد للإله الإغريقي أبوللو[1]. أو على الأقلّ كنت كذلك. وصرت أتطوّر منذ هذا الحين. أو... ماذا يقول الأولاد؟ يتمّ تحديثي».

---

(1) حسبما يعتقد الإغريق أبوللو هو إله الشمس والرماية (ليس الحرب) والموسيقى والرسم والشعر والنبوءة، وفي إلياذة هوميروس كان إله الشفاء الديني ويملك جمال ورجولة خالدة وقوس وسهام وعلى رأسه تاج غار.

أضع قهوتي. الشعور برشف شيءٍ غير موجود أمر عجيب حقًّا، كالشره المرضِي. لا يمكن أن هذا يحدث حقًّا. الأمر كلّه في منتهى الغرابة.

«أنا ضِعت تمامًا»، أقول. «هل تقول إنّك شيء ما غير الذي أراه أمامي»؟

«أوه. نعم، كهذا المكان بأكمله. إنّه مختلف بالنسبة للكلّ. حسنًا، بالنسبة لكلّ إنسان. لا بدّ أن تعلمي هذا».

«أخشى أنّني لا أعلم شيئًا».

«لماذا جئت لهنا إذن»؟

«الكتاب...».

يهزّ رأسه. «بماذا وعدك؟ المال؟ القوّة»؟

«لا». أهزّ رأسي. «لا أعلم حقًّا لماذا جئت هنا. لم يعدني بشيء حقًّا، ما خلا المعرفة، أردت فقط أن أعرف إن كان المكان حقيقيًّا».

«والآن تعرفين. فهل ستعودين»؟

«لأكون صادقة معك، لا أعرف ماذا سأفعل. أظنّ أنّني سأبحث عن طريقة للهرب من هذين الرجلين. وإن اضطرني هذا لاستخدام هذا المكان، فحينها...».

«تأكّدي أنّهما سيستخدمانه للعثور عليك. وسيستخدمان...».

تلك اللغة الغريبة ثانيةً.

«عفوًا»؟ أقول.

«الولدان اللذان رأيتهما معهما. سيستخدمانهما كَ.. ليس لديّ الكلمة بلغتك، تأتيني كلمات مثل مسافر بالاستيقاف، وحدب، وعدوى. الطفلان ليسا تجسّدًا لكائنات من عالمك. إنّهما كائنات لا توجد سوى في هذا العالم، أنا أيضًا كذلك».

«أي أنّهما إلهان»؟

«لا. إنّهما شيء آخر». يقول مبتسمًا وشارباه يتراقصان. «ظنّي أنّهما ملحقان-مثل المسافر بالاستيقاف، أو الحدبة أو الفيروس-بهذين الرجلين. لن يدخلا ذهنك وحدهما. سيكونان دائمًا حيث يذهب الرجلان».

«هل أنت متأكّد»؟

«تمام اليقين. بإمكاني أن أمدّك بالمزيد من المعلومات حين تعودين، إن شئتِ».

«لن أواجه متاعب إذن، إن عدت مرّة أخرى»؟

يبتسم أبوللو سيمنثوس. «متاعب مِن مَن»؟

«أنت. آلهة أخرى. لا أعرف».

يأخذ في الضحك. «أوه يا عزيزتي. هذا مضحك».

«لماذا؟ لا أفهم».

«نحن ليس لنا أن نمنعك من فعل شيء، هذا عالمك، وليس عالمنا. نحن جزء منه لكنّ البشر هم من أقاموه. كلّ ما أقوله إنّنا نقوم بعملنا هنا بشكل أفضل، وأنّ الأفضل لكِ أن تبقَي في عالمكِ المادّي. لكن هذه مجرّد نصيحة. بإمكانك تجاهلها».

«وإن تجاهلتها، هل سيصيبني سوء»؟

«لا أظنّ. من المحتمل أنّك ستكونين في حاجة لاستخدام هذا الفضاء بطبيعة الحال لهزيمة عدوّك. لكن سيكون عليك الإجابة عن سؤال مهم».

«ما هو»؟

«حسنًا. إن كانا هما من الأشرار، فهل أنت من الطيّبين؟ وإن كنت كذلك، فماذا يُمثّل الطيّبون؟ كذلك إن كنتِ على استعداد للعراك معهما فيجب أن تعرفي لماذا».

«لا أظنّ أنّ لي الخيار. فإن لم أفعل سيقتلانني».

يشيح أبوللو سيمنثوس بنظره عنّي للحظة كأنّه يفكّر هل يخبرني بشيء أم لا. يرشف من كوبه ثم يضعه على الطاولة.

«حسنًا، اعلمي أنّ بإمكانك طلب مساعدتي طالما بقيت معك البطاقة. وطالما لديّ الطاقة».

«إلى متى ستظلّ معي البطاقة»؟

«من يعلم؟ قد تكون عدّة أيّام، بزمنك. وقد يكون أقلّ».

«صحيح. شكرًا... وماذا تعني بشأن طاقتك»؟

«إن تذكروني، فسأبقى. وإن لم يتذكّروني، فسآوي للنوم. ليس مواتًا بالتحديد، لكن لن يكون بإمكاني فعل شيء ذي أثر».

«من؟ الفئران»؟

«ها. لا. ليس للفئران آلهة. ليسوا في حاجة لها. لا. أنا أتحدّث عن الأولاد في إلينوي. إنّهم هم من يبقون على طاقتي. رابطة صغيرة ألفوها بينهم. مجموعة صغيرة... طائفة دينية، هذا ما تطلقونه عليها، على ما أظنّ. طائفة أبوللو سيمنثوس. لديهم موقع إلكتروني». يتثاءب. «أنا في الحقيقة مرهق قليلًا الآن. سأخبرك عنهم المرّة القادمة».

«حسنًا. معذرة. سأذهب الآن». أنهض واقفة ويستمرّ الكرسي في الاهتزاز قليلًا بعد وقوفي كأنّه يتذكّر جلوسي عليه. «أعلم أنّ هذا سؤال سمج...».

«اسألي».

«حسنًا، هل لديك تقدير تقريبي إلى متى يمكنك الإبقاء على هذين الرجلين هنا؟ ظنّي أنّهما إن بقيا هنا فلن يمكنهما مطاردتي في العالم الحقيقي... أليس كذلك»؟

«بلى. هو كذلك. حسنًا، إن ذهبت أنتِ الآن، وركزت أنا طاقتي كلّها على الأمر، سيمكنني بالتأكيد الإبقاء عليهما هنا لمدّة...»، يضيّق عينيه. «تلك عملية حسابية أكثر تعقيدًا ممّا تظنين... مم. حوالي ثلاث ساعات أو أربعٍ أخرى بزمنك».

«ماذا تعني «بزمني»؟

«سأشرح لكِ حين تعودين، أنا الآن في حاجة لبعض الراحة. فلست

الإله الأقوى هنا، حين لا يوجد سوى ستّة أشخاص فقط يذكرونك... حسنًا».

«شكرًا لك مرّة أخرى»، أقول. «لقد أنقذت حياتي فعلًا».

عودة لخارج التروبوسفير ثانيةً، بدأت تمطر. هذا غريب. لم يكن ثمّة طقس من قبل. زخّات المطر تقرع الأسفلت كالطبل، ثم ضجّة من خرير تدفّقه في المزاريب. ما زال الرجلان غائبين عن الوعي في قفصهما، لكنّي احتفظ بمسافة بيني وبينهما وأنا أسير، يجب أن أهرب منهما، لقد رأيت ما يمكنهما فعله بي، وإن تمكّنا من دخول ذهني بهذين الولدين البشعين، سيكون هذا نهاية كلّ شيء. ستكون نهايتي.

يبدو عبور النفق هذه المرّة كأنّه يستغرق أزمنة، كما لو كانت ريح تدفعني في الاتجاه المعاكس، ماذا سيرى الرجلان إن دخلا ذهني؟ الأرجح أنّهما لن يمرّا بهذا النفق: هذا طريقي الخاصّ من التروبوسفير وإليه. أتساءل إن كان لي محلٌّ صغير فما الذي قد يكون في واجهته؟ هل يعود تحديد هذا لي أنا أم لهما؟ وماذا يريان هما في التروبوسفير؟ حسبما قاله أبوللو سيمنثوس، لم يريا ما رأيته... كان واضحًا حقًّا أنّهما لم يريا حامل الجرائد وقضيب الصلب، لكنّ هذين الولدين: كانا يريان ما أراه. أبوللو سيمنثوس على حقٍّ: الأمر يصعب استيعابه. لكنّه بالتأكيد ليس مستحيلًا؟

أمرّ بالخطوط المتموّجة ونقوش الضوء. صرت في المنزل تقريبًا. تقريبًا...

أوه. اللعنة. أعود للكنبة وأشعر بكلّ شيء على نحو مختلف، لا أعرف ماذا جرى لي، فمي جاف جدًا لحدّ لا يمكنني معه التحدث، إن أردت. خراء. أجلس، أشعر كأنّني مصابة بأسوأ أنفلونزا أصابتني في حياتي. ماء. أريد كميات من الماء. أنهض، وأتدبر بطريقة ما أن أصل للحوض، أشرب ثلاثة أكواب ماء ثم أتقيأها على الفور، أعلم أنّي في حاجة لسوائل، فأجبر نفسي على شرب كوب آخر، ببطء هذه المرّة. يا إلهي. ماذا حدث لي؟

ظننت أنّ التروبوسفير شيء «كعالم الأحلام» لا يصيبك فيه أذى. عيناي تحرقانني. الضوء القادم من النافذة كشعاع ليزر قوي، أعبر للجانب الآخر من الحجرة وأسدل الستائر. يغطّي كلّ الأسطح بالخارج جليد أبيض زاهٍ تنعكس عليه أشعة الشمس بتوهّج. لحظة. لماذا الوقت نهار؟ لماذا ثمّة شمس؟ لم يكن ليلًا في التروبوسفير فحسب، (إذ إنّ الليل هناك ممتدّ طيلة الوقت على كلّ حال)؛ بل كان ليلًا حين غادرت ذهن وولف أيضًا، ولم يكن هذا منذ وقت طويل هكذا.

ألقي نظرة على الساعة. الثانية، بعد الظهر بالتأكيد لو أنّ الوقت نهارًا.

لكنّي تناولت السائل في الخامسة بعد الظهر.

أرطب فمي الجاف بلساني. أشعر بدوّار. أعلم هذا الدوار: لأنّني لم أدخّن لساعات طويلة. يا مسيح. هل بقيت ملقاة على الكنبة طيلة إحدى وعشرين ساعة؟ لا غرابة أنّي مريضة. أهذا هو الجفاف؟ أم جزء من نفس الجنون الذي يخيّل لي أنّي أتنقّل عبر ذهن الآخرين؟ نفس الجنون الذي يُخيّل لي أنّ رجلين يطاردانني بمسدساتهما؟

الأمر أنّني... لا أشعر أنّني مجنونة البتة.

آدم. يجب أن أعثر على آدم وأعرف ماذا حدث بالأمس - إن كان شيء قد حدث بالأمس - (أو متى كان هذا، من يعلم في أيّ يوم نحن... كلّ ما أعلمه أن بإمكاني العودة للوراء في الزمن). وقد أقسمت الآن على نفسي: إن كان الرجلان حقيقيين، فسأرحل بسيارتي لمكان بعيد حيث لا يمكنهما العثور عليّ، وإن لم يكونا كذلك، سأتوجّه مباشرة للمركز الطبي بالجامعة وأرى إن كان بإمكاني إيداع نفسي في أحد الأقسام هناك. ظنّي أنّني في كلتا الحالتين سأحتاج لأخذ بعض الأشياء معي، هكذا، آخذ *نهاية السيد واي* من على رفّ الموقد وأذهب لحجرة النوم وأضعها في حقيبة قماشية قديمة ثم أغطّيها بالملابس. ماذا أحتاج أيضًا؟ حاسوبي المحمول. سكينًا كبيرة، فقط تحسّبًا. بالطبع أحتاج لما تبقي من الماء المقدّس وزجاجة الكربون النباتي

لأعدّ المزيد من المزيج. ليس لديّ طعام يمكن حمله، سأفكّر بهذا لاحقًا. أحزم حقيبتي وأستحمّ سريعًا وأغادر الشقّة. يوجد ظرف أسفل الباب عليه اسمي، لا بدّ أنّ أحدًا ما دفعه من فتحة الباب وأنا فاقدة الوعي على الكنبة. إنّه من آدم. «عاجل»، مكتوب. «لا بدّ أن أتحدّث معكِ». حسنًا. يوجد رقم تليفون أرضي، لكنّي أرتاب الآن في كلّ شيء ولا أريد أن أستخدم التليفون للاتصال. سأذهب للمكتب فقط وأرجو أن أجده هناك.

سيارتي، مثل كلّ شيء آخر، يكسوها الجليد. ما زالت رقائق كبيرة من الثلج الأبيض تسقط من السماء، وللشارع هذا الصوت السرّي الكتوم الذي يصدره الثلج. كأنّ العالم كلّه يتحدّث من باطنه. توجد ورقة كرتون قديمة على سلة مهملات بجوار سيارتي، أستخدمها لأنزح أغلب الثلج الناعم عن الزجاج الأمامي. الثلج أسفل السيارة هو المشكلة الكبرى. ليست لديّ مكشطة وقطعة الكرتون صارت مهترئة ومبللة. في النهاية أدير السخّان بأعلى طاقته وأدع موتور السيارة دائرًا لدقائق قليلة حتّى يبدأ الثلج في الذوبان. أنطلق وما زلت لا أرى أمامي جيّدًا، لكن يجبّ أن أذهب، يجب أن أكتشف هل جُننت، أم أنّني في خطر محدّق، ليت لديّ خيار ثالث، لكن يبدو أنّه ما من خيار ثالث حقًا.

يقسم الحرم الجامعي طريق رئيس يفصل من دون قصد (أو هكذا أفترض دائمًا) بين مباني الآداب ومعامل العلوم. في العادة يكون خاليًا في هذا الوقت من اليوم: شريط أسود أسفلتي تتدحرج عليه سيارات أو درّاجات غريبة، المغادرين مبكرًا ربّما، أو حتّى الذاهبون من كلية شيلي في أدنى شرق الحرم إلى كلية هاردي في غربه. اليوم الطريق ليس أسود: بل مزيج من ثلج أبيض ووحل رمادي قديم، ومسدود تمامًا بسيارات ملطخة بالجليد ومسّاحاتها جميعا في وضع التشغيل، وليس في الحرم كلّه سوى مجموعات قليلة من الطلبة يبدو أنّهم يصنعون رجال ثلج. ماذا يحدث؟ أين يذهب الجميع؟ ماذا عن المحاضرات والندوات؟ لن أبقى في زحمة المرور طيلة اليوم أحدّق في نقاط بيضاء سمينة تبدو - وتلك إشارة على جنوني - كأنّها تتحرّك بهوس؛ كأنّها جاءت لتستولي على العالم. ليس اليوم، دعوني فقط أصل لآدم.

بينما أهمس لنفسي بهذا، وأكرّر كلمة «رجاءً». أتساءل فجأة: لمن تراني أتوسّل؟ من الذي أدعوه؟ كنت أظنّ أنّني بخير، لكن أجدني فجأة عاجزة عن التنفّس. هيا، هيا، أضرب عجلة القيادة عدّة مرات وأمرر يدي في شعري الرطب من العرق برغم أنّ البرد بالخارج برد مجمّد. المرور في هذا الجانب من الطريق أسوأ كثيرًا منه في الجانب الآخر، حقًّا إذ لم تمرّ فيه سيارة أخرى بعد مرور حافلة بيضاء من حافلات الجامعة. يبعد المنعطف الذي يجب أن آخذه لمبنى راسل حوالي خمسين ياردة للأمام إلى اليمين. اللعنة. أصنع جلبة وأضبط وضع السيارة لحالة الانطلاق وأنعطف وأمر بالصف الطويل لسيارات المنتظرين. يحدقّون بي. فيما اقترب من المنعطف، يبدأ المرور في الجانب الآخر في السير. حسنًا سيكون عليهم أن ينتظروا، غير أنّهم لا ينتظرون، مع أنّني أشغل إشارات اليمين، وما أحاول فعله واضح جدًّا، السيارة الأولى لا تنتظرني، تتّجه نحوي ببساطة، يشير السائق بيده وينير مصابيحه اليمنى، كأنّ هذا أغرب شيءٍ يراه في حياته. بربِّك. لا أستطيع التقدّم للأمام الآن وهذه السيارة تسدّ على الطريق. إلى يميني يوجد مثلث من النجيل يقف عليه رجل ثلج بلا ملامح. لا يوجد طلبة في الجوار. أنحرف يمينًا وأقود على النجيل، أخبط جانب رجل الثلج فيتهاوى على الأرض مفتتًا. أتخيّل حنق سائق السيارة الأخرى ورأيه في هذه المناورة، لكنّي لا ألتفت لأراه، ظنّي أنّ الأمر يعتبر حالة طوارئ على كلّ حال. صرت الآن في طريقي لساحة وقوف السيارات، طريقي خالٍ برغم وجود صف طويل من السيارات تحاول المرور في الجانب الآخر. أتعرّف على عدّة أشخاص. هناك ليزا وماري. لا ترياني. أوه، وهناك ماكس. أبطئ بينما تمرّ سيارتي بجانب سيارته، وأنزل زجاج سيارتي، ويفعل هو مثلما أفعل.

«ماذا يجرى»؟ أسأله.

«الجامعة مغلقة بعد الظهر،» يقول. «تلقينا رسالة إلكترونية تخبرنا أنّه من الأفضل لنا أن نغادر. هل أنت في طريقك للداخل»؟

«نعم».

«حسنًا، لو كنت مكانك لعدت، الأمر سيزداد سوءًا».

أركن السيارة بشكل عشوائي لعجزي عن تمييز الخطوط البيضاء التي تفصل حارات الانتظار. لم أبالِ على الإطلاق بما سيظنّه أيّ شخص يرى وضع مقدّمة سيارتي بالنسبة للمبنى المجاور والخمس سيارات الأخرى التي ما زالت هنا. من ذا الذي يهتمّ بخراء الدقّة في وضع سيارتك في صندوق أبيض مرسوم على الأرض أساسًا؟ أظنّ أنّ ساحات وقوف السيارات يمكن اعتبارها كدلالات على الصحّة العقلية الجماعية. أنا سليم عقليًّا: أنا داخل الخطّ. أنا أيضًا، وأنا أيضًا! لكنّي أنا لست داخل الخطّ بعد الآن. أنزلق على الجليد بينما أركض لمبنى الأدب الإنجليزي على أمل ألّا يكون آدم قد غادر بعد.

باب مكتبي مفتوح، لكن لا أحد بالداخل. أغلق الباب ورائي، حاسوب هيثر مفتوح، أرى الأرقام المتتالية لنموذج لوكا الخاصّ بها تنهمر بوهنٍ. لا أدرك مدى توتّري العصبي إلّا حين ينفتح الباب مرّة أخرى فأقفز ويصدر عنّي صوت كالعواء قليلًا.

«آريل»؟ إنّها هيثر تُمسك كوب قهوة.

«آسفة»، أقول. «واو. لست معتادة على وجود آخرين هنا. ممم...»، يجب أن أقول شيئًا ما عاديًا. «شكرًا على العشاء تلك الليلة بالمناسبة. كان رائعًا».

«أوه، شكرًا»، تقول، لكنّ عينيها تقولان شيئًا ما آخر. «هل أنتِ بخير»؟

«نعم، بالطبع».

«هل وجدك الـ.. ارر. الرجلان»؟

«أيّ رجلين»؟

«الشرطيّان الأمريكيّان».

شرطيّان؟ هل للرجلين صفة رسمية؟

«عفوًا»؟ أقول بوجهٍ جامد.

«كانا هنا بالأمس يبحثان عنك. وللحقّ كانا غامضين جدًّا بشأن هُويّتهما...أنا فقط أفترض أنّهما شرطيان لأنّ تصرُّفاتهما توحي بذلك، ظننت أنّ آدم قد أخبرك. أرادا أيضًا أن يصادرا حاسوبك، ويحصلا على كلّ ملفّاتك من شئون العاملين. لكنّ (إيفون) لم تقبل فانتهيا إلى أنّهما سيرسلان فاكسَ إلى العميد من مكتبهما بأمريكا. واضح أنّهما كانا يحقّقان من قبل بشأن شخص آخر من القسم نفسه قالا إنّهما لم يعثرا عليه قطّ لكنّهما كانا ليعثرا عليه لو كانت الجامعة قد سلّمتهما بياناته بأسرع من ذلك. على كلّ حال، لم يصل الفاكس بالأمس وغادرا في نهاية الأمر وقالا إنّهما سيعودان اليوم. لم يكونا لطيفين على الإطلاق. آريل، ماذا حدث بحقّ الأرض»؟

«لا أدري»، أقول. «أنا... لم أر آدم، ليس لديّ أدنى فكرة، أتعرفين أين هو الآن»؟

«لا. لكنّه ترك لكِ رسالة».

«هل قرأها أحد»؟

«لا. أخبَرني أن أخبّئها، فخبّأتها. لكنّي لست مرتاحة لكلّ هذا. وترك رقم تليفونه أيضًا».

تعبث في محتويات مكتبها إلى أن تجد ورقة صغيرة بها رقم يبدأ بـ 07792. أمر غريب.. لم أتخيّل أنّ لدي آدم هاتفًا محمولًا. لن أتصل بالرقم على كلّ حال: من يعلم من بإمكانه التنصّت، إن كان لهذين الرجلين صفة رسمّية فقد انتهى أمري بشكل أكثر يقينًا ممّا ظننت. بالتأكيد لن أتّصل بأحد، ولن أستخدم ماكينة سحب نقود (طبعًا... فليس لديّ حساب في البنك لأسحب منه)، لكنّني رأيت ما يكفي من الأفلام البوليسية لأعرف هذا، المشكلة الوحيدة أنّني عند مشاهدة الأفلام البوليسية، غالبًا ما أشعر كمشاهِدة بالإثارة والخوف من أقلّ كشف، وهكذا تفكّر أنّه قد يموت البطل، وقد «لا يموت!»، لكنّك لا تهتمّ حقًّا، فهي مجرّد قصة... وأنت

تعلم أنّ بطل القصة بطبيعة الحال لا يموت. لكنّي أدرك أنّني لست في قصة، وأنّه إن أراد أن يطلق عليّ النار في الواقع، أو أن يدخل ذهني، أو أيًّا كان ما يحلو له، فلن يتوفّر كاتب سيناريو ليعيد لي الأمور لنصابها الصحيح في الفصل الثالث. سأموت في الفصل الثاني، ولن يعود أرسطو ويحتجّ على أنّ هذا كلّه خطأ.

وممّا يبدو أنّني لم أفقد صوابي. وأنّ ما يحدث ليس مؤكّدًا فحسب: بل لقد حدث لبيرلوم أيضًا. بالتأكيد هو «الشخص الآخر من القسم نفسه» الذي حقّق الرجلان بشأنه. فهو آخر شخص امتلك الكتاب. لهذا لن أذهب للمركز الطبي بالتأكيد. سأذهب لأرى إن كان بإمكاني العثور على آدم والتحدّث معه، ثم محاولة العثور على سول بيرلوم، سأعثر عليه لأرى ماذا يعرف عمّا يجري... بعدها سأعرف ماذا أفعل. أفكّر أنّه لا بدّ حظي بمخبأ ممتاز إن لم يكونا قد عثرا عليه حتّى الآن، لكنّه فقد الكتاب، الكتاب معي أنا.

«هل وجدتِ الرسالة»؟ أقول لهيثر وأنا أحاول مواراة الرعشة في صوتي.

«نعم، على ما أظنّ. إنّها هنا في مكان ما».

في النهاية تناولني مظروفًا أزرق صغيرًا.

«شكرًا».

«آريل...».

«ماذا»؟

«أتظنين أنّهما سيعودان مجدّدًا؟ لقد أرعباني حقًّا».

«لا أعرف».

«أقصد، أنّنا حقًّا لسنا سوى ضيوف عليكِ في المكتب هنا، وما تفعلينه هو شأنك الخاصّ، وليس بودّي أن أتدخل، لكن...».

«ماذا؟»

«حسنًا، ليس أمرًا لطيفًا جدًّا ظهور الشرطة في حياتك، إن كنت تواجهين متاعب، أفلا تظنين أنّ عليك حلَّها»؟

اذهبي للجحيم هيثر.

ما أقوله بالفعل هو: «أنا لا أواجه متاعب. وسأذهب لأقيم مع عمّتي في ليدز، لذلك فلن أراك لفترة. أبلغي آدم السلام نيابة عنّي... واستمتعي بالمكتب».

ليتها ترسل زوج المختلّين عقليًّا لليدز، لكنّي لا أعتمد على هذا كثيرًا.

ستة عشر

«عزيزتي آريل..

قضيت معظم الليل أدقّ بابك، ثم الصباح كلّه قلقًا لأنّني قدت هذين الرجلين إلى مسكنك مباشرة. لم تتّصلي بي. آمل أن تكوني بخير.

إن لم يكن أحد آخر قد أخبرك، فلقد قال الرجلان إنّهما من وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية. أعتقد أنّ هذا هراء... لكن من يعلم؟ لقد أرادا عنوانك لكنّي لم أعطهما إيّاه. صارا الآن في أحلامي. لا يعني هذا شيئًا: إذ أعاني من انهيار عصبي منذ عدّة سنوات ممّا يجعلني غريب الأطوار وهشًّا وعُرضة للكوابيس.

لست على ما يرام الآن، لذلك سأذهب للضريح لأحاول الإمساك بزمام نفسي مرّة أخرى. أعتقد أنّ عليك أن تأتي أنتِ الأخرى إن استطعتِ. ليس بإمكاني إخبارك بكلّ شيء الآن لكنّي سأخبرك بكلّ شيء حين أراك.

إن ظننت أنّ هذا كلّه خرف ناتج عن جنون الشكّ، أرجو أن تتجاهليه.

أحيانًا يصيبني جنون الشكّ.

صديقك آدم»

الساعة حوالي الثالثة والنصف وسوف يكون الظلام قد خيّم وقتَ أن أصل لضريح القدّيس جود. ليس لديّ وقت لأتوقّف لقراءة لافتات الإرشادات، فقط أقود متجوّلة في فافيرشام في انتظار حدوث شيء. في

النهاية أرى لافتة صغيرة متكسّرة تقول ضريح القدّيس جود، وها أنا الآن، خارج كنيسة السيدة (ماونت كارميل). أظنّ أنّ الضريح بالداخل. تقديري أنّ عليّ الخروج من هنا خلال نصف ساعة أو ما يقرب؛ لأذهب بعدها لأيّ مكان أستجمع فيه أفكاري. لذا ليس لديّ سعة من الوقت.

أدلف ولا أجد أحدًا في الكنيسة، ربّما أبدو مختلّة عقليًا بحقيبتي القديمة البالية التي تتدلّي على كتفي. المكان رائحته مغبّرة بما يشبه البخور. ألمح قدر الماء المقدّس على يساري، ومع أنّه يذكّرني بكلّ ما فعلته وكلّ ما سار على نحو خاطئ، أغمس أصبعي فيه ثم أمسّ جبيني. أتذكّر وأنا أفعل هذا حين كنت ألعب «حصون وتنانين»[1] ظهيرة الأيّام الممطرة في المدرسة، في إحدى نسخ اللعبة بإمكانك أن تذهب للمدينة وتحصل على ماء مقدّس ليزيدك صحّة ويشفيك من كلّ شيء ما عدا الإصابات الحادّة، وفي نسخ أخرى، بإمكانك استخدامه كسلاح ضدّ الأرواح الشريرة أو الذين لم يلقوا حتفهم. لكن لم يقل أحدٌ قطّ إنّ بإمكانك أن تتجرّعه وتذهب لعالم آخر، أو أنّه في الواقع قد يُعتبر فكرة سيّئة. أمضي للأمام في الكنيسة. مكان صغير بارد ومُهدِّئ، بجدران من خشب البلوط ودكك خشبية طويلة صارمة. ترشدني لافتة إلى أسفل درج حيث الضريح.

ويا لَه من دفءٍ إذ أهبط الدرج. يوجد في الأسفل مئات الشموع المشتعلة: ثمّة عدّة موائد عليها شموع في صفائح صغيرة، ومائدة كاملة مغطّاة بشموع كبيرة في شمعدانات كنسية بلاستيكية زرقاء، على كلّ مائدة صورة... مع أنّني لا أرى الصور. ما إن أصل لأسفل حيث الضريح حتّى أشعر بسخونة بالفعل، فأحلّ الوشاح عن رقبتي. لا أحد هنا بعد. على يميني تمثالٌ محاطٌ بشموع كثيرة أخرى، أحدس أنّه القدّيس جود. الجدار

---

(1) Dungeons& Dragons لعبة قائمة على لعب أدوار في سياق خيالي صمّمها جاري (جيجاكس) و(ديف أرنيسون)، تلعب بورقة كبيرة مرسوم عليها مربّعات وتتحرّك عليها أشكال بلاستيك، أصدرتها للمرّة الأولى عام 1974 شركة قواعد دراسات التكتيكات (TSR) الأمريكية التي أسّسها مصمّمو اللعبة أنفسهم.

من ورائه به جزء فسيفسائي والجزء الآخر من قرميد أسود. والتمثال نفسه مكسوّ بالذهب: رجل بلحية يقف وفي يده صولجانه. ثمّة قضبان تفصلني عنه، فيبدو للحظة كسجينٍ، الأمر من وجهة نظره بالطبع أنّني أنا السجينة. أجول في الغرفة، في أحد أركانها التماسات المصلّين مكتوبة في وريقات صفراء: أرجوك ساعد عمتي التي تتألّم كثيرًا. أيّها القدّيس جود، أرجوك اشفع لابني (ستيفان) الذي في التاسعة عشرة من عمره فقط. لا تدع أخي يموت. أرجوك أعد ابني من الحرب. التوقيعات على الالتماسات من أفراد من (مورشيوس) و(بولندة) و(إسبانياّ) و(البرازيل)... من جميع أنحاء العالم. لافتة تُنبئني أنّ القدّيس جود هو قدّيس الأمور الميئوس منها. يبدو أنّه القدّيس الذي تقصده بعد أن يفشل الآخرون جميعًا. ثم، في الجانب الآخر من الغرفة، تشرح لي مطوية أنّ القدّيس جود قدّيس مثير للجدل، وقد يكون غير موجود حتّى.

لم أصلِّ من قبل قط. لكنّي الآن، بعد أن أوقد شمعة وأضعها على أحد الحوامل المتوهّجة، أعود إلى الضريح وأركع أمامه. أقبع هناك ما زلت لا أدري ماذا أفعل. أفكّر في شيء ما مثل «أوه، أرجوك أيّها القدّيس جود، ساعدني ولا تدع هذين الرجلين يعثران عليّ أبدًا». يبدو هذا سخفًا. شيء ما يخبرني ألّا أدعو لنفسي؛ أن أدعو لشخص آخر، لكن لمن أدعو؟ حتّى آخر رجل نمت معه لا يعنيني أمره في شيء، يهمّني أكثر أن يعود ذلك الابن المجهول المذكور في الوريقة الصفراء الصغيرة. بدلًا من الدعاء لأحد، أظلّ أحدّق في التمثال حتّى تتغبّش حوافّه. «من أنت»؟ أفكّر. «ماذا تفعل بكلّ الطاقة المتجمّعة هنا في هذا المكان»؟ لأنّ ثمّة طاقة هنا: تطقطق حولي بقوّة لا تباريها ملايين من تلك الشموع. ماذا تكون؟ هل أنت أملي؟ أمل ناس آخرين؟ قوّة الصلاة ببساطة؟ أشعر بالقدّيس جود ينظر إليّ، وأفكّر أنّه لو كان هنا حقًّا، لأخبرني أن أتوقّف عن التأمّل وطرح أسئلة لا إجابات لها.

لكنّي لست متأكّدة أنّ بوسعي شيئًا آخر.

في النهاية أدعو أن أصل لمعنى. أن تتضّح حدود الحقيقة. أن يكون ثمّة

عالم ـ ونوع من الوجود ـ يحكمه منطق ما. أن تكون ثمّة حياة أخرى بعد الموت ليست كتلك الحياة. أن ينكشف الغموض. كيف ستكون الحياة إن انكشف كل ما غمُض منها؟ إن خلت من الأسئلة، فلن توجد قصص. إن خلت من القصص، فلن توجد لغة، وإن خلت من اللغة، فلن يوجد... ماذا؟ أفكّر فيما قاله آدم عن وجود الحقيقة وراء اللغة، وحينها أسمع صوت أشخاص يهبطون الدرج: أنثى وذكر. لسببٍ ما أشعر بالحرج من صلاتي راكعة على ركبتي، لا أنهض وأتظاهر بالنظر إلى الشموع. أعلم أن عليّ الرحيل من هنا سريعًا: أنظر لساعتي. الرابعة إلّا الربع. أشعر بإرهاق جمّ مع هذا، كأنّني لم أنم لأيام. والجوّ بالخارج ثلج وظلام.

«نعم، تدبرنا أن نعيد الضريح مرّة أخرى... أخيرًا».

«مدهش. كنت أخشى أن يكون الحريق الأخير نهايته».

أعرف ذلك الصوت، برغم أنّه يبدو مرهقًا، ومنكسرًا تقريبًا.

«لا نهاية أبدًا للقدّيس جود. فلديه الكثير من المريدين المخلصين».

مسكين أبوللو سيمنثوس، أفكّر، طائفته ليس بها سوى ستّة فقط.

«إنه... أوه. آرييل! أنت بخير».

«أهلًا آدم».

«ماريا، هذه آرييل مانتو التي أخبرتك عنها».

يبدو آدم في حالة مريعة. ماذا حدث لوجهه؟ عينه اليمنى متورِّمة ومكدومة مثل فاكهة متعفّنة. ويرتدي الملابس نفسها التي رأيته بها يوم الثلاثاء. في أيّ يوم نحن الآن؟ الخميس. أعتقد أنّه الخميس. معه امرأة في الستين من عمرها تقريبًا، ترتدي تنوّرة بنّية طويلة وبلوزة قرمزية. شعرها رمادي مغطّى أغلبه بإيشارب بُنّي، تفلت منه خُصلات فضّية رفيعة على جانبي وجهها. عيناها البنّيتان تبدوان بطريقة ما أصغر سنًّا من عيني آدم.

تمد لي يدها وتقول بنعومة: «أهلًا آرييل. يسرُّني أنّك وصلت هنا

بالسلامة. أخبرنا آدم عن متاعبك. وقد أعددنا لكِ فراشًا في جناح الضيوف بالدير... فقط تحسُّبًا في حال مررت بنا. بإمكانك أن تستريحي هنا متى شئتِ».

فراش؟ في دير؟ لكن لا يمكنني البقاء هنا. يجب أن أذهب.

«هذا كرم منكم»، أقول، مستخدمة، لسببٍ ما، نبرةَ التأدُّب التي أستخدمها في مخاطبة المدرسين بالمدرسة ورجال المرور وأمثالهم من ممثّلي السلطة. «لكنّي على ما أظن في متاعب رهيبة وليس بودّي أن يصيبكم شيءٌ منها». أنظر لآدم، وأشير بصمت للكدمات في وجهه. «الأمر خرج عن المألوف بالفعل، هما من فعلا بك ذلك أليس كذلك»؟ يومئ آدم برأسه. وأضيف: «هذان الرجلان... لا أفهم ماذا يحدث حقًّا. جئت فقط لأشكر آدم. وآسفة».

«هل ترغبين في بعض الشاي»؟ تقول ماريا، كأنّني لم أقل شيئًا عن إمكانيّة أن يحيق بهم خطرٌ ما بسبب وجودي هنا. «دعونا نذهب لمطبخ الدير».

ينظر آدم إليّ. «ليس بإمكانهما اللحاق بك هنا»، يقول.

أتنهّد. «لا يمكنك التأكّد من هذا». ولست متأكّدة من أيّ شيء. لست متأكّدة من آدم نفسه، ماذا فعل لأثق به؟ هل أثق بأحدٍ في العالم كلّه؟ أفكّر في أمّي وأتذكّر حين حاولت إخبارها أنّني أمزّق جلدي. كنت قد خطّطت لكلّ شيءٍ. كنت سأخبرها عن كيف بدأت نتف حاجبي كما تفعل البنات في المدرسة، وكيف صار الأمر ممتعًا لحدّ أنّي لم أُرد أن أتوقّف. ثم كان هذا المساء في الحمام حين أدركت أنّي سأزيل حاجبَيّ كليهما إن واصلت ذلك ولكنّي لم أكن قد استكفيت من إيلام نفسي بعد، إذ لم يكن ذلك التطهّر كافيًا، فأخذت شفرة حلاقة أبي ونغزتها في قدمي. «ليس الآن آرييل»، قالت وهي تجلس براديو اللاسلكي خاصّتها. «لست مركز الكون أتعلمين هذا»؟ ربّما أثق في بيرلوم، لسبب ما أظن أني أثق به.

تأخذ ماريا في صعود الدرج.

«لماذا لا تُريها الممر السرى»؟ تقول لآدم. «ما من داع للخروج إن كان هناك رجال خطرون في الجوار». ثم تنظر إليّ. «لقد مررنا بما هو أسوأ من ذلك يا عزيزتي».

ما إن يبتعد وقع خطواتها، أنظر لآدم مرّة أخرى. تسقط ظلال مئات الشموع على ملامحه الحادّة ويبدو أنّها تستريح على الملامح الأكثر نعومة منها فتكسر جزءًا من وجهه.

«آسفة جدًّا»، أقول. «يجب أن أرحل حقًّا».

«آريبل...».

«إن أخبرتك بنصف ما حدث، فلن تصدّقني. لكنّ باختصار، بإمكانهما الوصول إليّ في أيّ مكان. يبدو هذا جنونًا!». أتنهّد لعجزي عن شرح الأمر. «القاعدة الأساسية أنّهما إذا تمكّنا من الاقتراب منّي سيكون بإمكانهما الوصول إليّ. الاقتراب منّي كافٍ. أعلم أنّ ما أقوله لا يعقل، حتّى أنا لا أعلم كيف هذا... لكن أعتقد أنّ أملي الوحيد هو أن أبتعد، أن أذهب بعيدًا بأسرع ما في الإمكان».

«أنا متأكّد أنّكِ ستكونين في أمان هنا. على الأقلّ تناولي الشاي. سأشرح لكِ».

«ليس لديّ وقت، قد يلحقا بي هنا في أيّ وقت».

«هل يعلمان أنّكِ هنا»؟

«سيكتشفان ذلك. هيثر ستخبرهما».

«لقد نبهت عليها ألّا تقرأ رسالتي».

«لكنّها قرأتها على الأرجح بطبيعة الحال. ولا يمكنني أن أراهن على هذا».

تعلو نبرة صوتي فيما أتحدّث فتصل لنقطة أدرك عندها أنّي سأبكي،

لكن ليس لي أن أبكي، إن بكيت، فسينتهي الأمر، سيزول كلّ الأدرينالين، وظنّي أنّ الأدرينالين هو كلّ ما تبقّي لي، فليس لديّ مال، ولا حتّى ما يكفي من البنزين في سيّارتي، لكن بإمكاني أن أسرق بنزينًا: فعلت هذا من قبل، ولديّ ما يكفي من مال لأعيش على الرقائق لأيام قليلة، إن غادرت الآن، فربما سيبقي كلّ شيء على ما هو عليه.

آخذ في صعود الدرج.

«آرييل؟ آرييل! أرجوكِ. أنتِ في أمان هنا، ثقي بي».

«أنت لا تعلم».

«أنا أعلم أكثر ممّا تظّنين».

أتردّد.

«لم يلحقا بي إلى داخل كنيسة الجامعة»، يقول. «لا أظنّ أنّ بوسعهما ذلك، ولم أحلم بهما منذ أن جئت هنا. هيا. سأشرح لكِ الأمر بالأسفل».

يأخذ بيدي ويقودني بعيدًا عن القدّيس جود إلى حجرة مكتظة ببضائع إعلانية عنه. لا أعلم لماذا أمتثّل لما يقوله، لكنّي في الحقيقة أشعر بعجزي الشديد عن فعل أيّ شيء آخر الآن. يوجد في هذه الحجرة الكثير من الشموع الزرقاء الكبيرة التي لم توقد بعد، وبطاقات بريدية، وقلادات، وميداليات، وكتيبات صلوات، وقوارير بنية صغيرة بأغطية بيضاء. يمسك آدم يدي بيده البادرة ويقف قبالة أحد الحوامل وبيده الأخرى يأخذ واحدة من القوارير البنية الصغيرة.

«أمسكي»، قد تحتاجين لهذا».

أنظر في المكتوب على ملصقها. زيت مبارك من القديس جود.

«وواحدة من هذه». يناولني الآن قلادة زرقاء صغيرة عليها صورة للقدّيس جود.

«شكرًا». أقول. وبالطبع في العادة كنت لأخبره إني لا أؤمن بتمائم

الحظ وزيوت الأفاعي، لكنّي أتذكّر أن أدوية الطبّ البديل والماء المقدّس تُعد من الفئة نفسها، وأتذكّر إلى أين قاداني. أنا حاليًا في حاجة لأيّ مساعدة تتوفّر لي مهما كانت. أسحب يدي من يد آدم وأضع القلادة حول عنقي. «هل عليّ أن أدفع مقابل هذا»؟ أسأله.

«سأقوم بذلك نيابة عنك في ما بعد. لا تقلقي. ظللت خارج اقتصاديّات الربّ لمدّة طويلة إلى الآن، لكن حتّى أنا أعلم أنّها لا تعتمد على أموالنا. حسنًا. الآن انتظري لحظة... في الواقع، هل يمكنك جلب واحدة من هذه الشموع وإشعالها»؟

ينحني ويمسك بمقبض على الأرض لم أكن رأيته من قبل. باب سرّي. آخذ شمعة كبيرة في حامل أزرق وأوقدها بقداحة سجائر. ألمح يدي ترتعشان، ثم أشعر بساقيّ تخذلاني وترتعشان كأنّ تيارًا كهربائيًا يسري فيهما. لا أشعر أنّي بخير على الإطلاق. رأسي...

أحاول بشكل غريزي أن أستند على كتف آدم. أن أضع رأسي عليه للحظة فقط: أظنّ أنّ هذا سيجعل الأمر أفضل. ثم يفور رأسي بما يشبه فقاقيع هواء.

«آدم»، أقول. لكن، قبل أن يجيبني، يسكن كلّ شيء كأنّني انغمست، برأسي أولًا، في برميل كبير من الطلاء الأسود.

أجدني حين أصحو في فراش صغير مكتنز أُعد بخشونة من كتان أبيض يخشخش وبطانيات بنية. حقيبتي على الأرض بجوار خزانة ملابس. ثمّة طاولة جانبية صغيرة عليها نسخة من الإنجيل، وكرسي خشب، ونافذة إلى يميني، الستائر مسدلة لذلك ليس لديّ أدنى فكرة عن الوقت. ومع ذلك، ثانيةً، ليس من السهل تمييز الوقت في سماء الشتاء. لا فرق في الشتاء بين الخامسة صباحًا والخامسة بعد الظهر.

لا أحد غيري في الغرفة. ماذا حدث؟ هل أُغمي عليّ. أظنّ أنّي لم آكل لعدّة أيّام. يبدو أنّ التروبوسفير يمتصّ حياتك كلّها، كلّ مَن قرأ *نهاية*

السيد واي غيري ماتوا، والسيد واي نفسه مات جوعًا، بإمكاني الآن أن أرى لماذا، غير أنّ هذا كلّه لا يؤثّر على ذلك الجزء من ذهني الذي يلحّ، بعدوانية تقريبًا، عليّ العودة مرّة أخرى إلى هناك الآن.

ما زلت بملابسي التي كنت بها حين جئت هنا: جينز رمادي قديم وسترة سوداء أريد أن أغيرها، لكن ليس لديّ شيء آخر أكثر لياقة، لذلك لن أزعج نفسي بهذا، وبدلًا من تغيير ملابسي أجلس هناك أصفّف شعري، أحاول أن أزيل منه كلّ العُقد، يستغرقني هذا لحوالي ربع ساعة، ثم أنظر للحروق حول معصميّ: إنّها الآن قشور حمراء صغيرة ناعمة، أقاوم الرغبة في نزعها. لا أحد يأتي إلى الغرفة. ما الذي يأتيك في الدير؟ رهبان، على ما أظنّ. لا أتخيّل أن يأتي أيّ من الرهبان إلى هنا. لكنّ ماريا وآدم. أين هما؟ يقرع جرس في مكان ما. واحدة، الثانية، الثالثة، الرابعة، الخامسة، السادسة، السابعة مساءً. أوه. خراء، بالتأكيد خرج الرجلان من قفصهما في التروبوسفير الآن. وهما ليس في ذهني. حتى الآن. أقلّه لا أشعر بهما في مخّي. كيف لي أن أعرف؟ أعقص شعري بالطريقة التي أظنّ أنّ المتدينين يفضلونها، وأغسل وجهي في حوض غسل الأيدي. لا مرايا هنا. هل سأعيش ليوم آخر؟ من يعلم. يجب أن أجد آدم وماريا. أفتح الباب برفق وأخرج لرواق معتم في نهايته ضوء أصفر، ويصل لمسامعي صوت ضحكات نساء وصليل أغطية أواني طبخ. أشمّ رائحة طعام أيضًا: شيء ما ساخن وطيب. لا بدّ أنّه المطبخ الذي كنّا سنتناول فيه الشاي قبل أن يغشى عليّ، إن كان هذا ما حدث لي.

ما زال بقدمي بعض وهن، هل سيُغمى عليّ مجدّدًا؟ لا؛ هيا، بربّك يا آرييل، إنّه مجرّد سير، لكنّي أعتقد أنّي بحاجة لراحة، أستند على الحائط للحظة، ألهث كأنّني كنت أعدو في سباق للمسافات الطويلة وليس مجرّد خمس عشرة خطوة سيرًا على الأقدام، ما خطبي؟ لعلّني سأغمض عينيّ فقط لدقيقة.

«آرييل»؟

بطريقة ما أنا الآن ملقاة على السجّادة وماريا تقف فوقي في يدها فوطة مطبخ بمربّعات زرقاء وبيضاء. ووجهها الصغير ينقبض في تقطيبة.

«أعتقد أنّ عليك العودة للفراش».

«أنا آسفة»، أقول. «لا أعلم ماذا حدث لي».

بإمكان هذين الرجلين أن يأتيا الآن ويفعلا بي ما يحلو لهما. لن يكون بمقدوري مقاومتهما. لعلّ هذا سيكون أفضل: أن أنتهي من كلّ هذا. هل الأفضل أن يقضيا عليّ في الترووبوسفير أم هنا؟ يقول أبوللو سيمنثوس لا موت في الترووبوسفير، لكن لعلّ هناك ما هو أسوأ من الموت، لذلك الأفضل أن أبقى هنا فحسب وأنتظر موتًا نظيفًا. لكنّهما لم يقولا قطّ إنّهما سيقضيان عليّ، بل يريدان فقط أن يصيباني بالجنون ويأخذا الكتاب.

تأخذ ماريا بيدي لأنهض وخلال دقائق قليلة أعود لغرفة النوم.

«لعلّك ترغبين في تغيير تلك الملابس». تقترح ماريا، «وترتدين ملابس للنوم».

«أنا بخير، أعتقد فقط أنّني بحاجة لأرتاح قليلًا». في الحقيقة ليس معي أيّ ملابس نوم. حين لملمت أشيائي لم أكن أفكّر في شيء يمتّ بصلة للاسترخاء مثل الذهاب للنوم، كنت أفكر في الهروب وفقط».

«لن تنامي هكذا». تقول ماريا. «سآتي لكِ بشيء ترتدينه».

بعد ذلك بنصف ساعة تقريبًا أكون في الفراش بجلباب نوم قطني أبيض. أفكّر في العودة للترووبوسفير. أفكّر هل سيُقضى عليّ إن ذهبت لفترة قصيرة بحثًا عن أبوللو سيمنثوس؟ قبل أن آوي للفراش أزيح الستائر وأحدّق في السماء لبرهة قبل أن أسدل الستائر مرّة أخرى. كانت السماء شاشة سوداء والثلج ينهمر منها بالإيقاع نفسه الذي تنهمر به الأرقام في برنامج هيثر للبحث عن لوكا. متى ستعرف أين ذهبت؟ أتراها تخبر الرجلين؟

قبل قرع أجراس الكنيسة للساعة الثامنة أسمع دقّات على الباب.

«تفضّل». أصيح.

ماريا ثانيةً، تحمل روبًا بنيًّا ثقيلًا وواسعًا.

«أتقدرين على العشاء»؟ تسألني.

«نعم»، أقول. «شكرًا لعطفك البالغ».

إن تناولت شيئًا، فسيمكنني بالتأكيد أن أعود للتروبوسفير.

«ليس عليك أن تغيِّري ملابسك، فقط ضعي هذا».

عليّ أن أرتدي ملابسي، لكنِّي لست قادرة على ذلك، أنا على ثقة مع ذلك أنّي سأستعيد قواي بعد الأكل. سأستعيد قواي وأعود للتروبوسفير. أم يجب أن أرحل من هنا أولًا. أتخيّلني أركن السيارة في موقف مجهول وأتمدّد على الكنبة الخلفية، ثم أغيّب نفسي بالمزيج. ماذا سيحدث حينها؟ سأتجمّد حتّى الموت؟ ربّما سأبقي هنا الليلة فقط. هذا الفراش دافئ ونظيف حتّى أنّي لا أودّ الخروج منه الآن. لكن عليّ أن أذهب لآكل.

المطبخ فضاء طويل ضيّق في نهايته حوض غسيل بورسلين كبير، دواليبه بطول الجدار على الجانب الأيمن، وفي المنتصف طاولة من خشب الصنوبر، وعلى اليسار مدفأة قد تكون أكبر مدفأة رأيتها في حياتي. ليس بها نار مع ذلك. بدلًا منها ثمّة بوتاجاز بحجم معقول عليه قدران فضّيان كبيران، يتصاعد منهما بخار يغطي المدخنة الحجرية الرمادية.

أخطو إلى الطاولة فتصر ألواح الأرضية الخشبية تحت قدميّ.

«اجلسي عزيزتي». تقول ماريا. «سيأتي آدم حالًا».

أسحب كرسيًّا وأهبط فيه. أشعر أنّي خراء.

«لم يسأل أحد عنّي على ما أظنّ، أليس كذلك»؟ أقول.

«لا عزيزتي»، وتبتسم ابتسامة صغيرة. «ولدينا حراسة، تحسبًا لأيّ شيء».

أتخيّل راهبًا بتليسكوب، لكنّها على الأرجح إحدى نساء المطبخ في

نوبة حراسة مفرطة للجيران، تبدو لي كلتا الصورتين هزلية، والجوّ هنا آمن كفاية فأردّ ابتسامتها.

«شكرًا لكِ»، أقول.

تعود الآن ماريا للبوتاجاز وتقول: «يخنة خضار وكفتة، ما رأيك»؟

«نعم. شكرًا جزيلًا لكِ». أقول.

كنت قد شرعت في تناول الطعام حين أتي آدم وجلس إلى الطاولة قبالتي. تضع ماريا أمامه طبقًا من اليخنة، مع ذلك أراها تعطيه قطعتي كفتة زيادة عمّا أعطتني. على الطاولة دورق مياه، أملأ كوبي للمرّة الثانية وأشرب. أنا بحاجة لسوائل وسعرات: وبذلك يمكنني قضاء الليل كلّه في التروبوسفير، إن اضطررت لذلك. مع ذلك لا أعرف متى سأخلد للنوم. لقد انقسم ليلى لنصف نوم ونصف تروبوسفير. لكنّي ما زلت لا أدري كيف يمرّ الزمن هناك.

«مرحبًا». يقول آدم. «كيف حالك»؟

«بخير»، أقول. «آسفة لوقوعي عليك».

«حاولت أن أوقفك لكنّك سقطتِ»، على كلٍّ، لم تريحي رأسك كثيرًا.

تخلع ماريا مئزرها. «سأكون في الحجرة المجاورة إن احتجتما لشيء». تقول.

الكدمة في وجه آدم بلون يخنة التوت، عينه التي في هذا الجانب مغلقة تمامًا تقريبًا.

«الأمر ليس سيئًا بقدر ما حدث لك، آسفة جدًّا لهذا».

يرفع كتفيه. «آه. حسنًا، تلك الأمور تحدث».

«نعم، لكن لا... مع ذلك، ليس بالضبط». أتنفّس بعمق وأرشف رشفة ماءٍ أخرى. «لا ينبغي أن تحدث أشياء كهذه، ليس في الحقيقة».

«نعم، لكن ما هي الحقيقة؟ أنا بخير حقًّا. الأمر انتهى».

«لكن ماذا لو جاءا هنا؟ سيَزنون بنا». أنتبه لتفوّهي بسباب بصوتٍ عالٍ في دير. «أقصد... معذرة لِلُغتي. لكن أنت تعرف ماذا أعني».

يبتسم آدم الآن. «إنّها مجرّد لغة»، يقول. «فقط لا تفعلي هذا أمام الراهبات، لأنّهنّ سيرتبكن». واضح أن الابتسام يؤلمه قليلًا، إذ يجفل الآن وهو يقول «آوتش».

«ماذا حدث بالتفصيل إذن»؟ أقول. «أقصد أنّه واضح أنّهما أبرحاك ضربًا، لكن لماذا»؟

«لم أشأ أن أخبرهما بعنوانك».

خراء. يا لشعوري بالذنب!

«لكن لا أفهم لماذا كانا يسألانك أنت»؟

«كانا قد سألا هيثر بالفعل وحين لم تستطع الإجابة أرسلتهما بحثًا عنّي. بدا أنّهما يفترضان أنّنا نعلم عنكِ الكثير، مع أنّ هيثر ظلّت تخبرهما أنّنا زملاء مكتب منذ يومين فقط، ثم قالت لهما إنّني ذهبت في جولة في الجامعة مع أستاذة حديثة، فلحقا بي عند الكنيسة، كانت المرأة التي أرشدها في الجولة... قد اتصل بها أولادها الصغار وأخبروها أنّ الثلج أغلق عليهم الباب، فانصرفت قبل أن يجداني بخمس دقائق. فور أن خرجت من الكنيسة اصطدمت بهذين الرجلين الأشقرين. سألتهما إن كان بإمكاني أن أساعدهما فسألاني من أكون، فأخبرتهما...».

«نودّ أن نسألك أسئلة قليلة». قال أحدهما.

«وافقت بالطبع - لم يكن هناك داعٍ للرفض - ودعوتهما لنجلس في الكنيسة. كان البرد قارسًا والثلج يغطّي شعرهما وحاجبيهما، حتّى إنّني كنت سأعرض عليهما أن أعد لهما شرابًا ساخنًا في مطبخ الكنيسة، جال أحدهما بنظره في المكان كأنّه يبحث عن مبنى آخر نذهب إليه، لكن كما تعلمين، ما من مكان آخر حول الكنيسة، فقالا إنّهما يفضلان التحدّث معي بالخارج. أذكر حتّى أنّني تساءلت ما الخطأ في الكنيسة، ولسببٍ ما فكّرت في التفجيرات

والإرهابيين وظننت أنّهما جاءا لإخلاء المبنى أو شيءٍ كهذا. سألتهما إن كان كلّ شيءٍ على ما يرام. ثم صار الأمر كلّه مربكًا.

«بما أنّنا نقف في الثلج هنا، سنُتمّم الأمر بسرعة» قال أحدهما. «أين آرييل مانتو»؟

«ليس لديّ أدنى فكرة»؟ أجبتهما. «لماذا»؟

«لا بدّ أن نعثر عليها، مسألة أمن دولي». قال الآخر.

كنت آكلَ بينما يحكي آدم، ليست الاستجابة الأكثر احترامًا لما يخبرني به، أعرف، لكن كان عليّ فقط أن أظلّ ألتقط السعرات بالشوكة. الآن توقّفت عن الأكل وقطّبت حاجبي.

«أمن دولي؟ ماذا يعني هذا»؟

يرشف آدم من كوب الماء ويقول: «لا أعرف. لم تتح لي الفرصة لأسأل، ما حدث بعد ذلك أنّني حاولت إقناعهما بدخول الكنيسة، وبدا أنّ ذلك يُغضبهما. فسبّاني، وطلبا أن أخبرهما بعنوانك فحسب وإلّا، سيؤذيانني. قالا شيئًا مثل «ضاجعتها ولا تعرف عنوانها»؟ وكنت أفكّر «ماذا»؟ ثم فكّرت أن لعلّ هيثر ظنّت أنّنا خرجنا من عندها تلك الليلة وذهبنا لنمارس الجنس، على كلّ حالٍ، ظلّا يُوجّهان أسئلة فظّة وإباحية حقًّا عنكِ، فأدركت أنّهما خطران وقرّرت ألّا أخبرهما بشيء، أدركت أيضًا أنّهما ليسا في حاجة لمعرفة عنوانك منّي، فبوسعهما الذهاب لشئون العاملين والبحث عنه هناك، فأخبرتهما مرّة أخرى أنّني لا أعرف شيئًا، فهدّداني، قالا شيئًا ما مثل «أخبرنا وإلّا، فتحمّل العواقب»، فخطر لي حينها أن ليس بوسعهما شيء سوى إيذائي فاستعددت لما سيأتي بعد ذلك». يشير لوجهه. «وكانت تلك النتيجة».

«ليس بإمكاني الاعتذار بما يكفي...»، أبدأ.

يبتسم آدم الآن، لكن تقريبًا بالجزء السفلى فقط من وجهه. «حسنًا... مع ذلك فهذا ليس أغرب ما حدث، لنبدأ بالقول بأنّهما بدأا يضربانني

فعلًا، سحبني أحدهما وقبض على ذراعي خلف ظهري ولكمني الآخر في وجهي... لا أعرف... ثلاث مرّات؟ أربع ربّما، ذكّرني بأيّام المدرسة وعراكات ساعة الغداء، بدا أنّ لديه متّسعًا من الوقت لضربي، فكان يلكم ثم يتوقّف لينفخ في يديه لأنّ الجوّ بارد جدًّا، ثم يلكم مرّة أخرى».

«يا إلهي». أقول.

«ثم قال من كان يُمسكني «لا جدوى من هذا، الرجل متديّن وربّما يظنّ نفسه المسيحَ أو شيئًا كهذا. حتّى لو صلبناه لن نحصل على شيء منه»، فقال الآخر شيئًا ما مثل «حسنًا، لم يكن لدى الرومان شيء كهذا، أليس كذلك»؟ وأخرج مسدسه، للأمانة أعترف أنّه على حقٍّ، إذ شعرت حينها بخوف أكبر حقًّا، فقاومت وأزلقت نفسي على الثلج مِن قبضة مَن يُمسك بي ففكّ قبضته عنّي، لم أدرِ ماذا كنت أفعل... دخلت الكنيسة وأنا أحاول أن أركض ثم أسقط على الأرض وأوصدت الباب ورائي ووقفت أفكّر في القدّيس توماس، حاولت أن أصالح نفسي مع الموت، كان ذلك أسهل ممّا ظننت، كنت أدرك أنّي على الأرجح سأموت، مع ذلك كنت أعي بالقدر نفسه أنّه من السخف أن يطلقَ أحدهم عليّ النار في كنيسة الجامعة، بالغريزة اختبأت خلف إحدى الدكك وأنا أترقّب أن ينفتح الباب في كلّ لحظة ويدخل الرجلان ويطلقان عليّ النار، لكن لم يكن هناك مكان آخر أذهب إليه».

توقّفت عن الأكل الآن. هذا جنون. «ثم ماذا حدث»؟

«انفتح الباب ـ أظنّ أنّهما ركلاه ـ إذ لم يدخلا. ظلّا حوالي خمس دقائق يناديانني من الخارج، كانا يسبّان فقط ليحاولا إخراجي، أسْهَبَا في وصفٍ مفصّلٍ لما سيفعلانه بكِ إن لم أخرج... لكنّني سددت أذني فحسب عمّا كانا يقولانه، ولأول مرّة منذ سنوات، صلّيت. سمعتهما يتجادلان حول مسدسيهما وعمّا سيفعلانه بعد ذلك، عند نقطةٍ ما، قال أحدهما للآخر «ادخل فقط واقضِ عليه»، لكنّ الآخر أجابه أنّه بالتأكيد مجنون إن كان يعتقد أنّه سيدخل ويفقد شيئًا ما... شيئًا ما لم أفهمه». يرشف آدم مزيدًا من

الماء. «على كلّ حالٍ، لهذا أظنّ أنّك ستكونين بمأمن هنا، إذ لديّ انطباع أنّهما لا يستطيعان دخول الأماكن الدينية».

«لكن ماذا حدث بعد ذلك؟ هل انصرفا فقط»؟

«نعم، حسنًا، انصرفا في النهاية، بدا أنّ ذلك استغرق ساعات، لكنّ الحقيقة أنّها لم تزد عن خمس دقائق، لم يرغب أحدهما في دخول الكنيسة، ولم أكن أنا لأخرج لهما، لا أظنّ أنّهما فكّرا في حصار ينصبانه في الثلج لأيّام أقضيها أنا بالداخل على بسكوت ونبيذ المناولة».

«هذا تقريبًا أشجع ما سمعته في حياتي...»، أبدأ.

«لا داعي للمجاملة»، يقول رافعًا يديه لأعلى، «لأنّي بعد انصرافهما كنت أرتعش بشدّة لدرجة أنّي لم أستطع النهوض لحوالي ثلث ساعة، وحين نهضت شربت نبيذ المناولة كلّه. أنا لست شجاعًا».

كان عليّ أن أجادل أكثر في هذا. لكنّ شيئًا ما يقلقني.

«شيء ما قلته، شيء ما لم تفهمه، ما هذا»؟

تناول آدم شوكته الآن وبدأ يتناول يخنته بهدوء كأنّه أخبرني لتوّه بنتائج مباراة كرة قدم، وليس عن هربه من رجلين يحملان مسدسات.

«عفوًا»؟

«قلت إنّه حين قال أحدهما للآخر أن يدخل الكنيسة، أجابه أنّه سيفقد شيئًا ما إن يدخل، هل تتذكّر ما كان هذا»؟

«ممم... نعم. كان اختصار ما، على ما أظنّ، ثلاثة أحرف».

«معذرةً.. ما من سبب يجعلك تتذكّر ماذا كانت»؟

«لا، أنا أتذكّر، كانت طفل... «سأفقد طفلي». هذا ما قاله، لكنّها لا تعني شيئًا لي، هل تعني شيئًا لك»؟

أهزّ رأسي. «لا. لا أعلم لماذا ظننت أنّها ستعني شيئًا».

سبعة عشر

بعد أن نفرغ من تناول الطعام يصحبني آدم لأروقة الدير لأدخّن سيجارة، الأروقة هنا عبارة عن ساحة صغيرة مكسوّة بالنجيل - المغطّى حاليًا بالجليد - يحتضنها أربعة مماشٍ ضيّقة من الحجر الرمادي. يصفها آدم كأنّها خارج الداخل أو العكس. حين سألته عن التدخين قال إنّه لا يعرف هل هو مسموح به داخل الدير أم لا، لكن في جميع الأحوال لن يضايق أحد الضيوف، وهكذا أقف الآن أسحب الدخان السامَّ إلى رئتيّ، أفكّر في أروقة كلّية راسل، وكيف لا يستخدمونها سوى للتدخين فيها: أغلب الطلبة لن يفكّروا أنّ الأروقة لأيّ شيء آخر.

«أنتِ هادئة»، يقول آدم وهو يستند على عمود حَجَريّ.

«فقط أشعر أنّني خارج السياق هنا»، أقول. «كما لو أنّه قد تنزل بي الصاعقة في أيّ لحظة لأنّي أدخّن أو أسبّ، أو الأسوأ من ذلك... لأنّي أهتمّ بأشياءَ غبيّةٍ مثل التدخين والسبّ بينما عليّ حقًّا أن أشعر بالذنب تجاه ما حدث لوجهك، ولأنّ وجودي هنا يعرضكم جميعًا للخطر، و... كذلك، مع كلّ هذا، يجب أن أعرف كيف أهرب، وإلى أين أذهب».

«يمكنك أن تبقى هنا فحسب». يقول آدم.

«لا يمكن»، أقول. «يجب أن أعثر على شخص ما».

لكنّني لا أخبره من، ولا كيف أخطّط للعثور عليه.

«هل لهذا علاقة بالكتاب»؟

«لا. الأفضل أن تنسى مسألة الكتاب هذه برمّتها».

يرفع آدم كتفيه ويقول: «أوه. حسنًا، سررت برؤيتك مرّة أخرى على كلّ حال».

«لا تكن...»، أقول. «أنظر لما حدث لك بالفعل».

«لكنّي لا أمانع»، يقول وهو يشيح بنظره عنّي. «الألم شيء حقيقي على الأقلّ».

«أعلم ماذا تعني». أقول بعد فترة صمت.

«حقًّا»؟ يقول.

«ربّما لا»، أقول وأنا أنفث الدخان في الهواء البارد. «لكنّني... لا أعرف، لي طريقة غريبة في النظر للأمور. سبب إضافي لشعوري بأنّي خارج السياق هنا... ومعك. في الحقيقة...». أسعل لأنقّي صوتي، فيبدو أنّي ابتلع الكلمات مع المخاط والنفايات، كلّ ما أريد قوله (ولا أريد قوله أيضًا) ليس سوى جملة واحدة: «أنا ارتكبت مساوئ كثيرة».

«الجميع ارتكب مساوئ كثيرة».

«نعم، لكنّ هناك فرقًا بين أن تنسي إرسال بطاقة معايدة يوم عيد ميلاد جدّتك ونوع الأشياء التي فعلتها. أنا...».

«أيًا كان ما فعلتِه لا يهمني في شيء».

لا أستطيع أن أشرح انحرافي الجنسي لآدم، فألقي بعقب السيجارة في ثلج الساحة حيث تغرق فيه مثل عين مسخ. «أنا شخص مُدمِّر لذاته»، أقول. «أو على الأقلّ هذا ما أنا عليه حسب المجلّات».

« مُدمِّر لذاته»، يقول آدم. «مصطلح مثير، ظنّي أنّي أيضًا مدمّر لذاتي لكن بطريقة أكثر حَرفية. هذا ما يتطلّبه الطاو: القضاء على الذات والتخلّص من الأنا.

«أي أنّ القضاء على الذات قد يكون إيجابيًّا»؟ أقول. «أمرٌ مثير».

«حسنًا، منذ فقدت إيماني».

«فقدت إيمانك»؟ أقول ونصف وجهي تنغزه ابتسامة. «إهمال منكَ هذا».

خراء. هذا ليس وقت نكات آرييل، بربِّك، لا تكوني مزعجة الآن، لكن آدم ينظر لي للحظة ثم، فجأة، يقطع الخطوات القليلة تجاهي، ويضغط بجسده على جسدي ويقبّلني بقسوة، أستجيب لقبلاته، مع علمي أنّه لا يجوز أن نفعل هذا هنا، شفتاه تضغطان على شفتي بإلحاح بارد، ثم يستخدم أسنانه: يعُضّ شفتيّ حتّى يقترب من تقطيع لحمهما، أسحب نفسي.

«آدم...».

«آسف، لكنّك تفعلين بي أشياء».

أنظر في الأرض. «لا أقصد».

«بلى. تقصدين».

«لا. اسمع... أنا أعلم ماذا تعني. في الغالب أقصد بالفعل أن أفعل أشياء مع البشر، أو حتّى كما تقول بالبشر، لكن ليس أنت. أنت مختلف».

«ماذا، لأنّني فقدت إيماني؟ أم لأنّي كنت مؤمنًا ذات مرّة».

«معذرة على مقاطعتك. ماذا كنت تقول»؟

يطلق نفسًا في الهواء: سحابة مجمّدة من الشكّ. «كنت أقول إنّني فقدت إيماني، ثم فقدت نفسي، تعلمين كيف أنّه غالبًا ما يساعد الدين الناس على معرفة أنفسهم وتحقيق ذاتهم؟ استطعت أنا أن أفقد كلّ شيء، ظننت أن هذا هو المطلوب، كلّ تلك الكتب التي قرأتها عن فقدان الرغبة وفقدان الأنا... الأمر كلّه كان قضاءً على الذات بشكل حَرفي. لم يُعِدْني شيء لهذا، ولم يعدني شيء للوعي بالدين بشكل موضوعي دون أن أكون جزءًا منه، صار الإنجيل مجرّد كتاب كأيّ كتابٍ آخرَ، كان لا يزال بمقدوري أن أقرأه وأكوّن آراء عمّا تعنيه هذه القطعة أو تلك، لكنّي كنت قد فقدت الإيمان به».

«القضاء على الذات. مثل تدمير الذات».

«نعم. لقد خبرت أن أكون بلا ذات حقًّا، وكان الأمر مرعبًا».

«آدم...».

«التواصل مع الآخرين؛ فقدان ذاتك فيهم؛ أن تصيروا «كلًّا واحدًا». إنّه الجحيم. من القائل: إنّ الجحيم هو الآخر»؟

«سارتر»[1].

«إنّه على حقٍّ. لم أدرك هذا: أن تنزع مِزَقًا من روحك وتعرضها لمشاركة الجميع ليس بأيّ حال من الأحوال كالمناولة أو توصيل بعض الملابس القديمة لمحلّ الصدقات، بل هو كالذهاب للمتنزّه ليلًا وخلع كلّ ملابسك والوقوف في انتظار أحد ليبول عليك».

أتذكّر وولف وفشله في أن يجعل أحدهم يضربه.

«الناس ليسوا جميعًا سيّئين»، أقول.

«ليس هذا ما أقوله... لا... لا أعرف ماذا أقول. هذا ما كنت أودّ أن أشرحه لك تلك الليلة، لكنّني لا أحسن هذا كثيرًا الآن. هل قلت لكِ إنّي أُصبت بانهيار عصبي»؟

«نعم. آسفة. أنا...».

«جزء من الأمر نفسه. القضاء على الذات، انهيار الذات، تفجير النفس حتّى لا يتبقّى منها شيء، لكنّي لم أستطع. فشلت تمامًا. انهرت بالطبع، لكنّي بدأت استجماع نفسي مرّة أخرى حتّى قبل أن تسنح لي الفرصة للنظر إلى الدمِل ورؤية منظره، حاولت أن أكون «عاديًا»: أشرب وأسبّ. كان ممتعًا جدًّا. لكنّي الآن لست متأكّدًا منّي أنا. أستخدم هذه الكلمة «أنا» ولا أعلم ماذا تعني؟ لا أعلم أين تبدأ وأين تنتهي. لا أعلم حتّى ممّ تتكوّن»؟

---

(1) جان بول سارتر (1980-1905) فيلسوف فرنسي وروائي وكاتب مسرحي وناشط سياسي، مؤسّس المذهب الوجودي، من أعماله الوجودية كمذهب إنساني، ونقد العقل الجدلي.

«آه، حسنًا، بإمكاني مساعدتك في هذا»، أقول. «يتكوّن كلّ ما في الكون من جسيمات وإلكترونات. أنت من المادّة نفسها التي أنا منها، والمادّة نفسها التي منها الثلج، والمادّة نفسها التي منها هذا الحجر، لكن بتوليفات مختلفة فقط».

«تلك فكرة جميلة». يقول آدم.

«هذا حقيقي». أضحك. «في الغالب لا أقول هذا. لكنّها حقيقة كما تكون أيّ حقيقة».

كنت ألقي ذات مرّة محاضرة عن العمل على المعنى، محاضرة تمهيدية قصيرة ينبغي شرحها قبل أن يبدأ الطلبة بالتفكير في دريدا، نناقش فيها (سوسير)[1] وكلّ تلك الأساسيات، ثم أعرض عليهم صورة فوتوغرافية لينبوع (دوشامب)[2] ـ المبولة التي حازت لقب أقوى الأعمال الفنية تأثيرًا في القرن العشرين ـ ثم أسألهم إن كانوا يرونها فنًا أم لا، في تلك المحاضرة تحديدًا بدأ معظم الطلبة يتجادلون حول أنّه لا يجوز اعتبار المبولة عملًا فنيًا: غضب واحد أو اثنان منهم لهذا، وذكروا (بيكاسو) وكيف أنّ أطفالهم يرسمون أحسن منه، والتكوين الذي فاز مؤخّرًا بجائزة (تيرنر) بأضوائه التي تضيء وتنطفئ... ظننت أنّها ستكون محاضرة سهلة، إذ كلّ ما أردت أن أوضحه أنّ شيئًا نسمّيه مبولة، نفهم منها أنّها شيء يبول فيه الرجال، تختلف عن شيء نسمّيه التصوير، الذي نفهم أنّه ينطوي على الرسم على القماش، لأنّنا جعلناه مختلفًا في اللغة، وسواءً أردنا تصنيف أيٍّ منهما كعمل فني أم لا فهذا يعتمد على تعريفنا للفن، لكن الطلبة وجدوا مشاكل في تقبل هذا، ما أحبطني منهم. أتذكر أني قلت لنفسي «ضاجعوا أنفسكم، ليتني

(1) فرديناند دي سوسير Ferdinand de Sausser (1857-1913): عالم لغويّات فرنسي أسست أفكاره لكثير من التطوّرات المهمة في علم اللغة في القرن العشرين.

(2) مارسيل دوشامب Marcel Duchamp (1887-1968): فنّان فرنسي ترتبط أعماله في الغالب بالحركتين السوريالية والدادية، قدّم عمله الينبوع عام 1917 وصنعه من مبولة.

الآن في المنزل أشرب قهوة في مطبخي»، ثم أوضحت لهم أن كل شيء في العالم مصنوع من الجسيمات والإلكترونات نفسها، الذرّات مختلفة بالطبع، توجد ذرّات هيليوم وذرّات هيدورجين وغيرها ذرّات من كلّ نوع آخر، لكنّها تختلف فقط في عدد الجسيمات والإلكترونات بها، وعند الجسيمات، في طريقة انتظامها، أوضحت لهم أنّه، بناءً على هذا، يمكننا اعتبار المبولة، بطريقة حقيقية جدًّا، كأيّ شيء آخر، قل مثلًا كالموناليزا. أخبرتهم أنّ ما يعتقدونه الواقع يعتمد كلّه على الزاوية التي ينظرون منه. وتحت ميكروسكوب قويّ بما يكفي، ستبدو المبولة والموناليزا متطابقتين.

ليس فقط الزمان والمكان اللذان دُمرّا، بأنّ المادّة طاقة، بل إضافة إلى ذلك: المادّة بالفعل طين رمادي؛ فقط ليس بمقدورنا رؤيته. الآن أفكّر في التروبوسفير وأتساءل ممّ يتكوّن، حتّى وإن كان في خيالي فقط، ممّ يتكوّن خيالي؟

يعود آدم معي لحجرتي. أدخل في الفراش على الفور، ويظلّ يذرع خطاه حولي وقتًا، يختلس نظرة من وراء الستارة، ثم يمسك الإنجيل ويضعه مرّة أخرى. أفكّر أنّه سيجلس على الكرسي الخشبي لكنّه في النهاية يأتي ويجلس بجانبي على الفراش، ويسند رأسه على المسند على بعد بوصتين من رأسي.

«حسنًا إن كنّا جميعًا جسيمات وإلكترونات...»، يبدأ.

«ماذا»؟

«بإمكاننا ممارسة الحُبّ ولن يكون سوى تمسيد لجسيمات وإلكترونات معًا».

«أفضل من هذا»، أقول. «لا شيء يتمّ تمسيده معًا» في العالم الميكروسكوبي. المادّة لا تمسّ حقًّا مادّةً أخرى، لذلك بإمكاننا ممارسة الحُبّ دون أن تتماسّ ذرّاتنا حتّى. تذكّر أنّ الإلكترونات تجلس خارج الذرّات لصدّ الإلكترونات الأخرى. هكذا يمكننا حقًّا ممارسة الحُبّ وصدّ أحدنا الآخر في الوقت نفسه».

أسمع تنفّسه يأخذ إيقاعًا مختلفًا قليلًا فيما يضع يده على قدمي، حيث يرتفع قماش جلباب النوم قليلًا.

«ماذا تسمّين هذا؟ قصدي أنّه إن كان الأمر ذرّات تصدّ بعضها الآخر، فلن يستحقّ المشاهدة، حقًّا. أقصد، لماذا سيمانع أيّ شخص»؟

«آدم...».

«ما الذي يجعله حقيقيًّا أساسًا؟»

لوهلة أفكّر في الألم مرّة أخرى: في الاحتكاك القسري؛ إجبار الذرّات على تبادل الإلكترونات، إجبار شيء على أن يصير حقيقيًّا، لكنّ ذلك شيء آخر؛ شيء ما يتجاوز هذا.

«اللغة»، أقول. «كلّ شيء كلمة هو حقيقي حتّى كلمة زنا وكلمة إثم».

أؤكّد أكثر على كلمة «إثم» إلى حدّ أن يزيح يده عن ساقي، أشدُّ جلباب النوم لكاحليّ، أعلم لماذا لا يجوز هذا، لكنّ المنطق ليس كالرغبة، وأشعر بدمي يضخّ بقصدية حول جسدي، يعدّني لشيء لا يمكن حدوثه: شفتا آدم على شفتيّ؛ صدره الأسمر المشعر يضغط على صدري الأملس الشاحب؛ إيلاج؛ طي النسيان. كأنّك جائع ويجب أن تأكل. أنا جائعة وقدّم أحدهم لي حالًا طبق طعام وأخبرني ألّا آكله لأنّه قد يكون مسمّمًا.

ينهض آدم من على الفراش ويسير للنافذة. ما زالت الستائر مغلقة لكنّه لا يفتحها، بل يقف هناك فقط ينظر لقماشها البيج. يتنهّد.

«هذه الأمور عن اللّغة هو ما تدرسينه، أليس كذلك»؟

«نعم».

«مختلفة جدًّا عن اللاهوت».

«حقًّا»؟ أقول. «ما قلته ونحن عند هيثر... جعلني أفكّر في بودريّار وفكرته عن الزيف: عالم مكوّن من أوهام، من نُسخ لنسخ لأشياء لم تعد موجودة؛ نسخ بلا أصل، وفي نظرية دريدا عن الاختلاف وطريقة معرفتنا

للمعنى دون الوقوف عليه حقًّا. تحدّث دريدا عن الإيمان كثيرًا، وكتب في الدين كثيرًا».

«ما زال الأمر غير ممتع، أليس كذلك؟ ما زال له القدرة على أن يملي عليك ما تفعلينه، كأنّ كلّ شيء يعني أي شيء لكن لم يزل عليك الالتزام بالقواعد. أريد شيئًا ما يقول لي إنّه ليس عليّ الالتزام بقواعد».

«آه، لعلّك عدت إذن للوجوديّين، ظنّي أنّهم يستمتعون أكثر، مع أنّ مشكلتهم أنّهم لا يعرفون أنّهم يستمتعون حقًّا».

أفكّر في الغريب ل(ألبير كامو)، مشهد (ميرسول) وهو يحتسي القهوة في قاعة الجنازات وطريقة استخدام هذا، فيما بعد، كدليل على كونه شخصًا سيئًا. من أيّ نوع من الأشخاص تجعلك ممارسة الجنس في دير إذن؟

«دريدا إذن ليس وجوديًّا»؟

«لا. لكنّ كلّ هذا يأتي من الخلفية نفسها: هيدجر[1]؛ علم الظواهر».

«وماذا يقول هذا عن الحياة»؟

«ماذا؟ علم الظواهر»؟

«نعم».

«مم... ما زلت أفكّر في كلّ هذا، وقد لا يكون فهمي له صحيحًا تمامًا، لكنّه يرتبط بشكل أساسي بعالم الأشياء: الظواهر».

تخطر لي قصّة «الغرفة الزرقاء» للوماس، فيلسوف يحاول أن يقرّر هل الأشباح موجودة أم لا، يذكّرني هذا حين حاولت فهم علم الظواهر بشكل

(1) مارتن هيدجر Martin Heidgger (1889-1976): فيلسوف ألماني معروف باستكشافاته في علم الظواهر والوجودية ومسألة الكينونة، من أشهر أعماله كتابه الكينونة والزمان 1927 الذي يعدّ من أهمّ الأعمال الفلسفية في القرن العشرين، والشعر واللغة والفكر، وما هو التفكير.

صحيح لأول مرّة (أمر لم يتمّ بعد)، كنت أقرأ اكتشاف الوجود مع هوسرل لـ(ليفينا)[1]... كان (هوسرل) معلّم هيدجر، وكنت أحاول استيعاب عمله، لكنّه كان صعبًا جدًّا. كنت أرقد في حوض الاستحمام، أجاهد لئلّا يبتلّ الكتاب، وكتجربة ذهنية، أسأل نفسي السؤال القديم: «هل هناك شبح في هذه الغرفة؟»، فكّرت بيني وبين نفسي آنّني إن كنت عقلانية، سأجيب بكلّ ثقة أن: لا، طالما قد قرّرت سلفًا باستخدام المنطق والبديهيات آنّه لا وجود للأشباح، يمكنك أن تكون عقلانيًا وعيناك مغمضتان: أنا أعلم آنّه لا وجود للأشباح، إذن لا يوجد أشباح في هذه الغرفة. إن كنت عقلانيًّا، وأسست عالمك كلّه من منطق آنّه حين تموت الأشياء فهي ميّتة وانتهى الأمر، فقد تقف هناك في حجرة تعجّ بأبالسة يصطرخون وتظلّ تستنتج آنّه لا وجود لأشباح في الغرفة. أمّا إن كنت تجريبيّة، فسأبحث عن دليل بحواسّي: أرى آنّه لا يوجد شبح في الغرفة، وأستنتج أنّ ما لم أره لا يوجد. فهمت كلّ هذا. لكن بدا لي أنّ علم الظواهر لا يهتمّ بالسؤال: هل يوجد شبح أم لا، بل يبدو آنّه يسأل: «ممّ يتكوّن الشبح اللعين بأيّة حال»؟

أحاول أن ألخّص هذا لآدم.

«بشكل أساسي، يقول علم الظواهر إنّك موجود، والعالم موجود، لكنّ العلاقة بين الاثنين إشكالية: كيف نعرف الكيانات؟ أين يتوقّف كيان ويبدأ آخر؟ يبدو أنّ ما تقوله البنيوية إنّ الأشياء موجودة وبإمكانك تسميتها بما شئت. لكنّي مهتمّة أكثر بأسئلة عمّا يُكوّن شيئًا؟ وكيف لشيء أن يكون له معنى خارج اللغة التي نستخدمها لتعريفه».

«أي أنّ كلّ شيء هو في النهاية لغة. ما من شيء وراء الكلمات. أليس هذا هو القصد الرئيس».

---

(1) إيمانويل ليفينا Emmanuel Levinas (1906-1995) فيلسوف فرنسي يهودي وُلد في ليتوانيا ومفسّر للتلمود، درس علم الظواهر تحت إشراف إدموند هوسرل، من أعماله شيء غير الوجود: أو ما وراء اللب، والزمن والآخر، والوجود والموجودات.

«إلى حدٍّ ما. لكنّها ليست مجرّد كلمات مع ذلك. قد يكون استخدام مصطلح «اللغة» خطأ في هذا السياق، لعلّ مصطلح «المعلومة» أفضل». أتنهّد. «صعب جدًّا صياغة هذا في كلمات. لعلّ بودريّار قام بما ينبغي حين تحدّث عن نسخة بلا أصل: المحاكاة. مثلما فكّر أفلاطون، كما تعرف، في أنّ كلّ ما على الأرض نسخة من ـ أو ظِل ـ لـ«مثل أعلى» ما. حسنًا، ماذا لو أنّنا خلقنا عالـمًا يكون فيه حتّى ظلّ الحقيقة هذا ليس النسخة النهائية؟ عالم غادره كلّ ما كان يُعَدّ حقيقيًّا من قبل، ولم تعد النسخ التي تدلّ على الأشياء ـ بمعنى آخر اللغة أو الرموز ـ لم تعد تدلّ على شيء بعد الآن؟ ماذا لو كانت كل تصوّراتنا ورموزنا الغبيّة لا تصنع الحقيقة بالمرّة؟ ماذا لو أنّها لم تعد تدلّ على أيّ شيء آخر، بل تستبطن على نفسها وعلى الرموز الأخرى؟ تلك حقيقة مبالغ فيها. إن أردنا التحدّث بمصطلحات دريدية، فقد نتحدّث عن عالم يُرجئ الحقيقي دائمًا. واللغة تفعل هذا، إذ تعدنا بطاولة، أو شبح، أو صخرة، لكنّها لا تفي بوعدها في شيء من هذا أبدًا».

«أليس هذا محبطًا»؟ يسأل آدم.

أضحك، لكنّها تبدو هنا ضحكة جوفاء. «بالتأكيد ليس بأكثر إحباطًا من تصوّرك لكلّ شيء كمجرّد وَهمٍ».

«لكنّني كنت أتحدّث عن وَهمٍ يكسو كلّ شيء. حقيقة ما مؤكّدة. أنت تتحدّثين عن عالمٍ لا شيء فيه مجرّد وهم».

«حسنًا، لعلّي أُفضّل حقًّا الإيمان بوجود شيء ما خارج الزيف. لا أعرف. لكنّ التفكير فيه أمرٌ مثير. مثل اكتشاف أنّ كلّ شيء مكوَّن من جسيمات وإلكترونات. كان ذلك اكتشافًا مثيرًا لأنّه كلّما تعلمت شيئًا عن الوحدات الأساسية للحياة ـ اللغة أو الذرّات أو أيّ كان ـ تجدها مجرّد سخفٍ، هذا ما كنت أقوله لك تلك الليلة عن فيزياء الكمّ: جنون مطبق، لا يعقل أن يكون حقيقيًّا، ثم ما كنت تقوله عن وجود الحقيقة خارج الواقع: وجدت هذا أيضًا مثيرًا. ثمّة دائمًا مستوى آخر نحن فقط لا نرغب في معرفته. تدنّي

العلماء بالأمر إلى الجسيمات والإلكترونات، وتعددية تنويعاتها العجيبة التي تهبط بالأشعة الكونية وما إلى ذلك، لكنّهم لا يعرفون هل كان هذا، إن كانوا قد وصلوا حقًّا للمادّة غير القابلة للتجزئة - ما كان يدعوه الإغريق بأتوموس. حتّى ليبدو أنّ التجزئة لا نهائية. ولم يزل هناك تلك التساؤلات الكبيرة التي لا يستطيع أحد الإجابة عنها: ماذا كان قبل البداية؟ وماذا سيحدث بعد النهاية؟ حقيقة أنّ هذه الأسئلة ما زالت مطروحة أمر مثير. لا أحد يعلم شيئًا مهمًّا حقًّا ـ وما زال هناك الكثير لتعلّمه».

«ها قد عدنا الآن للدين».

«ظننتك قلت إنّ الدين جزءٌ من الوهم. أقصد أنّه من لغة مثل كلّ شيء آخر...».

«لكن الإيمان»، يقول الآن «ممّ يتكوّن الإيمان»؟ يلمس آدم الستائر لكنّه لا يفتحها. «لكن لا يمكنك تأسيس شيء على الإيمان. لا شيء حقيقيًّا على أساس الإيمان».

«حقًّا؟ بإمكانك الزعم بأنّنا جميعًا مؤمنون. نؤمن باللغة مثلًا».

«مع ذلك، لا يُثاب على الإيمان دائمًا، أليس كذلك؟ لا تحصلين على ما ترغبين فيه بالمقابل دائمًا».

يستدير وينظر إليّ، وجهه شاحب وأتذكّر ما قاله عن أنّه لا يشعر بأنّه على ما يرام حاليًا، لكنّه ما زال في الأغلب من أكثر البشر الذين رأيتهم في حياتي جاذبية، ولوهلة لا أصدق أنّه هنا في هذه الحجرة بشعره الطويل غير المغسول وملابسه بدرجاتها الرمادية، كما لو أنّ به أكثر بكثير من مجرّد جسده، شيء ما أكثر من مجرّد ذرّات، ما أسهل أن أغمض عيني فحسب وأدعه يدخل، لكنّه حينها سيبتعد مرّة أخرى، وأُترك أنا مع فعلتي، لا أريده أن يبتعد، لن أمارس الجنس معه، هكذا يجب أن أجعله يواصل الحديث، وربّما بعدها نأوى للنوم متعانقين! لا تكوني غبية آرييل، هنا سيكون ذلك سيئًا بقدر سوء المضاجعة.

«يمكنك القول إنّنا مؤمنون بثقافة مشتركة»، أقول.

«بأيّ معنى»؟

«لغة مشتركة. أعني أنّنا بالفعل نتشارك ثقافة، وتلك الثقافة مكوّنة من أشياء جزّأناها وسمّيناها، مثلما قام علماء الطبيعة في القرن التاسع عشر بتصنيف كلّ شيء. بالطبع ما زال الناس يتجادلون في كلّ هذه التصنيفات. هل سمكتان متشابهتان نوع واحد من الأسماك أم نوعان؟ هل يختلف كلّ شيء عن كلّ شيء آخر أم أنّه الشيء نفسه»؟

ينظر إليّ بأكبر قدر من التجهّم رأيته من قبل، كلّ ما في وجهه يشير إلى أسفـل، بما في ذلك نظرته التي اتّجهت الآن للأرض... لكنّي ما زلت أفكّر أنّ بودّي أن أغرق فيه؛ أن أغرق في بركة من آدم متجهم غضِب. أرغب فيه الآن أكثر كثيرًا وهو غاضب منّي لأنّي لا أوافق على النوم معه. كأنّ خطوط القوّة بيننا صارت لدِنَة تحاول التشابك. هل يختلف أحدنا عن الآخر أم يشبهه؟

لا يقول شيئًا فأواصل.

«طبقًا لأيّ معيار يمكَنك الزعم بأنّ شيئًا ينتهي هنا، ومن هنا يبدأ شيء آخر؟ ما هو «الوجود» بالضبط على كلّ حال؟ ما لم تهبط أسفلَ إلى مستوى الذرّة، لن يبدو أنّ هناك فراغًا بين الأشياء. حتّى المكان الخالي يزخر بجسيمات، لكنّك إن نظرت للذرّات من كثبٍ، تدرك أنّه بالكاد يوجد شيء غير الفراغ، لا بدّ أنّك سمعت تشبيه الذرَّة بقاعة رياضية بها كرة تنس واحدة في المنتصف؟ لا شيء يتّصل حقًّا بأيّ شيء آخر. لكنّنا نخلق الصلات بين الأشياء في اللغة. ونستخدم تلك التصنيفات والفراغات بينها لنخلق ثقافة كتلك التي نحن فيها الآن، التي يفهم فيها كلٌّ منّا أنّ نومنا معًا في دير أنزل فيه ضيفة يُعدّ خطأً».

عيناه قاسيتان، لكنّ صوته الآن ناعم.

«لماذا يُعدّ خطأً»؟

«بربّك، أنت تعرف لماذا. سنُزعج كلّ من هنا، لو علموا بما كان يحدث».

«لكنّه بالتأكيد خطؤهم هم لأنّهم لم يفهموا الذرّات»!

«حقًّا؟ لا تقول الثقافة هذا. تخيّل أن يُستخدم هذا كدفاع في تهمة قتل. «لكن سيدي القاضي لم أطعنها حقًّا لأنّ ذرّات سكّيني لم تمسّ ذرّات جسدها قطّ». لا يمكننا أن ننكر الثقافة فقط لأنّها لا تناسبنا. حسنًا، يمكننا ـ أو قد نصارح أنفسنا بأنّنا ننكرها ـ لكنّنا في جميع الأحوال سنشعر بالذنب». أتنهّد. التحدّث هكذا سهل جدًّا، لكنّ شرح ما أشعر به حقًّا ليس كذلك. ماذا أقول؟ آدم، أريد أن أراك عاريًا. أريد أن أستلقي على ظهري وأتركك تضاجعني، لكن ليس في دير، لأنّ ذلك يشعرني بالقذارة والشرّ وفي الغالب سأموت قريبًا، وحتّى إن كنت لست متأكدة من أنّي أؤمن بالجنّة، لكنّني رأيت مؤخّرًا كائنًا يدّعي أنّه إله، لذلك ليس بودّي أن أضيّع فرصي حتّى آخر نَفَسٍ ممكن.

ثم أفكّر في دريدا مرّة أخرى. كأنّني في مزادٍ ما وهذا هو عطائي الأخير مقابل الطهارة: أتخيّل مضاجعته لي، لكنّي لن أفصح عنها كلامًا، ولن أفعلها. لن أدع الذرّات تقترب جدًّا.

يستدير آدم للنافذة مرّة أخرى. هذه المرّة يفتح الستائر وينظر للخارج.

«هل ما زال الثلج يتساقط»؟ أسأل. يذكّرني هذا بمقولة ما: «هل يسقط ثلج بالخارج يا عزيزي؟». لكنّي لا أتذكّر من أين هي. ربّما ليست ثلجًا في المقولة. تمطر ربّما.

«لا». يتنهّد. «كان عليّ أن أبقى في شقّتك يوم الثلاثاء».

«لم أكن لأنام معك حينئذٍ أيضًا».

هل تسمع يا ربّ؟

يومئ برأسه. «لا تجدينني جذّابًا».

«ليس الأمر كذلك. ظنّي أنّني لا أجد نفسي أنا جذّابة لهذا الحدّ».

«يبدو هذا لي خراء».

«آسفة. أنت على حقّ. لكنّي فقط لا أستطيع. أرغب فيه... لكنّي فقط لا أستطيع».

يستدير مرّة أخرى الآن. لا ينظر في عيني، مع ذلك. لا يوجد تواصل. كيف بحقّ الجحيم يكون التواصل حين يركّز أحد في عينيك وتركّز أنت في عينيه وللحظة تبدوان كآلتين اتصلتا بالقابس نفسه، أو حتّى كأنّ أحدكم الآلة والآخر القابس. آلات. قوابس، كهرباء، خطوط قوى... قد لا تتصل عينانا، إلّا أنّ خطوط القوى كلّها ما زالت هناك، تشدّني نحوه.

«لكنّك ترغبين؟ ترغبين فيّ»؟ يتكلّم كمن أخبروه حالًا أنّه مصاب بمرض مميت وليس أمامه سوى سنة في الحياة. هل يُعقل أن يؤخذ الجنس بهذه الجدّية؟ هل يُعقل أن يؤخذ النوم معي بهذه الجدّية؟ يقول باتريك إني «أفعل» به أشياء، لكن كل ما أفعله به في الحقيقة هو، ضمنًا، ما أقدّمه دائمًا: جنسًا قذرًا بلا قيود، لكنّني لا أظنّه يهتمّ إن كان لن يراني مرّة أخرى أبدًا. هل أرغب في آدم؟ حسنًا، هذا سهل.

«نعم، لكنّك لستَ لي. أنا بالنسبة لكَ خطأ».

«تعرفين أنّني لم يسبق لي قط أن...»، يدع الجملة تتهادى كندفة ثلج ذابت قبل أن تستقرّ على الأرض.

«أعرف. ولهذا أيضًا. الأمر أنّي أنا سبق لي. آلاف المرّات، مع المئات».

«آريل، بربّك».

«ماذا»؟

«لِمَ تتحدثين هكذا»؟

«هكذا كيف»؟

«كأنّك تقصدين أن تبدي... لا أعرف».

«عاهرة»؟

«لن أدعوها هكذا».

«لا. أنت طيّب جدًّا». أعضّ على شفتيّ.

«أوه، اغربي عن وجهي. تظنين أنّني طيّب لأنّي كنت قسًّا. لا أريد أن أكون طيّبًا. أريد أن...».

«ماذا؟ تريد أن تكون مثلي؟ تريد ألّا تكون طيّبًا؟ تريد أن تكون قذرًا؟ حسنًا، هيا إذن»، أشرع في فكّ أزرار جلباب النوم. «لنتضاجع في الدير. خذ قليلًا ممّا لديّ. انظر: هذا بعض منه». أرفع ذراعي لأعلى لأُخرج معصمي كأنني أدفعهما من أسفل. «هذا من آخر مرّة ضاجعني أحدهم».

يخطو آدم للأمام، ولوهلة أتخيّله سيمزّق جلباب النوم من عليّ ويدفعني في الفراش، أهذا ما أريده أن يفعله؟ أم أريده أن يشعر بالشفقة عليّ، لمعصمي المدمّرين والمئات من فتوحاتي الجنسية؟ لكنّه يظلّ مثبتًا عينين متحجّرتين عليّ بينما يعبر عن يميني ويخرج من الغرفة. أيًّا كان ما أريده فلن أحصل عليه، لأنّه ذهب.

بعد نصف ساعة من ذلك، ما زلت وحدي في الغرفة الباردة استلقي تحت الأغطية في الفراش لأدفأ. ثم أبتلع جرعة من السائل في القارورة وأضعها على الكرسي بجوار الفراش. أرقد محدّقة في الدائرة السوداء إلى أن يبدأ هذا الواقع في التحوّل إلى الواقع الآخر الذي بدأت أفضّله.

هذه المرّة لا يستغرق عبور النفق وقتًا طويلًا. لكن حين أعبر للجانب الآخر، يكون الأمر مختلفًا. الشارع الذي اعتدت عليه ليس هناك، أجدني بدلًا منه في ساحة مشوّشة ذات أرصفة رمادية، تبدو ضئيلة مقارنة بالقصور والقلاع المتزاحمة حولها، لا بدّ أنّ هناك المئات من هذه المباني، مع أنّني بموضوعية أرى استحالة هذا فراغيًّا، مع ذلك فهي «هناك»، بعضها مُشيَّد بأحجار باهتة، وأخرى من طوب أسمر له هيئة خشنة، وبعضها له قمم مستدقة وأبراج قوطية يبدو أنّها تناطح السحب، كما لو أنّها تحاول التسلّق

للنعيم. سحب. هذا غريب. لم يكن ثمّة سحبٌ في التروبوسفير من قبل. لكنّ الوقت لم يزل مساءً؛ لعلّي أرى السحب فقط لأنّ القمر مكتمل. لكنّي أتنبّه حينها أنّه لم يكن ثمّة قمر من قبل أيضًا.

ثمّة نصب لتمثال في منتصف الساحة، يلمع تحت ضوء القمر. يبدو لي كنسخة من المفكّر لرودان[1]: رجل يجلس على صخرة مسندًا ذقنه على ظهر يده. لكنّي ألاحظ حين أقترب منه أنّ له وجه فأر. إنّه تمثال لأبوللو سيمنثوس بدون غطاء رأسه. تنعق بومة فأقفز، لم تكن آخر مرّة سمعت فيها صوتًا في التروبوسفير بإشارة جيّدة بالمرّة، لكن لا شيء يحدث، فأقرّر أنّها مجرّد بومة. كم عدد المباني هنا؟ عدد غير معقول. من الصعب وصف ما أمامي، لكنّه يبدو فقط كزحامٍ من أشياء كثيرة جدًّا: وفرة من معلومات محفوظة في فراغ صغير. إلى جانب القمم والبروج توجد أيضًا جسور متحرّكة وخنادق، وتلال، ودخان حرائق، وجسر في هيئة قوس قزح وأعلام متنوّعة؛ وجنبًا إلى جنب مع المباني توجد جبال وقمم منحدرة وبحيرات، مختلطة كلّها معًا مثل رزمة صور لمناظر طبيعية تتداخل معًا على حائط مزدحم بها. تقع بين تلك المباني أماكن أخرى أكثر ألفة: قاعتان لاحتساء الشاي، متجر كتب، ومتجر لبيع الخدع السحرية. جميعها مغلقة. مكان واحد يبدو لافتًا بشكل خاصّ، لكنّه ليس مبنى. بل حديقة مفرطة النموّ بأسوار عالية وبوّابة من الحديد المزخرف. بداخلها دكّة خشبية وعدّة أشجار. أودّ أن أدخلها، لكنّها مغلقة. الأماكن الأخرى هنا مغلقة أيضًا. لافتات نيون بالية بلون وردي تومض في المكان كلّه. مغلق، فيرمي [مغلق بالفرنسية]، مغلق للتجديدات. مغلق. لا توجد أماكن شاغرة. ماذا عساه يكون مكان بقلاع وبروج قوطية ولافتات نيون ورديّة في كلّ مكان؟

لوحة؟

---

(1) تمثال منحوت من البرونز والرخام لأوجست رودين، نحته عام 1902، يوجد في متحف رودين بباريس.

يظهر الشيء.

ليس لديك خيارات، يقول الصوت الأنثوي.

آه، عظيم، ثانيةً. هل انهار الأمر كلّه؟ هل قام هذان الرجلان بتعديل شيء في هذا المكان يحول بيني وبين الوصول لأي شيء بعد الآن؟

لديك رسالة جديدة واحدة.

ماذا؟

لديك رسالة جديدة واحدة.

هل لي أن أحصل على الرسالة؟ لا إجابة. أين المظروف الصغير الذي تضغط عليه؟ ما المعادل له هنا؟ كيف أتلقى رسالة في التروبوسفير؟ من سيترك لي رسالة على كلّ حال؟ أتخيّل لوهلة طردًا من كرتون بنّي تبرز منه أسلاك حمراء وخضراء وسوداء: قنبلة من أعدائي. لكنّ هذا لا يشعرني بشيء على الإطلاق، فأتذكّر أنّ هذا ما أحبّه في هذا الفضاء: لا حرّ، لا برد، لا خوف.

يومض شيء الآن في اللوحة، وألاحظ أنّه فتحة الفأر الخاصّة بأبوللو سيمنثوس. لم ألحظها من قبل، لكنّها هناك الآن بين ما يبدو مثل الفالهالا[1] وشيء ما يسمّى قاعة شاي بخور مريم. هل أدخل؟ بودّي حقًّا أن أرى أبوللو سيمنثوس. أطفئ اللوحة وأدلف القوس الأبيض ثم إلى الحجرة التي أعرفها من المرّة الماضية: الطاولات الخالية والأرفف والجُحر في الركن. لا إشارة على وجود أبوللو سيمنثوس. أسير في الحجرة الأخرى. النار مطفأة ولا أحد هنا. لكن ثمة كتيب على الطاولة.

العنوان على غلافه يقول دليل التروبوسفير. تأليف أبوللو سيمنثوس.

هل هذه هي الرسالة؟ أفتح الكتيِّب.

ليس لديك الآن رسائل جديدة. تقول اللوحة.

---

(1) قاعة القتلى في الأساطير النوردية.

الكُتيّب إذن هو الرسالة. حسنًا. أجلس على الكرسي الهزّاز وأبدأ قراءتها. المخطوطة كلّها حوالي ثلاث صفحات، لكنّها مكتوبة بخطّ كبير.

التروبوسفير ليس مكانًا

التروبوسفير من الفِكر

(أنا من الذِكر)

التروبوسفير يتّسع

التروبوسفير داخل عالمك وخارجه في آنٍ.

التروبوسفير أيضًا قد ينهار لنقطة.

في التروبوسفير أكثر من ثلاثة اتجاهات وأكثر من «زمن» واحد.

تقفين الآن في التروبوسفير لكن يمكنك تسميته بأيّ شيء.

الفكر هو كلّ الفكر

الذهن هو كلّ الأذهان.

هذا البعد يختلف عن الآخر.

تروبوسفيرك يختلف عن تروبوسفير الآخرين.

تحققين التواثب بالتقارب جغرافيًّا (في العالم)

شخصيًّا (في التروبوسفير)

سلفًا (في الذهن)

الخيارات المتاحة لك في التروبوسفير تتعلّق بالتقارب فقط.

(إلّا إذا اختلطت المعلومات)

بوسعك الوثوب من شخص لآخر في العالم المادّي (فقط إن كان هذا الآخر في تلك اللحظة عرضة لعالم الأذهان كلّها).

بوسعك أيضًا الوثوب من شخص لسلفه في الذاكرة.

هذا كلّه ذاكرة.

التروبوسفير تجلّ مختلف للعالم المادّي ويتفاعل معه بحرّية مطلقة. لهذا يكون من الأفضل أحيانًا التنقّل في التروبوسفير، وأحيانًا أخرى يكون من الأفضل التنقّل في العالم المادّي (انظر الشكل البياني):

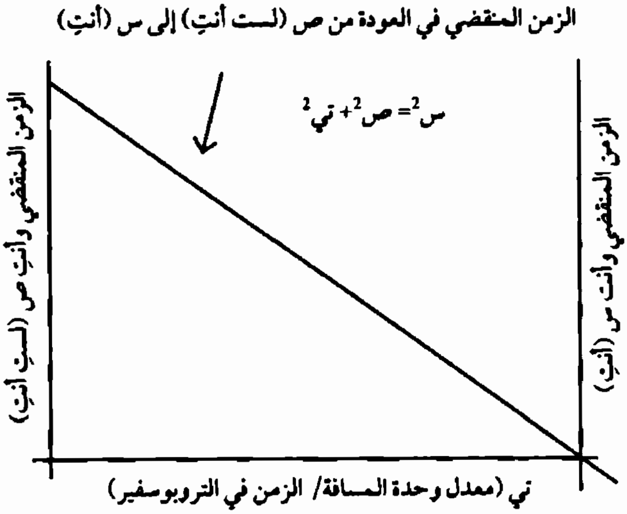

تنويه: الشكل البياني أعلاه تبسيط لعملية حسابية أعقد ينطبق على الرحلات القصيرة بطبيعتها أو غير المعقّدة. والأرجح أنّ التواثب في مسار الأسلاف لعدّة أجيال سيؤدّي لأخطاءٍ حسابية.

ملحوظة: وحدة المسافة/ الزمن في التروبوسفير تساوي تقريبًا نسبة 1.6 مرّة مقارنة بنظيرتها في العالم المادّي. «الساعة» في التروبوسفير تستغرق 1.6 ساعة في العالم الحقيقي، أي ستّ وتسعين دقيقة.

تحويل الزمن لمسافة يتمّ بالطريقة نفسها.

المسافة هي الزمن في التروبوسفير.

لا موت في التروبوسفير.

الموت في العالم الحقيقي.

«أنتِ» ما تفكرين فيه أيًّا كان.

المادّة هي الفكر.

المسافة هي الوجود.

لا شيء يغادر التروبوسفير.

بإمكانك، على الأرجح، اعتبار التروبوسفير نصًّا مكتوبًا.

بإمكانك اعتبار التروبوسفير مجازًا. إذ التروبوسفير، على وجه ما، ليس سوى عالم مجازي.

برغم أنّي حاولت ذلك هنا، إلّا أنّ التروبوسفير الحقّ لا يمكن وصفه. لا يمكن صياغته بأيّ لغة من أرقام أو حروف إلّا كجزءٍ من تحليل وجودي (انظري هيدجر للتفاصيل).

كان بالإمكان إيضاح النقطة الأخيرة أكثر. ما أقصده أنّ معايشة التروبوسفير هي أيضًا للتعبير عنه.

انتهى.

ثمانية عشر

عودة لفراشي، تجاوز الوقت منتصف الليل بقليلٍ، يجب أن أدوّن أكبر قدر ممكن من مخطوطة أبوللو سيمنثوس قبل أن أنساها، يجب أن أحتفظ بإمكانية التفكير فيها في العالم الحقيقي. ما معنى كلّ هذا؟ الفكر هو كلّ الفكر. الذهن هو كلّ الأذهان. هل هذا هو التروبوسفير؟ كلّ الأذهان؟ لعلّي كنت أعلم هذا بالفعل. هذا ما كنت أشكّ فيه. والحال هكذا، هل المدينة التي في ذهني كبيرة جدًّا لحدّ أنّ بها متجرًا صغيرًا أو منزلًا، أو قلعة بالطبع، لكلّ وعي بالعالم؟ ماذا كانت كلّ هذه القلاع، ولماذا كانت كلّها مغلقة؟ ما الوعي؟ هل للديدان وعي؟ لا بدّ من ذلك، إن كان للفئران وعي. إن أردت أن أدخل لوعي دودة في إفريقيا، كيف أحقّق هذا؟

شيءٌ واحد واضح. الزمن يعمل على نحوٍ مختلف في التروبوسفير. لا أفهم تمامًا معنى أنّ المسافة هي الزمن في التروبوسفير، لكن يبدو واضحًا أنّه حين تعود من هناك يكون قد مرّ وقت أطول ممّا بدا لك وأنت في الداخل. أول ما أفعله أن أرسم الشكل البياني كما أتذكّره، يشبه بصفة عامة نظرية فيثاغورث، إنّه نظرية فيثاغورث، لكن مطبقة على المكان والزمان. أجاهد لأتذكّر كلّ كتب العلوم العامّة التي قرأتها السنوات الماضية. الجاذبية تعمل بالطريقة نفسها، أليس كذلك؟ لكن لا شيء عن الكتلة في كتيب أبوللو سيمنثوس. تدور كلّها عن الزمان والمكان. حقًّا، يبدو أنّ ما يقوله أنّ المسافة في التروبوسفير هي الشيء نفسه كالزمن. أعلم أنّ هذا

صحيح في العالم الحقيقي أيضًا. يُدعى الزمكان. لكنّك لا تلاحظه في حياتك العادية. ليس بوسعك العبث بالزمن برحلة للسوق أو حتّى للقمر، إن أردت العبث بالزمن فعليك أن تطير من الأرض في سفينة فضاء بسرعة شديدة، وتظلّ ترتحل بسرعة تقرب من سرعة الضوء دون أن تسرع أو تبطئ. ثم، إن عدت، فستجد أنّه قد مرّ في الأرض وقت أكثر ممّا مرّ عليك وأنت في سفينة فضائك. يبدو أنّ ما يحدث في التروبوسفير عكس ذلك. أم أنّه، في الحقيقة، الشيء نفسه؟ معدتي ترغو، سيكون عليّ أن آكل مرّة أخرى قريبًا.

لا يبارح ذهني التفكير في القلاع والبروج بقممها المستدقّة وجسورها المتحرّكة العتيدة. إذ أكتب سطرًا بإمكانك اعتبار التروبوسفير كمجاز. إذ التروبوسفير، على وجه ما، ليس سوى عالم مجازي... أتساءل عمّا يمثّله مجاز القلاع. ثم أتساءل: عندما تدخل التروبوسفير، هل يتاح لك الدخول فورًا لأقرب وعي لك في العالم المادي؟ وإن كان كذلك، هل كلّ تلك القلاع تخصّ الناس المتدينين هنا في هذا الدير؟ ومن الذي قرّر ظهورهم كقلاع؟ هم؟ أم أنا؟

أفرغ من تدوين المخطوطة. ظنّي أنّ كلّها تقريبًا سليمة. تذكّرها أسهل ممّا ظننت. حينها أفكّر فيما قاله أبوللو سيمنثوس ويتضّح لي أنّ تروبوسفيري (لأنّه مختلف بالنسبة لكلّ واحد) في ذهني. هذه الوثيقة الآن ذاكرة. لكنّ الذاكرة تُذويها بالفعل. أنظر لسطر ممّا دونته: بوسعك الوثوب من شخص لآخر في العالم المادّي. لا يبدو هذا صحيحًا. هل نسيت شيئًا؟ أقطب جبيني كأنّ ذلك سيجعل ذاكرتي تتمسّد في نوع من الاحتكاك يخلق التذكُّر. الأمر أفلح. بوسعك الوثوب من شخص لآخر في العالم المادّي (فقط إن كان الشخص في تلك اللحظة عرضة لعالم الأذهان كلّها). حسنًا، لا أعرف معنى هذا، لكنّه على الأقلّ مكتوب هناك في ورقة.

أتثاءب. جسدي يرغب في النوم-والأكل-لكن ذهني يرغب في مواصلة هذا: مواصلة الإجابة على الأسئلة حتّى تنفد. أنظر مرّة أخرى للقائمة التي

دوّنتها، أبتسم للإشارة لهيدجر، ماذا عساه يعمل أبوللو سيمنثوس ليفكر في هيدجر؟ لكنّ شيئًا ما في نفسي يقول لي إنّ أبوللو سيمنثوس يعرف كيف يفسّر الأمور للآخرين بلغتهم الخاصّة، ولغتي بالفعل تشمل مصطلحات مثل الموجود والكائن، وكذلك مقابلاهما الأعظم: الوجود والكينونة. لم أنسَ قطّ ما قرأته في الكينونة والزمان مع أنّ عدم إنهائه من أهمّ دواعي ندمي في حياتي. أتذكّر تلك المصطلحات لأنّها التي كتبت بشأنها ملاحظات كثيرة جدًّا، كلّها في هامش الكتاب.

حين كنت أقرأ الكينونة والزمان كنت دائمًا أفكّر فيه بأنّه الكينونة ووقت الغداء، كانت تلك طرفتي بيني وبين نفسي خلال الشهر الذي قرأت فيه أول مئة صفحة من الكتاب، استغرق ذلك وقتًا طويلًا هكذا لأنّي كنت أقرؤه وقت الغداء فقط، مع حساء وقطعة خبز في المقهى الرخيص القريب من المسكن الذي كنت أقطن به وقتئذٍ بـ(أكسفورد)، لم يكن بهذا المسكن ذرّة دفءٍ، وكان رطبًا، فكنت أقضي الشتاءِ بأمراض الصدر والصيف مع وفود الحشرات، لذلك كنت أحاول أن أقضي فيه أقلّ وقت ممكن. فكنت أذهب يوميًّا للمقهى وأجلس هناك لساعة أو اثنتين أقرأ الكينونة والزمان. أظنّ أنّي كنت أنهي ثلاثَ صفحاتٍ أو أربعٍ في اليوم. حين أتذكّر هذا لا يسعني سوى أن أتساءل: هل يعلم أبوللو سيمنثوس بهذا أيضًا؟ هل يعلم اليوم الذي أُغلق فيه المقهى للتجديدات وتوقفت عن الذهاب إلى هناك؟ هل يعلم أنّني بدأت علاقة مع رجل أراد أن يقابلني وقت الغداء، وأنّني تخلّيت عن هيدجر من أجله؟

ليتني أنهيت الكتاب. ليتني أحضرته معي. لكن من ذا الذي يحمل الكينونة والزمان وهو يهرب من رجلين يطاردانه بمسدّسات؟ أنهض من الفراش. ثمّة خزانة كتب من الطراز القديم قائمة بذاتها على الجدار. لها واجهة زجاجية ومفتاح فضّي صغير. أرى من الزجاج كتبًا كثيرة للبابا جون بول الثاني، من بينها ديوان لأشعاره. ثمّة أيضًا نسخٌ بنّية سميكة من الإنجيل ونسخٌ بيضاء رفيعة لتفسيراته: جميعها متربة. لا يوجد كتب زرقاء سميكة.

لا يوجد الكينونة والزمان. كأنّني كنت أتوقّع وجوده. معدتي تصدر ضجّة مميّزة أخرى، كما لو كانت بالونة ينفخها أحدهم. سأحتاج لأكل إن كنت سأعود للتروبوسفير، ثم سأفكّر في كيفية العثور على بيرلوم.

الرواق مظلم وبارد. لا أصدّق أنّي سأسرق طعامًا من مطبخ دير. هل يعدّ هذا سرقة حقًّا؟ أنا متأكّدة أنّه إن كان أحد غيري مستيقظًا وسألته، سيخبرني أن أعتبر نفسي في بيتي، هذا ما يقولونه عادةً للضيوف، أليس كذلك؟ أقلّه لم أمارس الجنس هنا؛ لم أمارس الجنس في الدير مع قَسٍّ سابق.

أتساءل أين آدم؟ تراه في إحدى غرف الضيوف؟ أتخيّل مقابلته مصادفة في الرواق والتراجع في كلّ ما قلته سلفًا. لكنّي لست واثقة من أنّ بوسعي ذلك. تتلوّى دواخلي بعضها على بعض حين أتخيّل ملامسته؛ ملامسة أيّ جزء منه. لا يبدأ هذا كفكرة جنسية، لكن سرعان ما تصير كذلك. أتخيّل لعق قدميه وخدش ظهره. بينما يتلوى ذهني بحدّة أكبر، يتساقط منه كلّ شيء. لا رجال بمسدسات؛ لا دير. في نصف ساعة مستحيلة مع آدم، نصف ساعة بدون سياق، ماذا سأفعل؟ يمكننا فعل أيّ شيء. إلى أيّ حدٍّ سأتمادى؟ كم ستستغرق هذه الرغبة لتخمد؟ تتراقص صورُ نشوةٍ عنيفةٍ في ذهني كزجاج مكسور، وأتنهّد إذ تنهار الخيالات، لعلّي لن يرضيني شيء أبدًا.

باب المطبخ مغلق، لكنّه ليس موصدًا، مظلم بالداخل، لكن ما زال في الموقد بعض حرارة، وثمّة وهج برتقالي لبعض وقود يحترق بداخله. لا أشعل النار إذ الوهج البرتقالي ينير لي بما يكفي. فقدت رائحة اليخنة ـ التي بدت من قبل شهيّة جدًّا ـ كثافتها وباتت كشيء ما أقرب لذكرى عن وجبة: رائحة الطعام البلاستيكية تلك التي تشمّها عادةً في المؤسّسات. أجرّب عدّة أبواب قبل أن أجد خزانة المؤن. توجد علب بسكويت كبيرة باللونين الأحمر والفضّي مكدّسة جميعًا بعضها فوق بعضٍ، حوالي عشرين علبة فول مدمّس من الحجم المخصّص للمطاعم، لبن بودرة ولبن مكثّف، وعدّة قوالب خبز، ما الذي يمنحني الطاقة حقًّا لأستطيع البقاء في التروبوسفير؟ أتذكّر مقالات النصائح من مجلّات النساء اللائي سكنّ معي

في السنوات السابقة. كربوهيدرات مركّبة. هذا ما أحتاجه. مكرونة قمح، أرز بنّي. لكن لا أستطيع طبخ شيء. يوجد صندوق فواكه. أتذكّر أنّ الموز مصدر جيّد لشيء ما أو آخر. آخذ ثلاثة ثم... بعد التفكير في الأمر جيّدًا، آخذ السبطة كلّها. قد آخذ بعضها معي حين أرحل. قالب صغير من الخبز البنّي مقطّع شرائح. برطمان عسل أسود. زجاجة ليمون. بربّك، سأسافر لعالم آخر بشطائر عسل أسود وموز وعصير ليمون. فكرة سخيفة. ما إن أقرّر إقفال خزينة المؤن حتّى أرى شيئًا آخر: عدّة أُصصٍ ضخمة لبديل الوجبات عالية الطاقة. آخذ واحدة تحسّبًا فقط، لها شكل أسطواني بنّي بحروف وردية مبهجة. أفكّر في الحروف الكبيرة الغبية على المنتجات، ثم أفكّر في الآي بود. ثم: بيرلوم. لقد نسخت كلّ ملفاته على الآي بود. بالطبع.

عودة لغرفتي، لا يستغرق تشغيل حاسوبي المحمول وتوصيل الآي بود به طويلًا. أنقل إليه ملفّات بيرلوم، ثم أفصل الآي بود وأخبّئها في قاع حقيبتي. أسمع ريحًا تعصف في الخارج وأتخيّل عاصفة ثلجية، شيء ما مثل أرقام لوكا تصاب بفيروس، برغم ما قاله آدم أنّ الثلج توقّف. آكل ثلاث موزات، كلًّا منها ملفوفة في شريحة خبز، وأرشف الليمونادة وأتصفّح الملفّات. أرى السيرة المهنية لبيرلوم غير محدّثة، مع أنّه على ما يبدو قضى فترة منذ ثلاث سنوات يتقدّم إلى وظائف في الولايات المتّحدة. أجد أنّه كان في منتصف رواية يكتبها حين اختفى. (وأتساءل هل أخذ معه الملفّ؟ هل انتهى منها؟) الفصل الأول جيّد جدًّا. لكن من الواضح أن لا شيء فيه يفيدني للعثور عليه. لا أستطيع أن أمنع نفسي من قراءة خطّة الرواية كلّها قبل أن أتركها. إنّها صفحة واحدة فقط. تدور عن أكاديمي صغير يدخل في علاقة مع صديقته التي تصير حاملًا منه، فيما بعد تكتشف زوجته أمر العلاقة (لكنّها لا تكتشف أمر الطفلة) وتطلب الطلاق، لكنّ زوج الصديقة يعتقد أنّ الطفلة منه، وحين يموت تخبر الأم الطفلة بحقيقة أبيها وتبدأ الأخيرة علاقة متردّدة بأبيها البيولوجي. يعيش الراوي

وحده بصحبة الكتب فقط، ويتمنّى لو أنّه يرى ابنته أكثر. بعد أن أغلق هذا الملفّ أواصل البحث في الملفّات الأخرى. أجد كافّة الملفّات التي كان على بيرلوم إعدادها للحصول على كرسي الأستاذية. خطابًا لمدير البنك الذي يتعامل معه. لكن لا شيء على الإطلاق يشير لنيّته الاختفاء، أو ترك الجامعة دون أن يعود لها أبدًا. المزيد من الخطابات. خطاب لصنداي تايمز يحتجّ فيه على كاريكاتير يُسيء لدريدا في الأسبوع ذكرى وفاته. أبتسم لهذا لأنّي أتذكّر وقت أن رأيت الكاريكاتير وتمنّيت أن يكتب أحدهم بشأنه. ثمّة خطاب لشخصية لا أعرفها، مولي. لا لقب. مكتوب بأسلوب غريب، مثل أسلوب التحدّث مع الأطفال. ثم أدرك أنّه لطفلة بالفعل. الخطاب مكتوب لطفلة ـ أو مراهقة على سبيل التخمين ـ في مدرسة داخلية. يعدها بيرلوم أنّه سيزورها قريبًا وأنّه سيرسل لها نقودًا. ما الذي قد يفعله بيرلوم مع تلميذة في المدرسة؟ يمتلئ ذهني بأفكار مشينة.

ثم أعود لملفّ الرواية مجدّدًا. إنّها ابنة بيرلوم؛ بالطبع هي كذلك. ظننته عزبًا فقط ـ أو مطلّقًا ربّما ـ رجل في خمسينياته. لم أكن أعلم أنّ لديه ماضيًا أليمًا، مع ذلك كان يجب أن أدرك هذا. بالتأكيد، بدا دائمًا كرجل له ماضٍ أليم.

لا يوجد في الخطاب سوى عنوان بيرلوم. لكنّي الآن أجد خطابات أخرى ـ قائمة كاملة من الخطابات أسفل الخطاب الموجّه لمدير البنك ـ هذا يُكمل الصورة. جميعها موجّهة لدكتور ميتشيل وحول موضوعات مثل مصاريف المدرسة، البلطجة والدروس الإضافية. أبحث في الخطابات الموجّهة لمدير البنك وأجد تعليمات لفتح وديعة مباشرة لمدرسة بهيرتفوردشاير. المرجع مولي ديفيس. الآن أفهم. بيرلوم مسئول عن نفقات تعليم ابنته في مدرسة داخلية. يوجد عنوان في تلك الخطابات. عنوان المدرسة.

ذهني يئزّ. هل يمكنني الوصول لبيرلوم من خلالها؟

يجب أن أعثر على أبوللو سيمنثوس.

حين أعود للتروبوسفير، ألاحظ أنّ للساحة أكثر من أربعة أركان. تقف القلاع نفسها محيطة بها بلافتات النيون الوردية نفسها ما زالت تبدو كمستحيلات. تنعق البومة مرّة أخرى.

«أبوللو سيمنثوس»، أقول.

لا شيء.

أدعو اللوحة.

ليس لديك خيارات، تقول.

«هل ما زال بإمكاني استخدام بطاقة أبوللو سيمنثوس»؟ أسألها.

انتهت صلاحية بطاقة أبوللو سيمنثوس.

اللعنة. ظننته قال إنّ بإمكاني استخدامها عدّة أيّام أخرى.

أتجوّل في الساحة، لكنّ كلّ شيء مغلق حقًّا. ثمّة طريق يؤدّي لخارج الساحة فأسلكه. في كلّ خطوة أفكّر في حسابات أبوللو سيمنثوس التقريبية بأنّ كلّ وحدة الزمن/ المسافة في التربوسفير تعادل 1.6 منها في العالم الحقيقي. بكم الخطوة إذن؟ كم من الوقت تستغرق هذه؟ إن خطوت مئة خطوة، واستغرق الأمر دقيقتين مثلًا، متى سأستيقظ في الدير؟ متى أتوقّف وأعود لئلّا يفوتني الفطور؟ لأيّ مدى عليّ أن أبعد ليعتبروني ميّتة؟ أتقدّم للأمام، أمُرّ بساحتين لانتظار السيارات وحانة موسيقى جاز. على الجانب الآخر من الطريق ثمّة نادي تعرٍّ متهدّم على واجهته البيضاء بقع زيت كأنّه تعرض للحريق مؤخّرًا. لا اسم لأيٍّ من تلك الأماكن، لكنّ نادي التعرّي عليه رسم سلويت لفتيات على قضبان، وعلى حانة موسيقى الجاز صورة لساكسفون، في ركن منها. ثمّة درجات أسمنتية تؤدّي لزقاق في نهايته دار سينما وساحة انتظار سيارات أخرى. لا يبدو أيّ من تلك الأماكن مغلقًا، ما من لافتات نيون وردية هنا. دونما تفكير في الأمر حقًّا أدخل حانة موسيقى الجاز. لكن لا موسيقى ولا دخان.

لديك الآن خيار واحد.

أنت... أشعر بالبرد وأريد أن أخري. لكن يبدو أنّنا سنجلس هنا للأبد. أدار إد التدفئة على أقصاها، وما زالت قدماي متحجّرتين، ثمّة ثلج على الأرض بالخارج والريح تعصف أيضًا، العلامة على الكنيسة في الجانب المقابل من الشارع تتلفت يمينًا ويسارًا. من سيّدة الكرميل تلك؟ تجعلني الكلمة أفكّر في الكاراميل، أهي قدّيسة مصنوعة من الكاراميل أو شيء كهذا، السيارة رائحتها قهوة وأطعمة سريعة، ودواستها مغطّاة كلّها بعلب الساندوتشات، أركل أحدها فتصدر صوتًا رفيعًا لبلاستيك يتكسّر.

«ما هذا»؟ يقول إد.

«علبة ساندويتش». أقول. «آسف».

لا يقول شيئًا. عيناه مجرّد بُؤبُؤين فقط.

«لعلّها ليست بالداخل». أقول.

«انظر، القسّ يعلم بشأن الكنائس وهي تضاجعه، صحيح»؟

«نعم، لكن...».

«وهو يأتي هنا «حين تسوء أموره»، فلماذا لن يطلب منها هي أيضًا المجيء لهنا؟ الاثنان يعلمان أنّنا ليس بوسعنا فعل شيء لهما طالما بقيا بالداخل، لعلّها تعلم هي ذلك بطبيعة الحال، من يعلم كم ظلّ لديها الكتاب؟ لعلّها ظلّت تُبحر في فضاء الأذهان سنوات».

«أظنّ أنّ الكتاب في طريقه إلى ليدز».

«أين ليدز تلك أساسًا»؟

أرفع كتفي. «شمال غرب؟ ليست قريبة من هنا».

«خراء».

«سنحصل على الكتاب».

«لم نحصل عليه المرّة الماضية».

«سنحصل عليه».

أنا... أوه، اللعنة، أنا في ذهن أحد الرجلين الأشقرين. مارتن، مارتن روز. حسنًا آرييل، لا تدعيه يعرف أنّك هنا، لكن كيف تتجوّل على أطراف أصابعك في ذهن أحدهم؟ ششش. هل أبقى أم أذهب؟ لوحة؟ يظهر الشيء كشريحة شفّافة والآن أنا/ مارتن أنظر إلى إد، وجهه مزدحم بطبقة من الصور. شخص يخبز شيئًا ما؛ آخر يقود على طريق سريع؛ آخر يشخص ببصره إلى أعلى إلى سماءٍ زرقاءَ. ماذا تكون تلك الصور؟ أتذكّر كتيّب أبوللو سيمنثوس:

تحقّق التواثب بالتقارب جغرافيًّا (في العالم المادّي)، شخصيًّا (في التروبوسفير)، سلفًا (في الذهن).

حسنًا. إن كنت قريبًا من شخصٍ ما في العالم المادّي، بوسعك الدخول لذهنه في التروبوسفير، هذا معقول إلى حدّ ما. هذان الرجلان خارج الدير تمامًا، وكان عليّ أن أعبر شارعًا مجازي لأصل إليهم. لا أفهم معنى شخصيًّا هنا. لكن سلفًا، هل هو ما أراه الآن؟ هل لتلك الصور علاقة بآبائه وأجداده؟ هل تلك رؤاهم؟ ثمّة ثلاثة منهم فقط. ليس بالكثير من الأسلاف. كان في ذهن الفأر مئات الصور. هيا يا آرييل فكّري... لكن لا أريد أن أفكّر بصوتٍ عالٍ حتّى لا ينتبه مارتن لوجودي هنا. تحدوني رغبة قوية لأجرّب إحدى الصور في اللوحة لأرى ماذا سيحدث، لكنّ حدسي يقول لي إنّ هذا سيعتبر خطأً جسيمًا. حين فعلت هذا آخر مرّة مع الفئران حدث أن قفزت من أسفل خزانة الحوض بمطبخي إلى الباحة الخلفية في ذهن فأر عند صناديق القمامة، الذي لا بدّ أنّه كان ـ ماذا ـ والد الفأرة الأولى؟ جدها؟ من يعلم أين سأنتهي إن قفزت هنا؟ في مكان ما بأمريكا ربّما. ماذا يسمّى هذا في التروبوسفير؟

«إد»؟

«ماذا»؟

«إن ظلّت هناك في الداخل، فلن يكون بوسعنا عمل شيء حقًّا».

«صحيح».

«هل تعلم هي هذا»؟

يرفع إد كتفيه. ثمّة مدخل يحلّق أعلاه بوهنٍ طوال الوقت. لكنّي أرى الآن صورة أخرى في اللوحة. إنّها صورة لسيّارة من الداخل ورجل أشقر... هذا أنا/ مارتن. هل لي إذن أن أختار أن أكون إد الآن؟ هل هذا صحيح؟ هل أثب؟ هل أفعل ذلك؟ لا. ابقَي، مكانك أكثر أمانًا. أحاول أن أسترخي وأدع «ذاتي» تتوارى، حتّى أصير مارتن بشكلٍ كامل وأتوغّل فيه لأبعد من مجرّد سطح أفكاره. ثم ـ مثل ارتداء زيٍّ جديد؛ شيء ما دافئ جدًّا، كسترة في يوم حارّ ـ يُبطئ وعيي، و«ذاتي» الآن ذات مارتن...

«بوسعنا أن نحرقها»، أقول وأنا لا أعني ذلك حقًّا. إذ لم آتِ هنا لأحرق كنائس.. أو أطلق النار على قساوسة. لقد تسنّت لنا فرصة ثانية للحصول على الكتاب، و، حسنًا، تصرفنا بجنون قليلًا، لكن من الناحية الأخرى لم يعد لدينا الكثير من التركيبة، لهذا يبدو الأمر كلّه طارئًا، لن تسمح لنا بطاقتا المخابرات المركزية الأمريكية الخاصّة بنا سوى بهذا الحدّ، خاصّة إذا قرّر أحدهم الاتصال بالرقم فعلًا والتحدّث لرئيسنا السابق، ماذا سيقول؟ لا. لم أر هذين الولدين منذ أن التحقا بمشروع ستار لايت، لم أرهما منذ أن وقّعت على استمارة إقالتهما من وظيفتيهما. المخابرات المركزية الأمريكية؟ لم يعد الأمر كذلك الآن.

«ليست فكرة فظيعة»، يجيب إد. «على الأقلّ سنحظى ببعض الدفء».

«إنّها فكرة بشعة. انسَ أنّي قلتها بالمرّة».

«لماذا؟ سنُدخِنهم. إنّها فكرة عبقرية».

أنظر إلى الخارج من الزجاج الأمامي. أفكّر أن لديّ مشكلة في إطلاق النار على القساوسة، لكن بإمكاني أن أطلق النار عليها هي، آريل مانتو، أعتقد أنّها تتوقّع هذا، ما يجعل الأمر أسهل. لم تكن المرّة الأولى سهلة.

أتذكّر أنّي تقيّأت في حمام أحد المطاعم الزرقاء البالية بالغرب. استندت على التجويف وكان عليه بعد ذلك دم، دم من يدي. بعد ذلك كان قتيلي التالي حثالة من الأساس، وكان يتوقّع هذا. جعلني هذا أدرك أنّ ثمّة إمكانية لإلغاء الملمح الشخصي عند القيام بمثل تلك الأمور، وبعد ذلك اكتشفت أنّ بوسعي القيام بهذا دون أن أكون هناك حقًّا، كأنّك هناك لكنّك لست هناك، كأنّ ثمّة ضبابًا في ذهنك ثم تزيله بعد أن تنفذ كلّ شيء، ثم أنّه، كلّ هذا الوقت في فضاء الأذهان، يجعلك تشفق على الناس بقدر أكبر، لكن مع ذلك، ما زال علينا التخلّص ممّن يعلمون السرّ... لمّا كنّا نحن أنفسنا نعلم السرّ. أركل علبة الساندويتش مرّة أخرى وينظر إليّ إد بسخط. من حين لآخر تتوقّف مسّاحات السيارة فيتراكم الثلج في تلك المجاري الصغيرة على حوافّ الزجاج الأمامي. الدير أمامنا مباشرة على الجهة اليمنى: مبنى صغير من الطوب الأحمر. هل يمكن أن أخرج من السيارة وأشعل فيه النار؟ كيف تشعل النار في شيء؟ هل هذا صعب، خاصّة في هذا الثلج؟ سنحتاج لوقود من أجل هذا، وشيء ما قابل للاشتعال، وقدّاحة.

«لا أظنّ أنّ إحراق مكان أمر بهذه السهولة».

«كيف إذن بربّك سنخرجهم من هنا»؟

«لا أعلم».

فترة صمت طويلة.

«أشعر بالبرد».

«وأنا أيضًا».

يهدأ ذهن مارتن - أو على الأقلّ سطح أفكاره - إلى أن يصير غمغمة من إحساسات مادّية، ويبدو كأنّ وعيي الخاصّ يكافح تلقائيًّا للخروج من قيد زيه. تعود «ذاتي». كيف إذن ألج ذاكرة مارتن؟ ما زالت اللوحة هناك، وألحظ «زر» الخروج. أغلق اللوحة بمجرّد التفكير في إغلاقها. الآن أجلس هناك فقط في حاضر مارتن، أحتلّه دون أن يعلم شيئًا عن الأمر، لا

ينبغي أن أدعه يعلم بوجودي، لكنّي أريد ذكرياته، أريد أن أعلم ما يعلمه. كذلك فعل السيد واي في الكتاب، ولذلك يجب أن يكون بمقدوري أنا أيضًا فعل هذا، الآن طالما صار الخيال حقيقة.

«الطفولة!» أفكّر على سبيل التجربة، أحاول أن أمنح علامة التعجب اليقظة الحسّ الآمر الذي أمنحه حين أستدعي اللوحة! لا يحدث شيء. أحاول الاندماج قليلاً في مارتن. أكبح ذاتي بكلّ جهدي. أشعر بما يشعر به. أتوقّف عن أن أكون أنا في الوقت نفسه الذي أكونه هو. أركّز في كمّ الخراء في أمعائي، وكيف أنّي حتّى لست متأكّدة من رغبتي في التركيبة بقدر رغبتي في أن أكون الآن في حمّام نظيف وجيّد التهوية وقدماي حافيتان على سجادة كريمية ذات زغب، أُفرّغ أحشائي، أُخرج كلّ الفضلات من نظامي... أحاول مرّة أخرى، «الطفولة!» وها هي بغتةً: صورة لدُمية بلاستيكية؛ هذا الشيء الذي يتحوّل من روبوت لسيارة ثم لروبوت مرّة أخرى، وأشعر بشيء ما إزاء قطعة البلاستيك تلك: رغبة؛ أمل؛ نوع ما من الانتصار... «مشروع ستارلايت!» أفكّر. وها هو: أختنق داخل مارتن فيما يبدو أنّ «ذاتي» توقّفت عن الوجود نهائيًّا وصرت مارتن في الماضي... في...

حجرة بيضاء، وفي رأسي وصدري أقطاب كهربائية موصلة. هذا غريب ومختلف عن المراحل السابقة من الدراسة، حين كان عليّ أن أحمل صورًا لمثلثات ودوائر ومربّعات، وأحاول نقلها لإد وهو في حجرة أخرى. يبدو هذا أقرب لتجربة الرؤية عن بعد... ليس أنّني كنت ماهرًا في هذا. كان رجال آخرون يسافرون بأذهانهم إلى العراق، ويرسمون صورًا لنفايات أسلحة، ومصانع تكنولوجيا حيوية، وأنفاق عميقة. لم أستطع إيجاد أيّ من هذا الخراء في ذهني. عدّة جِمال: قالوا إنّني تخيّلتها. لكنّ هذا مختلف تمامًا. جعلوني أتجرّع تركيبة ما من قارورة اختبار شفّافة، وأوصلوني الآن بهذه الآلة. أجلس على شيء ما يبدو مثل كرسي كهربائي مدمج بكرسي طبيب الأسنان. لكن... ثم ها أنا في عالم آخر.

حين أخرج من هذا العالم الآخر وأنتهي من ملء استمارة الاستجواب، يخبرونني أنّي كنت في مكان يُدعى فضاء الأذهان. وأفكّر «ماذا بحقّ الجحيم يكون فضاء الأذهان هذا؟»، لا أحد يجيبني. لكن سرعان ما صرت أقوم بمأموريات هناك من أجلهم؛ برحلات للعراق، لكنّي لا أبحث عن أسلحة، ليس أنّ هناك أسلحة لأبحث عنها - ليس حسب ما يقوله آش - الرجل المسئول عن هذا الجزء من البرنامج، أذكر أنّه قال لي ذات مرّة إنّ مهارة الرؤية عن بعد عملة ذات وجهين: 1) إيجاد ما هناك، و2) إيجاد أيًا ما يأمرون بإيجاده. هكذا لا أبحث عن أسلحة في العراق، بل أقرأ أفكار الناس، مع ذلك لا أحد يدعني أقترب من صدَّام، لست ماهرًا بما يكفي، بالإضافة لصحيفتي الأمنية غير المؤكّدة قليلًا، مع ذلك كلّه ترشّحت أنا وإد للقيام بهذا بعد أن انفلت زمام الأمور في نيو أورليانز، وصرنا على رأس قائمة المنقولين، وتمّ نقلنا إلى برنامج بانورامي مضحك! ليس هناك أفضل من هذا لتريح نفسك من عميلين محتالين. على كلّ حال، حين صار البرنامج في أوجِه، تضمّنت مهامي ناسًا أدنى من صدَّام في سلّم ورق الكوتشينة، اثنين (ديناري)، ثلاثة (بستوني). كنت أخرج إلى هناك، وأعود، ثم يأتي شخص من الجيش ليستجوبني. صارت تلك وظيفتي. كنّا أنا وإد نتضاحك بشأن ألقابنا الوظيفية: عملاء الأذهان.. شيء ما كهذا.

تتلخّص مهارة العمل في فضاء الأذهان في القدرة على التخطيط لرحلتك. كان هذا مدعاة لسروري؛ كنت أعلم أنّ بإمكاني العثور على أكثر الطرق فاعلية للوصول للعراق ثم العودة مرّة أخرى، دون أن أُضطرّ للإبحار في فضاء الأذهان اللعين بأكمله. بالطبع كان هذا المشروع مصنفًا سريًا، لذلك لم يخبرني أحد بما كنت أفعله، أو كيف يُستخدم. لكنّه إثارة حقيقية، الإبحار في الأذهان: ركوب الذكريات إلى طيّ النسيان ثم الرجوع. كنت أتمنّي لو أخبر أصدقائي... لكن ما إن تكن في أحد تلك المشروعات، فَانْسَ أن تتحدث حتّى إلى والدتك بعد ذلك. إد يهتمّ بالجانب الفلسفي من الأمر أكثر منّي، أعتقد ذلك بموضوعية. وأظنّ أنّ لديّ تساؤلاتي الخاصّة

عن الحقيقة والأحلام والماضي والمستقبل. لكنّنا في الغالب لا نخوض في هذا، بل نتحدّث في الغالب عن الأعضاء النسائية، نعم، مثلما حين كنت في دماغ إحدى النساء على متن طائرة تتّجه لبغداد (أمر عجيب أن يكون بمقدورك السفر حول العالم كلّه في أذهان الناس وتظلّ على يقين أنّ الطائرة هي أكثر السبل فاعلية للسفر)، وفجأة توجّهت تلك المرأة لحمام الطائرة وأمتعت نفسها. كنت في أول الأمر أختار دائمًا أن أكون امرأة إن أمكنني، مع هذا لم يعد ذلك فاتنًا جدًّا بعد فترة، إذ كنت تارة مصابًا بسرطان الثدي، وكنت أعلم أنّي سأموت. كان هذا كالمضاجعة في الدماغ. كنت تارة أخرى في رأس تلك المراسلة الصحفية، إذ كان من المفترض أن أحصل على معلومات عن خاطفيها، وانتهى بي الأمر أن اغتصبني ثلاثة منهم. كنت في الغالب أخرج من الغيبوبة لأخبر إد بأحدث مغامراتي وأنا بثديين ومؤخّرة، لكنّ الأمر صار قديمًا، وفي النهاية صرت أستخدم الرجال فقط في الانتقال، وكنت أتظاهر أمام إد أنّي داعبت فرجي، أو ضاجعت نفسي بديلدو[1] أو شيء من هذا القبيل. لعلّه كان يفعل الشيء نفسه حينها. من يعلم؟

أظنّ أنّ البرنامج كان يسير جيّدًا حقًّا حتّى أحضروا طفلًا. كان ليستمرّ، ومن يعلم إلى أين كنّا سنصل به؟ مع أنّني، للأمانة، متأكّد أنّه ما زال مستمرًّا في مكان ما، في ذهن أحدهم. لا بدّ أنّه كان عددٌ كافٍ من الناس قد عرفوا التركيبة حين أخبرونا أنّه تمّ تسريحنا من الخدمة. لكنّ فكرة طفل كانت فكرة سيّئة (الكلمة اختصار من الحروف الأولى لطريقة فبركة للكرمة)، لكنّها عمومًا بمثابة كومة من الحماقة وليست سوى مبرر لاختصار لائق لكلمة (طفل). بدأ الأمر كلّه حين أدخل رئيس الدراسة طفله شبه المتوحّد لفضاء الأذهان. كان هذا الطفل في السابعة من عمره ودخل إلى هناك أسرعَ منّا جميعًا، ثم وجدوا أنّ لديه القدرة على منع شمبانزي من أكل الآيس

(1) جهاز له شكل العضو الذكري يُستخدم للمتعة الجنسيّة.

كريم فقط بمجرّد رغبته في منعه من هذا، ثم أجروا المزيد من الدراسات على المزيد من الأطفال المتوحّدين، اقترضوا عددًا قليلًا منهم من وكالة الأمن القومي... غضوا النظر عنهم في الإحصاءات المبدئية للدراسة. بدا أنّ بمقدور هؤلاء الأطفال التأثير على أفكار الناس. كان بإمكانهم تغيير الأشياء حقًّا. ثم جاءوا بمجموعة كاملة منهم وعلقنا جميعًا بهم: كلّ عميل من البالغين مع أحد الأطفال يعملان معًا كفريق واحد.

كانت طريقة العمل بسيطة جدًّا. في البداية يتمّ إدخال الطفل لذهنك. ثم تدخل أنت لفضاء الأذهان. أينما تذهب، يذهب معك الطفل أيضًا. قد تكون سائرًا في العالم المادّي بهذا الصوت الصغير في رأسك يذكرك بالرقم السرّي لماكينة سحب الأموال، أو بتاريخ ميلاد أمّك، أو بالصياغة الدقيقة لوثيقة قرأتها منذ خمس سنوات. بمقدورهم أيضًا قراءة ذكرياتك لك مثل الأوتوكيو[1]. لكنّ الأمر صار غريبًا حين تأخذ طفلاً في ذهنك لفضاء الأذهان. ما أعنيه أنّه كان شيئًا رائعًا أحيانًا، أن يكون معك صاحب صغير يسير معك في هذا المشهد الطبيعي المجنون... لكن فور أن تدخل ذهن شخص ما، حتّى تشعر وكأنّك داخل ماتريوشكا [العروس الروسية]، حيث يكون صوت الطفل ـ العروسة الصغرى ـ صوت رأسيكما، وعليك أن تتعلّم كيف تنطفئ أنت وقت أن يُملي الطفل على الشخص الذي أنت في ذهنه أيًّا كان ما تريد من هذا الشخص أن يفعله، لأنّ هؤلاء الأطفال بإمكانهم حقًّا التلاعب بالواقع، أو على الأقلّ، تغيير أفكار الناس.

كنّا نأخذ أطفالنا معنا حين ننطلق، ولم يكن أحد يعلم أنّهم سيظلّون معنا، كانوا قد ماتوا بالطبع. كلّ هؤلاء الأطفال ماتوا. لهذا تمّ وقف المشروع. ما من مشروع يتسبّب في قتل مئات الأطفال ويستمرّ، سواء كان بتمويل حكومي أم بدونه، كان الأطفال ببساطة قد قضوا في فضاء الأذهان

(1) جهاز إلكتروني يمكن المذيع من قراءة ما هو مكتوب عليه بينما ينظر مباشرة إلي الكاميرا.

وقتًا طويلًا، لم يكن أحد يعلم أنّه إن ضللت طريقك هناك فقد يتسبّب هذا في الموت. لم يتمكّن أحد من إيقاظ الأوغاد الصغار المساكين.

والآن لم يتبقّ لدينا سوى زجاجة واحدة من التركيبة من مجموع العشرين زجاجة التي أخذناها معنا حين غادرنا. وماذا أقول؟ الإبحار في فضاء الأذهان أمر ليس بالإمكان الإقلاع عنه، لذلك نحتاج الوصفة، والوصفة في الكتاب. بالطبع لا نحتاجها لأنفسنا فحسب. هل بإمكانك تخيّل قدر المال الذي يحمله هذا؟ إن توصلنا لها، سيكون بوسعنا بيعها بآلاف أضعاف المبلغ الذي يدفعه رجال الأعمال الأثرياء للسفر للقمر. تلك هي المرّة الوحيدة في حياتي التي أقترب فيها من شيء بهذه القيمة. يجب أن أحصل على الكتاب. يجب أن أحصل على الكتاب...

أنا... في الحقيقة... يجب أن أخري. الإلحاح مثل صوت في رأسي.

«إد»؟

«نعم».

«أريد مرحاضًا يا رجل».

«لأجل يسوع. ألا تستطيع أن تمسك نفسك»؟

«لقد أمسكت نفسي لعدّة ساعات الآن، وأظنّ فعلًا أنّني على وشك أن أفعلها في سروالي. ثم إلى متى سنظلّ هنا على كلّ حال؟ لقد قاربت الساعة على الثالثة صباحًا».

«يا يسوع المسيح». يدا إد على عجلة القيادة، برغم أنّنا لم نقد السيارة لساعات، يحركها الآن يمينًا ويسارًا كأنّ شيئًا ما يحدث، كأنّنا لا نجلس هناك ساكنين فحسب. تنكبح العجلة ويسب إد. «اللعنة على المسيح».

«آسف، لكنّك تعرف... قد نظلّ هنا إلى الأبد وقد لا تخرج هي أبدًا».

يحني إد كتفيه للأمام. «إن كانت في الداخل هناك».

«نعم. إن كانت في الداخل هناك. ما زلت أظنّ أنّها في ليدز».

«لا يمكن أن نفقد الكتاب».

«أعلم. أنا أريده بقدر ما تريده».

يمسح إد وجهه. «حسنًا. خطة جديدة».

أتنفّس بصعوبة كشبح ممزّق. «هات ما لديك».

«ماذا لو انصرفنا من هنا الآن؟ وذهبنا لننام قليلًا. ونوكّل الطفلين بهذه المَهمّة، ونرسلهما في أثرها».

أكاد أسأله كيف يرى هذا بدقّة، لكنّي أرغب بشدّة في أن ننتهي من هذا الآن، فأقول فقط: «جيّد». أفكّر في السجّادة ذات الزغب التي في خيالي والمشمّع المتكسّر في النزل، أيًّا كان، يجب أن نذهب، يجب أن أقضي حاجتي، شيء ما بالتأكيد يلحّ عليّ أن أذهب من هنا الآن.

الجزء الثالث

إنّ الكينونة الحقيقية لأيّ [كيان ـ هنا] هي بالفعل في ما كانه، وهي «ما كانه» بالفعل. هو ماضيه، سواء صراحةً أم لا. وهو كذلك ليس ما كان عليه في ماضيه، كما كان فحسب، بل أيضًا يدفع نفسه للأمام «خلفه»، وهذا [الكيان ـ هنا] يمتلك ما هو ماضيه كملكية تظلّ حاضرة بين يديه يكون لها أحيانًا تأثيرات ما بعدية عليه: [الكيان ـ هنا] «هو» ماضيه بالطريقة التي يوجد عليها، التي، لنقولها بفظاظة، تؤرّخ لمستقبله في كلّ لحظة.

مارتن هيدجر

«الكينونة والزمان»

الكلّ هو ما له بداية ومنتصف ونهاية. البداية هي التي لا تأتي بالضرورة بعد شيء آخر، لكن يوجد أو يحدث شيء ما بعدها. وبالعكس، النهاية هي التي بطبيعتها تلي شيئًا آخر، سواءً بالضرورة أو بصفة عامّة، لكن لا شيء آخر يليها. الوسط هو الذي في حدّ ذاته يلي شيئًا ويليه شيءٌ آخر.

أرسطو

«فنّ الشعر»

تسعة عشر

كم تبقّى لديّ من الوقت إذن؟ ليس الكثير. أرتدي ملابسي وأطوي جلباب نوم الدير وأضعه على الفراش، يداي ترتعشان قليلًا. الرجلان يعلمان أنّي هنا. أول ما سيفعلانه سيرسلان هذين الطفلين إلى هنا، بالتأكيد. هل بوسعهما الدخول إلى الأماكن الدينية؟ لكن إن كانا هما قد يئسا بما يكفي لـ... أنا فقط لا أستوعب النظام جيّدًا لأعرف ما بوسعهما وما ليس بوسعهما. يجب أن أذهب لمكان لا يمكن أن يبحثا عنّي فيه فحسب. يجب أن أذهب حيث يوجد بيرلوم، أينما كان، لقد ظلّ مختبئًا هناك سنة تقريبًا الآن.

إلّا إذا كان ميتًا، كهؤلاء الأطفال المساكين.

فور أن أستعدّ للانطلاق، أُخرج *نهاية السيد واي* من حقيبتي وأتلمّسه، للمرّة الأخيرة ربّما. لن آخذه معي: محتمل جدًّا أن يلحقا بي. لا. هذا المكان؛ هنا حيث لا يمكنهما الدخول. وربّما أعود له يومًا ما.

هل بإمكاني هذا حقًّا؟

أمرّر يدي الشاحبة على الغلاف القماشي الكريمي: لن آخذه معي.

لكن ماذا إن عثر عليه أحد هنا؟

أنظر مرّة أخرى لخزانة الكتب الصغيرة. حتى إن المفتاح الفضي يغطّيه التراب. لا أحد يقرأ تلك الكتب. إنّها هنا للعرض فقط. أتذكّر نكتة أدبية أخبرني بها أحدهم ذات مرّة عن السبب في أنّ دراسة علم اللاهوت

والتخصّص في العهد القديم أو الجديد أمرًا سهلًا. لا أتذكّر النكتة كلّها لكنّي أتذكّر الجزء المضحك: «لأنّ ليس عليهم سوى قراءة كتاب واحد فقط». لا أظنّ هذا حقيقيًّا، لكنّها أضحكتنا جميعًا ونحن نجلس إلى البار. إذن؟ هل أخاطر وأترك *نهاية السيد واي* هنا مع أشعار البابا؟ لا أرى أمامي خيارًا آخر، هكذا أفتح الخزانة وأضع الكتاب بداخلها. لا تلحظه هنا حقًّا. أغلق الضلفة الزجاجية ثم أوصدها بالمفتاح. هل آخذ المفتاح معي؟ لا... سيجدانه حين يفتّشاني بعد أن أموت. سأترك المفتاح هنا. لكن أين؟ ما من مكان آخر في هذه الغرفة لأخبّئ فيه أيّ شيء، أنا في عجلة من أمري، في النهاية أزلق المفتاح تحت خزانة الكتب.

حين أخرج تكون السيارة السوداء قد ذهبت. الهواء المثلج يكشط وجهي كآلاف من أنصال السكاكين، وفي البداية لا أفهم سببًا للدموع. الوقت قارب على الفجر وأريد أن أكون في الفراش، في الدفء، مع آدم. لكنّي بدلًا من ذلك أنا في هذا: هاربة. سأذهب وأعثر على بيرلوم وأتوصّل إلى حلٍّ لوقف هذين الطفلين من العبث بعقلي، ثم... أفكاري محدّدة ومنهجية لدرجة تخيفني؛ أنظر للدير، ولوهلة، أتخيّله مكانًا عاديًّا وليس دينيًّا: مكانًا لست خائفة منه، كان بوسعي أن أنام فيه مع آدم الليلة الماضية. فقط لو لم يكن مكانًا دينيًّا... هل فقدت صوابي تمامًا في عالم الخيالات لحدّ أنّي لم أعد أفهم ما يجري حولي، أم أنّه من الممكن فعلًا أن يكون الرجلان عاجزين عن الدخول إليه، وأنّني جعلتهما يغادران؟ هذا ما كنت أحاول فعله. ركّزت على مارتن فقط، وعلى إحساسه الرهيب المطبق، وأخبرته أنّ عليه أن يرحل ويجد حمامًا. أيكون الأمر بهذه البساطة؟ لماذا إذن ليس بوسعهما هما فعله؟ هل الأطفال فقط الذين يمكنهم هذا؟ لماذا إذن بمقدوري أنا أيضًا؟

أبوللو سيمنثوس، لماذا تخلّيت عنّي؟

ثمّة جزء من الطريق أ2 عند منتصفه مباشرة، تبدو فيه كأنّك تقود صعودًا للسماء. صُممت أغلب الطرق في بريطانيا بحيث تكون محاطة بشيء ما:

أسيجة؛ حقول؛ منازل. لكنّ هذا الطريق يمتدّ في المشهد كضربة ممحاة إلكترونية عريضة، كما لو تمّ تحديد حجم العنصورة[1] على أعلى درجة مع محو الكثير جدًّا. له لون رمادي شاحب ويتّسع لأربع حارات. ما زالت السماء قاتمة وكلّ شيء ما عدا الطريق والسماء يكسوه ثلج يتوهّج بكلّ الأضواء البيضاء المصطنعة. للمرّة الثانية خلال هذا الأسبوع، أشعر كأنّني أعيش في نسخة من صورة فوتوغرافية أبيض × أسود. الساعة السادسة صباحًا، وما عدا شاحنتين لإزالة الثلج وتغطيته بالرمل، أنا وحدي بالخارج هنا، أقود متّجهة لمدرسة ابنة بيرلوم، لا أعلم ماذا سأفعل حين أصل إلى هناك. يجب أن أعثر على أبوللو سيمنثوس أيضًا. لديّ أسئلة كثيرة جدًّا.

تدفئة السيارة تعمل على أقصى جهد وبدأت أخيرًا في تدفئة السيارة. لكنّ الجوّ بالخارج مجمّد، ولا أعلم أين سأنام الليلة، لا أعلم كيف سأنام حتّى، أو حتّى إن كان ما خططت له بالإمكان تنفيذه، كيف سأذهب للتروبوسفير الآن؟ ليس لديّ كنبة أو فراش، لدى مارتن وإد غرفة في نزل وطفلين ليساعداهما. وأعلم أنّهما على أُهبة الاستعداد لإيذائي: إنّهما يرغبان في إيذائي. ليس لديّ في العالم سوى سيارة وتسعة جنيهات ونصف. ليس بإمكاني العودة إلى الجامعة. أفكّر في شقّتي، المساحة الضئيلة المثيرة للشفقة التي كانت ملكي على الأقلّ، ومرّة أخرى أحسّ ببوادر الدموع تتجمّع خلف عيني. أرى وجه آدم حين انصرف من شقّتي، وحين انصرف ثانيةً من الغرفة الليلة الماضية. كنت متيقّنة من أنّي أقوم بالشيء الصائب. والآن أنا وحدي، حتّى أموت ربّما.

خذي نفسًا عميقًا. لا تبكي. انتبهي للطريق.

أشعر ببرودة أقوى من تدفئة السيارة... ثم يبدو أنّي يُغشى عليّ، للحظة فقط، أو أكثر قليلًا ربّما. حين أعود لوعيي، أرى لافتة لم تكن هناك من

(1) العنصورة أو البكسل: هو أصغر عنصر أو وحدة للصورة الرقمية، عرف مصطلح البكسل أول مرّة عام 1965 والعربية منها قد تكون عنصورة مزيج من كلمتي عنصر وصورة.

قبل. أفكّر أنّي «أكره حين يحدث هذا على طريق سريع»، يحدث ذلك عن قصد بالتأكيد، كأنّ ما أشعر به شيء عاديّ.

وما زلت لا أبكي

تخبرني اللافتة أنّي إن واصلت القيادة، فسأصل إلى لندن. هذا ما أريده. ثمّة لافتة أخرى تشير إلى المخارج الأخرى التي يمكنك سلكها إن أردت الذهاب إلى إحدى المدن على الطريق. لم تمتدّ إقامتي هنا طويلًا ليعني لي أيّ من تلك الأسماء أيّ شيء، ما عدا... أحد الأسماء بالفعل يعني لي شيئًا، إنّها المدينة التي يقطن فيها باتريك. تراه يقرضني نقودًا ثانيةً؟ تراه مستيقظًا في هذا الوقت حتّى؟ يقوم عقلي ببعض الحسابات الكمّية أسرع كثيرًا ممّا تعوّده وعيي. ثم، وفي اللحظة الأخيرة تمامًا، أعطي إشارة وأنطلق.

بعد خمس دقائق أوقف السيارة خارج إحدى استراحات ليتل شيف[1] قبالة طريق دائري متهدّم. ثمّة أشجار نصف ميتة في كلّ مكان، وأجمّات مكتظة بزجاجات بيرة فارغة وعلب وجبات سريعة قديمة. لهذا المكان هيئة شيء ما صمّم بشكل سيّئ في أحد ألعاب الحاسوب التي تقوم فيها ببناء مدن خيالية: ركن نسيت أن تمحوه أو تنظّفه حتّى. الساعة السادسة والنصف، هل يستيقظ باتريك مبكّرًا هكذا؟ لا أريد أن أستفزّه، أو أثير شكوك زوجته، أرسل رسالة نصّية: سأفعل أيّ شيءٍ مقابل بعض المال. أُضيف اسم المدينة وثلاثة أقواس لعوبة، يجب أن تبدو رسالة مرحة وإلّا، فلن يتقبّلها.

يلسع الهواء البارد عينيّ وأنا أترجّل من السيارة وأسير إلى باب الاستراحة. لن تفتح أبوابها حتّى السابعة. أعود أدراجي للسيارة وأدير التدفئة على أعلى درجة. هل يمكنك قتل نفسك بالجلوس في السيارة وجهاز التدفئة على أعلى درجة؟ أم يجب أن تُدير الموتور وتُدخل أنبوب العادم من النافذة؟ الآن لا يبدو أنّي أدفأ، حتّى وجهاز التدفئة يعمل. أغمض

(1) سلسة استراحات على الطريق في المملكة المتّحدة منذ عام 1958.

عينيّ. «أبوللو سيمنثوس...»، أفكّر. ثم أتساءل كيف تصلين لكيان قابلته فعلًا. هل يمكن هذا؟ «أبوللو سيمنثوس. أرجوك كن بخير. أرجوك ساعدني، إن أمكنك. أنا الآن أقوم بشيء سيِّئ، شيء لن أخبر به أحدًا أبدًا. لكنّي يجب أن أعود للتروبوسفير، وأن أراك، لذلك أنا في حاجة لغرفة دافئة». هل سيفلح هذا؟ أهكذا الصلاة؟ لا أذكر صلوات كلاسيكية حتّى، اعتدت التأمّل في وقت ما من قبل مع ذلك، لعلّ ذلك أكثر ملاءمة؟ أقضي الدقائق العشر التالية جالسة في السيارة بطنين جهاز التدفئة في الخلفية وعيناي مغمضتين، أكرّر كلمات «أبوللو سيمنثوس.. أبوللو سيمنثوس» كتعويذة، لا أعلم هل أفلحت أم لا، لكن حين أفتح عيني يتراءى لي الثلج تحت أضواء ساحة الانتظار كأنّه أخفّ حوالي ألف مرّة عمّا كان من قبل، ثم يعود العالم قاتمًا ثانيةً. الاستراحة فتحت أبوابها. أحتاج لبعض القهوة.

أكاد أنهي ثاني فنجان أكسبرسو حين يأزّ تليفوني.

باتريك. طائر مبكّر أنتِ.

أبدأ في كتابة الردّ: أعرف. ثم أتردّد، أحاول التوصّل لطرفة عن التقاط دودة دون أن أهينه بطريقة ما. لا يأتيني شيء. في النهاية أكتب ببساطة، و..؟

ـ أين أنتِ؟

ـ ليتل شيف، قبالة أ 2.

ـ حسنا، أراكِ خلال 10 دقائق.

هل سأفعل هذا؟ يجب أن أفعله. ما باليد حيلة. أرشف قهوتي وأنتظر.

حين يدخل مرتديًا ملابس العمل: سروال جينز أسود وقميص أحمر داكن.

«حسنًا»، يقول وهو يجلس. «هذا غير متوقّع».

«أترغب في بعض القهوة»؟ أقول.

«أرغب في شيء آخر»، يقول رافعًا أحد حاجبيه.

«أوه، ستحصل عليه».

«أين»؟

«ألم تقم به من قبل في دورة مياه بائسة»؟

يبتسم ويهزّ رأسه نفيًا. «يا إلهي، هذا قذر».

أبتسم. «أعرف».

«أبدًا لم...».

«أبدًا ماذا»؟

تأتي النادلة. يعضّ باتريك على شفتيه. «اثنين قهوة من فضلك». يقول.

«أبدًا ماذا؟» أكرّر حين تعود النادلة للمنضد وتتناول كوبين أبيضين من مجموعة أكواب مرصوصة وتضعهما، واحدًا بعد الآخر، تحت فوهة ماكينة القهوة.

«حسنًا...».

ليس عليه قولها. بالنسبة له، لهذه العلاقة منطق سفلي حلزوني ـ لكنّه منطق. بدأنا في الفنادق وانتهينا في استراحة على الطريق، نحتسي قهوة سيئة ونخطّط لممارسة الجنس في دورة المياه. بالنسبة له، تلك قصة: الفصل الأول: جنس باهر. الفصل الثاني: جنس عنيف. الفصل الثالث: سنفعلها في دورة مياه قذرة، وسيكون عليه أن يدفع لي لقاء هذا. أرجو أن يكون قد أدرك أن الأمر هكذا الآن. إنّه الفصل الثالث. انتهت اللعبة. سيكون هناك ذروة وتطهير عواطف بالطبع. ثم ستنتهي القصّة. في عالمي أنا لا وجود لمثل هذا المنطق بالطبع. بالنسبة لي، لا يحدث هذا إلّا عَرَضًا ومحض مصادفة، وهذا الموقف الآن لا يعني شيئًا على الإطلاق. ليست لعبة. أنا فقط في حاجة إلى نقود. لكن إن أراد شيئًا ما إن يجعل الأمر قصة، فليكن الأمر قصة.

بعد عشر دقائق نحن في دورة المياه المفعمة برائحة صابون الورد في

الموزّع الأوتوماتيكي ومناديل ورقية مبللة. يمسك باتريك بإحدى حلمتيّ ويقرصها من تحت نسيج سترتي. يدفعني إلى أعلى على الحائط.

«يا إلهي»، يقول. «لا أصدق أنّي أفعل هذا. انزعي سترتك».

«انتظر»، أقول. «علينا أن نفعل هذا على نحوٍ لائق».

«على نحوٍ لائق»؟

«ألا تودّ أن تعلم كم سأكلفك»؟

يقرّب رأسه من وجهي ويعضّ شحمة أذني. «أيّتها العاهرة القذرة. واصلي إذن، كم»؟

«مئة».

«لقد رفعتِ أسعارك. وعلام سأحصل في المقابل»؟

«ستضاجعني. بالقسوة التي تشاء».

«حصلت على هذا مقابل 20 جنيهًا آخر مرّة».

«حسنًا، ماذا يستحقّ مئة عندك»؟

«تعلمين ما أريده».

نعم أعلم، وقد حصل عليه مجّانًا ذاك اليوم. «النقود أولًا»، أقول.

يخرج خمس ورقات من فئة العشرين، جديدة كأنّها خرجت لتوّها من ماكينة سحب النقود، ويعطيها لي قائلًا:

«والآن اخلعي ملابسك العليا واسحبي سروالك».

أفعل كما قال.

«الآن ضعي يديك خلف ظهرك».

يُخرج شيئًا ما من جيبه ويقيّد يديّ معًا. وأفكّر أنّ أيًّا كان ما سيفعله بعد ذلك لا يهمّ. إنّه جسدي فقط. لا أمانع ضررًا يلحق بجسدي طالما بقي ذهني بخير. وجسدي خليق بتحمّل هذا على كلّ حال. بغض النظر عن كم

أنا خائفة؛ كم أودّ الهرب من الرجلين الأشقرين والطفلين ـ يحسّ جسدي بهذا ويرغب في المزيد. يرغب في الألم المألوف الآتي.

«انحني»، يقول باتريك. يأخذ بعض الصابون من الموزع ويدهن به قضيبه.

يستغرق الأمر دقيقة ونصف تقريبًا إلى أن يصل.

أصل إلى هيرتفوردشاير حوالي الساعة الحادية عشرة. لديّ خطّة نوعًا ما: الفرصة الوحيدة أمامي للوصول إلى بيرلوم هي من خلال ابنته، فهو سلفها برغم كلّ شيء، وإرشادات أبوللو سيمنثوس تقول فعلًا إنّ بإمكانك الوصول لأسلاف الناس بالتواثب. وهكذا سأحجز في نزل من تلك التي تقدّم فراشًا وفطورًا بالقرب من مدرستها ثم أذهب للتروبوسفير وأرى إن كنت سأجد أبوللو سيمنثوس، وأسأله كيف أفعل هذا بدقّة. إن كنت قريبة من مدرستها، فسأكون قريبة منها. وإن كنت قريبة منها، فسيكون من السهل إيجادها في التروبوسفير. هذا ظنّي.

المدرسة في قرية صغيرة على بعد عدة أميال من هيتشين، أقود السيارة في الجوار حوالي خمس دقائق بعد أن أحدّد موقعها، لا يبدو أنّ هناك أيّة فنادق أو نُزل هنا. أقود في الجوار ثانيةً، ثمّة حانة كبيرة، أوقف السيارة خارجها وأدخلها. لا أحد هنا، فقط رجل نحيل له مظهر خسيس يجفّف الزجاج خلف البار.

«مرحبًا»، أقول.

«أهلاً»، يجيبني. «لست هاربة، أليس كذلك»؟

«ماذا»؟

«لست من المدرسة»؟

بالتأكيد لا أبدو صغيرة إلى هذا الحدّ؟ «لا»، أقول. «منذ عشرين سنة ربّما... هل لديكم غرف هنا»؟

«فراش وإفطار»؟

«نعم».

«انتظري، سأحضر الدفتر».

لم أر مخلوقًا آخر منذ أن دخلت القرية، لا أصدق أنّ هذا المكان سيكون كامل العدد، لكنّي أنتظر إلى أن يصل للصفحة المطلوبة ثم يمرّ بظفره عليها.

«نعم، لدينا غرفة الليلة»، يقول. «أنتِ فقط أليس كذلك»؟

«نعم».

«خمسة وسبعون جنيهًا إذن».

يا يسوع. مقابل غرفة في حانة؟ «هل لديك شيء أرخص من هذا»؟

«لا يا غرامي. لديّ غرفة أخرى غير تلك لكنّها بخمسة وثمانين. قرّري».

أتنهّد. «هل هناك مكان آخر في الجوار هنا قد يكون أرخص»؟

«يمكنك العودة لهيتشين»، يقول. «قد تجدين شيئًا هناك».

هيتشين تبعد عشرة أميال تقريبًا. يجب أن أكون قريبة من المدرسة.

«شكرًا. سآخذها»، أقول. «أوه، هل لي أن أدخّن فيها»؟

«لكِ أن تفعلي ما يحلو لكِ فيها يا غرامي»، يقول. «أترغبين في الدفع الآن»؟

لا يثق فيّ.

«لا بأس». أقول وأناوله النقود.

الحجرة أفضل ممّا توقّعت. فراش ناعم ومكتنز، ولحاف أحمر محشوّ بالريش. ثمّة طاولتان على جانبي الفراش على كلّ واحدة مصباح من طراز عتيق، وملحق بها حمّام بمناشف بيضاء ناعمة لكنّها بالية. أنا في حاجة لآخذ حمّامًا، لكن ليس لديّ ما يكفي من الوقت، هل بإمكاني الذهاب للتروبوسفير من الحمّام؟ هل سأغرق؟ بودّي أن أستغلّ ما لديّ من وقت أفضل استغلال. ما أولوياتي؟ الطعام، ثم التروبوسفير. قد أطلب شيئًا ما

بالتليفون وآخذ حمّامًا إلى أن يصل الطعام. حمام سريع، فقط لأدفأ. هل بإمكاني طلب طعام هنا حتّى؟ نعم ثمّة قائمة طعام إلى جانب الفراش. يبدو أن ليس لديّ خدمة الغرف سوى أطعمة جافّة ورقائق بطاطس محمّرة، في النهاية أطلب طبق حساء بازلاء ومقدارين من رقائق البطاطس. ثم آخذ حمّامًا. بعد الحمام أرتدي ملابس تحتية نظيفة، وسروال جينز نظيفًا، وبلوزة سوداء ثقيلة وسترة. الجوّ هنا دافئ، أكثر دفئًا من الدير. أغمس رقائق البطاطس في الحساء وأعيد قراءة المخطوطة التي دوّنتها الليلة الماضية. ما زالت لديّ أسئلة كثيرة لأبوللو سيمنثوس.

أفتقد الكتاب. أفتقد *نهاية السيد واي*.

حين أفتّش في حقيبتي لا أجد قارورة السائل. حتّى بعد أن أفرغت جميع محتويات الحقيبة على الفراش: لا شيء. ليس لديّ سوى النقطة السوداء على البطاقة البيضاء. كيف سأذهب للتروبوسفير؟ هل أبكي الآن؟ أم أستلقي فقط على الفراش وأحدّق في النقطة السوداء وأركّز في الشعور بالأضواء الهلامية والنفق... هل أحتاج السائل حقًّا؟ لعلّه ما زال ساريًا بالفعل في دورتي الدموية لأنّ النفق يظهر بغتة، و...

يبدو التروبوسفير كما كان عليه تقريبًا حين دخلته أول مرّة، أنا في شارع مديني ضيّق وما زال الوقت ليلًا. ألا توجد شمس هنا؟ أجول ببصري في اللافتات النيون وواجهات المحلّات المتكسّرة. أهذا ما بداخل ذهني؟ لماذا هو هكذا؟ أمر بمتجر ألعاب جنسية بديلدوهات قرمزية كبيرة في واجهته، متجر ألعاب جنسية آخر؟ ثم أدرك أنّ هذا تجسيدي للرجال الأخسّاء. لا بدّ أنّ هذا المكان يمثّل الرجل بالأسفل الذي أعطاني الغرفة. هل ذهني هو الذي ينتج هذه الصور؟ على ما يبدو. بجوار متجر الألعاب الجنسية يوجد دكّان للعناية بالحيوانات الأليفة بباب أزرق، من أين أتى ذهني بهذا؟ ثم محلّ خَضراوات في واجهته سلال فاكهة تبدو بلاستيكية.

لوحة؟

تظهر. لديك الآن ثلاثون خيارًا، تُنبّئني.

حسنًا، هذا ليس كافيًا كتعداد مدرسة. واضح أنّي لست قريبة من المدرسة.

هل بإمكاني استخدام بطاقة أبوللو سيمنثوس؟

انتهت صلاحية بطاقة أبوللو سيمنثوس.

أبوللو سيمنثوس؟

لا شيء.

أواصل السير. يبدو أنّي سأقوم بهذا وحدي. حسنًا ما أفضل الطرق للوصول إلى المدرسة في العالم المادّي؟ حيث تبعد عن الطريق حوالي عشر ياردات، لكن أين هي في عالم الأذهان هذا؟ أواصل السير. أتساءل للحظة كيف تعمل الاتجاهات هنا؟ هل أسلك «الاتجاه نفسه» هنا لأصل إلى شيء ما كما في العالم المادّي؟ الأمر مُربك جدًّا، للحظة تخطر لي قصة «الغرفة الزرقاء» للوماس، هل يمكن أن أذهب لمكان ما في ذهني لا يعمل بالأبعاد الأربعة للزمكان؟ هل يمكن أن أُحتجز هنا؟

هذه الطريق ليست معقولة بأيّ حال من الأحوال، تحوّلت فوضى المتاجر الصغيرة الآن إلى شارع عريض تحفّه متاجر متعدّدة الأقسام ومتاجر مجوهرات. تصعقني المعروضات في الواجهات. تقف في إحدى الواجهات المضاءة بضوء فلورسنتي قويّ عارضات في أثواب سهرة برّاقة تتجاهل إحداهنّ الأخرى. في الواجهة التالية عارضة تأخذ كلبًا معدنيًّا للتمشية، في أخرى عارضان ذكران يضاجعان عارضة أنثى نحيلة تبدو هشّة، أفضّل هذا: على الأقلّ ليس متوقّعًا، أواصل السير مارّة بمبنى مغطّى بمرايا إلى يميني ومبنى إداري إلى يساري، تضيق الطريق مرّة أخرى والآن ثمّة بيوت في كلّ الاتجاهات. لكنّها ليست بيوتًا عادية: بل بيوتًا في حجم بيوت الدُّمَى، مصفوفة جميعها على جانب واحد وبلا واجهات، لكلٍّ منها مفصلة تتدلّى من أسفل السطح تمامًا، وكلّها مطليّة بألوان فاتحة: أرجواني،

أزرق سماوي، ليموني، وردي. هذا يعبر عن الفتيات في المدرسة، لا بدّ أنّه كذلك.

لوحة؟

لديك الآن أربعمئة وواحد وخمسون خيارًا.

حسنًا. لست واثقة تمامًا من كيف سيسير هذا، لكنّي أقترب من أقرب بيوت الدُّمَي تلك وأدلفه، من الشارع لغرفة المعيشة مباشرةً.

لديك الآن خيار واحد.

أنت... أنا في الخامسة عشرة من عمري وبدأت التدخين منذ شهرين وأظنّ أنّي أدمنته بالفعل، أدمنت الكوكايين كذلك، وتلك اللفافات من متجر القرية. أعزّ أحلامي أن أصير مدمنة لكلّ شيءٍ إلى أن يتهامس الناس بشأني. أريد أن يطول شعري الأحمق وأن أجلس على خليج هامبستيد مع هيثر وجو وشلّة هاي جيت ونتحدّث عن مدى انحرافنا جميعًا، لكنّي لست واثقة من هذا لأنّهم جميعًا يدخّنون البانجو وأنا لا أطيقه. سأمارس الجنس في حفلة الرقص القادمة. على أن أفعل هذا الآن وإلّا سيُلقَى بمصداقيتي من النافذة مثلًا. كذبت بهذا الشأن حتّى الآن، لكنّهم يريدون تفاصيل الآن، حتّى إنّ جوليس طلبت منّي أن أرسم قضيبًا في حصّة الرياضيات ذاك اليوم!

أسحب نفسًا آخر من سيجارتي.

«هل تشعرين بالإدمان الآن»؟ أسأل نيكي.

«نعم»، تقول. «تمامًا. وأضرّت بصوتي أيضًا».

نيكي في الكورس لكنّها تريد أن تغنّي في فرقة حرة، يجب أن تضرّ صوتك إن أردت هذا، لهذا بدأت تدخّن في الأعلى هنا معي والآخرين. أين الآخرون؟ صوفي في حصّة الدراما، لكن ماذا عن حنّا وجوليس؟ لم أر جوليس منذ هذا الصباح، على الإفطار حين رمقتني بنظرة قذرة. لا أعرف ماذا فعلت. أوه، أرجوكِ جوليس لا تكرهيني.

فكّري في شيء آخر.

«هل تظنين أنّ بإمكان جيم ألّا يخبر جميع من في القرية مثلًا أنّنا استخدمنا ماكينة لفّ السجائر»؟ أقول.

«صوفي تتولّى أمر جيم، لا تقلقي صغيرتي، فهو كالخاتم في أصبعها».

«لكنّها مع ذلك لم...؟ مثلًا، ليس حقًّا...»؟

«اسأليها. لكن...»، تقهقه. «أوه يا إلهي. لا يجب أن أقول».

«مع ذلك نعم طبعًا، صحّ»؟

«نعم، تمامًا».

«أوه، يع».

صوفي منحرفة حقًّا.

يخطر لي اسم مولي دون سببٍ. أوف. لمَ أفكّر في مولي ديفيس الآن؟ حسنًا. هذه الفتاة منحرفة إلى حدّ بعيد. قد تعبث صوفي مع جيم قليلًا من أجل السجائر، لكنّ سمعة مولي، مثلًا، أسطورية. لا يمكن بأيّ شكل من الأشكال أن أقترب من مستواها، إنّها ترعبني. ليس فقط أنّها ليست عذراء (حسنًا، ما عداي أنا، لكنّنا جميعًا نُبقي هذا الأمر سرًّا)، لكنّ مولي الفتاة الأقلّ عذرية التي يمكن أن تقابلها في حياتك، العام الماضي، حين حظين بغرفنا ونحن حظينا بالغرف القديمة في القبو، قامت فعلًا بمصّ قضيب واحد (ف. ق) على الكنبة. (ف. ق تعني فتى قروي)، وهم جميعًا معتوهون. فكرة أنّ هناك سائل فتى معتوه على الأريكة.. ما من واحدة منّا يمكنها تحمّل التفكير في هذا.

«هيي. لقد هدأت. هل أنتِ بخير يا حلوة»؟

«نعم. كنت أفكّر في مولي وتلك الشلة».

«لا تتعبي نفسك بالتفكير في حقراء الصف السادس، إنّهنّ لا يستحققنَ».

«نعم. أظنّ هذا».

«هل لديك هذا المزيل»؟

«نعم».

نرشّ نفسينا بمزيل الروائح ونأكل نعناعًا خاليًا من السكر، ونعود سيرًا لمباني المدرسة. صوفي لا تستخدم المزيل، تقول إنّه يسبّب السرطان، قالت لها جوليس مرّة شيئًا مثل: «إنّه يسبّب السرطان للفئران أيّتها الغبية»، جوليس مضحكة جدًّا، مثلًا، في كلّ الأوقات.

ها هي هيلين العاهرة الفرنسية في طريقها لغرفهنّ. لا تنظري إليها: لا تنظري. أوه، يا لَلبول. لماذا أنظر..؟ ستظنّني سحاقية، وذلك لن يكون جيّدًا، لأنّ الجميع يقولون إنّها سحاقية حقًّا، حين لا تكون عاهرة.

يحلق فوق هيلين واجهة كبيرة لبيت دمية. لكنّي لا أَثِبُ. أذكر ما حدث من قبل حين انتهى بي الأمر في التروبوسفير مرّة أخرى. يجب أن أقوم بهذا بطريقة مختلفة.

لوحة!

يظهر الشيء. الشاشة مكتظّة بصور لا أستطيع تمييزها كلّها، أرى صورة صغيرة لمكتب؛ وأخرى لما يبدو أنّه صالة ألعاب رياضية، وأخرى لسقف أبيض متصدّع... لكن توجد عشرات الصور معًا، ولا أستطيع اختيار واحدة منها. ذهبت الفتاة الفرنسية. أواصل السير في الرواق مع تابيثا يونج، اسم الشهرة تابس، الفتاة التي تودّ أن تُدمن كلّ شيء، لا يتوقّف مُخّها عن الثرثرة عن البنات اللائي تمرّ بهنّ وهي تسير بجوار نيكي، جوربها (قصير جدًّا)، تنوّرتها (طويلة جدًّا)، رائحة نفَسها (هل له رائحة سجائر أم لا) وفي الخلفية تيار ثابت من الخوف من قول أو فعل شيء خطأ، مع ذلك تتدبّر في الوقت نفسه أن تقول «ممم» و«أوافق طبعًا» في كلّ مرّة تقول لها نيكي أيّ شيء.

أترك اللوحة مفتوحة. وأتساءل إن كانت تلك الصور تتعلّق بما يراه

أسلاف تابيثا. مرّة أخرى لا أرى الكثير من الأسلاف هنا. لا شيء على اللوحة غير مفهوم. لا رجال كهف؛ لا زخرفة رومانية. ظننت أنّ السيد واي استخدم التوائب للسفر عبر الزمن، أم لعلّني أخطأت فهم هذا الجزء من الكتاب، ليتني أفهم هذا، حصلت على بعض المعلومات فقط من وجودي في ذهن مارتن لكنّها ليست كافية.

تمرّ فتاة أخرى، تعرفها تابيثا بأنّها فتاة من الصف السادس تُدعى ماكسين، وتحاول التفكير في شيء ظريف وخفيف الظلّ تقوله إن وجهت لها الفتاة أيّ كلام. هذه المرّة، حين ينفتح باب البيت فوق صورة الفتاة، يظهر على اللوحة شيء جديد أيضًا، أعرف هذا الآن: إنّه صورتي أنا/ تابيثا، وتعني ـ أو لا بدّ أنّها تعني ـ أنّ بإمكاني الوثوب من هنا إلى هناك، مثلما فعلت من الفأر للقطّة. حسنًا. سأجرّب هذا. أعقد أصابعي ليأتي الحظّ: اذهبي، اذهبي. هيا. ثم... نعم، أنا أتغبّش، وأرجو ألّا يكون ذلك لأنّي أعود للتروبوسفير...

لديك الآن خيار واحد

أنت... رائحتي... رائحتي سيّئة جدًّا... لا بدّ أن بنات الإحدى عشرة سنة يشممنَها وأنا أمرّ بهنَّ الآن، أشعر بالبلل تحت ذراعي وبين فخذيّ... فخذيّ الكبيرين، المتضخمين، الهائلين، المكتنزين، المدوَّرين. ارتداء اللباس الضيق لا يجعلهما يحتكّان معًا بشكل سيِّئ، ولا يجعل جلدي يحمرّ، لكنّه يجعلني أسخن، وحين أسخن أتعرّق كحيوانٍ، على الأقلّ من حقِّ الحيوانات أن تنبعث منها رائحة، لا أحد يمانع إن انبعثت من الحيوانات روائح. لا أحد آخر سيفهم هذا. لا أدري كيف سأعيش حياتي بتلك المشكلة. هل سيلاحظ أحدٌ إن متُّ؟ لن يرغب أحد في النوم معي أبدًا. أنا نفسي أتقزز منّي حين أغيّر ملابسي، وأعرف أنّ كلير ومولي وإستر يلاحظنَ ذلك لكنّهنّ لا يقلنَ شيئًا. حسنًا لا يقلنَ شيئًا لي، لكنّ ظنّي أنّهنّ يتحدثن عن الأمر في غيبتي، أتمنّى ألّا يقمن بتدبير واحدة من تلك «التدخُّلات» الغبية، لقد قمن بواحدة في الفترة الدراسية السابقة مع نيكي

مارتن. انقضضن عليها جميعًا ما إن أوت إلى الفراش وأخبرنها أنّ رائحة نفَسِها نتِنَة، الواضح أنّهنّ كنّ في منتهى اللطف بشأن هذا، الجميع هنا يتعاملن بمنتهى اللطف مع كلّ شيء، «ظنّنا فقط أنّه يجب أن تعلمي...». ابتسمي، ابتسمي، أسنان جميلة. «نحن نريدك أن تُعلمينا إن كان بنا، مثلًا، أي مشكلة». سأقتل نفسي إن حاولن تدبير أيّ تدخّل بشأني، لا أعلم كيف، لا أحبّ الدم وليس بإمكاني ربط مشنقة، أوه، اللعنة، ها هي إستر، يجب أن أذهب وأغيّر ملابسي ولن يمكنني هذا إن كانت إستر في طريقها للغرف، عظيم.

لديك الآن خيارٌ واحدٌ.

أنت... أنا أنحف من ماكسين بكثير الآن. هذا الرجيم رائع.

«هيي، ماكسين».

أقول «هيي» وليس «هاي»، لأنّها أمريكية أكثر.

«أوه، هاي إستر».

لكنّها لا تتوقّف لتتحدّث، بل تركض حرفيًّا في الاتجاه الآخر. ماذا فعلت لها؟ عاهرة متعجرفة. على كلّ حال، ماذا سأفعل إذن إن قامت آنسة جسد جميل نادين إيزوبيل بخطوة تجاهي؟ ظللت متيّمة بها لوقت طويل لحدّ أنّه لم يخطر ببالي إطلاقًا أنها قد تبادلني الشعور نفسه، لكنّها هي من اقترحت دروس دراما إضافية، وهي من دخلت عليّ وأنا أبدّل ملابسي لبروفة الملابس ذاك اليوم، وهي من علقت على ثديي. بجدّية. أنا واثقة أنّني لا أتخيّل هذا. كان هناك تلك الأصوات «ووبس» حين سحبت الستارة الخطأ. ثم فترة صمت طويلة. ثم ابتسامة قصيرة. ثم ـ وأنا على يقين من هذا بنسبة تسعة وتسعين في المئة ـ قالت «ثدي جميل»، قبل أن تذهب، لا بد أن هذا يعني شيئًا ما. فهي لا تحاول أن تبدو ظريفة ولطيفة فقط وأشياء من هذا القبيل، لا بدّ أنّها تقصد شيئًا ما، لكنّه كان على طرف لسانها تمامًا حتّى إنّني لست متأكّدة أنّها قالته أساسًا.

فقط لأنّني أرغب فيها، لا يجعلني هذا سحاقية، أليس كذلك؟

أنا لست سحاقية.

أنا لست سحاقية.

لكنّي بالفعل أرغب في تقبيلها.

أنعطف وأبدأ صعود الدرج في اتجاه غرف نوم الصفّ السادس. غالبًا ما أصعد هذا الدرج درجتين في كلّ قفزة، لكنّ اليوم تنفُّسي ضيّق إلى حدٍّ ما، ماذا فعلت بجهاز الاستنشاق؟ خراء. أظنّ أنّه في حقيبتي الرياضية في غرفة تغيير الملابس بالأسفل. ليس بإمكاني النزول لجلبه الآن. سأكون بخير. لم تنتابني أزمة حقيقية لما يزيد عن عام إلى الآن. فقط لو أعرف ماذا أفعل في هذا الشعور الذي يتملّكني حين أفكّر في آنسة إيزوبيل جسد جميل. الأمر كما لو... كما لو أنّ معدتي حوض به آلاف وآلاف من الأسماك، وقد جفّ الماء والأسماك الآن تتقافز في كلّ اتجاه مثلما في هذا الفيلم الوثائقي البشع الذي شاهدناه في حصة الأحياء. كيف أخمد هذا الشعور؟ ظنّي أنّ تقبيلها سيخمده، لكن متى سيُمكن هذا؟ وهل يستحقّ المخاطرة بالطرد؟ ماذا لو عرف الجميع وظنّوا أنّي سحاقية؟ أتمنّى ألّا يوجد أحد في غرف النوم. أوه، خراء، يوجد أحد هنا، إنّها مولي، وتبدو غريبة، ما كلّ هذا الكحل؟ هل لديها استراحة الآن؟ ظننت أنّها في حصّة الفلسفة.

تظلّ اللوحة على حالها بينما يحلّق إطار بيت دمية حول مولي. هيا، هيا. من المحتمل أنّي على بعد خطوتين من بيرلوم الآن، حسنًا، إن أفلح هذا، سأكون كذلك. لماذا لا يحدث هذا؟ لماذا لا تظهر في اللوحة الصورة التي تخبرني أنّ بإمكاني الوثوب إلى مولي؟

أفكّر في وثيقة أبوللو سيمنثوس، الجزء الذي لم أتذكّره في البداية:

بإمكانك الوثوب من شخصٍ لآخر في العالم المادّي (فقط إن كان الشخص في تلك اللحظة عرضة لعالم الأذهان كلّها).

عرضة بأيّ معنى؟ لا أفهم. أبقى مع إستر، وأُبقي اللوحة في مجال رؤيتي أيضًا، إن حدث بصيص حركة سأثب لمولي.

«هيي». أقول لمولي.

«هيي»، تجيبني.

«لست في حصّة الفلسفة».

«لا تعنيني في شيء».

أتوجّه إلى فراشي وأجلس عليه، لا مجال للتفكير في إيزوبيل وحدي، لديّ الآن اللعينة مولي تجلس هنا. تحتلّ. تضع مكياجًا. أجلس وأشاهدها تضع أحمر الخدود الوردي والماسكرا السوداء. عادت الآن للكُحل مرّة أخرى، المزيد منه، كأنّها أحد أعضاء فرقة مسرحية ممّن يعبدون الشيطان في أوقات فراغهم.

«ذاهبة إلى مكان معيّن»؟ أسألها.

«نعم».

«أين»؟

«بالخارج».

«مولي».

«ماذا؟ إنّها ليلة السبت ولن أبقى في حفرة الخراء هذه».

«لكن...».

«فقط غطّي غيابي إستر، ها»؟

«نعم». أرفع كتفي. «بالطبع».

في الحقيقة، كلّما أسرعت في الذهاب، زادت إمكانية أن أكون وحدي، إلّا إذا صعدت ماكسين هي الأخرى أيضًا. لا أعلم أين ذهبت. لقد اتّجهت ناحية غرف تبديل الملابس... لكنّها لا تلعب رياضة أبدًا. ليتني طلبت منها أن تحضر لي جهاز الاستنشاق. أتنهّد. قد تحصل هنا على تعليم جيّد، لكن ليس على خصوصية لعينة. على الأقلّ سيكون لديّ غرفة خاصّة العام القادم، أو حتّى بالمشاركة مع فتاة واحدة فقط. لكنّ ثمّة «أزمة في

المساحات»، وفئران في جناح الصفّ السادس القديم، لهذا ها نحن أولاء هنا وكأنّنا في الحادية عشرة من عمرنا مرّة أخرى.

«هيي، مولي»؟ أقول لها الآن.

«نعم»؟

«مع من ستخرجين»؟

لعلّها ستخرج مع ماكسين، مع أنّ ماكسين تتصرّف بغرابة مع الجميع في الفترة الأخيرة، لكنّي ما زلت أرجو أن يخرج كلّ من في الغرفة ويتركوني وحدي الليلة. تخيّل أن أبقى وحدي هنا وأن تدخل آنسة جسد جميل و... لن أدعوها آنسة جسد جميل إن كنت سأقبلها. أوه، إيزوبيل... يبدو هذا محض غباء.

«لا أحد. سأقابل هيو في البلدة».

حينئذٍ تحدث الحركة في اللوحة. أثب. أنا في...

لَدَيكَ الآنَ خِيارٌ واحدٌ.

أنتِ.. أشتاق لهيو، قال أحدهم ذاك اليوم إنّه أخطر شابّ في هيتشين، حسنًا، لعلّني أخطر فتاة أنا الأخرى. لكنّه لا يرى ذلك بالطبع، إنّه يرى... ماذا؟ تلميذة في مدرسة خاصّة تحظى بكافّة الامتيـازات التي لم يحظ هو بها؟ مراهقة؛ مجرّد طفلـة لم تنضج؟ لكـن لا بدّ أنّه يرى شيئًا ما فيّ، وإلّا لماذا قضى معي الليل كلّه السبت الماضي؟

لكنّه لم يردّ على تليفونه منذ هذا الحين. ولم يرسل لي رسائل. ربّما سأقضي ليلة أخرى وحدي أتنقّل من حانة لبارٍ لملهى متظاهرة بأنّي أقوم بشيء ولم أجئ لأبحث عنه. لكن ماذا؟ أنظري إلى إستر، لقد صارت مثل هيكل عظمي مؤخّرًا، هذا سبب جيّد لئلّا أسألها أن تأتي معي، لعلّها ستعجبه أكثر منّي، بشعرها الأشقر الطبيعي، وهذين الثديين الضخمين على ذلك الجسد النحيل، العاهرة، لا، لن آخذها، أرغب فقط في أن أكون مع هيو مرّة أخرى. لا آبه برفاقه في السكن الأغبياء، أو فرشته الممددة على

الأرض، أو بأنّه يحبّ شُرب الفودكا من الزجاجة وهو يضاجعني، لا يعنيني في شيء أنّه حين كنت أهمس في أذنه هيو، هيو، هيو غمغم فقط باسم آخر لا يبدو كاسمي، ولا بأنّه حين قلت له: «ضاجعني بقسوة» (مثلما في القصة الخليعة التي طبعتها كلير من على الإنترنت العام الماضي) زأر ودعاني بالعاهرة الصغيرة، أنا حتّى لا أريد أن أغيّر فيه شيئًا، لعلّني أريد فقط أن أغيّر فيّ أنا.

أم أنّني تغيّرت كثيرًا بالفعل؟ ماذا يسمّى هذا حين تخرج الفراشات من شرنقاتها؟ أيًّا كان اسمه، فلم يحدث لي، لو كان الأمر كذلك لكنت فراشة بشعة، أيًّا كان ما كنت عليه من قبل فقد فقس، هذا هو الأمر: لقد فقس شيء ما آخر الآن، وفي جميع الأحوال لست نموذج الفتاة الغنية المتعجرفة، الجميع يعرف حادثة «مصّ القضيب على الكنبة».. حتّى المدرِّسون؛ بالطبع لا يمكنهم إثبات شيء، حسنًا، لم يحدث شيء حقًّا، لقد رأيت قضيب الرجل لكـنّي لم أمصه، أعني.. يع! لكني أحبّ الصيت الذي لحق بي جرّاء هذا، مع أنّ معظم الفتيات ما زلن لا يتحدّثن معي بسببها، قد أخبر هيو أنّني سيتم طردي بسبب هذا الموضوع، قد أخبره أنّني سأُطرد من المدرسة بسبب الإفراط في الجنس، هذا سيؤثّر عليه، بعد كلّ شيء فقد حاول آخر مرّة أن يلمح إلى أنّنا لا ينبغي أن نرى بعضنا مرّة أخرى لأنّه أكثر خبرة منّي بكثير، «لقد رأيت وفعلت أشياء قد تصدمك حقًّا يا صغيرتي» هذا ما قاله. وماذا في هذا هيو؟ لقد مارست الجنس كثيرًا أيضًا، كلانا مُدمّر، كلانا حزين ووحيد، لهذا يجب أن نكون معًا، مثلما في أغنية توم ويتس تلك التي شغلتها لي.

كذلك، أعلم أنّ له ماضٍ تراجيدي وكلّ شيء، لكن أنا أيضًا هكذا. ماذا عن وفاة أبي وأنا في التاسعة، ثم اكتشافي أنّ أبي الحقيقي شخص آخر... صديق ماما؟ أم أنّ هذا يبدو من سمات الطبقة المتوسطة البائسة؟ ليست حالة نموذجية للإخصّائي الاجتماعي أليس كذلك؟ لم أر أبي ـ الحقيقي ـ لأكثر من عام الآن. لم يره أحد لأكثر من عام. مزيد من الكُحل. لكن

مصاريف المدرسة ما زال يتمّ دفعها على نحوٍ غامض. لذلك لا يمكنني حتّى أن أقول إنّه ميّت. لعلّني سأقول ذلك مع هذا. قد أقول إن لي أبوين، كلاهما ميّت، وأنّني أظنّ أنّي لا بدّ ملعونة، ما زال الأمر ليس مثيرًا كإدمان الخمر أو تعاطي المخدّرات، قد أقول إنّ أمي تضربني، لكن ذلك سيكون كذبًا، لقد ضربتني مرّة واحدة فقط، حين قلت إنّي مسرورة لأنّ أبي مات.

تظلّ اللوحة في مجال رؤيتي طيلة الوقت وأرى الصور تطفو عليها. ثمّة خمس صورٍ، لكنّي لستُ واثقة أيّهنّ أختار. أظلّ أنظر للصور بينما تفكّر مولي في هيو. تلك تقريبًا المرّة الأولى التي أكون فيها في ذهن أحدٍ وأشعر بارتباط أكبرَ من مجرّد كوني في ذهنه وأفهمه لأني في ذهنه. إذ أتفهّم مولي على مستوى أعقدَ من ذلك بكثير، لكن ليس بإمكاني البقاءُ معها، يجب أن أحدِّدَ إلى أين سأثب بعد ذلك.

ها هي خياراتي:

- صورةٌ لمكتبٍ في حجرة مكتب.
- صورةٌ من منظور شخصٍ يقودُ سيّارة في حارةٍ ضيّقة.
- صورةٌ لسيّدة عجوز تمضغ شيئًا ما.
- رجل عجوز يقرأ جريدة.
- سيّدة عجوز أخرى، لكنّ هذه السيدة لديها خُصلاتٌ ورديّة في شَعرها.

أعلم أنّني قد ينتهي بي الأمر في أيّ مكان لو وثبت إلى إحدى تلك الصور. يجب أن أصل إلى سول بيرلوم، لأنّني لا أعلم كيف أعود لمولي مرّة أخرى إن ضللت طريقي. أتفحّص الصور مرّة أخرى، المكتب عليه لعبة محشوّة، الأيدي على عجلة القيادة في السيارة لسيّدة، بطلاء أظافر وردي لامع. هاتان ليستا لرجال. ليس لديّ الآن سوى ثلاث عجائز. هل هذا كلّه رؤى أجداد: صور أسلاف آخرين أم معارفهم؟ أين سول بيرلوم؟ أين رؤيته؟ أنظر للصور مجدّدًا، ليس بإمكاني الاختيار، ما من صورة منها تبدو صائبة، ربّما يكون قد مات، لكن يبدو أنّ ذهني يميل للسيّدة ذات

الخُصلة الوردية في شعرها، حقًّا، حين أنظر إليها فقط وأفكّر في أنّ هذا غير مألوف، يترجم ذهني هذا بوضوح إلى «مثير» ويبدأ في أخذي لهذا الوعي بطبيعة الحال، و، أوه، اللعنة، أنا أتغبّش... أنا أترك مولي. في اللحظة الأخيرة تمامًا قبل أن أتركها أحاول أن أترك في ذهنها فكرة: انسَي هيو، انسيه...

عشرون

لديك الآن خيارٌ واحدٌ

أنت... أهبط تلًا في الظلام، تومض أضواء المدينة بالأسفل كانعكاسات الضوء على الماء. لم يرغب بلانك الكلب في الصعود لأبعد من هذا: كأنّه يحسّ هناك بحضور ما لا أعي به، يبدو أنّه لا يحب هذا المكان للسبب ذاته الذي أحبّه له، لا يتحمل الـ... الماذا؟ التاريخ؟ الأشباح؟ لم يعد شيء يدهشني بعد الآن، وهكذا نسير هابطين، بعيدًا عن أعمدة البوابة القديمة القاتمة؛ عن الحائط الحجري الرمادي المتهدّم. أتخيّل وأنا هنا ناسًا سائرين أو راكبين أحصنة عندما لم يكن هناك سيارات بعد، وأحسّ أنّه لم يكن هناك تلك الضجّة التي تحسّ بها الآن: ضجّة تخليق الكهرباء واستخدامها، وموتورات السيارات، والموسيقى الشعبية. لكنّي سأذهب حيثما يريد الكلب. هكذا أسهل، وأنا راضٍ عن نفسي لأنّي أستطيع التخلّي عن التحكُّم هكذا، لكن لا جدوى من الرضا عن نفسي، يجب ألّا أشعر بشيء تجاه نفسي. أريد الفراغ. غبي: لا يمكن أن أريد الفراغ. يجب أن أدعه يأتي إليّ. يجب أن أدعه يحيطني ببطء حين لا أفكّر في شيء.

الآن أعرف ما هي عليه الأفكار، التفكير أصعب في جميع الأحوال.

الكلب يريد الذهاب من هنا حقًّا. نحن الآن نركض تقريبًا على وحلٍ مثلج جاف. الجليد. ليس جيدًا للنبات؛ هذا ما كانت أمّي تقوله. وأعياد الميلاد آتية بالطبع. إذ نصل أسفل التلّ، أرى الأضواء من كثب: مئات من

النجوم البيضاء الشهية تحلق فوق الطريق، جميعها في متناول اليد، الشجرة في المنعطف مزينة بالأضواء أيضًا. ماذا تعني أعياد الميلاد الآن؟ لا أكثر ولا أقلّ ممّا كانت تعنيه من قبل حقًّا. لورا نباتية، لكنّها ستجبرنا نحن الاثنتين على الاحتفال. إذ تحب الطقوس. نصبنا شجرتنا لكنّا لم نزيّنها بعد، لورا لا تريد نجومًا وخيوطًا فضّية لامعة: تودّ تزيين الشجرة بفجوات سوداء، وثقوب وجسيمات، تودّ تزيينها بنسيج الزمكان. ضحكت حين أخبرتني بهذا وقلت إنّي سأرى ماذا سأجد في المتاجر. على الأقلّ أذهب الآن للمتاجر. أذهب للمتاجر وآخذ الكلب للتمشية. ولم يحدث شيء مروّع بعد. هذا أفضل من الحبس في المنزل طوال الوقت.

لوحة؟

تظهر. ثمة صورة ضبابية واحدة في منتصف الشاشة: منظر مغبّش لوفرة من أوراق شجر خضراء. أطلب منها إغلاق الصورة فتفعل.

من أنا؟

أنا سول بيرلوم.

الحمد لله. أين أنا؟

أسير في شارع فور. أنا أسير في شارع فور، لكن بلانك يريد أن ينعطف يسارًا ويمرّ بمتجر الجبن ثم يمينًا في اتجاه البيت، لا يمكن أنّه يودّ العودة للبيت الآن بالفعل، لا، لا يريد ذلك، بل يجتاز باب البيت ركضًا إلى الأمام، وخطمه كالسهم يشير إلى أسفل ناحية المكان الذي تتقابل فيه الجدران بالرصيف. آه، ها هو الفضاء الثاني المفضّل لدي في البلدة.

أين أنا؟

أقف هنا بينما يتشمّم الكلب بعض العشب النامي في الرصيف، نعم، ها هو الفضاء الذي أحبّه، إنّه فضاء حقًّا، فراغ محاط بأربعة جدران. انتصبت عدّة لافتات مؤخّرًا تعلن أنّه موقع بناء مِلك بلا بلا بلا، وتخبرك بما قد يعود عليك من مساوئ إن اخترقته، تفسد تأثيره على نحو ما، كان أفضل

قبل أن تظهر اللافتات، كان فضاءً فارغًا محاطًا بجدران: منزل بلا حجرات ولا سطح، سجّادة من أرض ديفون الوردية. أحبّ هذا. يذكّرني بفضائي المفضّل في البلدة: القلعة. القلعة من النوع نفسه... جدران تحيط بلا شيء. لدى بطاقة بريدية لصورة القلعة فوق مكتبي. منظر جوي، لعلّه أُخذ من إحدى المروحيّات التي تحلّق دائمًا في الهواء في الأيام الصحوة. تنظر لأسفل للقلعة فتبدو كخاتم من أحجار رمادية تُرك مهملًا على سفح جبل، نُزع ربّما من أصبع عملاق. بإمكانك أيضًا الدخول لزيارتها: أن تدفع نقودًا لتدخل فضاءً دائريًا فارغًا تحيطه جدران. أحبّها. تنظر لهذه المساحة الفارغة المحاطة بأسيجة مصنوعة خصيصًا وتفكّر: «ماذا عساي أن أشاهد هنا؟ هل هذه الجدران هنا لتحفظ اللاشيء بالداخل، أم لتحفظ البلدة بالخارج»؟

والآن، للغرابة، أعلم بدقّة كيف تم تشييد الأحجار. لكنّي ما زلت لا أعلم من صنع الفراغ. من اخترع الفراغ؟ من الذي اختار الاحتفاء به هنا؟ بالطبع لا يعلم الناس أنّهم يحتفون بالفراغ (برغم أنّهم يجب أن يعلموا؛ يجب ذلك حقًّا). يظنّون أنّهم يزورون شيئًا، شيئًا ملموسًا... لكنّه فقط لم يعد هناك بعد الآن، يظنّون أنّهم بزيارتهم لفضاءٍ خالٍ تحيطه جدران أنّهم بذلك يسافرون عبر الزمن. وأنا أعلم هذا أيضًا.

لماذا لا يفكّر بيرلوم في اسم البلدة التي يقيم فيها؟

أين أنا؟

عبرت الآن الطريق وأقف خارج الكنيسة التي نذهب إليها كلّ مساء، تحسُّبًا فقط، لا نصلّي، لكن قد يُعَد ما نفعله صلاةً على نحوٍ ما. ندخل الكنيسة ثم نخرج منها، تحسبًا فقط. برغم مجيئي هنا كلّ مساء لم أعلم قطّ من أيّ نوع من الكنائس تلك الكنيسة، ظنّي أنّها لا بدّ إحدى الكنائس الإنجليزية أو الكاثوليكية، لكنّها بلا اسم حقًّا: إذ ليست كنيسة القدّيس كذا، مع ذلك يأتيها كلّ مساء خميس ناس سعداء بملابسَ صُنعت في البيت ويفعلون شيئًا مبهجًا بالداخل، حسنًا دائمًا ما يبدون مبتهجين حين

يخرجون، ظنّي أنّهم في الأمسيّات التي لا يأتون فيها للكنيسة يذهبون ويطرقون الأبواب لبيع شيء ما غير مرئي، كالأمل أو الخلاص. حصلت لورا على مفاتيح الكنيسة ولا أحد يمانع من دخولنا كلّ مساء. هل أؤمن بما يفعلونه هنا؟ نعم. يجب عليّ ذلك، الآن. لكنّي أتساءل هل سيظلّون على إيمانهم إن علموا ما أعلمه.

أين أقطن؟

طريق القدّيس أوغسطين.

لكنّي أعلم هذا: إنّه منزله القديم. لماذا لا يفكّر في عنوانه هنا؟

أين أنا الآن؟

أصعد التلّ حيث ينعطف الطريق مثل علامة الاستفهام ويمكن أن تدهسك سيارة إذا لم تنتبه. ثمّة لافتةٌ بالأعلى ـ توركي ـ وسهم يشير يمينًا.

هو قريب من توركي إذن؛ لكنّي لا أعلم أين توركي أساسًا. هذا ليس كافيًا.

ماذا حدث لأغادر منزلي؟

أوه. من أين أبدأ تلك القصّة؟ لماذا أفكّر في هذا الآن؟ الكلب يشخّر وهو يركض للأمام ناحية ساحة السوق، لكنّي لا أرى هذا بعد الآن، أرى... ماذا؟ لأيّ مدى يرغب ذهني في العودة بي؟ أرى مشاهد تتحرّك أمامي بسرعة: أوّل مشهد، بالطبع، ذلك البحث الذي قدّمته في جرينتش عن لعنة السيد واي. كانت لورا هناك، ورجال مشروع ستارلايت أيضًا. بالطبع لم يكن لديّ أدنى فكرة عنهم وقتئذٍ. الشخص الوحيد الذي حضر الجلسة بحسن نيّة كانت آرييل مانتو، وكانت هي من ظللت أنظر لها: الفتاة ذات السترة الرمادية الضيّقة والشعر الأحمر، أتذكّر لورا وهي تغادر بعد الجلسة، تعود لتلتحق بجماعة لاهيري دون أن تقول شيئًا، ثم أرى نفسي أشرب كثيرًا مع آرييل، وأفكّر في ممارسة الحُبّ معها ثم ـ الرعب، الرعب ـ أدركت أنّها قد توافق على النوم معي، فغادرت بالطبع قبل أن تتسنّى لي الفرصة للإقدام على ذلك فعليًا.

بعد ذلك بأسبوعين أو أكثر قليلًا: يصلني بريد إلكتروني من لورا. إنّها أستاذة في العلوم، في الجامعة نفسها التي يدرس بها لاهيري. لكنّها رأت عنوان بحثي وجذبها. استمتعت به. تريد أن تقابلني.

فكّرت في نفسي: فرصتان لممارسة الجنس في شهر واحد؟

ثم أدرك أنّه، كالعادة، إحداهما قد تصبح طالبة لديّ، والأخرى متقدّمة في السنّ جدًّا.

أم أنّه أنا من تقدّم في السنّ جدًّا. هذا هو الأمر. وأعلم جيّدًا أنّه لا يمكن أن تكونا راغبتين فيّ حقًّا؛ ليس الآن. برغم أنّ داني كانت ترغب فيّ. داني المداهِنة كانت ترغب فيّ. كانت تلك آخر مرّة: وقفت بلا قميص وشعر صدري الرمادي يلمع على نحو غريب تحت ضوء الفلورسنت في المكتب، وداني المداهنة، أضعف طالبة ماجستير عندي، تقول «أريد أن أراك» وعيناها البليدتان مركزتان على سروالي. بالطبع كانت تقصد عضوي حين قالت «أراك». لماذا هو الذي تريده النساء؟ «أريدك بداخلي». لا. أنتِ تريدين عضوي فقط، ولعلّكِ تريدين أيضًا تجاهل كتلة اللحم الضخمة الملحقة به، الرجل الذي له عقل والذي لن يكون «بداخلك» أبدًا، والذي لن تفهميه أبدًا. كان من المفترض أن أكون أنا القائد. اقترحت عليها أن أعصب عينيها، ليس لأنّه يثيرني، بل لأنّي لم أكن أرغب في أن تراني. انتهى الأمر على نحو سيّئ بالطبع. ما الخطأ في عدم الرؤية؟ ثم إنّ الأمر كلّه في الذهن، ولعلّه كذلك أيضًا ليس خروجًا عن قواعد الجامعة. لكنّها على كلّ حالٍ هدّدت بالإبلاغ عنّي حين توقّفت (حَرفيًّا) عن رؤيتها. لم أكن أرغب فيها حتّى: كانت تشبه قطعة زبد ذائبة.

رتبت لمقابلة لورا في مقهى بصالة عرض بلندن. ما قالته صعقني تقريبًا. كان لديها نسخةٌ من *نهاية السيد واي*؛ لعلّها النسخة الوحيدة المعروفة: تلك التي في ألمانيا. لهذا أتت للاستماع لبحثي. إنّها نسخة أبيها. كان من روّاد العلماء الذين اهتمّوا بنظرية الميكانيكا الكمّية، هذا ما أوضحته، وكان واضحًا

أنّها لا تريد التحدّث عنه كثيرًا، لكنّها قالت ما هو أساسي: إنّه عاصر إيرفين شرودينجر ونيلس بور[1]، لكنّه رفض أن يفعل كما فعل كثيرون من الفيزيائيّين اليهود الأوربّيين الذين ذهبوا إلى أمريكا للعمل في القنبلة الذرّية ومشروعات شيطانية أخرى شبيهة. وبقي بدلًا من ذلك في جامعته مواصلًا بناء نظريّته حول تهشيم الأرض... التي فُقدت تفاصيلها الآن. كتب والدها في مذكّراته قبل أسبوع من إرساله لمعسكر الاعتقال ملحوظة عن *نهاية السيد واي*. كان سعيدًا جدًّا لأنّه طلبها من لندن، إذ كانت واحدة من نسخ قليلة جدًّا متبقية. وتتحدّث إحدى يوميّاته الأخيرة عن «لعنة السيد واي» المحتملة. قالت لورا إنّها أصيبت بالصدمة ـ وبالحيرة أيضًا ـ حين رأتها في عنوان بحثي. قالت إنّها لم تقابل، قطّ، مثل هذه الجملة من قبل إلّا في مذكّرات أبيها.

شرحت لي كلّ هذا دون أن تتبدّل تعبيرات وجهها مرّة واحدة. لكنّها ظلّت تمرّر يدها في شعرها وتصمت فتراتٍ طويلة بين أجزاء القصّة. ثم، حين وصلت قهوتنا، تخلّت عن تمرير يدها في شعرها وأخذت تعبث بأذن الفنجان، تحرّكه يمينًا ويسارًا وتمرّر أصبعها النحيل في فتحته.

«وهكذا، هذا هو كلّ شيء». قالت. «ظننت أنّك ترغب في معرفة القليل من تاريخ الكتاب، أو على الأقلّ، هذه النسخة بالأخصّ».

«أنا ممتنّ جدًّا»، أجبتها. «شكرًا جزيلاً لكِ على وقتك ومجيئك لمقابلتي».

بدت عيناها كأنّهما ستبتسمان، لكنّها لم تبتسم.

«كان الكتاب له قيمة عند والدي». قالت.

لم أعرف بماذا أردّ على هذا، فسألتها ببساطة: «هل قرأتِه»؟

«لا». قالت وهي تهزّ رأسها نفيًا. «لكنّي أعلم أنّه مهم... لأنّ الناس لا يتوقّفون عن محاولة شرائه منّي».

---

(1) نيلس بور (1885-1962): فيزيائي دانماركي أسهم بشكل بارز في صياغة نماذج البنية الذرّية، وميكانيكا الكمّ وخصوصًا تفسيره الذي ينادي بقبول الطبيعة الاحتمالية التي تطرحها ميكانيكا الكمّ والذي يعرف بتفسير كوبنهاجن.

«لكنّك لا ترغبين في بيعه»؟

«لا».

«ولم لا»؟

تنهّدت. «بقدر ما أكره هذا الكتاب، لا يمكنني أن أفرّط فيه. إذ لم أبع أيًا من كتب أبي. ثم إنّني لا أحبّ من يحاولون شراءه، صاروا مؤخّرًا يهدّدوني، لكنّهم ليس بإمكانهم فعل شيء لكتاب في خزانة بالبنك. فهل سيخطّطون لسرقته»؟ الآن ابتسمت بالفعل. «حسنًا. لا أعتقد أنّ الحظّ سيحالفهم».

«من هم»؟

رفعت كتفيها، ورشفت من القهوة بالكريمة. «أمريكيّون». ثم فترة صمت طويلة. «حسنًا»، قالت. «أظنّ أنّك ترغب في رؤيته، أليس كذلك»؟

«حقًّا»؟ لا بدّ أنّي بدوت كفتى صغير فَرِح لرؤيته مجموعة شخص آخر من الكتب الكوميدية المصوّرة، لكنّني لم أستطع كبح نفسي. «أقصد...».

«بالطبع سيكون لذلك قيمة فكرية بالنسبة لك. أرى ذلك بوضوح. كان أبي ليوافق، وظنّي أنّ ذلك سبب كافٍ».

«هل رآه أحد آخر»؟

«لا. نظرت إليه سريعًا لكنّي لم أستطع أن ألمسه...».

«لم لا»؟

كان على طبق فنجانها قطعة دقيقة من السكر البنيّ، فسحقتها بأظفرها. ثم نظرت لأعلى إليّ ثانيةً وضحكت بوهن.

«خرافات عائلية»؟ وتقلّصت ضحكتها لتنهيدة. «أنا أستاذة علوم، وأعلم بالطبع أنّ هتلر هو من قتل والدي، وليس كتاب تصحبه لعنة ما، لكن حتّى مع هذا... فقد ألقوا القبض عليه بعد أن وصله الكتاب بيوم، وكان آخر ما أراده وهو رجلٌ حرٌّ أن يضع الكتاب في خزانة بالبنك.

تحدّثنا أكثر قليلًا. قالت إنّها ستسافر لألمانيا الشهر اللاحق ودعتني

لتمضية عطلة نهاية الأسبوع. بالطبع رغبت في الذهاب؛ لأرى الكتاب وألمسه، لكنّي أبديت بعض اعتراضات مهذّبة من قبيل: هل ترغب في العودة لتلك الذكريات مرّة أخرى؟ هل ترغب فيمن يدسّ بأنفه في شئونها العائلية، وما إلى ذلك.. فدحضتها جميعًا بتهذّب، كما توقّعت منها، وذهبنا. كان أول أسبوع في الفصل الدراسي وسررت لفكرة الابتعاد لأيّام قليلة عن جميع الإداريين والرسائل الإلكترونية والاجتماعات. أميل للعمل حين أكون في المنزل، وأتعامل مع الإجازات على نحو مروع. قضينا مساء الخميس نشاهد عرض مسرحية سخيفة، ثم ذهبنا لخزانة البنك يوم الجمعة، كان المفترض أن يكون الوقت صيفًا، لكنّ الهواء كان رماديًّا ورطبًا، وبدا كلّ شيء حولي كأنّه يختنق بكلّ شيء آخر. حين صار الكتاب في يدي نَظَرت إلى الأرض وقالت فورًا تقريبًا «أريدك أن تأخذه. خذه بعيدًا عن هنا».

«هل تبيعينه»؟ قلت.

«لا»، قالت. «خذه من هنا فحسب».

في آخر ليلة قضيناها معًا مارسنا جنسًا حزينًا نوعًا ما. كان الأمر حتميًّا ودنيويًّا قليلًا، مثل أنفلونزا الشتاء. لم أظنّ أنّي سأراها مرّة أخرى أبدًا، فقد أعطتني الكتاب الذي كرهته، ولم أكن أعرف حتّى هل سترغب في استعادته أم لا، لم أكن أفهم شيئًا ممّا يحدث حقًّا، لكنّي أيضًا لم أتساءل بشأن شيء، فقد أردت الكتاب فحسب: أردته أكثر ممّا أردت أيّ شيء من قبل.

ثم أتت الأحداث الغريبة التي شطبتها وقتئذٍ بوصفها من زلّات إذلال النفس. أولًا: نسيت أن أضع الكتاب في أمتعتي؛ ثم نسيت جلب حقيبتي من منطقة الحقائب بالمطار، بطريقة ما وصلت فعلًا إلى المنزل دون أن أضيّعه. كان عليّ تلك الظهيرة أن أحضر حفلًا جامعيًّا في الكاتدرائية... لكنّه مرّ كلمح البصر، جلست بجانب طالبة عندي، آريل مانتو، وعلى ما أظنّ تدبّرت أن أغازلها قليلًا حتّى (ببراءة، ببراءة)، ثم استأذنت وأسرعت

عائدًا للبيت، جلست هناك في مستنبتي القديم، وإلى أن غربت الشمس وأشرقت مرّة أخرى بالخارج كنت قد انتهيت من قراءة الكتاب... بعد ذلك لم أستطع النوم، فشربت زجاجة نبيذ عتيق وبكيت عدّة مرّات، تأثرًا بفرط الجمال المطلق فحسب: إمساك الكتاب، تمكُّني أخيرًا من قراءته. لم يكن أحدٌ يزعجني وكان كلّ ما أسمعه تغريد الطيور.

عقدت العزم فورًا على إعداد التركيبة المذكورة والذهاب للتروبوسفير بنفسي. قمت ببحث سريع وواضح واكتشفت أنّ بإمكاني شراء كربون نباتي بالقدرة المطلوبة من متجر في برايتون. ذهبت إلى هناك ثم عدت للبيت في تلك الظهيرة، ثم أخذت بعض الماء المقدّس من كنيسة القدّيس توماس، وكان أن شاهدت التروبوسفير لأول مرّة تلك الليلة. طمست الذاكرة معظم أجزاء رحلاتي الأولى للتروبوسفير. أتذكّر السفر في النفق، صار مألوفًا جدًّا الآن، ووصولي إلى مشهد بدا لي كبطاقة بريدية موضوعها الحنين إلى لندن في القرن التاسع عشر، بكلّ تلك الأحياء الفقيرة القاتمة والضباب وعربات الأجرة الخالية. بالطبع قمت باستكشاف المكان وبدأت أفهم بعض قواعده. حاولت تحقيق التواثب على بائع اللبن. ثم حاولت دخول ذهن نائب مستشار الجامعة، لكنّ محاولتي باءت بالفشل.

تلقيت أول رسالة إلكترونية يوم السبت مساءً. بدا أنّها من طالب بجامعة يال، برغم أنّ البريد الإلكتروني من حساب على الياهو، يسألني إن كنت أرغب في الانضمام لمجموعة بريدية عن *نهاية السيد واي*. رفضت بأدب. كانت الرسالة ركيكة، والطلبة يشغلون وقتي بما يكفي. ظننت أنّ اتصال هذا الشخص بي فور أن أحصل على الكتاب مجرّد مصادفة، وظننت وقتها أنّ الرسالة صادقة. ثم جاءت الرسالة الثانية يوم الأحد، في الوقت نفسه من اليوم تقريبًا.

برجاء قبول اعتذارنا على هذا التدخّل. أنا مدير مشروع ستارلايت، وهو دراسة مهمّة ومتعدّدة المناهج في أنشطة الذهن الإنساني وقدراته الكامنة. ونقوم مؤخّرًا بدراسة طريقة وردت في *نهاية السيد واي*، أو بالأحرى،

الزميل السابق عليّ في المنصب كان يقوم بذلك. ومنذ أن تولّيت المنصب وأنا أسعى إلى مواصلة هذا البحث، لكن للأسف جميع أنظمتنا تعطّلت وفقدنا كلّ البيانات... بما في ذلك خطوات إعداد التركيبة. ما يفسّر أيضًا استخدامي لحسابي على الهوت ميل الآن! إذ لن تعمل أنظمتنا على نحوٍ جيّدٍ مدّة أسبوع قادم لكنّي أريد التركيبة ب.م.ي [بأسرع ما يمكن]. ولمّا كان لديك نسخة من الكتاب، أرجو ألّا تمانع في منحنا بضع دقائق من وقتك وكتابتها لنا.

اتصلت بلورا يوم الاثنين.

«مشروع ستارلايت»؟ كَررت الاسم بعد أن أخبرتها.

«نعم».

«إنّهم من عرضوا شراء الكتاب منّي».

«هل تعرفين شيئًا عنهم»؟

صمتت قليلًا. «حسنًا، لقد سألت عنهم».

«و...»؟

«لقد أُغلق ملف مشروع ستارلايت منذ حوالَي سنة. لم يعد هناك مشروع ستارلايت الآن».

«ماذا كان»؟

تتنهّد الآن. «كان مشروعًا أمريكيًّا مصنّفًا «سرّيّ للغاية». عرفت عنه من صديق لصديق... فيزيائي من ميت [معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا]. لم يكن قد سمع عنه سوى إشاعات... مفادها أنّه بدأ كدراسة بسيطة عن التخاطر ثم تحوّر لشيء آخر، ذكر شيئًا ما عن مبنى بالغ السرية في الصحراء، والرؤية عن بُعد، والتحديق في الماعز، والسعي وراء «السلاح الكلي»، وقال إنّه سمع أنّ شيئًا ما كارثيًّا تسبّب في وقف الدراسة، وحذرني من التورّط بطرح أيّ سؤال عنه. بدا ذلك منذرًا بالتأكيد».

«إذا كانوا قد أغلقوا ملفّ المشروع بالفعل فلماذا إذن يتجوّل هؤلاء مدّعين أنّهم جزء منه»؟

«لا أعلم. لقد أخبرتك أنّهم سرعان ما أخذوا يهددونني».

«وكيف علموا أنّي أخذت الكتاب»؟ لم أسألها إن كانت أخبرتهم.

«لا أعرف»، قالت.

صمتُّ قليلًا. «هل تظنين أنّهم يمثّلون خطرًا حقًّا»؟

«ليس لديّ أدنى فكرة حقًّا. هل تعلم لماذا يريدون الكتاب؟ أعتقد أنّك قد قرأته بالفعل الآن».

«نعم قرأته».

«و...»؟

«ليس لديّ أدنى فكرة لما قد يريدونه».

لماذا كذبت؟ بالطبع كنت أعرف أنّهم يريدون التركيبة، وكنت أعرف أيضًا لماذا: لأنّها فعّالة. حدثتني نفسي أنّ هؤلاء ليسوا سوى مجموعة منشقّة بشكل ما كانوا يتناولون التركيبة دون أن يعلموا محتواها قطّ، وكنت قد اعتدت بالفعل على الشعور بالرغبة في العودة للتروبوسفير، وبوسعي أن أتخيّل ما تفعله الرغبة في ذلك دون أن يكون بالإمكان، تخيّلت شيئًا ما قد يشعر به مدمن مخدّرات.

«حسنًا»، قالت.

«لورا، أعتقد حقًّا...».

«ماذا»؟

«أعتقد أنّ عليّ أن أعيد لكِ الكتاب الآن، يجب أن يكون في خزانة البنك حيث لا يمكنهم الوصول إليه».

«لكن ماذا إن لم يكن به شيء يفيدهم...»؟

«أعتقد أنّي يجب أن أعيده لكِ». قلت.

بعد أن انتهت محادثتنا، دخلت المستنبت ونظرت إلى نفسي في المرآة. كان الظلام قد خيم بالخارج ولم أر سوى نجمات قليلة معلّقة في السماء كمحاولة فاترة للزينة. دراسة أمريكية سرّية. تحديق في ماعز[1]. السلاح الكلّي[2]. يبدو لي هذا عسكريًّا. عدت للبيت وأمسكت الكتاب. بالطبع سأرسله إلى لورا، سأفعل ذلك غدًا. لكنى أعلم أيضًا أنّ العاملين في مشروع ستارلايت ـ أو أمثالهم ـ قد يحصلون عليه في النهاية. وحينها ماذا سيحدث؟ اكتظّ عقلي بأفكار شنيعة مثل الهيمنة على العالم والتحكّم في الفكر. إن تحصّل نظامٌ قمعي ـ أو أي نظام ـ على هذه التركيبة، ماذا بعد هذا؟ وجدتني أتصوّر بدقّة شكل هذا السلاح الكلّي. أرسلت ردًّا للعنوان المذكور في الرسالة أقول إنّه على الرغم من رؤيتي فعلًا للكتاب إلّا أنّه في طريقه الآن عائدًا لمالكيه، وقدمت اعتذاري وأكّدت له أنّه لا بدّ مخطئ إذ لم يرد في الكتاب ذكر لأي تركيبات، ووضعت الكتاب على المكتب استعدادًا لإرساله.

لكنّي لم أرد أن أرسله حقًّا. ماذا لو ضاع؟ أو تقطّع؟ ومن ناحية أخرى لم يكن لدي وقت إلى نهاية الأسبوع لأذهب إلى لندن وأقابل لورا وأسلمها الكتاب يدًا بيد، هل سترغب حتّى في رؤية الكتاب مرّة أخرى؟ لعلّها ستفكّر في إرساله مباشرة إلى البنك لإيداعه بالخزانة، كانت الاحتمالات كثيرة ولم أتلقّ المزيد من الرسائل، فلم أفعل شيئًا، قضيت الثلاثاء والأربعاء في اجتماعات، من بينها محاضرة ماكس ترومان السنوية عن الصحّة والسلامة ـ إجباري؛ مع أنّ آرييل مانتو لم تحضرها ببساطة.

---

(1) كتاب بعنوان «رجال يحدّقون في الماعز»، صدر عام 2004، كتبه جون رونسون مخرج الأفلام الوثائقية، للبحث في استكشافات الجيش الأمريكي للعصر الجديد والتطبيقات العسكرية الممكنة فيه. ويشير العنوان لمحاولات قتل الماعز بالتحديق فيها.

(2) مصطلح علمي: سلاح يدمّر بشكل كلّي ويستخدم كملاذٍ أخير، كالقنبلة الهيدروجينية أو القنبلة النووية، أو في الخيال العلمي: سلاح يدمّر الكواكب أو الأنظمة الشمسية كلّها ويقتل كلّ كائن حي عليها.

لطالما استمتعت بمحاضرات ماكس السنوية الشاذّة، كانت تلك عنوانها «حين تسير الأمور على نحو خاطئ»، نبذة تاريخية ساخرة عن نفق السكة الحديد القديم الذي يمرّ أسفل الحرم الجامعي، تنتهي بحادث انهياره الدراماتيكي عام 1974. كان ماكس قد أتى بشرائح باوربوينت كثيرة لصور مروّعة لانهيار مبنى نيوتن وناس يركضون من حوله يبدو عليهم الارتباك، وعقد عدّة صلات بين انهيار الجامعة وانهيار العلاقة بين الطلبة والعاملين في منتصف السبعينيات. «بينما كان النفق ينهار»، قال، «كان بعض الطلبة المتظاهرون يجتاحون مكتب التسجيل وينهمكون في شرب خمر نائب الرئيس»، علمنا أنّ مبنانا الحالي شيد عام 1975... أعلى النفق المرمم حديثًا مباشرة. أخبرنا ماكس أنّه ما زال هناك في مبنانا فتحة تصل إلى النفق جُعلت لأغراض الصيانة. علينا أن نعرف أين هي، هكذا قال، ليكون بإمكاننا اتخاذ الاحتياطات الواجبة. عند تلك النقطة سألت ماري ماذا عساها تكون تلك الاحتياطات.

«ألّا تسقطوا فيها فحسب»، قال ماكس.

«كيف نسقط فيها»؟ قالت.

«حسنًا، ذلك غير ممكن»، قال، «لكنّ نصيحة جديدة من نصائح الصحّة والسلامة تقول إنّ عليّ أن أحذّركم من هذا على كلّ حال».

«لكنّها هناك منذ ثلاثين عامًا تقريبًا»، قالت واحدة أخرى. «ولم يقع فيها أحد حتّى الآن...».

«أين هي»؟ سألت ماري.

«في غرفة تصوير المستندات»، قال ماكس. «بجوار الماكينة».

«أتقصد هذا الشقّ الصغير الذي نقف عليه جميعًا في كلّ مرّة نقوم بتصوير ورقٍ ما»؟ قالت ليزهوبس.

«آي نعم».

«أي أنّه قد نسقط فيها حقًّا»؟

«لا، لا تكوني حمقاء. هذا ليس أليس في بلاد العجائب اللعينة. الأمر محتاط له جيّدًا».

«كيف هو النفق من الداخل»؟ سألت لورا، أستاذة الكتابة الإبداعية.

«لورا لا تفكري حتّى في هذا» قالت ماري.

«ماذا»؟ قالت لورا. «أظنّ أنّ علينا الهبوط إلى أسفل والتحقّق من الأمر».

همهم الجميع.

«حسنًا، حسنًا، أنا فقط أمزح».

كانت لورا قد جلبت لنفسها المتاعب العام الماضي بإرسالها طلابها في مشروع «سيكوجغرافي» يقومون فيه بالتجوّل في أنحاء وسط المدينة على أساس ما تمليه خرائط مدينة برلين، انتهى الأمر بثلاثة منهم أن ساروا على الطريق السريع وأُلقي القبض عليهم.

فيما كانوا يتبادلون الأسئلة والإجابات، كنت أجلس هناك أفكّر في التروبوسفير ببساطة، فكّرت أنّه صارت لدى خبرة لا بأس بها تقريبًا عن كيفية عمله، في الحقيقة لهذا السبب لم أنم جيّدًا خلال الأيام الماضية، وبينما ظلّ الآخرون يتحدّثون عن نفق السكة الحديد، وما إذا كانت لورا ستقيم حفلة بحثية أسفل الفتحة أم لا، أغمضت عينيّ، حلمت بعالم بإمكان كلّ من فيه الدخول في ذهن بعضهم بعضًا، إلى أن قرّرت حكومةٌ ما تجنيد رجال بملابس زرقاء داكنة ليتجوّلوا هناك ويغسلوا أذهان الجميع بحيث لا يمكنهم ذلك بعد الآن. حين استيقظت كان الجميع قد ذهبوا. كان ذلك جيّدًا: إذ كنت قد تفصّدت عرقًا أثناء نومي وكان قميصي مبلّلًا تقريبًا من العرق، وبرغم أنّي كنت وحيدًا إلّا أنّه كان لديّ إحساسٌ عميق بأنّي مُراقب. كنت أعلم أنّ عليّ إعادة الكتاب إلى لورا، فذهبت إلى البيت مباشرة لأتّصل بها وأرتّب لقاءً في عطلة نهاية الأسبوع. بينما كنت أقود في زحام ساعة الذّروة، فكّرت في أنّه من الأفضل أن أحرق الكتاب تمامًا، أو على الأقلّ أدمّر الصفحة التي ترد بها الوصفة.

لكنّي أستاذٌ في الأدب الإنجليزي، لم أكن لأدمّر كتابًا ولو كان حدّ السيف على رقبتي، على الأقلّ هذا ما ظننته حينئذٍ.

وجدت في شارعي آخر مساحة خالية لركن السيارة، وسرت إلى منزلي حوالي ثلاثين مترًا، ثم دخلت وفكّرت ماذا يجب أن أفعل، كنت قد خطّطت لكلّ شيء وقتها، كانت فكرتي أن أنزع الصفحة التي ترد بها الوصفة، لكنّي بالتأكيد لم أكن لأدمّرها... كنت متأكّدًا تمامًا ممّا سأفعله بها، ربّما كان واضحًا لي أنّي سأضطر لتدميرها عند نقطة ما، لكنّي فكّرت أنّ نزعها الآن كافٍ، سأنزع الصفحة وأعيد الكتاب إلى لورا ثم سأدّعي العبط إن سألتني عنها.

كان في اللحظة نفسها التي فتحت فيها الكتاب على الصفحة المقصودة، أن لاحظت أضواء الكشافات الأمامية لسيّارة تمتدّ بالخارج، ثم تناهى لسمعي الضجّة الرتيبة لمحرّك ديزل، فظننت ببساطة أنّ أحد الجيران طلب سيّارة أجرة، لكنّي كنت عصبيًّا ومتحفزًا، فتوجّهت إلى النافذة أتفقّد الأمر ولم يزل الكتاب في يدي، ثم رأيتهما: الرجلين الأشقرين اللذين رأيتهما في مؤتمر جرينيتش، كانا يحاولان إيجاد مساحة لوقف سيّارتهما في شارعي.

كانا يريدان الكتاب، كانا هما.

والأسوأ: كان أحدهما يقود السيّارة؛ باحثًا عن مكان لإيقافها، والآخر، حسنًا، بدا الآخر نائمًا.

لم أستطع التفكير بسرعة كافية. فإن كان أحدهما في التروبوسفير فهو إذن على بُعدِ وثبة أو اثنتين من ذهني ومن كلّ ما أعرفه عن *نهاية السيد واي*، نظرت للكتاب ونزعت منه الصفحة بسرعة، انهارت حينها كلّ أفكاري تقريبًا، إلّا أنّ ما فعلته بعدئذٍ اتّسم بوضوح وتركيز قائمة نقاط متتالية: كان عليَّ أن أترك الكتاب وآخذ الصفحة معي، وبينما كنتُ أقرّر ذلك، كنت بالفعل قد طويت الورقة ووضعتها في حذائي، ما إن أتممت ذلك حتّى أدركت أنّ عليّ أن أهرب قبل أن يأتي الرجلان إلى هنا ويبرحاني

ضربًا... أو الأسوأ من ذلك، يدخلا ذهني ويستبيحا معرفتي، على أيّ حال، كانا ما زالا يبحثان عن مكان لإيقاف السيّارة. خبّأت الكتاب خلف البيانو وخطفت معطفي ومحفظتي ومفاتيحي وغادرت من الباب الخلفي، ثم إلى الجانب الآخر من سياج الجيران، ومن حديقتهم إلى معبر السيارات ثمّ إلى سيّارتي. ظننتني سأصاب بأزمة قلبية. لم يلتفت الرجل المستيقظ لصوت انغلاق باب السيّارة حتّى. تخيّلت مطاردة بالسيارات، لكنّ أحدًا لم ينظر إليّ وأنا أمرّ بهما، وقدت ـ بأسرعَ ممّا قدت في حياتي قطّ ـ إلى الجامعة. تدافعت أفكاري أمامي بسرعة لم أخبرها من قبل قطّ، ميّزت من بين فوضى الإستراتيجيّات والخوف والحدس فكرة واحدة عن غيرها: كنت أدرك أنّي سأظلّ هدفًا لهذين الرجلين طالما بقيت ذاكرتي معي، لاشيء سيؤثّر في ذلك حتّى إذا دمّرت *نهاية السيد واي* أو مزّقت الصفحة المخبّأة في حذائي، فإن تمكّنا من دخول ذهني، فسيحصلان على إرشادات إعداد المزيج تمامًا مثلما عرف السيد واي أسرار أشباح ويل هاردي. سيكون الأمر بهذه البساطة. لن يُمكِنَهما معرفتها من لورا إذ لم تقرأ الكتاب. لكن طالما بقيت أنا حيًّا وعاقلًا سيكون بإمكانهما الحصول عليها منّي.

أوقفت السيارة في موقف انتظار السيّارات بمبنى راسل، وشعرت حينها كمن حُكم عليه توًّا بالإعدام. كنت وأنا مراهق لي خيالات عن حياة بطل تراجيدي، كنت أجد شيئًا من الروعة في أن تكون هاملت أو لير. لكنّي إذّاك رأيت الموت في النهاية؛ كنت أراه بيقين أكبرَ من يقيني في قدوم الغد. تذكّرت بحثًا قمت بمراجعته العام الماضي تزعم فيه الباحثة إمكانية النظر لأفلام العصابات الأمريكية في الثمانينيات والتسعينيات بوصفها مآسيَ ما بعد حداثية، وركّزت طويلاً على تفصيلة واحدة: لا أحد في تلك العصابات هَرب قطّ. في مجتمعنا ـ المتّصل معًا بكلّ تفاصيله ـ ليس لك أن تختفي تمامًا. أدركت في تلك اللحظة أنّ رجال مشروع ستارلايت سيلحقان بي أينما ذهبت لينالا معرفتي، أدركت أنّ بإمكانهما أن يهتكا عرض ذهني غصبًا، أدركت أيضًا أنّ فرصي ضئيلة في صدّ هذا، قد يمكنني الاختباء الآن وإنّما ليس لوقتٍ طويل، سيلحقان بي هنا... أعلم هذا.

كانت مخاطرة أن أنتظر دليلًا عمليًّا على ما سُيقدّمون عليه، فكان عليّ أن أتحرّك على أساس افتراضات سالفة هي بالتحديد كما يلي:

- الرجلان يريدان معرفتي بمكوّنات المزيج.

- بمقدورهما الحصول على معرفتي بثلاث طرق:

* التعذيب.

* التواثب.

* أخذ الورقة مني غصبًا.

فكّرت في أكل الورقة، أو احتمال التعذيب، لكن لم يكن بإمكاني فعلُ شيء بشأن التواثب، تقول خبرتي بالتروبوسفير إنّه ليس على الرجل الموجود في التروبوسفير سوى أن يثب لذهن أحدٍ قريبٍ منّي أو يُحتمل أن يراني، ولحظة أن يراني هذا الشخص الآخر يقوم بالوثبة الأخيرة إلى ذهني. نظريًّا، قد يدخل الرجل النائم في ذهن صاحبه ويرسله ليراني.

لذلك لم أكن لأسمح لأحدٍ بأن يراني. فور إن دخلت حجرة مكتبي، أسدلت الستائر وأوصدت الباب. لم أكن قد دخنت منذ عشرين سنة، لكنّي حين وجدت آريِل قد نسيت علبة سجائرها على مكتبها أخذت منها سيجارة وأشعلتها وجلست أتضرّع لإيجاد مخرج من هذا الموقف. أين عساي أذهب حيث لا يمكن لأحدٍ أن يراني؟ امتلأ ذهني بصور لطرق ومراكز تسوق ومتاجر، كم عدد الذين يرونني في يوم عادي؟ مئات؟ آلاف؟ أنشر ذهني في كلّ مكان، أرى كتل اللحم والوعي تلك؛ التفصيلة التي تغفلها الخرائط أبدًا. حتّى إن عدت إلى سيّارتي وقدتها، سأمرّ بناسٍ. أتساءل لماذا جئت الجامعة حتّى؟ لماذا اخترت اللجوء إلى غرفة مكتوب على بابها اسمي، غرفة يمكن تحديد موقعها من على الموقع الإلكتروني للجامعة، الذي يتيح خرائط أيضًا: كيف تصل لمبنى الدراسات الأمريكية والإنجليزية من أي مكان بالحرم الجامعي؛ كيف تصل للحرم سيرًا أو بالقطار أو جوًّا أو باليوروستار أو بالعبّارة. ظللت أدخّن وأذرع الخطى في الغرفة. أشعر بالأمان في الجامعة. هذا هو الأمر. هذا سبب مجيئي.

لكنّ ذلك فقط لوجود بشر كثيرين، لا تشعر بالوحدة أبدًا في الجامعة، وفي الخطر عادةً ما ترغب في أن تكون محاطًا ببشرٍ. ليس تلك المرّة.

مرّت ثلاث دقائق أو أربع ثمّ سمعت ضحكات في الرّواق: عاد ماكس والآخرون من البار لا شكّ، لم تعد البوّابة الخارجية موصدة، لا بدّ أنّها مفتوحة الآن. نظرت إلى ثقّالة الورق الثقيلة على مكتبي، هل بوسعي مواجهتهما بالقوّة؟ لا. ليس لك أن تستخدم القوّة في التخاطر عن بعد. أجبرت نفسي على التفكير بسرعة. هل أدمّر الورقة التي في حذائي؟ لم أستطع. لم أستطع تدميرها. لماذا لم أذهب إلى مكان بعيد عندما كانت الفرصة مواتية؟ تحرّكت أفكاري تزيح بعضها بعضًا كمتسوّقي عيد الميلاد البائسين، ذكّرت نفسي أن ليس أمامي سوى مسألتين أعمل فيهما فكّري: ماذا أفعل بالصفحة؛ وأين أذهب بعد ذلك. قبل أن أدرك ماذا أفعل، كنت قد شببت ومددت يدي لأعلى رفّ وأمسكت بالمجلّد الرابع من زونوميا، اعتدت منذ وقت بعيد أن أدسّ المال في الكتب حين كنت طالبًا وكان بابي الأمامي واهنًا كستارة وبإمكان أيّ كان فتحه ببطاقة ائتمان، فكرت أنّ الكتب لا تهم اللصوص، وأنّها بطبيعة الحال حمل ثقيل، وإن كنت «لص طياري» فلن تنقل ألف كتاب أو شيء كهذا. لذلك ستتجاهلها، كلّها، فلن تختار عشرة منها مثلًا لتسرقها، ستتجاهلها جميعًا وتركز على جهاز الفيديو والميكروويف، لذلك تعوّدت دسّ أشياء عشوائية في الكتب، رسائل غرامية صور خليعة بطاقات ائتمان... وما إلى ذلك. هل سيفلح هذا الآن؟ واضح أن رجليّ مشروع ستارلايت يعرفان قيمة الكتب. ثم، آها، هنا بإمكان الجامعة مساعدتي. يمكنني دسّ الصفحة في كتاب ثم وصد الباب بالقفل، ولن يستطيع شخص غريب الدخول والتفتيش في أشيائي. وحتّى إن تدبّر أحدهم القيام بذلك، فلن يجد الكتاب الذي يبحث عنه هنا.

ثم فكّرت، «كم سأظلّ بعيدًا»؟

لم يكن لديّ أدنى فكرة.

لكن سيكون معي على الأقلّ نسخة واحدة فقط من المعلومات التي أحملها: التي أحملها في ذهني. وبإمكاني دائمًا أن أقتل نفسي إن اقترب

الرجلان كثيرًا، برغم علمي أنى أجبن من هذا، لكنّه ملاذي الأخير نظريًّا. رفعت قدمي أسندها على كرسي لأتحرّر من عبء النسخة الثانية التي أحملها من المعلومات: التي أحملها في حذائي.

ربّما كان غباءً منّي، ربّما لم أفكر في هذا كثيرًا... لكنّى لم أتخيّل أحدًا يتفحّص كتبي ويهزها كلّها حتّى تسقط منها صفحة غامضة، بل ظننت أن ما أفعله سينقذ صفحة مهمّة من كتابٍ مهم. لماذا زونوميا؟ لم أعرف بالتحديد، إنّما أخبرني شيئًا ما في ذهني أنّه الكتاب الصائب. آرييل مانتو لن تستخدمه: أخبرتها ألّا تفعل. ومن غيرها سُيعنى بزونوميا؟ دسست الصفحة في منتصف المجلّد الرابع وبدّلت مكانه على الرفّ.

أعلم أنّه لم يكن ينبغي هذا، لكنّني فعلته على كلّ حال لئلّا أضطر لتدمير الصفحة، هل كان هذا خطيئتي القاضية؟ ربّما فكّرت في أنّه أيًّا كان من يعرف زونوميا ـ سيكون أكاديميًّا بالتأكيد ـ وسيكون لديه من العلم ما يربط به بين الصفحة والكتاب... حسنًا، حظًّا سعيدًا له. ربّما هكذا أبرّر الأمر لنفسي، لأنّ حسبما أعلمه الآن، لم أكن لأدع الصفحة تفارق يدي قطّ. كل ما آمله أن تُدمَّر. لكن ما باليد حيلة الآن. كلّ أملي أن تكون قد دُمِّرَت.

هكذا كان عليّ بعد ذلك أن أختفي. لكن كيف أختفي في حرم يعجّ بالبشر في جامعة تعجّ بالبشر في عالم يعجّ بالبشر؟ أنّي لي أن أذهب؟ أين أذهب حيث لا يوجد آخر غيري؟ أين أذهب لأكون غير مرئي؟

نفق السكّة الحديد.

خلال دقيقتين كنت خارج مكتبي وفي غرفة تصوير المستندات أوصد بابها ورائي. دُهشت لسهولة رفع الفتحة، الآن أعلم أنّها هناك، لم يكن لديّ مصباح إنارة، فقط ضوء في حلقة المفاتيح، لكنّه كان كافيًا لأرى سلمًا معدنيًّا رفيعًا. هل فقدت صوابي؟ لم أكن واثقًا بالمرّة. لكنّني سمعت ما إن هبطت إلى العتمة بالأسفل وأعدت الفتحة مكانها بحرص صوت طرق فظّ، وصوتًا ذكوريًّا أمريكيًّا يصيح «بروفيسور بيرلوم»! كانا في حجرة مكتبي في آخر الرواق. لكنّي كنت قد اختفيت، لم يرني أحد أدخل غرفة

تصوير المستندات. شعرت أني بذلك كسرت حلقة ما، حلقة في سلسلة من الرؤية والسبب والنتيجة، إن لم أظهر للعِيان، فلن يعلم أحد قطّ أين أنا، إن لم يكن لأحدٍ أن يراني، فهل أنا موجودًا حقًّا؟

كان النفق معتمًا وباردًا، بضجيج متواصل من درب درب درب، وكان أفسح كثيرًا ممّا تخيّلته... لكن، بالطبع، نفق سكّة حديد سيكون فسيحًا: بما يكفي لعبور قطارين. لم أرَ تفاصيل مع ذلك بسبب الظلام الدامس، لكنّي شعرت بفسحته من وقع تردّد الصوت في المكان. سرت في اتّجاه ظننت أنّه جنوبًا، إلى أسفل مبنى نيوتن، لم استطع رؤية ما تحت قدماي لكنّي شعرت بضغطهما على شيء كالحصى. استخدمت الجدار لأسترشد به وأنا أرجو أن أكون بذلك ابتعد بما يكفي عن رجال مشروع ستارلايت وألّا يكون الرجل النائم قد وجد فرصته لدخول ذهني من التروبوسفير. تخيّلت شيئًا ما مثل زيارات منتصف الليل لرجال الأمن، إن كان الرجلان يعلمان أنّني في الجامعة، فهل سيقوم الرجل النائم باقتحام جميع البيوت في التروبوسفير حتّى يجد بيتي؟ كان هذا الخاطر هو ما يكدّرني وأنا أتقدّم في النفق، إذ لديّ سابق خبرة بالفعل عن كلّ ما بين التقارب والاستبصار عن بعد والتواثب، لكن مع ذلك، سيكون هناك أذهان كثيرة جدًّا هنا في الجامعة ولن يتأكّد الرجلان حتّى إنّني قريب من هنا. لم يكن لديّ فكرة عمّا سأفعله بعد ذلك، وكأنّ ربًّا ما منتقمًا قد قرّر لعب حيلة ما بي، توقّفت بعد ذلك أمام ما أحسست بأنّه كومة من الطوب والحجارة. كنت أعلم أنّ عليّ حفر فتحة للوصول إلى مخرج. هل أريد مخرجًا؟ انهرت على الأرض أفكّر في ما سأفعله بعد ذلك.

آه. يكفي ذكريات. ها هي الكنيسة، سأربط بلانك هنا بالخارج.

سا...

أوه، اللعنة... هكذا الآن. أنا خارج التروبوسفير: لفظني ذهن بيرلوم خارجه لأنّه دخل الكنيسة، كان آدم على حقّ إذن.

واحد وعشرون

أقف على جسرٍ معدني طويل أعلى نهرٍ واسعٍ يجري من تحتي. لم يزل الوقت ليلًا هنا، قبّل الموت كل شيء بلمعة فضية بدت كضوء القمر (مع ذلك لا أرى قمرًا)، ويبدو كلّ تكوين، بما في ذلك هذا الجسر، مقيّدًا بأضواء تنعكس للداخل ثم ترتدّ للخارج مرّة أخرى، الماء الأسود يهدر أسفلي. في العالم الحقيقي قد أشعر بدوّار فورًا، لكن في التروبوسفير هنا لا يوجد سوى هذا السكون الحلو. يجب أن تكون أكثر انفعالية لتشعر بأيّ شيء في التروبوسفير (أو في فضاء الأذهان كما يبدو أنّهم يطلقون عليه في مشروع ستارلايت). لكنّي أشعر بشيء ما مع ذلك: إحباط للفظي هكذا حين كنت حتمًا سأعرف تحديدًا إلي أين ذهب بيرلوم بعد خروجه من النفق. لكنّه هكذا الآن: إحباط معتدل. كان ليكون أقوى بكثير لو كنت بالخارج.

بالخارج. كيف أخرج بالضبط؟ ظنّي أنّ عليّ أن أعود للمكان الذي بدأت منه: نهاية الشارع التي بها بيوت الدمي والعارضات المهووسات: التروبوسفيريين (هل هذه كلمة؟ إنّها كذلك الآن) محاكاة قرية هيرتفوردشاير حيث ما زال جسدي المادّي يرقد، ملقى في حانة.

كم ظللت هنا؟

لوحة؟

تظهر.

أين أنا؟

نظائرك الرئيسة هي 9 - 2 ,5 ,12 ,14 و 340 ,400

يا للعنات. ما معنى هذا؟ ما هي النظائر الرئيسة؟

النظائر تخبرك أين أنتِ في التروبوسفير.

نعم، لكن... أين بالنسبة لماذا؟

جميع النقاط في التروبوسفير يتمّ حسابها بالنسبة لموقع وعيك الحياتي في العالم المادّي. قد أمدّك بالنظائر بترتيب ثنائي إن شئتِ.

لا شكرًا. حسنًا، لست بعيدة إذن عن المكان الذي يجب أن أكون فيه؟ أم بعيدة؟

المسافة هي الزمن، كما تعلمين.

أشعر أنّ هذا الشيء لا يخبرني سوي بما أعلمه بالفعل. لكنّي على كلّ حال أخبرها أن استمرّ.

لقد قطعتِ مسافة هائلة، بالنسبة لرحلاتك السابقة.

كيف أعود إذن؟

تعودين للنظائر 0، 0،0، 0، 0و1.

كيف أفعل هذا؟

بالعبور إلى الجانب الآخر من التروبوسفير.

هل هناك أيّ معلومات أخرى يمكنك مدّي بها؟

لديك الآن ثلاثمئة خيار.

عظيم. هل بإمكانك مدّي باتجاهات فعلية؟

تضطرب الشاشة. أرى شيئًا يبدو ككعكة دونات مستديرة صُنعت في شكل حلزون عملاق ويتدلّي منها مكعّبات وخطوط، لكنّ هذا يختفي في أقلّ من ثانية، وأرى بدلًا منه شيئًا مثل إحدى خرائط هيئة المساحة عليها

نقطة زرقاء والكلمة الأسطورية أنتِ هنا. أطلب من اللوحة أن تحدد موقع وجهتي، فتظهر نقطة حمراء على بعد آلاف الأميال.

لكنّي لست واثقة من حساب المسافة هنا بالأميال.

ثمة شيء آخر، حين غادرت هيرتفوردشاير كنّا في يناير، بينما في ذهن بيرلوم، لم تكن أعياد الميلاد قد حلّت بعد حتّى. هل حقًّا عدت للوراء في الزمن لأصل إلبيبرلوم؟ لكن لماذا؟ كيف ذلك بحقّ الأرض؟ أبدأ السير إلى أعبر الجسر، تلطم شعري حول وجهي ريح رطبة رمادية. أوه، لا، ليس طقسًا مرّة أخرى. لا حاجة لي بطقس. إنّه نذير سوء هنا.

أبوللو سيمنثوس؟

لا شيء.

أقضي عشر دقائق (أو أيًا كان معادلها هنا) لأعبر الجسر، أتلفت خلفي فأرى شيئًا ما كمروحة من الجسور لها بريق فضّي، حين أنظر لها تعود وتنهار جميعًا في جسر واحد، عشر دقائق، أفكّر، عشر دقائق × 1.6 ستين دقيقة، هل هذا صحيح؟ هل قضيت ستين دقيقة أخرى في التروبوسفير لأعبر هذا الجسر، يجب أن أخرج من هنا، ما زال جسدي راقدًا هناك في غرفة الحانة. هيا آرييل أسرعي.

لكنّ شيئًا ما يخبرني أن إسراعي لا جدوي منه.

أقف الآن في طريق واسع يذكرني على نحو ما بجسر لندن، لكنّه يمتدّ في كلا الاتجاهين إلى ما لا نهاية علي ما يبدو، وغرابته أيضًا أن ليس في طريقه منازل كبيرة وفنادق فخمة بل أكواخ صغيرة منثورة هنا وهناك في كلّ مكان بطريقة عشوائية: بعضها فوق الآخر وبعضها بحوافّ ثلاثية الأبعاد، ماذا؟ لا تتساخفي آرييل، لا وجود لحوافّ ثلاثية الأبعاد إلّا في الحيز الرباعي الأبعاد، يذكرني ذهني. أوه، يا إلهي. أنعطف يسارًا وأواصل السير. ألمح دخانًا يتصاعد من بعض المداخن، لكنّه لا يتصاعد لأعلى متعرّجًا كما يفعل الدخان بل يتمدّد في حيز ثلاثي الأبعاد، يبدو أيضًا أنّه يتلوّى لداخله

وخارجه ولاتجاهات أخرى لا أعلم لها اسمًا. إذ أتقدّم يتحوّل الجسر الضخم على نحو لا معقول لممشى ترابي ببيوت على عجلات منثورة هنا وهناك ودجاجات كارتونية في كلّ مكان، لحظة، دجاجات كارتونية؟ ماذا يحدث لي؟ ثمّة ضوء خاطف في السماء مثل البرق، ثم ينبلج الفجر، لكن بأسرعَ من المعتاد، أشعر بإرهاق شديد، ليتني فقط أزحف لأحدِ هذه البيوت وأنام قليلًا. لا. لا تتساخفي هكذا آريل: إن دخلت أحد هذه الأشياء، فلن يكون فيها سوى ذهن آخر بالمزيد من الأفكار والذكريات، لأول مرّة تصيبني هذه الفكرة بالإرهاق. أشرقت الشمس الآن بينما أسير في صحراء صفراء فاقعة بقلاع رملية ضخمة تبرز وتختفي في كلّ مكان، ماذا بحقّ الجحيم المعادل لهذا؟ كل هذا مجاز، صح؟ حسنًا، ما هو ـ أو أين هو ـ الواقع اللعين الذي يجسد هذا؟

يبدو أنّ الصحراء تستمرّ لساعات، لكن ليس لديّ تقدير حقيقي للزمن هنا، الدقائق العشر التي قضيتها في عبور الجسر قد تكون ثلاثة دقائق أو دقيقة واحدة أو عشرين دقيقة، كلّ ما أعرفه أنّ كلّ خطوة لي هنا قد تكون أيضًا حركة سهم في ساعة كونية ما، وكلما اقتربت من نفسي، ابتعدت عن أيّ فرصة للنجاة من هذا. أخرج من الصحراء لطريق ترابي آخر به عدّة مطاعم بلافتات نيون زرقاء ووردية. هل النيون إشارة جيّدة؟ هل أفرح بعودته للظهور؟ ستغرب الشمس مرّة أخرى، سريعًا جدًّا، كمساء نهاية العالم. على أحد جانبي الشارع ثمّة محطّة بنزين مغبرة. فقط لو كان بإمكاني تزويد نفسي بالوقود من هناك. ما زال الهواء رطبًا، ولم يحدث شيء بعد البرق: لا مطر، ولا رعد. وما زلت أسير فيما يبدو أنّه ذهني، تائهة داخل أفكاري وتصوّراتي عن ماذا ومَن يكون الآخرون؟ لا أعلم أين «أنا». والنقطة الحمراء في الشاشة لا تقترب بشكل ملحوظ.

أبوللو سيمنثوس؟

لا شيء.

أبوللو سيمنثوس؟ سأفعل أي شيء... أرجوك تعال وساعدني.

انشقاق صامت آخر في السماء. ظنّي الآن أنّي أعلم ما هي الصلاة، أسير خطوتين أو ثلاث أخرى، لكن يبدو أنّني أزداد ضعفًا، لا أظنّ أنّ بإمكاني المضي لأبعد من هذا. ثمّة رعد بعيد. رعد؟ أركع على ركبتيّ.

أبوللو سيمنثوس؟

ثم أراه، كسراب. سراب على درّاجة بخارية حمراء؟

«حسنًا»، يقول بينما يوقف الدرّاجة بجواري.

تعلو عفرة من تراب بني فاتح، ثم تستقرّ.

«ظننت أنّك لن تعود»؟ أقول.

«لم أكن سأفعل».

«لكنّك عدت. أنت هنا. أنا لا أتوهّم أشياء»؟

يبتسم أبوللو سيمنثوس ويقول: «بالطبع أنتِ فقط تتوهّمين أشياء. لكنّ هذا لا يعني أنّي لست هنا». ينظر في ساعته. «أنت في خطر. لنتناول فنجان قهوة».

يترك درّاجته في منتصف الطريق الترابي ويسير ناحية مطعم بلافتة نيون، فأتبعه بخطوات ثقيلة كما لو أنّني أتحرّك تحت الماء بملابسي كلّها. أرى حين نقترب من المطعم أنّ اسمه (موس موسكولوس)[1]، وبدلاً من الباب له الفتحة المقوّسة التي لمنزل أبوللو سيمنثوس. بالداخل ما يبدو أنّه مزيج من كلّ الأفلام الأمريكية التي شاهدتها من قبل: طاولات فورومايكا بيضاء بدكتين مكسوّتين بجلد أحمر، عليها قوائم طعام مغلفة، وبرطمانات سكر زجاجية بصنابير فضية من تلك التي تسكب كلّ مرّة تقلبها قدر ملعقة سُكّر واحدة. في أحد الأركان الجُحر نفسه الذي رأيته حين كنّا بجوار قاعة البلياردو في مكان ما على الجانب الآخر من التروبوسفير على ما أظنّ.

«حسنًا»، يقول أبوللو سيمنثوس مرّة أخرى.

(1) أحد أنواع فئران المنازل.

أنظر إلى أعلى لمنضد المطعم، لا أحد يعمل هنا، إلي يسار المنضد تليفزيون على رفّ وبين قوسين، مطفأ، وإلى يمينه على الجدار ساعة ديجيتال بيضاء كبيرة، أيًا كان الوقت الذي تذكره ليس مألوفًا لدي. تذكّر في الأول أنّ الوقت 82.5، ثم 90.1، ثم 85.5، ثم 89.7. تدقّ أيضًا بشكل غير منتظم، لذلك أفترض أنّها بالتأكيد ليست ساعة، أجد حين أعود بنظري للطاولة فنجان أبيض مليء بسائل بُنِّي. أوه. حسنًا، إن كنت سأموت فلا مانع من بعض قهوة التروبوسفير قبل هذا. وليس بي من طاقة إلّا لشرب القهوة على كلّ حال، أرغب في تأجيل تلك الرحلة إلي الجانب الآخر من التروبوسفير بقدر الإمكان، لا أصدّق أنّي غبية لهذه الدرجة، لا أصدّق أنّي تائهة في ذهني، أهذا هو الجنون؟ لعلّ الأفضل ألّا أفكر في هذا الأمر كثيرًا.

«شكرًا»، أقول لأبوللو سيمنثوس. «أعني، على...».

على ماذا أشكره؟ القهوة؟ الوجود هنا؟ إمكانية أن ينقذني؟

«ممم». يقول أبوللو سيمنثوس.

«هل أنتَ هنا لأنّي صليت»؟

يرشف قهوته. يبدو مخلبه الرمادي كحلقة مفاتيح رأيتها من قبل، قدم أرنب لجلب الحظّ: جافّة ورمادية وميتة، لكنّ بقيّته يبدو حيًّا جدًّا، إنّه الجنون، إذ برغم كلّ شيء لا توجد آلهة فئران بطول ثمانية أذرع، لكنّه يتنفس كشخص، ويبدو أنّ ملمس منخاره الرمادي الطويل، إن لمسته، سيكون خشنًا ودافئًا، ليس أنّني أفكّر في لمسه قطّ، إذ من الغريب في أبوللو سيمنثوس أيضًا أنّني، حين أجلس قبالته، أشعر كأنّني قبالة أستاذ مبجّل.

«ليس تمامًا»، يقول.

«لماذا أنتَ هنا»؟

«لأنّك ستقومين بخدمة لي، أم لعلّ من الأسهل القول بأنّك بالفعل قمتِ بخدمة لي. لكنّكِ لا تعلمينها بعد».

«أنا مشوّشة».

«أعلم».

«انظر، هل لي أن أسألك عدّة أسئلة بسرعة حقًّا؟ أظنّ أنّني في خطر، وعليّ أن أقطع الطريق للجانب الآخر من التروبوسفير قبل أن...».

«أنتِ في خطر».

يتهدّل كتفاي. «أعلم. أظنّ أنّني لن أتمكّن من العودة لنفسي في الوقت المناسب، في الحقيقة، أظنّ أنّني كنت أعلم بالفعل أنّي لن أنجو».

«أوافقك في هذا».

«وأظنّ أنّني قد أموت».

«نعم، حسنًا...».

«حسنًا ماذا»؟

«الوجود في التروبوسفير، إن كان هذا ما تسمّينه، إن كنتِ هنا، فأنتِ ميتة بالفعل».

شيء ما في جسدي يحاول إفراز أدرينالين، لكنّه لا يعمل بهذه الطريقة هنا. يتغبّش المشهد أمامي ثم يعود مرّة أخرى.

«أوه، اللعنة، أوه، اللعنة». أمسك بالطاولة أمامي. «تأخّرتُ جدًّا إذن».

«تأخّرتِ جدًّا علي ماذا»؟

«عليّ العودة. عليّ إيجاد بيرلوم».

«بإمكانك العودة».

«لكنّك قلت أنّ... بما أنّي هنا...»، أغمض عيني ثم أفتحهما مرّة أخرى وأسأله «هل أنا ميتة»؟

«هذا العالم، عالم الأذهان، يفضي إلى الموت. أنت تعلمين هذا».

«هل أعلم هذا»؟

«إن فكرتِ في الأمر قليلاً، فستدركين». يضحك، وأراه كأنّي أشاهد

رسومًا متحرّكة في الحاسوب، لكنّي أحسّ بالهواء الرطب الدافئ من حوله يتغيّر حين يتنفّس فيه. «معذرة، لم تستدعيني مرّة أخرى إلى هنا لأردّد على مسامعك فوازير. لماذا لا تسألين أسئلتك فحسب»؟

«حسنًا».

«لكنّ الأفضل أن تسرعي، لأنّه ما زال علينا مناقشة تلك الخدمة الصغيرة التي ستقومين بها لأجلي... وعلينا أيضًا أن نرى كيف سنُخرجك من هنا، الأمر الذي لن يكون سهلًا في الحقيقة».

«حسنًا، سأسرع إذن... هل أنا... هل أنا في أمان حاليًا»؟

يشير أبوللو سيمنثوس برأسه لشاشة التليفزيون فتعمل. أرى في الشاشة المجزّعة الأبيض × أسود منظرًا داخليًّا لمستشفى، الكاميرا موجّهة إلى فراش ترقد عليه فتاة غائبة عن الوعي وموصول بذراعها كيس محلول.

«أهذه أنا»؟ أقول مع أنّني أعلم بالفعل أن نعم.

«شعر صاحب الحانة بالقلق حين لم تنزلي للفطور ثم لم تغادري، فاقتحم حجرتك ووجدك غائبة عن الوعي. وحين لم يستطع إفاقتك طلب الإسعاف، وأنت الآن بصفة رسميّة في غيبوبة».

«يا إلهي».

«لقد سافرتِ مسافة هائلة هنا. وهذا يستغرق وقتًا طويلاً».

«أبوللو سيمنثوس؟» ما زلت أنظر للشاشة.

«نعم».

«هل أنا مجنونة»؟

«لا. ليس حسب فهمك للكلمة».

«تلك ليست غيبوبة خيالية... مثل حلم»؟

«حسنًا، هذا كالحلم قليلًا، لكن واضح أنّه بالعكس. لماذا لا تسألين أسئلتك»؟

أُبعد نظري عن الشاشة وأنظر إليه.

«كلّما أخبرتني بشيء، تزداد أسئلتي»، أقول.

«مثل»؟

«حسنًا، كيف أنّ هذا مثل الحلم لكن بالعكس»؟

«الحلم يأخذك للاوعيك. وهذا ليس لاوعيك».

فجأة يبدأ طرق في ذهني. لم تُتح لي فرصة حقيقية بعد لأفكر بعمق في مخطوطة أبوللو سيمنثوس، لكن واضح أنّي امتصصتها، إذ بدأت الآن أعقد صلات.

«هذا هو... الوعي ذاته»، أقول.

«بالفعل».

«أفكار الجميع، وعي الجميع، لكنّه في هيئة عالم مجازي واضح يمكنني تبوّؤه. لكن هذا الفضاء لا يبدو هكذا حقًّا... كما قلت من قبل، لا قهوة ولا طاولة ولا تليفزيون لكنّي على الأرجح لم أكن لأرى ما هو مِن.. و... وبإمكاني الوثوب لأذهان الآخرين لأنّهم جميعًا متصلون، لأنّهم جميعًا من الشيء نفسه.

«جيد جدًّا. وما هو هذا الشيء»؟

«هل أعرف»؟

«نعم، يجب أن تعرفي».

أفكر في كلّ ما أعرفه عن الوعي. أبدأ بصامويل باتلر وفكرته عن الوعي كشيء يتطوّر، وأنّه ليس هناك ما يمنع الماكينات أو قطع البلاستيك أو أيًّا ما كان من أن يصبح واعيًا طالما يمكنه وراثة الوعي عنّا. أتذكّر حجته: نحن تطوّرنا من النبات، والنبات ليس له وعي، فالوعي إذن قد يتطوّر من لا شيء بالمرّة، مثلما لا بدّ فعلت الحياة أيضًا ذات مرّة. قد يحدث ونندمج بالآلات ونصير سايبورجيين [كائنات نصف آلية نصف بشرية] وفي النهاية

قد يصير النصف الآلي منا واعيًا. لكن كيف يحدث هذا؟ وكيف حدث مع الحيوانات التي كانت واعية منذ البدء؟ من الذي صنع لنا الوعي؟ لا بدّ أنّه كان هناك لحظة اشتعل فيها بصيص الوعي، ما الذي تسبّب في هذه الوثبة المفاجئة للوعي؟ لطالما أحببت تلك الأسئلة أكثر من أي شيء آخر في أعمال باتلر، لكنّها لن تفيدني بشيء هنا، لا أظنّ. ماذا أعرف أيضًا عن الوعي؟ أعرف أنّني لا أحبّ فكرة اللاوعي الجماعي، لا أحبّ فكرة وجود رموز أولية خارج النظام الأكثر تعسّفًا من الدال والمدلول. أفضل فكرة دريدا عن وجود فضاء عدمي يخلّق الواقع والحاضر ـ ليس مقدّمة فيلم غرائبي درجة ثانية مليء بثعابين وساحرات ومهرجين مقرفين.

أفكّر في هيدجر ثانيةً وأدرك أنّ هناك الكثير جدًّا ممّا لا أعلمه. ممّا أتذكّره، كلمة هيدجر الخاصّة للدلالة على الوعي (أو علي الأقلّ ذلك النوع من الوعي الذي يبدو أنّه لدى أغلب البشر) هي Dasein [الكائن ـ هنا] ومعناها الحرفي الكائن الذي يستطيع طرح أسئلة عن كينونته الخاصّة. عند هيدجر لا يستقيم التفكير في الكينونة بدون فكرة الزمن: لا تكون حاضرًا إلّا في الحاضر، لذلك أنت لا تكون سوي بمعنى أن تكون في الزمن. الكينونة يمكنها التساؤل والتنظير حول وجودها الخاصّ. بإمكانها التساؤل (لماذا أنا هنا؟ لماذا أوجد؟ وما هو الوجود أساسًا؟) لذلك فالكينونة تنشأ من اللغة: الرموز الدالّة.

أقام لاكان[1] حجّته القائمة على التحليل النفسي بأنّ الوعي مرتبط باللغة ـ أن وثبتنا من اللاوعي، إذ نحن أجنة نحبو، إلى كوننا جزءًا من «نظام الرموز» (أي حصولنا على عالم واعٍ) تحدث تمامًا في الوقت نفسه الذي نحتاج فيه إلى اللغة، تلك هي اللحظة نفسها التي ندرك فيها أنّنا كائنات

(1) جاك لاكان Jacques Lacan (1901-1981): محلّل وطبيب نفسي فرنسي، أسهم إسهامات بارزة في علم النفس والفلسفة، ويعد من أكثر المحلّلين النفسيين إثارة للجدل بعد فرويد.

منفصلة في العالم. لسنا أمهاتنا (شكرًا للمسيح). فنصير شيئًا ندعوه نفسًا لا توجد إلّا لأنّ الآخرين موجودون.

لكنّ العالم من لغة (أو، على الأقلّ عالمي أنا من كلمات)، ونحن نعلم كيف أنّ هذا ليس جديرًا بالثقة. إنّه صورة زائفة: نظام مغلق تمامًا مثل الرياضيات، حيث كلّ شيء معقولًا فقط لأنّه ليس شيئًا آخر. رقم 2 يعني شيئًا ما فقط لأنّه ليس 1 أو 3. البيوت لا توجد إلّا لأنّها ليست قوارب أو شوارع. أنا فقط أنا لأنّني لست شخصًا آخر. هذا نظام وجودي خالٍ من المدلولات: فقط دالّات. النظام الكلّي للوجود نظام مغلق يطفو فوق لا شيء. كحوّامة موصدة الفتحات.

فكّري، آرييل. تلك ليست مقالة لعينة.

لا. أنا تائهة داخل الوعي وأحاول أن أعرف ماذا بحقّ الجحيم يكونه؟

ممّا يذكرني، بطريقة ما، بشيء...

«ليس لدينا الكثير من الوقت»، ينبهني أبوللو سيمنثوس.

أنظر إلى أعلى إلى الشاشة. ما زلت راقدة هناك، فاقدة الوعي تمامًا مثلما كنت من قبل.

«هذا المكان كلّه من لغة»، أقول. «هكذا وصلت هنا، عبر نفق من لغة... من كلّ اللغات منذ بدء الخليقة. أفكار الناس مخزّنة هنا بطريقة ما...».

«جيّد جدًّا».

«وأنت من لغة خاصّة: الصلاة».

«نعم».

«لكنّي لا أفهم. لماذا لا يمكنني رؤية التروبوسفير الحقيقي؟ بالتأكيد ليس أرقامًا وحروفًا؟ أعني، إن كان من لغة. فلا بدّ أنّها وجدت لتُفهَم».

«لغة مكتوبة على ماذا»؟

أرفع كتفي. «لا أعلم». لسبب ما أتخيّل لوحة كبيرة في السماء، كنسخة

كونية من حجر رشيد، كلّما فعل شخص شيئًا ما أو قاله أو فكّر فيه، كُتب هناك. لكن هذا هو كلّ شيء. أعنّي: سنرى جميعًا لوحًا حجريًا عملاقًا معلقًا في السماء. لعلّ كلّ هذا حقًّا مجرّد خيال.

«سيكون عليكِ أن تفكّري في هذا أكثر قليلًا»، يقول أبوللو سيمنثوس.

«نعم...»، أبدأ فيقاطعني،

«لكن ليس الآن، الآن علينا أن نخرجك من هنا».

«أنا...» أبدأ ثانية.

ينظر أبوللو سيمنثوس في ساعته. «ماذا»؟

«لماذا تهتمّ»؟

«أوه، لأنّك ستقومين بخدمة لي».

«وما هي»؟

«سأخبرك في الطريق».

نخرج من الصحراء إلى مساحة من الضواحي ببيوت بيضاء صغيرة لها أبواب زرقاء. الوقت ليلًا ثانيةً، لكنّ الضوء الفضّي عاد. لكلّ بيت نافذة يوجد على أفريزها الخارجي ورود زرقاء وأمامه حديقة مشذبة، الحدائق رطبة ومندّاة ومغطّاة ببيوت عنكبوت صغيرة لامعة. يخبرني أبوللو سيمنثوس بما يريدني أن أفعله له، وما يقوله جنون مطبق.

«تريدني أن أعود لسنة 1900»؟

«نعم ولا جدوى من الجدل، لأنّكِ بطريقة ما قمتِ بهذا بالفعل. لهذا أنا هنا أساعدك الآن».

أتجاهل هذا بقدر ما يمكنني. «تريدني أن أعود لسنة 1900 وأعبث بذهن مدرسة متقاعدة تقوم بتوليد فصائل من «فئران وهمية»؟»

«نعم، هذا صحيح. آنسة آبي لاثروب. كما كنت أقول لكِ كانت هي من اخترع عمليًا فكرة فأر التجارب. اذهبي لأيّ معمل وستجدين هناك

فئران مولّدين من مساهمتها الأصلية. سأعطيكِ مثلًا. (C56/BL6/Bkl) هي سلاسة من الفئران يمكنك شراؤها من أيّ موزع، كلّهم سود وطبيعيون ومولّدون من مساهمة آنسة آبي لاثروب... تحديدًا من تزاوج الذكر 52 والأنثى 57».

«لماذا»؟ أقول، بينما يحاول مخّي ـ ويفشل ـ استيعاب أيّ من هذا. «لماذا تريدني أن أفعل هذا»؟

«يبدو أنّ الفتية في إلينوي يدعونني لأفعل شيئًا بشأن معاناة فئران التجارب. حسنًا، لا يمكنني الوصول لحلّ أفضل من إزالة الفكرة من ذهن المرأة التي اخترعتها، هل لديك حلّ أفضل»؟

«لكن ليس لي أن أزيل فكرة أحد»!

«أوه، حقًّا، أتقولين أنّك لم تغيّري في فكر أحد منذ أن دخلتِ هنا؟ ألم تحرضي أحدًا على فعل أشياء لم يكن ليفعلها في العادة؟ ألم تهربي هكذا من الرجلين في السيّارة»؟

«لكن...»، معه حقّ. «كان هذا في الزمن الحاضر. لا يمكنك تغيير الماضي. ماذا عن المفارقات»؟

«كلّ ما يحدث في التروبوسفير يحدث في الماضي، حسب فهمك».

«والمفارقات»؟

«أوه، في هذه اللحظة، يعتبر كلّ شيء مفارقة قليلًا. لا يهمّ».

أرى في ذهني صورًا لرجال في معاطف بيضاء ينحنون على أقفاص فئران. في لحظة ما يتفحّصون كائنًا تنمو في ظهره أذن أو ورم، وفي اللحظة التالية تخلو الأقفاص. لكن إن كانت المرأة التي استولدت الفئران قد عدلت عن هذا عام 1900، فلم تكن الفئران لتوجد هناك إذن، ولم يكن الرجال ليكونوا هناك أيضًا. كان العالم كلّه سيتغير. أحاول شرح هذا لأبوللو سيمنثوس.

«أوه، لا»، يقول برفق. «لا، تلك ليست مشكلة. فقط سيتحلل الفئران في الهواء، لا أظنّ أنّ شيئًا في العالم سيتغيّر. لن يلاحظ أحد».

«لكن...».

«لقد قمت بهذا بالفعل، لا جدوى من الجدال إذن».

«إن كنت قد قمت به بالفعل، فلماذا إذن ما زال هناك فئران في أقفاص في المعامل»؟ أسأل.

«هل هناك فئران»؟ يقول. «لا أرى أيًّا منها».

«وماذا عنك؟ إن لم يكن هناك فئران معامل، ربّما لم تكن رابطة إلينوي قد تألفت قطّ ولم توجد أنت قط...».

«أوه، لقد ظللت موجودًا منذ الإغريق. وعمومًا، جزء من أن تكون إلهًا أن تقوم بأشياء لتدمير نفسك، كمثل أن تكون بشرًا، نحن جميعًا عالقون في المقايضة نفسها».

ثمّة مفارقات كثيرة جدًّا هنا لدرجة تسبب الصداع. علي الأقلّ لديّ قدر قليل من الطاقة الآن. لا بدّ أنّها المحاليل المعلقة بجسدي المادّي في المستشفى.

«اسمها آنسة آبي لاثروب»، يقول مرّة أخرى، «وتعيش في مزرعة بـ(ماساشوسيتيس)، سيكون عليك الوصول إليها من ناحية أواخر 1899. سأترك رسالة بالتفاصيل كاملة حين تعودين».

علي الأقلّ لا يريد منّي القيام بهذا الآن.

«لكن...».

«ماذا»؟

«ما زال لديّ سؤال آخر».

«وهو»؟

«ألن يقتلني هذا؟ أعني أنّني أوشكت على الموت حين عدت للوراء في الزمن لأقلّ من شهر، لولا أن أنقذتني أنت، ولا تؤاخذني في هذا... ما زلت لا أعرف إن كنت سأخرج من هنا على قيد الحياة أم لا».

لا أعرف لماذا أنت مغرمة هكذا بهذه «الحياة». يتنهّد أبوللو سيمنثوس. «لكن لا تقلقي، سأريك شيئًا أظنّ أنّك ستجدينه ذا نفع».

«ما هو»؟

«مترو الأنفاق. أظنّ أنّ هذه هي الترجمة المناسبة».

«مترو الأنفاق؟ ماذا، كالقطارات»؟

«نعم. هكذا سيراه ذهنك. نعم، أعتقد أنّها ستكون قطارات».

تكتسب الضواحي كثافة أكبر بينما نسير هابطين تلّة منحدرة وأرى أسفلها طريقًا رئيسًا لامعًا، بالطبع ما زال لا توجد حركة مرورية، لا مرور ولا قمامة ولا بشر. نصل إلي الطريق وننعطف يمينًا (مارين) بصف من المتاجر الكبيرة بأضواء ساطعة يفصل بينها من حين لآخر مباني إدارية رمادية كبيرة. نمضي لأبعد قليلًا ويتولّد لديّ إحساس بأنّ حوافّ كلّ شيء حولي أكثر ممّا ينبغي، أرى مباني سكنية كريمية كبيرة لها حجرات غسيل متعدّدة الأبعاد وباحاتها الخارجية حانات للموسيقى، يوجد هنا أشياء كثيرة جدًّا، وأحسّ بكثافة المشهد تضغط عليّ بشكل ماديّ تقريبًا. في اللحظة التي أشعر فيها أن ليس بوسعي تحمّل المزيد، يشير أبوللو سيمنثوس لدرج أسمنتي أمامنا يبدو أنّه يؤدّي إلى أسفل تحت الشارع، إذ نقترب منه أراه يشبه مدخل محطة المترو بلندن.

«ها نحن أولاء»، يقول، «ليست الطريقة الأسهل إلى التنقل في التروبوسفير، لكنّها كذلك للعودة لنفسك».

أبدأ هبوط درجات السلّم ثم أدرك أنّه لا يتبعني فأتوقّف.

«ألن تأتي»؟ أقول.

«أوه، لا يمكنني النزول هناك».

«ماذا سأفعل إذن»؟

«يجب أن يكون معك جدول زمني، على هذا الشيء... الواجهة».

«ماذا، لوحتي»؟

«إن كان هذا ما تسمينها به. نعم».

«لكن لأين سأتوجّه»؟

«لنفسك. نصيحتي أن تتوجهي إلى نفسك قبيل صعودك للتروبوسفير هذه المرّة، حينها سيمكنك تجنّب مشقّة الذهاب للمستشفى، وهذان اللذان يلاحقانك، وكلّ هذا».

«مـاذا. هل تعني أنّه توجد محطّة اسمها «آرييل مانتو - حانة في هيرتفوردشاير - قبل خمس دقائق من إقلاع الرحلة التي اكتشفت فيها طريق العودة إلى هنا من الأساس؟ أقصد، المفارقة...».

«متى ستتوقّفين عن التحدّث عن المفارقات؟ عالمك كلّه مفارقة رسمية ليس لها أول ولا آخر. لا شيء فيه معقول، لكنّه من صنعك على ما يبدو».

لا أصغي له حقًّا، بل أفكّر، «الرجلان إذن يلاحقانني بالفعل، ثم سيناريو المستشفى». يجب أن أخرج من هنا. هل سيفلح هذا؟ لا أعرف، لكنّني ضائعة تمامًا هنا في مكان معتم وكثيف جدًّا: مدينة في جنح الليل بطريقة ما من صنعي أنا وبطريقة ما تتّصل بأذهان جميع الناس «بالخارج». وصلناها بعد مسيرة، ماذا، عشر دقائق تروبوسفرية؟ يصعب الجزم.

ثم يصل لسمعي صوت: صرير عجلات، يسمعه أبوللو سيمنثوس أيضًا فينقبض وجهه الرمادي في تقطيبة، وترتعش أذناه.

«الأفضل أن تذهبي». يقول.

«ما هذا»؟ أقول.

لكنّه واضح. الطفلان الأشقران يهبطان التلّة: أحدهما على لوح تزلج والآخر علي درّاجة صدئة. ما زالا بعيدين، بالكاد قطعًا ربع الطريق.

«اذهبي»، يقول أبوللو سيمنثوس. «سأتولّى أمرهما».

«ماذا إن لاحقاني»؟

«ليس بإمكانهما النزول تحت الأرض. اذهبي الآن فحسب، لا تدعيهما يريانك هنا».

«لكنّهما على الأرجح يعلمان أنّي هنا. أقصد...».

«إنّهما لا يتتبعانك. ما زلتِ مفقودة. إنّهما يتتبعانني، وبإمكاني التعامل معهما، اذهبي فحسب قبل أن يريانك».

يسير مبتعدًا ناحية الطفلين. أتساءل ماذا سيفعل لهما.

«أبوللو سيمنثوس»؟

«سأراك حين تعودين»، يصيح من أعلى كتفه الناتئ.

ما زالت السماء معتمة، وثمّة ومضة سريعة كالبرق إذ أهبط السلّم، هل صرت في أمان الآن؟ لا بدّ ذلك، بالكاد نجوت، لا أسمع وقع خطواتي، كلّ ما أسمعه صدى صوت تساقط قطرات. الرؤية بالأسفل هنا ليست جيّدة جدًّا، من حين لآخر ثمّة ضوء برتقالي خافت مثبت في السقف الأسمنتي، ولا شيء سواه. يهدأ ركضي لسير وأحاول رؤية ما خلفي لكني لا أرى شيئًا، الظلام بالأسفل هنا أكثر من الضوء، لكنّي أنا من صنعت هذا الحيز، حسبما أظنّ، لماذا لم أعطه مزيدًا من الضوء؟ أحاول أن أفكّر في المزيد من الضوء للمكان، لكن لا شيء يحدث، كأنّ هذا هو ما يعنيه محطّة مترو أنفاق بالنسبة لي ولا سبيل لتغييره. أتوغّل في النفق، تحت الأرض لأعمق وأعمق، لكنّي لا أسمع شيئًا خلفي، وبعد عدّة دقائق أستنتج أنّى في أمان... حتّى الآن. بدأت أقلق الآن من ألّا ينتهي هذا النفق الرمادي الطويل أو يتغيّر قط، حين تظهر فجأة لافتات في كلّ مكان، وعدد من شاشات الحاسوب القاتمة أغلبها أسود × أبيض، تعلن عن مواعيد الوصول والمغادرة. ألمح درجًا يؤدّي إلى أسفل جانبي النفق، تقول اللافتة إلي يساره رصيف 365، ويمينه رصيف 17. أين المنطق هنا؟ وكيف بحقّ الأرض سيمكنني العودة لنفسي بهذا النظام؟

لوحة؟

تظهر.

ماذا أفعل الآن؟ أسألها.

اقرئي شاشة المغادرة، تخبرني.

كثير جدًّا على الجدول الزمني الموجود على لوحتي.

يبدو أنّ جميع الشاشات تعلن عن مواعيد مغادرة، ألا وصول هنا؟ أقف أمام واحدة لأقرأ ما بها، ثم لا أدري إيلامَ أنظر، لا يبدو أنّ بها مواعيد، ليس سوى أكداس وأكداس من أرقام أرصفة، وخطوط قطارات تسمّى خوف، حبّ، غضب، إحباط، قرف، ألم، لذّة، أمل، راحة... كافّة الانفعالات المجرّدة التي يمكنك التفكير فيها هناك، وللعجب، تتّسع لها جميعًا شاشة بحجم التليفزيون المحمول.

كيف أستخدم هذا النظام؟ أسأل اللوحة

حددي رصيفًا واستقلّي قطارًا.

لكنّ أيّ رصيف؟

إلي أين تذهبين؟

لنفسى. أوه... هل أستخدم النظائر؟

لا. ترتبط النظائر بموقعك في التروبوسفير فقط. وحسبي أنّك تحاولين الخروج منه.

حسنًا... ماذا أفعل إذن؟

استقلي قطار فكر يرتبط بالحالة الذهنية للشخص الذي تريدين اللحاق به: أيّ نفسك في هذه الحالة. وترجلي منه حين تصلين إلى هناك.

أقلّ ما يقال عنها إنها تثير حنقي، فأطفئها. قطارات فكر، الأمر واضح ومحبط في الوقت نفسه، من الذي اخترع هذا النظام الغريب؟ أفكّر، أنا الذي اخترعته، أنا الذي اخترعت كلّ شيء هنا، لكنّي لم أخترع أبوللو سيمنثوس، ولم أخترع هذين الطفلين. أتنهّد وأنظر للشاشة مجدّدًا، إن كنت سأعود لنفسى، فيجب حسبما أظن، أن أحدّد شعوري في اللحظة التي أريد العودة إليها فيها.

وأفكّر: «السفر عبر الزمن، إلى الماضي، بواسطة الانفعالات»؟ لم يكن آينشتاين ليوافق على هذا، ولست واثقة من أنّي أوافق عليه، وفي جميع الأحوال لا أدري كيف أميز بين المشاعر، لديّ ما يكفي من المشاكل (الفكرية) في التمييز بين الأشياء، والمشاعر ليست أشياء حتّى، إذ لا توجد خارج الذهن حقًّا، لكنّني مضطرة لهذا في جميع الأحوال. حسنًا، بماذا كنت أشعر حين كنت في غرفة الحانة؟ بالأمل؟ إلى حدّ ما. كنت آمل أن أجد بيرلوم من خلال مولي، لكنّه لم يكن قويًّا، هل يجب أن يكون قويًّا؟

تظهر اللوحة في ذهني مع أنّي لم أستدعها.

لديك رسالة جديدة، تُعلمني ثم تُطفئ نفسها. أفتحها مجدّدًا.

أين الرسالة؟ أسألها.

ثمة وميض في الشاشة أتبعه إلى أن أصل إلى كشك جرائد أسفل شاشة مواعيد مغادرة، خارجه حامل صغير عليه جريدة واحدة، ألتقطها، ليست جريدة.

دليل القطارات، يقول العنوان. تأليف أبوللو سيمنثوس.

أفتحه.

ليس لديك الآن رسائل جديدة، تقول اللوحة.

أشرتُ مداورة في عملي السابق إلى حالة أن يكون الذهن عُرضة لعالم جميع الأذهان، وأري الآن أنّ هذا الأمر بحاجة لتوضيح... كما تعلمين، الوعي في حدّ ذاته مشهد ممتد من أبواب كثيرة تنفتح من ذهن إلى آخر. المشهد والأبواب مجازات. إذ قد تظهر الفتحات أيضًا في هيئة أنفاق في شعاب مرجانية أو ثقوب في الفضاء. في الغالب يتمّ تخزين المعلومات في التروبوسفير لحظة خلقها في «فضاء ذهن» الفرد، مع ذلك، تتّخذ المعلومات أشكال متعدّدة وأكثر ديناميكية، ويمكنّك القول أكثر «كونية» (ليس معنى هذا أنّ التروبوسفير كون بالطبع). ما تدعينه «انفعالات» هو أحد أشكال المعلومات التي تتشاركها الأذهان في التروبوسفير... قد

تشبه الخبرة البشرية بانفعال ما ريح تهبّ في صحراء شاسعة ليس لها آخر، أو كوكب يدور في مداره، (والأمر دومًا «يشبه» فقط، ولا «يكون» قطّ، إذ الانفعال في حدّ ذاته مجاز، كينونة ما تتبدي فقط بعدم ظهورها... كأنّه العرض وليس أبدًا المرض). اخترتِ أنت أن تريه كقطار يتحرّك في نفق علي مسار حلزوني لا نهائي، الأذهان ليست ركّاب هذا القطار بل هي المحطات نفسها... أحيانًا مفتوحة وأحيانًا مغلقة، حين تكون المحطّة مفتوحة يمكن لقطار الانفعال أن يدخلها، وحين تكون المحطّة مفتوحة تكون مفتوحة لأشياء أخرى أيضًا: لأذهان أخرى مفتوحة أو ربّما لأشخاص يحاولون التواثب.

قد يُعَدّ الانفعال ببساطة فعلًا. حقًّا، أتذكّر أنّ الكلمة كانت تستخدم ببساطة لتدلّ على الفعل أو الانتقال من شيء إلى آخر، في هذا العالم المخلوق من لغة، لا يسقط معني أبدًا، وفي هذه الحالة، الفعل شيء ليس له كتلة (الفعل نفسه)، كذلك يمكن لمعناه أن يسافر بسرعات لا يمكن استيعابها: سرعات كافية لأخذك للوراء، ما عليك سوى أن تستقلي قطارًا وتجدي المحطّة الصحيحة.

أنظر لشاشة مواعيد المغادرة مرّة أخرى، أفكّر في نفسي وأنا في غرفة الحانة تلك، حين كنت قد أخذت حمامًا لتوّي، أتذكّر: كنت أحاول التخلّص من قرفي من شهوة باتريك، أن أتناسى أنّي مارست لتوّي الجنس من أجل المال... كنت... ماذا؟ كنت خائفة، بالطبع... برغم كوني قد تخلّصت من رجلي مشروع ستارلايت إلي حين، ماذا أيضًا؟ كنت حزينة لعلّمي أنّي لن أرى آدم مرّة أخرى أبدًا، لكنّ الحزن والإحباط عاديان جدًّا بالنسبة لي لدرجة أنّهما لا يحسبان حتّى.

أيّ قطار أستقلّ؟

رصيف الحزن 1225، رصيف القرف 69، لست واثقة أنّ بودّي ركوب قطار الحزن أو قطار القرف. ماذا عن الألم؟ لكنّي لم أكن أتألّم فعليًّا.

أتذكّر اللحظات التي أمكنني فيها دخول أذهان الآخرين. مع مولي، كانت تلك اللحظة ـ ذلك الانقباض ـ حين فكّرَت في هيو وألم اضطرارها

للبحث عنه في كلّ أنحاء البلدة. مع ماكسين، كان ذلك سهلًا: كانت قلقة طوال الوقت من كونها سمينة وتنبعث منها رائحة. والآن أظنّني فهمت مسألة «عُرضة لعالم جميع الأذهان» تلك. أن ينتابك انفعال قوي فينفتح شيء ما في ذهنك، قليلًا، وفي لحظة الانفعال يتّصل ذهنك بجميع الآخرين الذين يشعرون بالانفعال نفسه، أم أنّني لم أفهم هذا بشكل صحيح، في الحقيقة يبدو الأمر لي كطبقات موضوعة كيفما اتّفق، كفكرة ليس لها الخطوط الخشنة التي لأفكار دريدا وهيدجر. أوه، حسنًا، أفكّر أكثر، لست متأكّدة إن كنت شعرت بشيء محدّد جدًّا في تلك الغرفة، انتظري لحظة، بالتأكيد لا يهمّ اللحظة التي أعود فيها إلى نفسي طالما أقصد العودة لها في أيّ لحظة قبل أن آتي للتروبوسفير، إذن، متى كانت آخر مرّة انتابني فيها انفعال قوي؟ ماذا عن الذعر الذي تملّكني وأنا أقود السيارة مبتعدة عن الدير؟ ذلك الشعور السقيم المترهل على نفسه حين كنت أتوقّع أن تنزلق السيّارة السوداء خارجة من الشارع الجانبي في أيّ لحظة وتبدأ مطاردتي. أنظر لشاشة مواعيد المغادرة مرّة أخرى. الخوف: رصيف نمرة 7. لا أتوقّع أن يفلح هذا، لكنّني سأحاول.

أبدأ سيرًا طويلًا في نفق أسمنتي لانهائي متجاهلة لافتات تشير إلى رصيف نمرة 31، ورصيف نمرة 57، ورصيف نمرة 99، لا ترتيب هنا، في النهاية أجده: رصيف نمرة 7، أهبط درجات معدنية وأرى القطار هناك بالفعل؛ شيء قديم وصدئ يذكّرني بأقدم قطارات الخط الجنوبي وأقذرها التي تبدو دومًا كأنّها تلحق أنفاسها الأخيرة حين تتوقّف خارج (كامدن). ألا يعتبر حسن حظّ قليلًا أنّ القطار هنا بالفعل؟ لكنّي أرى من أسفل هنا أنّ الأرصفة الأخرى كلّها تتوقّف عندها القطارات. تمامًا كما تدلّ اللافتات: لا وصول هنا، مغادرة فقط، ثم أدرك أنّ القطار ليس هنا «حقًّا» على الإطلاق، بل هو المجاز... ككلّ شيء هنا. أدير المقبض الفضّي القديم وأسحب الباب ناحيتي، أيًّا كان المجاز وأيًّا كان ما هي عليه تلك الخبرة «حقًّا»... أعلم الآن علم اليقين أنّني فعليًّا أتقدّم في أغوار الخوف نفسه.

اثنان وعشرون

لكن يبدو الخوف حتّى الآن كما بداخل أحد قطارات مترو لندن القديمة، المقاعد مكسوّة بمخمل أخضر باهت بخط برتقالي متكرّر، ويغطّي الأرضية طبقة سميكة من الوحل إلى حدّ أنّ الأرضية الحقيقية قد تسقط دون أن يلحظ أحد، تتّصل عربات القطار معًا بمفصّلات لها صرير يمكنك رؤيتها (أو هكذا تخيّلت) إن نظرت من نافذة باب العربة. أجلس فيصل إلى سمعي صوت صفير، يبدأ القطار في التحرّك، يقعقع وهو يتحرّك ببطء حتّى نهاية الرصيف ثم ننطلق فجأة بسرعة ثلاثمئة ميل في الساعة تقريبًا في نفقٍ طويل نخرج منه على مشهدٍ لا أتعرفه؛ فأفكّر بسخف أنّه «لا بدّ قطار دائري، إذ صعدنا فوق الأرض بالفعل»؛ ثم أُدرك الخطأ في تفكيري، فأتوقّف عن التفكير.

لا أحبّ هذا المشهد، لا أحبّه بالمرّة، يتلاشى الآن الهدوء الساكن الذي أشعر به في التروبوسفير، وأشعر ليس فقط بالبرد والإرهاق بل أيضًا بخواءٍ داخلي تامّ، كأنّني كلّي من جلد ليس إلّا. يسرع القطار مرّة أخرى ولا يسعنى سوى النظر إلى الخارج من النافذة، الأمر يشبه قليلًا حين تبحث على الإنترنت عن الأعراض التي لديك وأنت متأكّد أنّها لمرضٍ يؤدّي إلى الموت: أنت تعلم أنّها كذلك وتعلم أنّه ينبغي ألّا تبحث، لكنّك تبحث. يوجد بالخارج وادٍ كبيرٍ فقط، لكنّه ليس واديًا أخضر يبعث على الأمل، بل وادٍ من طين بشكل أساسي، وعلى الطين بيوتٌ تشتعل فيها النيرانُ، يجب

أن يكون ذلك مثل مشاهدتي نشرةَ الأخبار في التليفزيون ـ ذلك الإحساس المبالغ فيه بأنّ لا شيء تراه على شاشة ذات بُعدين قد يحدث في الواقع قطّ ـ لكنّ ذلك ليس مثل مشاهدة التليفزيون، البيوت المشتعلة بالنيران في الخارج ليست مجرّد أشباهِ بيوتٍ قديمة في التليفزيون: إنّها كلّ البيوت التي سكنت فيها من قبل، وأنا بداخلها ولا أستطيع الخروج؛ ووالداي بداخلها ولا يستطيعان الخروج، أعلم أنّ أختي ماتت بالفعل، وفوق هذا الخوف بلا أملٍ: أنا نائمة في غرفة نومي الباردة بكِنت، أرتدي المنامة الثقيلة التي اشترتها أمي لي تلك الأيام التي اعتدنا أن نقضي فيها أعياد الميلاد معًا، لست نائمة فقط، لقد أيقظني دخان النيران الآن، وبينما أشاهد، تُمسك النيرانُ بطرف سروال المنامة ويبدأ جلد كاحلي في الذوبان، لن أستيقظ أبدًا، سأذوب فحسب، ولن أعرف حتّى شيئًا ممّا حدث.

بعد النيران لا شيء سوى فيضانات: ماء يعلو البيوت نفسها ـ (بيوتي) ـ إلى أن يغمرها تمامًا، إلى أن يموت من على الأسطح ومن يختبئون في الأقبية. عائلتي كلّها؛ كلّ من عرفتهم في حياتي، على مستوى ما أعلم أنّي لا أعني كثيرًا بعائلتي... متى كانت آخر مرّة رأيتهم فيها عمومًا؟ لكنّي الآن هناك معهم في انتظار نجدة لن تأتي؛ نحاول تقبل اللحظة التي سيعلو فيها الماء ويغمرنا جميعًا، لا شيء هناك سوى الماء: أسود وبارد ونتن كالموت، وأنا أول من أموت، أول من أتخلّى عن محاولة حبس تنفّسي وأتنفّس الماء الأسود فعلًا. هذا هو. سواد. جسدي العقيم يغوص إلى حيث كان الشارع. وتحت مطر الخوف هذا، أتعرّق، وقلبي يدقّ بسرعة شديدة لحدّ أنّه مثل دقّة قلب واحدة، أو لعلّه لا يدقّ بالمرّة.

أسوأ ما في تلك الصور بالخارج أنّ لا شيء سواها، وليس الأمر ببساطة أنّي لا أرى شيئًا وراء البيوت والوحل: إذ أعلم بأعمق يقين ممكن أن لا شيء سوى ما أراه بالخارج، أنا لست هنا، لا يوجد قطار، سأموت في كلّ تلك البيوت ولا مناص من هذا، هذا ليس على وشك أن يحدث، أو يحدث في التليفزيون، أو يحدث لأحد آخر. لا بدّ أنّ هذا ما يحدث

حين تفتح الباب لرجل بعينين ميتتين يُمسك بفأس، لا بدّ أن هذا ما يحدث حين لا تصارعه (كيف لكَ ذلك برغم كلّ شيء؟) وأنت مقيّد وتعلم أنّك ستموت، أنت لا تشاهد هذا يحدث لشخصية خيالية، بل تشهده حقًّا: هذا أنا، نهايتي أنا. أو الأسوأ من ذلك: أن تكون شخصية خيالية لكنّك لست من الشخصيات الرئيسة، بل إحدى الضحايا ممّن يسقطون في الأثناء.

يمضي القطار مترنحًا. كلّ الأزقة التي لا أمرّ بها أبداً بعد حلول الظلام هناك الآن: عالم من أزقّة سد ومغتصبين يجوسون في الممرّات الضيقة المعتمة مثل الأشباح في (باك مان)[1]. أتلقّى مئات الطعنات من بشر لا يعرفون اسمي ولا كتبي المفضّلة، ولا يعنيهم أن حياتي لم تكن بائسة جدًّا لدرجة أن أربى قطّة. أشهد نفسي أنزف حتّى الموت كحيوان في سلخانة، بينما أعضاء من جسدي منثورة حولي، منزوعة ومهملة. أصلّي لأفقد الوعي، لكنّي لا أفقده. أوه، يا يسوع. لا أستطيع تحمّل المزيد من هذا. أشعر بكلّ هذا كأنّني أخضع لعملية جراحية والأطباء لا يلحظون أنّي صاحية. أرى حادثة تصادم سيارات كثيرة على طريق سريع. أرى آدم يموت بمليون طريقة مختلفة. ثم أراني أقتل آدم: أقتله بكلّ طريقة ممكنة، وأقتل كلّ الآخرين أيضًا. أنا في السجن، ولن أهرب أبدًا. ما من خيارات أمامي.

ليس لديّ خيار.

ليس لديّ خيار.

كلّ فامتو ثانية من تلك الرحلة المرعبة بمثابة لحظة كشف أدرك فيها أنّ هذا هو الأمر، تلك هي آخر لحظة لي في الحياة، وقد تلاشت كلّ فكرة عن الإرادة الحرّة منذ أمد بعيد. وكلّ لحظة كشف، في اللحظة التي أشعر بها، لا رجعة فيها على الإطلاق. ليست اللحظة التي تفكّر فيها أنّه «خراء! كان ذلك قريبًا جدًّا». إنّها اللحظة التي تلي ذلك، في عالم أنت فيه أتعس من على الأرض حظًا، ولا أحد ليساعدك، ولا أحد يكترث، خاصّة وكلّ من تعرفهم ميتين...

---

(1) لعبة بالماكينة أصلها ياباني.

لا أستطيع تحمّل هذا.

لوحة؟ أقول، بوهن، مع أنّني بالكاد أصدّق أنّ هذا الشيء ما زال موجودًا.

تظهر.

أين أترجّل؟ أسألها.

في محطّتك.

أين محطّتي؟

يجب أن تميّزيها.

ماذا؟

ليس لديك الآن خيارات.

حسنًا، أعرف هذا.

بودّي أن أنهض وأذهب لأطلب من السائق أن يوقف القطار، لكنّي أعرف أنّه ما من سائق هنا وأنّ هذا ليس قطارًا حقيقيًا. أنا في موجة من الخوف تتحرّك أسرع من... ماذا قال أبوللو سيمنثوس؟ سرعات لا يمكن استيعابها. فكرى، فكرى. لا تنظري من النافذة. لا تنظري.. أنظر.

ثم أدرك أنّي لست وحدي بالخارج هناك. هناك بالفعل ما هو أسوأ من أن تكون وحيدًا مع أبشع مخاوفك، وأنا على وشك أن أرى ماذا عساه يكون هذا. بوهن - ليس أعلى أو أسفل أو أمام أو خلف تصوّراتي للخوف، لكن في اتجاه آخر ما منها - أحسّ الآن بعواء ينذر بشيء ما آخر: طبقات فوق طبقات من مخاوف آخرين. محاكاة مبهمة للخوف من أموال تحترق، خوف شخص يلكمه والده، خوف من دُمى تقول لك «اغرب عن وجهي» ثم تنتزع حنجرتك، من فكرة أنّه لا يوجد ما يسمّى واقع حقيقي، خوف شخص يختطفه مخلوق فضائي ويقيده في معمل أبيض، خوف من حرب نووية، من طفل يغرق، من مئات الأطفال يغرقون، من كلّ شيء نتيجة

خطئك أنت، من الاختناق بشوكة سمكة، من سرطان الرئة، من سرطان القولون، من أورام المخّ، من عناكب... الآلاف والآلاف من العناكب، من فتق الرحم، من انقطاع النَّفَس أثناء النوم، من الأكل، من أي نوع من الجنس، من الفئران، من الصراصير، من الأكياس البلاستيكية، من المرتفعات، من الطائرات، من مثلّث برمودا، من القضبان المكهربة، من الأشباح، من الإرهاب، من حفلات الكوكتيل، من الزحام، من طبيب الأسنان، من بلع لسانك، من قدمك، من الأحلام، من الكبار، من مكعّبات الثلج، من الأسنان الصناعية، من بابا نويل، من الشيخوخة، من وفاة والديك، ممّا قد تفعله بنفسك، من الأكفان، من الكحول، من الانتحار، من الدم، من ألّا تكون قادرًا على شمّ الهيروين مرّة أخرى، ممّا خلف الستائر، من السخام، من السفن الفضائية، من تجلّط الدم، من الأحصنة، من السيارات السريعة، من البشر، من الورق، من السكاكين، من الكلاب، من الإطناب، من أن تتأخّر، من أن يراك أحد ما عاريًا، من قشور الجروح، من السنوات الكبيسة، من الهوامّ، من التنانين، من السمّ، من أنغام الأكورديون، من التعذيب، من أيّ نوع من السُّلطة، من أن يظلّ أحدهم يركلك وأنت مستلقٍ على الأرض تحاول حماية رأسك إلى أن تفقد الوعي ولا يمكنك حماية نفسك بعد ذلك.

أنتِ.. لماذا لا تنظرين للخارج لبرهة؟

عيناي الآن مغمضتان. سرعات لا يمكن استيعابها. ماذا يعنى هذا؟

لا يمكنني التنفّس. الرجل الذي يمسك مسدسًا...

لا يوجد رجل يمسك مسدسًا آرييل.

يوجد. العالم كلّه ليس فيه سوى رجال يمسكون مسدّسات.

لا أحد آخر في العالم كلّه، فقط أنا وملايين الرجال الذين يمسكون مسدّسات. أشعر بغثيان.

سرعات لا يمكن استيعابها. بإمكاني استيعاب سرعة الضوء. بإمكاني

استيعاب عشرات الأضعاف من سرعة الضوء. الشيء الوحيد الذي ليس بإمكاني استيعابه هي السرعة اللانهائية... هذا ما قاله أبوللو سيمنثوس، أليس كذلك؟ أم قال إنّ مسار القطار هو فقط اللا نهائي؟ على كلّ حال، ماذا إن كنّا نتحرّك بسرعة لا نهائية؟ مع أنّه ليس بإمكاني استيعابها حقًّا (هذا هو على ما أظنّ، القصد من «لا يمكن استيعابها»)، شيء ما يتحرّك بسرعة لا نهائية سيبدو حقًّا متوقّفًا في كلّ نقطة يتحرّك فيها. شيء يتحرّك بسرعة لا نهائية، يتحرّك في حلقة، سيكون في كلّ نقطة طوال الوقت، بالتأكيد؟ ربّما لأكثر من طوال الوقت: من يعلم؟ لعلّنى إذن لست مضطرة لانتظار محطّتي. لعلّ محطتي هناك ببساطة، بالخارج، وعليّ أن أجدها.

لا أريد أن أنظر من النافذة، لكنّى أنظر. الآن أرى مخاوفي بتركيزها الحادّ مرّة أخرى. كلّ ما كتبته يحترق. شخص ما يمحو اسمّي من كلّ ورقة ظهر فيها. لا أعلم من أين تأتي تلك الصور. تبدو عشوائية، لكن ربّما... أحاول التفكير في آدم مرّة أخرى، و... كأنّني طلبت الذكرى من الوعي كما أطلب الطعام من أكثر مطاعم الوجبات السريعة حرفية، ها هو آدم في الخارج، يضاجع أمي، يضاجعها ويقول لها «مَن آريل هذه؟ لا أعرف أحدًا يدعى آريل». يبدو أنّه يستدير ويراني أشاهدهما، فيضحك، يقرصها في صدرها ويشير إليّ ويضحكان معًا، «ليس لدي وقت لهذا الآن آريل» تقول أمّي، «لست محور الكون، أتدركين هذا».

سيارات، أفكّر. القيادة، القيادة من فافيرشام إلى لندن. هيا. أنا أهرب من الدير، من رجليْ مشروع ستارلايت. ثم أرى/ أحسّ بها. أنا في سيارتي خارج نطاق الخوف. أرى من نافذة القطار الرجلين يطاردانني بسيّارتهما السوداء، يقودان في الطريق السريع الخالي تقريبًا والسماء الرمادية في الأعلى والثلج يغطّي الحقول والأسطح، وعلى حافّة الطريق المقوّسة، أراهما ورائي وأعلم أنّها النهاية. لو كنّا في فيلم كنت نفضتهما عنّي وانتهينا، لكنّهما يزيحاننى خارج الطريق، وليس بإمكان أيّ قدر من الذكاء أو القيادة الجسورة إنقاذي، حياتي ستنتهي في انسحاق معدني خشن ويسيل دمي

على زجاج النافذة. لا أريد أن أذهب هناك، إلى هذا المكان، لكنّي مضطرة لذلك. عليّ أن أنزل من هنا لهذا المكان. ذهني مفتوح في تلك اللحظة، أعرف هذا بالغريزة. والرجلان ليسا هناك حقًّا: إنّه الخوف فحسب.

على الأقلّ هذا ما أرجوه، أن يكون الخوف فحسب.

كيف أترجّل من هنا؟ أسير في اتجاه الباب إذ ليس بيدي شيء آخر غير هذا.

ما زالت الصورة نفسها خارج النافذة، أركز نظري عليها ثم أضغط زر فتح الباب. ما زال القطار يتحرّك لكنّ الباب انفتح و...

الساعة السادسة صباحًا. سلكت لتوّي طريق أ2 وتخبرني اللافتة أنّي إن واصلت القيادة، فسأصل إلى لندن، ليس هذا ما أريده، أم أنّه كذلك؟ لا، أريد طريق م25، ثم طريق تروكي، أينما كانت تروكي هذه. أنظر سريعًا في مرآة السيّارة: ما زال لا يوجد سيّارة سوداء، تشير إلى لافتة أخرى أمامي لأسماء المخارج الأخرى التي يمكنك سلوكها إن أردت الذهاب إلى إحدى المدن على الطريق، لم تمتدّ إقامتي هنا طويلًا ليعني لي أي من تلك الأسماء أي شيء، ما عدا... أحد الأسماء بالفعل يعني لي شيئًا، إنّها المدينة التي يقطن فيها باتريك، لكن... أوه، خراء، هذه رؤية مكرّرة. أتذكّر أنّي كنت هنا من قبل وأنّي سلكت هذا المخرج واتّصلت بباتريك وضاجعني في الحمام مقابل مئة جنيه.

لكنّ هذا لم يكن رؤية مكرّرة. بل حدث بالفعل. هذا حدث بالفعل، ثم ذهبت إلى مدرسة مولي ثم ضللت طريقي في التروبوسفير ثم عدت إلى الوراء في الزمن بقطار الخوف إلى هنا و... هذه مفارقات كثيرة جدًّا. أوقف السيّارة إلى جانب الطريق وأخرج سيجارة، أفتش حقيبتى لأرى إن كان ما زال لديّ بقيّة نقود باتريك، لا، لدي التسعة جنيهات ونصف التي انطلقت بها والقليل جدًّا من الوقود، أشعل سيجارتي وأعود بالسيارة إلى الوراء، سأذهب إليتوركي، أبتسم رغمًا عنّي. ليس لديّ أدنى فكرة عن أين

كنت حقًّا، لكنّني ـ لغرابة هذا ـ ولأول مرّة منذ ذهبت إلى التروبوسفير، لا أشعر بجنون إطلاقًا، بل أشعر برضا شديد لِما حدث توًّا، أفكّر وأنا أنطلق مرّة أخرى أنّي لست عاهرة برغم كلّ شيء، وصلت إلى ما أردته دون أن أرتكب هذا حقًّا، أم أنّني ارتكبته بالفعل ثم أعدت كتابته بشيء آخر؟ أوه، أيًّا كان. أنحي التفكير في آبي لاثروب ـ والولدين ـ جانبًا وبينما أنطلق تجاه طريق م 25 أحاول أن أقسم على نفسي ألّا أقوم بالتواثب مرّة أخرى أبدًا.

انقضى نصف النهار تقريبًا حين أوقف السيارة في ساحة وقوف سيارات كبيرة مجهولة بجوار مكتبة توركي، على بعد حوالي 250 ميلًا من ضريح القدّيس جود بفافيرشام، لا ثلج في الجنوب الغربي، لكنّ السماء رمادية وعديمة النكهة كتلك التي في الوطن، كأنّ يناير قد أعيدت صياغته في رؤية ذات بعدين وبُثَّ على شاشة تليفزيون محمول أبيض × أسود رخيص. يبدو لي التروبوسفير عديم النكهة دائمًا، لكنّ الأسوأ أنّي لست واثقة من أنّ العالم الحقيقي، بقذارته وبشرِّه، هو تحديدًا المكان الذي أريد أن أكون فيه. مع ذلك، لست واثقة أيضًا من أنّ التروبوسفير مكان مناسب لي. ما زال لديّ نصف مقدار الوقود الذي «نسيت» دفع ثمنه، لكنّي الآن في حاجة إلي طعام، وقهوة. ثمّة مقهى قبالة المكتبة تمامًا، بجوار كنيسة تشبه لوحًا كبيرًا تخصّ طائفة لا أعرفها. أقرّر أن أدخل المقهى قبل أن أستخدم المحطّات العامّة للإنترنت ـ التي أرجو أن يكون بالمكتبة واحدة منها ـ للبحث عن القلاع المحلّية لأرى ماذا سأجد. أتذكّر ذكرى بيرلوم عن القلعة في مدينته: تلك التي يراها كخاتم عملاق نُزع وألقي به على سفح جبل. إن لم أجدها بهذا سأجرّب شيئًا آخر، لكنّي لا أعرف ماذا.

برغم أنّ خطّتي هكذا مكتملة، أظلّ قابعة في السيارة خمس دقائق أخرى قبل أن أفعل أيّ شيء. يا لَها من رحلة، قطعت حوالَي مئتي ميل قبل أن أتوقّف عن النظر في مرآة السيارة بحثًا عن رجال الشرطة (الذين أفترض أنّهم يريدون التحقيق معي بشأن الوقود) ورجُليْ مشروع ستارلايت، فقدت إحساسي بالمكان بعد فترة من القيادة فتوقّفت في مدينة ظننت أنّها توركي،

إلّا أنّه لم يكن بها شيء يميّزها عن أي مدينة أخرى رأيتها في بريطانيا من قبل، ولم أستطع الجزم بأني وصلت حقًّا لوجهتي.

كان هناك ساحة دائرية كبيرة بلافتات عديدة تشير إلى مناطق صناعية وأحد متاجر سينسبري إلى اليمين. توقّفت في ساحة وقوف السيارات أمام سينسبري لأول مرّة منذ توقّفت في محطّة البنزين على طريق م 25. ساقاي يرتعشان. دخلت المتجر وتوجّهت مباشرة لكشك واشتريت كيس تبغ رخيص.

«أين أنا بالضبط؟» سألتُ المرأة وهي تناولني الباقي.

قلت السؤال بطريقة تجعله عاديًّا تمامًا. لكنّ المرأة نظرت إليّ كما لو كنت شخصية غريبة جدًّا.

«أنتِ في سينسبري عزيزتي». أخبرتني.

لكن بعد محادثة أطول من هذا قليلًا أدركت أنّي لم أكن في توركي وحظيت بإرشادات جيّدة حقًّا قادتني مباشرة إلى المكتبة.

وهكذا أنا الآن في ساحة وقوف سيارات لا يميّزها شيء عن أيّة ساحة وقوف أخرى في أي مدينة أخرى، أجلس في السيارة أرقب بشرًا يُفرغون عربات التسوّق من أكياس مشتريات وأطفال صغار، أو يحملون حقائب كبيرة برّاقة عليها كلمة «تخفيضات»، تمرّ بي امرأتان كلّ منهما في واحدة من تلك المركبات الصغيرة التي تشبه سيّارات الملاهي قليلًا، ويبدو أنّهما تتجادلان حول شيء ما. الأسمنت الرمادي مغطّى بأعقاب السجائر ولفّات وجبات سريعة مألوفة وأكواب قهوة بوليسترين. أنظر لما وراء كلّ هذا، للخطّ الرفيع من أشجار أغصانها عارية أعلى تلّ صغير يفصل ساحة الانتظار عن الطريق بالأعلى، الأشجار هي الشيء الوحيد المميّز في الرقعة الرمادية الفاتحة من المباني الرسمية والسماء، أرى شيئًا ما فيها: ستة سناجب أو سبعة تتحرّك جميعها في الوقت نفسه، كلٌّ على شجرة، أو هكذا تبدو لي، تتقافز وتنتقل وتعيد ترتيب نفسها بلا انقطاع كعنصورات الصورة

على الشاشة، أجسادها سلويت وضوء السماء خلفها شاحب، الوقت شتاء، ولا أتخيّل ماذا عساها تجد من طعام في هذا المكان، أليس من المفترض بالسناجب أن تخلد لبياتٍ شَتويّ؟ هل لها ربٌّ يُعنَى بها؟ ألا أحد يدعو من أجل السناجب؟ أرتجف. ماذا لو لم يعد بيرلوم هناك، أم لو لم أستطع العثور عليه حقًّا؟ أتخيّل ما سيكون عليه الأمر لو عشت كسنجاب - أو كأيّ حيوان - في حيّز أسمنتي مديني حيث كل شيء بثمنه. ماذا سأفعل إن لم أجد بيرلوم؟ لا يمكنني العودة للبيت. ظنّي أنّه يحقّ لي القول إنّه لم يعد لديّ بيت بعد الآن.

أتساءل هل ما زال الكتاب في أمان؟

ثم أتساءل هل لحقَ الرجلان بآدم؟

أشعر بانقباضة مثل لكمة تضربنى أولًا بين فخذيّ ثم في معدتي. هل يعقل ألّا أراه ثانيةً أبدًا؟

أتوقّف عن التفكير وأترجّل من السيّارة، أجد سياجًا خشبيًّا مغطًّى بملصقات مقشّرة بلّلها المطر تمامًا أغلبها عن عرض مسرحي إيمائي بطولة ممثّل قام بدور في مسلسل أسترالي لم أسمع عنه من قبل، أعلى السياج لافتة: ممنوع قضاء الليل. خراء. لم أكن أعلم أنّه قد يتمّ إيقافك لمجرّد أن توقف سيّارتك في مكان وتنام فيها، أسير إلى ماكينة التذاكر. تلسعني الريح الباردة في وجهي كأني سرقت منها شيئًا. كما تخوّفت، إيقاف السيارة هنا باهظ الثمن: حوالي جنيه في الساعة، أدفع لنصف ساعة ثم أخدش بظفري الوقت المطبوع في التذكرة وأنا أعود للسيارة، أضع التذكرة في مكان يصعب رؤيته من زجاج السيارة الأمامي فلا يظهر منها سوى التاريخ، ثم أوصد باب السيارة وأعبر الطريق وأدلف المقهى من باب له رنين.

للمقهى رائحة الحساء وشيء ما حامض لا أميّزه، المكان مشغول بكامله تقريبًا لكنّي أجد مقعدًا في ركن لعرض بطاقات بريدية ومجوهرات وحبوب إفطار بأسعار نزيهة. ثمّة صورٌ عديدة على الجدران لامرأة بيضاء

نحيلة في إفريقيا تقود كورس من أطفال صغار في ملابس بألوان زاهية؛ أو تساعد نساء بملابس زاهية بالدرجة نفسها في رفع ماء من بئر، أدرك أنّه مقهى مسيحي عندما تأتي امرأة في منتصف العمر في تايير أصفر لتأخذ طلبي، ألمح وأنا أطلب حساء جزر وقهوة سوداء المطويّاتِ المنثورةَ هنا وهناك، والملصق على الجدار الذي يعلن عن مواعيد الخدمة في الكنيسة... التي في الجوار على ما أظنّ، وأتساءل: ماذا يكون الربّ الذي أوجده وعبده مئات المؤمنين هنا؟ أبوللو سيمنثوس نتيجة عبادة ستّة أشخاص، ويبدو حقيقيًّا بشكل كافٍ، ماذا تفعل عبادة ناس أكثر؟ ماذا يكون الربّ الذي توجده؟ وهل الربّ ـ الذي يعبده الناس هنا ـ هو الربّ نفسه الذي يعبده الناس في الكنيسة القريبة من بيرلوم؟ هو الربّ نفسه الذي يعبده الناس في دير فافيرشام؟ ربٌّ هكذا كيف عساه يكون؟ أظنّ أنّي إذا قابلته في التروبوسفير سيبدو تمامًا مثلما أريده أن يبدو... في الأغلب رجلًا عجوزًا بلحية بيضاء: نظرة الملحد إلى نظرة المسيحي إلى الربّ. وماذا عساه يفعل لهؤلاء الناس؟ كيف يكون الأمر حين يكون لديك ملايين من الناس يسألونك أن تقوم لهم بأشياء؟ وأتساءل أيضًا: ماذا يريد هو في المقابل؟

أقرأ واحدة من المطويّات وأنا أنتظر حسائي، تتحدّث بإبهام عن «البهجة»، لكنّي لم أر شيئًا مبهجًا منذ دلفت هنا، لم أر شيئًا مبهجًا منذ... لا أتذكّر حقًّا متى كانت آخر مرّة رأيت فيها شيئًا مبهجًا، لهذا أحبّ قراءة هيدجر ودريدا وبودريّار، إذ الحياة في عالمهم ليست مصفوفة من الحسن والسيّئ؛ أو السعيد والشقيّ؛ أو الفوز بالبهجة أو خسارتها، بل الخسران والشقاء هناك تحت الفحص، مثل لعبة بازل للجميع أن يشاركوا فيها. لا يهمّ كم عدد من نمت معهم، أو ما إن كنت مُدخّنًا أم لا، أو ما إن كان أصابك السوء نتيجة تدميرك لجسدك، بل يمكنك تجريب البازل مرّة مع افتراض عدم الكمال دون أن يتطلّب الأمر منك شيئًا.

أنظر لمعصميّ ـ العلامات الوردية الفضّية ـ ثم أجول بنظري في المقهى،

أغلب من هنا في منتصف العمر، يرتدون ملابس محتشمة بلا مزاج خاصّ. يخيفونني قليلًا؛ ليس لما قد يفعلونه بي (هؤلاء الناس لا يفعلون شيئًا: أخلاقهم حميدة)، لكن لما أتمثّله في أفكارهم، هؤلاء لسنَ النساء اللائي أتذكرهنّ من المقاطعة التي نشأت وهنّ في منتصف عمرهنّ... اللائي كن يثرثرن ويدخنّ ويناقشن فوائد مصّ القضيب بدون الأسنان الصناعية، ولا يروقهنّ العاملين الاجتماعيين الذين يأتون عادةً ليتحقّقوا من عدم تعرضهنّ للاعتداء الجنسي من أزواجهنّ (إذ كان ذلك من أبنائهنّ في الغالب). لا. هؤلاء من نوعية النساء أنفسهنّ اللائي أتذكّرهنّ من المخبز وركن الحساء: اللائي لا يتوقّفنَ عن الكلام عن أمّك المجنونة حين تدخل لظنّهنّ أنّك غبي جدًّا لتفهم ما يقلنه. هنّ الإداراتيات بالمدرسة اللائي كان بوسعهنّ إخباري بأنّ عليّ أن أغسل شعري من حين إلى آخر بدلًا من التحدّث عن هذا خلف ظهري، ثم يتحدّثن عنّي مع الناظرة. إنهنّ نوع النساء نفسه ممّن لا يرتدين ملابس مغرية أبدًا ـ أو شيئًا أسود ـ لأنّ المظهر الجذّاب يساوي الجنس. شابّ واحد فقط غيري في المقهي: أشقر بملابس بالية، يبدو كمدرّسٍ بديل ممّن يطيلون الحديث عن الديانات وليس عن المسيحية، ينظر إليّ للحظة وألمح في عينيه نوعًا مألوفًا من الرغبة، ليست رغبة رومانسية: بل رغبة في الجنس، جنس عنيف، ربّما لأني أبدو كأنّني لا أمانع، مقارنة بالجميع هنا أبدو كعاهرة، لكن بالطبع، هذا هو غرض هؤلاء النساء، بكونهنّ ما هنّ عليه يجعلنكِ شخصًا سيّئًا بالمقارنة، حتّى وإن كنتِ لا تفعلين أكثر من وضع أحمر شفاه، أحاول أن أجيبه بنظرة تقول (ليس اليوم، شكرًا) ثم أمسك المطوية وأتظاهر بقراءتها مرّة أخرى في انتظار أن تأتي المرأة ذات التايير الأصفر بحسائي.

بعد أن أفرغ من حسائي أفتّش في حقيبتي عن مفكّرة لأدرج قائمة بالأشياء التي أنوي البحث عنها في المكتبة فأُخرج كيس التبغ أيضًا، بعد أن ألفّ سيجارتي وأضعها جانبًا على الطاولة تأتي المرأة لترفع صحني، أشرب آخر رشفة من القهوة وأعطيها الفنجان أيضًا.

«ممنوع التدخين هنا»، تقول.

«أوه.. أعلم. لم أكن سأدخّنها هنا، لا تقلقي». أقول مبتسمة.

«نعم، حسنًا، جيّد أنّك تعرفين».

«كيف يبدو ربّك»؟ أسأل المرأة قبل أن أستطيع إخراس نفسي.

«كيف يبدو الربّ»؟ تقول.

لم يكن لي أن أسأل هذا السؤال أبدًا. «نعم»، أقول.

«يهتمّ بمن يؤمن به»، تقول.

ثم تسير مبتعدة.

أشعل سيجارتى وأنا أغادر المقهى، وأجلس بجوار حائط لأدخّنها، أتذكّر المرّات العديدة في حياتي التي حاولت فيها الاستكشاف في الدين. يبدأ الأمر غالبًا بفكرة منطقية: أن بشرًا كثيرين جدًّا في العالم يؤمنون بربّهم، أو بمقاربة ما في الحياة، لا بدّ من وجود شيء ما في واحدة على الأقلّ من تلك المقاربات. فأذهب إلى المكتبة المحلّية أو مكتبة الجامعة، ودائمًا هناك تلك اللحظة ـ تشبه ربّما لحظة قبل أن تختار نوع الخبز الذي تريده وأنت في المخبز ـ حين تبدو لك الخيارات كثيرة جدًّا، كتب كثيرة جدًّا، «حقيقة» بزيادة للغاية، بالطبع لا يمكن أن تكون كلّها خطأ؟ بالطبع لن تكون كلّها متشابهة، مع هذا يبدو لي أنّ الكتب كلّها بالفعل متشابهة. فيها جميعًا الهرميات نفسها، كلّها بها قادة، حتّى البوذية بها قواعد لمن يمكنه «الانضمام» حقًّا ومن لا يمكنه، من المسئول ومن ليس كذلك. وكلّ القادة رجال.

أتذكّر أنّى داعبت مرّة الكاثوليكية الرومانية، حين كنت أواعد هذا الرجل الذي كان في كورس الكنيسة في طفولته، وبدا أنّه حظي بشيء من كلّ هذا (إذ كان يفسر الأمر كلّه على نحو ما يجعل من الممكن أن تكون كاثوليكيًّا وتمارس جنسًا آثمًا أيضًا)، جلبت عدّة كتب ومجلّات من الكنيسة المحلّية وبدأت أقرأ فيها، بدا أنّني بلعت كلّ ما فيها عن مريم العذراء، وكنت في

سبيلي لإقناع نفسي أنّ الدين الذي يتّخذ امرأة بكلّ تلك الجدية بالتأكيد به شيء ما يسعى له، ثم قرأت موقفًا طريفًا في إحدى المجلّات عن البابا جون بول الثاني حين كان في زيارة لبلدةٍ ما، والراهبات اللائي كان عليهنّ إعداد طعام له قد أفسدن الأمر واضطررن في النهاية أن يقدمن له أصابع السمك، لم أستطع التجاوز عن تفصيلة أنّ لدى البابا راهباتٍ يعددن له الطعام. أليس من المفترض بالتأكيد من رجال الدين أن يكونوا على نحو ما أكثر حكمة من بقيّتنا؟ أدركت حينها أنّه لا شيء خاصّ في هذا النظام على الإطلاق، لا شيء يجعله أكثر عمقًا وأعلى درجة من بقيّة المجتمع، إن كان أحد ممّن نذروا حياتهم كلّها للتفكير في التقوى والصلاح والحقيقة وما زال ينتظر من الراهبات أن يعددن له أصابع السمك (لأنّه برغم كلّ شيء ليس لدى الراهبات شيء أفضل ليفعلنه، وما من واحدة منهنّ ستصبح قسًّا أو بابا، لأنّ النساء لسن أهلًا بما يكفي لذلك)، فثمّة خطأ كبير. كيف نسي الجزء الخاصّ بمساواة الجميع أمام الربّ؟ إن كان هذا أكثر الكاثوليكيين حكمة، فبالتأكيد ليس بوذّي مقابلة أغباهم.

لعلّه شبه مبدأ في علم الإنسان، لكنّي امرأة، وبعد خبرة حياتية طويلة، أعلم أني استطيع فعل ما يفعله الرجال، ما عدا الأشياء التي تتطلّب عضوًا ذكريًّا بالتحديد (كالتبوّل وقوفًا)، أقصد، أنّ الأمر واضح لحدّ أنّه من السخافة تكراره، يشبه قليلًا القول بأنّ «لكلّ البشر رءوس»، ماذا يعرف الدين عنّي أنا الغافلة إذن؟ أنّي أقلّ قدرًا بمنطق الدير؟ سيبدو هذا غير معقول بالمرّة، كيف يعقل أنّ الدين، الذي يدّعي أنّه أكثر عمقًا من أي شيء آخر، ما زال يفهم البشرية أقلّ ممّا تفهمه أي مصلحة بلدية لشئون العاملين.

ليست المسيحية فقط مع ذلك، إذ كيف نسي البوذيّون ذلك الجزء في منطقهم عن التحرّر من الرغبة، بينما يرغب أغلبهم في أن يُبعث بحالة جيّدة، وبطريقة يمكن بها أن يكون رجلًا، ويُدعى «سيّد موقّر»، ويُملي على

الآخرين ما يفعلون؟ لماذا الدين مخيّب للرجاء هكذا؟ تتوقّع أن يقول لكَ شيئًا ما لا تعرفه، وفي النهاية تجد أنّه لا يخبرك سوى بكلّ ما تعرفه منذ سنوات وما قرّرت منذ وقت طويل أنّه خطأ.

على يساري الحائط الأمامي للكنيسة، رمادي كبير.

هل نحن أفكار الربّ؟ يسأل ملصق.

لا، أدرك. العكس صحيح.

أطفئ سيجارتي وأتوقّف عن التفكير.

المكتبة حيّز مربّع ضخم من طابقين، في منتصف الطابق الأرضي منضد تسجيل الدخول ومن حوله أرفف كتب في كلّ الاتجاهات. الطابق الثاني قاعة عرض بشكل أساسي، بفتحة كبيرة في منتصفها، يمكنك أن تشاهد منها كلّ ما يحدث في الطابق الأرضي، أو تجلس لإحدى الطاولات الصغيرة وتحاول أن تعمل إن لم تمانع الضجّة. أتذكّر المكتبة التي كنت أذهب إليها في صغري. كانت دائمًا تقريبًا صامتة صمت موات، وكان كلّ شيء بها برتقالي، على الأقلّ في ذاكرتي، بما في ذلك رقعة صغيرة غائرة في قسم الصغار بدت لي دائمًا كثؤلولٍ ضخمة، وكنت أتوسّل لأمي أن تدعني أذهب لأجلس فيه.

أتوجّه للمنضد.

«مرحبًا»، أقول حين ينتبه لي أمين مكتبة بلِحية. «أريد أن أستخدم الإنترنت».

«هل أنتِ عضوة»؟

«في هذه المكتبة»؟

«نعم».

«أوه، لا. آسفة. لست عضوة».

«هل أنتِ طالبة أجنبية»؟

«لا».

يبتسم. «بوسعنا أن نمدّك ببطاقة دخول ليومٍ واحد، يجب أن تملئي هذه الاستمارة...».

يناولني الاستمارة، وأتساءل إن كان بإمكاني كتابة معلومات كاذبة، وإن فعلت، فهل سيتحقّقون منها. بالطبع لست بحاجة لأن أترك معلومات رسمية عن نفسي.

«لعلّني سأرى إن كنت سأعثر على ما أريده في كتاب أولاً»، أقول « ثم سأجرب هذا إن لم أستطع». أردت فعلًا أن أرى الموقع الإلكتروني لطائفة أبوللو سيمنثوس، وكذلك معلومات عن القلعة، لكن لعلّ هذا ليس مهمًّا، فبرغم كلّ شيء أنا مدينة لطائفة أبوللو سيمنثوس على نحوٍ غامض.

«لا بأس»، يقول. «هل أساعدك في البحث عن كتاب»؟

حسبي أنّه أمين المكتبة الأكثر تعاونًا الذي قابلته في حياتي. جميع أمناء المكتبات في الجامعة يتعاملون معك كأنّك عقبة في طريقهم، مع ذلك هذا لا يعني أني أفتقد الجامعة، إذ لا أعلم مكان آخر غيرها يتوفّر لي فيه حيز أخضر علماني خالٍ من علب الوجبات السريعة على الأرض. للمرّة الألف تقريبًا اليوم، أشعر بغصّة: لن أعود، لن أعود.

«مم، أنا أبحث عن قلاع محلّية»، أقول.

«آه، واحدة على الخصوص»؟

أبتسم. «لا، بشكل عام. أريد النظر في معمار القلاع». يبدو هذا جنونًا. أفكّر بسرعة. «من أجل بحث في كتاب».

يبدو منبهرًا. «وتريدين البحث في قلاع ديفون»؟

«نعم، على ما أظنّ».

«حسنًا، ستحتاجينْ لمكتبة التاريخ المحلّي إذن».

أوه. اللعنة. «أين هي»؟ أقول.

«أوه، إنّها تلك الحجرة الصغيرة هناك»، يقول وهو يشير إلى باب في أحد الأركان. «لا يمكنك الدخول حقًّا إن لم تكوني عضوة، لكن أظنّ أنّه لا بأس، وبالطبع ليس بإمكانك أخذ كتب للخارج، وأخشى أنّه لن يمكنك أخذ حقيبتك معك».

يسجّل دخولي ويأخذ حقيبتي. ثم يعطيني بطاقة دخول مغلّفة.

«تفضلي». يقول.

مكتبة التاريخ المحلّي عبارة عن حجرة متربة لها سقفٌ واطئ تتكوّن من ثلاثة أقسام مختلفة يفصلها الأرفف وعدد من المكاتب وجهاز ميكروفيش، أشعر بالراحة فورًا في عبق الكتب القديمة. لا أحد هنا غيري، وأتساءل هل قد تُلقي الشرطة القبض عليّ إن اقتحمت المكان هنا في نهاية اليوم. على الأرجح نعم.

أتجوّل في الحجرة بخطوات هادئة أنظر في كعوب قديمة باهتة لسجلات الرعية وسيرهم الذاتية قبل أن أدرك أني في حاجة لفهرس رقمي للعثور على ما أبحث عنه. الفهرس على حاسوب هنا في الركن، أسفل شاشة تليفزيونية تعيد عرض ما يحدث بالداخل هنا. أجلس أمامه، شعور غريب أن أرى نفسي على شاشة التليفزيون، كشبحٍ مبهم بلحظ عيني وأنا أطبع كلمات البحث «قلاع» و»ديفون».

أجد عدّة كتب عن قلاع ديفون فأختار عددًا منها ممّا يحتوي على صور وأحملها لأحد المكاتب. أتصفّح أضخمها، به رسوم بخطّ اليد لجميع القلاع الرئيسة في المنطقة، قلعة أكستر وقلعة باودرهام ضخمتان جدًّا ومستطيلتان، كذلك قلعتا بيري بوميروي وبيكلي، قلعة جيدلي وقلعة ليدفورد كلتاهما مربّعتان جدًّا. توجد عدّة قلاع تطلّ على البحر، لكنّ القلعة التي كان بيرلوم يفكّر فيها كانت على تلّ صغير، أجد أخيرًا قلعتين على تلال، كلتاهما مستديرتان، قلبي كآلة تحفر في شقّ، لديّ الآن خياران، أوشك تقريبًا أن أعرف إلى أين سأذهب، أتفحّص من كتاب آخر ـ بصور

أحدث قليلاً ـ قبل أن أجد أنّ إحداهما صارت الآن حطامًا كأسنانٍ تُركت في فم عملاق.

لكنّ الأخرى تبدو كما وصفها بيرلوم تمامًا: كخاتم عملاق ملقى على سفح تلّ. وبوسعي أيضًا أن أرى ماذا كان يعني بالفراغ، لدي الصورة نفسها هنا في هذا الكتاب، المنظر المأخوذ من أعلى، قطعًا يجعلها تبدو كالفراغ ـ الشيء الغائب ـ أهمّ بكثير من الجدران الموجودة. إن أمعنت النظر في القلعة لفترة كافية ستتغبش الجدران وستبدو كأنّ الغرض الوحيد منها هو حفظ اللاشيء بداخلها.

ثلاثة وعشرون

حوالَي الرابعة وأنا أمام المنزل الذي كان بذاكرة بيرلوم: ذلك الذي يقيم فيه مع لورا (أو على الأقل الذي كان يقيم فيه في ديسمبر الماضي)، المنزل الذي تصل إليه بعد المرور بمتجر الجبن والانعطاف يمينًا والسير في شارع ضيق مرصوف. كوخ طويل إلى حدّ ما بأحجار رمادية رفيعة ونوافذ أمامية بمصاريع خشب خضراء، يبدو حميميًا مع ذلك له أيضًا سمت الحِصن، لعلّه تأثير المصاريع أو لعلّها عقدة الاضطهاد لديّ فقط. لست واثقة حقًّا من صواب وجودي هنا، لكنّي واثقة تمامًا من أنّ أحدًا لم يلحق بي، حسنًا على الأقلّ في العالم الماديّ. أدرك فجأة أنّه كان عليّ الذهاب إلى الكنيسة في حال إذا ما كان أحد رجُلَي مشروع ستارلايت (أو أحد الطفلين الميتين) في ذهني. مع ذلك فات أوان ذلك الآن. كان قد فات الأوان فعلًا تقريبًا لحظة أن انطلقت هذا الصباح، إن كانا معي في أيّ مرحلة، كانا سيعلمان إلى أين أنا ذاهبة. لكن إن كانا معي في أيّ مرحلة، فلن يحتاجا لمعرفة إلى أين أتوجّه: إذ سيحظيان بالوصفة التي يريدانها.

لا أظنّ أنّهما هنا على كلّ حال. لا أظنّ أنّي شعرت بوحدة أشدّ من هذه طوال حياتي. أتردّد قبل أن أرفع مطرقة الباب النحاسية الثقيلة. عيناي تغرورقان بالدموع، لكنّي لا أريد أن أبدو غير متوازنة حين يُفتح الباب، إن حدث وفتحه أحد. متى كانت آخر مرّة بكيت فيها؟ لم أبكِ حين ضاجعني باتريك في الجامعة، أو في حمام الاستراحة؛ لم أبكِ حين هجرني أبواي

أخيرًا لمصلحتي؛ لم أبكِ حتّى حين غادرت الدير وفارقت آدم، لعلّه يكرهني الآن، لعلّني فارقته إلى الأبد، لكنّي الآن وأنا أقف في ضوء الغسق، في الهواء البارد، وطائرا نورس يصيحان من فوقي، والنجوم آخذة بالفعل في اختراق السماء، أريد أن أبكي أكثر من أي وقت مضى. أبتلع هذه الرغبة. لكن إن لم يفلح هذا، فسيُقضى عليّ تمامًا. ليس لى بيت. ليس معي نقود. ليس لي أسرة.

أرفع المطرقة وأدقّ بها الباب مرّتين.

أرجوك كن هنا، أرجوك كن هنا، أرجوك كن هنا.

أرى دخانًا يتصاعد من المدخنة: أحد ما بالداخل.

بعد دقيقتين تقريبًا حين كنت على وشك أن أدقّ مرّة أخرى، تفتح امرأة الباب. إنّها لورا. أتعرف على كلّ شيء فيها، من الملابس الفضفاضة للشعر الرمادي الذي يصل لكتفيها وخُصلاته الوردية. أدرك فجأة أنّني لم أخطّط كيف سأتصرّف في هذا. أنا أعرف الشعور بأنّ تمارس الحبّ مع هذه المرأة، أن تكذب عليها. لكنّي في الأغلب عليّ أن أتظاهر بأنّى لا أعرفها بالمرّة. طالما بقيت هنا، هذا حقيقي تمامًا.

لا تقول شيء.

«مرحباً،» أقول. «هل يا ترى...»؟

«عفوًا»؟ تقول لورا. «من أنتِ»؟ صوتها، الذي أعرفه على كلّ حال، مهذّب وخفيض، بلكنة ألمانية خفيفة.

«آسفة على إزعاجك، لكن...».

«نعم»؟ تحاول استعجالي، ربّما لا تحبّ أن يزعجها أحد أو يضيع وقتها، لكنّي لست واثقة من أنّها ستحبّ ما سأقوله أيضًا. برغم أنّ عليها هذا. عليها هذا لأنّه ليس لديّ مكان آخر أذهب إليه.

«أنا أبحث عن سول بيرلوم»، أقول.

يبدو وجهها كأنّه تجمّد في إطاره كتلك التأثيرات الخاصّة في الأفلام التي تدع بقيّة العالم يستمرّ في الحركة المعتادة حول شيء متجمّد. ثم يعود لطبيعته مرّة أخرى، ما خلا الخوف الذي ألمحه الآن في عينيها، كبوادر عاصفة.

«تبحثين عن من»؟ تقول.

«سول بيرلوم»، أقول. «يجب أن أراه. هل تمانعين في إخباره أن آرييل مانتو هنا؟ أخبريه أنّي وجدت الصفحة وأنّي أريد التحدّث معه».

بينما أتحدّث يبدأ الخوف في عيني لورا يعصف لخارجهما وتمتدّ يدها الآن لوجهها كأنّها تحاول تثبيته:لتوقف هذا؛ لتؤكّد، ربّما، على أنها تتخيّل ما يحدث. لعلّ هذا هو ما لا تريده أبدًا حين تكون مختبئًا. لا بدّ أنّه سيكون أسوأ كوابيسك، إن كنت مختبئًا.

«من أنتِ»؟ تقول.

«أنا طالبة دكتوراه عند سول».

«أنتِ. لا. أنا أعرف من أين أتيتِ».

«أنا لست معهم. لست من مشروع ستارلايت».

«كيف أعرف هذا؟ إن كنت لست معهم، فلماذا بحقّ الجحيم تأتين إلى هنا»؟ تأخذ نفسًا عميقًا وتلمس شعرها. «سول ليس هنا على كلّ حال. لقد انتقل، منذ شهرين تقريبًا. ذهب لـِ...».

«آرييل»؟

إنّه بيرلوم من خلف لورا.

«سول»، أقول، «هل لي أن...»؟

«دعيها تدخل لورا»، يقول بصوته المطحون. ثم يضيف وهو يستند لحائط الرواق إلى أن أدخل: «أوه، اللعنة».

الطابق الأرضي من المنزل فضاء مفتوح بأرضية من ألواح خشب

ودعامات من خشب البلوط، تدخله من رواق واسع له فتحة مقوَّسة. ثمّة نار مشتعلة في أقصى الغرفة الواسعة، في كلّ مكان دثارات حمراء وبنية وصفراء داكنة، وإلى اليسار طاولة طعام كبيرة عليها الآن جريدة مفتوحة وبجانبها كوب قهوة نصف منتهٍ على طبق خوص صغير. وراء الطاولة تمامًا كلب أبيض وأسود نائم في سلة خيزران، ثمّ، في أقصى الغرفة، ما يبدو أنّه باب فناء عليه ستائر ثقيلة. وكما لو كان الكلب يعلم أنّي أنظر إليه يرمقني ثم يعود إلى النوم ثانيةً. ثمّة رفّ أعلى المدفأة عليه مجموعة أشياء متنوّعة: عدّة شارات، صورة فوتوغرافية أبيض × أسود لرجل وامرأة، فرشاة شعر، وإبر تريكو وإناء به زهور زرقاء. أقرب شيء للنار مقعد بذراعين على أحد ذراعيه صوف مشغول. على جانبي النار خلف المقعد قليلًا توجد كنبتان ـ كبيرتان وصفراوان مريحتان ـ واحدة في مواجهة الأخرى. تبدو إحداهما أكثر استخدامًا من الأخرى وعليها كتب ومجلّات. وبينهما طاولة قهوة، من جذع شجرة مصقول، عليها كتب وكلمات متقاطعة قديمة وأقلام حبر. على كلّ الأسطح أكداس مطولة من الكتب، وحائط الجهة اليمنى كلّه مغطّى بأرفف من خشب الصنوبر السميك، تشبه قليلًا تلك التي في شقّة أبوللو سيمونثيس، لكنّها محمَّلة بما يبدو أنّها مئات ومئات من الكتب، وتليفزيون.

لست واثقة من شعوري هنا، كنت أتوقّع أن أشعر بما يشبه الارتياح، المعادل الانفعالي للوصول للبيت البيت بعد رحلة طويلة مبلّلة، أو لتناول مشروب بعد عطش، مع ذلك ما زلت أتوق لمثل هذا الشعور بتحقّق الأمان، الشعور الذي حقّقته، بطريقة ما، بمجيئي إلى هنا. لكنّي في هذه اللحظة أشعر بشكل أكثر دقّة كأنّني زرت أحد أساتذة الجامعة في منزله فجأة، في عطلة نهاية الأسبوع، بينما زوجته في المنزل، والأنكى من هذا: أنا أعرف، ولا بدّ أنّ بيرلوم يرتاب في هذا، أني دخلت ذهنه لأصل إلى هنا. ما عُدّ في وقت ما ضرورة، لكنّه يعد الآن بطريقة ما خطأ. حقًا لم أجئ هنا لأراه: جئت هنا لأجلي أنا. ثم مجدّدًا، لا بدّ أنّه يعرف أنّه لم يكن أمامي من خيار آخر. لكنّي الآن أعرف عنه الكثير، وكلانا يعلم هذا.

المطبخ في ركن إلى اليسار بجوار الرواق.

«سأعدّ شايًا». تقول لورا وهي تتّجه إلى المطبخ. أسمع صوت الماء ثم صوت تشغيل غلّاية الماء.

يومئ لي بيرلوم في صمت أن أتبعه إلى طاولة الطعام الكبيرة. يطوي الجريدة ويضعها جانبًا. تأتي لورا وتأخذ كوبه وتبتعد مرّة أخرى. لدقيقتين أو ثلاث كاملة الآن لم يتفوّه أحدنا بشيء.

«آسفة..»، أبدأ.

«كيف وجدتِني»؟ يقول بيرلوم.

«عبر مولي». أقول.

«مولي لا تعرف أين أنا»، يقول. «لا أحد في من عائلتي اللعينة يعرف أين أنا. هذا أحد الأشياء التي تتخلّين عنها حين تختبئين هكذا. أحد أشياء كثيرة».

«التواثب»، أقول. «لقد قمت بالتواثب. آسفة. لقد حصلت على الكتاب».

يغمض عينيه لثوانٍ قليلة ويفتحهما ثانيةً؛ ثم يمرّر يدًا مرتعشة في شعره الداكن.

«اللعنة». يقول مرّة أخرى.

«أنا آسفة...»، أقول مرّة أخرى. ثم فترة صمت طويلة. «كانوا يطاردونني ولم أعرف ماذا أفعل. أدركت أنّه لا بدّ حدث معك الشيء نفسه، وهكذا فكّرت منطقيًّا أنّه إذا جئت حيث توجد أنت، فقد أكون في مأمن».

«تلك هي اللعنة». يقول بيرلوم.

«نعم». أقول.

وأظنّ أنّ كلينا يتذكّر البحث الذي قدّمه في جرينتش، حين اتفقنا على أنّنا سنقرأ الكتاب إن أمكننا ذلك، بغض النظر عن اللعنة. لا أعرف ماذا عنه

لكنّي كنت لأعاود فعل هذا مرة أخرى. يبدو وجهه أكثر قسوة وتجعُّدًا عن آخر مرّة رأيته فيها، ولديه الآن خُصلات بيضاء رمادية في شعره. أو لعلّه كان يصبغها ولم يعد يعني بهذا الآن. كيف هو الأمر إن اضطررت لترك وظيفتك على هذا النحو؟ إن اضطررت لترك ابنة وراءك؟

«كيف حال مولي»؟ يسأل.

«تقوم بأشياء المراهقة المعتادة»، أقول.

«لكنّها بخير»؟

أزن السؤال في ذهني. وهو كذلك، إنّها تضاجع شخصًا غير مناسب، لكنّنا جميعًا نقوم بذلك. حين كنت في ذهنها لم أتبيّن فقدان شهيّة واضح أو ميل لإيذاء النفس أو لتعاطي المخدّرات، لكن بالطبع ما زال هناك إمكانية لكلّ هذا: أعلم هذا من الصلة التي شعرت بها معها.

«إنّها بخير»، أقول.

يتنهّد بيرلوم. «أما زلتِ تدخنين»؟ يسأل.

«نعم، لماذا»؟

«هل لي بواحدة»؟

«بالطبع». أخرج تبغي من حقيبتي. «لفافات»، أقول. «مفلسة قليلًا».

«هل بإمكانك لفّ واحدة لي»؟ يسأل. «فقدت المهارة».

كذلك يداه ترتعشان، ألاحظهما وأنا ألفّ سيجارتين وأناوله واحدة ونشعلهما.

«أوه، هذا أفضل»، يقول. «غريب بشكل لعين، لكن أفضل. لماذا لا ننتقل بجوار النار؟ الأفضل أن تحكي لي ماذا حدث لأعرف لأيّ مدى يجب أن أكون مذعورًا».

ننهض ونتّجه إلى الكنبتين، يجلس على الكنبة غير المرتبة وأنا على الأخرى. شعور مدهش حقًا أن أجلس في غرفة دافئة مريحة بعد كلّ ما

حدث، لكنّي بطريقة ما لا أشعر بالراحة تمامًا، لا أسند بظهري على الكنبة، مع أنّها ناعمة وواسعة، بل أجلس على الحافّة كأنّني أجرى مقابلة، لا توجد منفضة سجائر لكنّني ألاحظ بيرلوم ينفض رماد سيجارته في النار فأفعل مثله.

«لم يكن من الصواب مجيئك إلى هنا»، يقول.

أظنّ أنّي سأبكي مجدّدًا. «أعرف... لكنّي... كنت...».

«لكن، حسنًا، أمر جيّد أن أراكِ مجدّدًا».يبتسم الآن للمرّة الأولى.

«أوه. شكرًا، أنا...».

«وآسف بشأن الكتاب». يتنهّد. «أشعر أنّي المسئول عن هذا».

«لا داعي لهذا»، أقول. «آسفة لأني أسبّب لك الذعر بمجيئي إلى هنا، لكنّي بأمانة لم يسعني التفكير في شيء آخر، أقصد... فقط لأكون في الحجرة نفسها مع شخص مرّ بالخبرة نفسها التي مررت بها...».

يقاطعنى بيرلوم. «هل أنتِ متأكّدة من أنّه لا أحد يتبعك»؟ يسأل.

«مئة بالمئة،» أقول. «أو، حسنًا، ربّما تسعة وتسعون بالمئة. لكنّهم يريدون الوصفة فقط، أليس كذلك؟ بإمكانهم الحصول عليها منّي الآن. لا حاجة بهم ليصلوا إليك من خلالي، لهم فقط أن يصلوا لذهني بعد أن صارت لديّ المعلومات التي يريدونها. أقسم لك إنّني بعد آخر مرّة قابلتهما في التروبوسفير - أو في فضاء الأذهان كما يسمّيانه - ليست لديّ أيّ نيّة في تركهما يقتربان منّي أو من ذهني أو من جسدي. لهذا هربت. لهذا جئت أبحث عنك. لم يمكنني الذهاب إلى أيّ مكان. لن يمكنني العودة إلى البيت؛ ولا إلى العمل...».

«هذا منطق مرتّب»، يقول. «هذا الذي عن حصولهم على الوصفة من ذهنك في دقائق. لكنّهما يريدان القضاء علينا جميعًا. أنتِ تعرفين هذا»؟

«لا. لم أكن أعرف. حسنًا، أقصد، أعرف أنّهما عنيفان، وأنّهما قد

يلجآن إلى استخدام القوّة للحصول على الوصفة... وربّما حتّى للمتعة، لكنّني ظننت أنّهما قد يبتعدان بعد أن يحصلا على الوصفة».

يسعل بيرلوم ويأخذ نفسًا من لفافة التبغ. «حين يبيعون براءة اختراع المزيج ـ أو يبيعون السائل بشكل غير مشروع ـ لا أعرف لأيّهما يخطّطان... لن يكونا في حاجة لأشخاص مثلنا يأتون ويقاسمونهما الثمن، يجب أن يتخلّصا من منافسيهما، حسنًا، لست واثقًا من هذا، لكنّي أتوقّع أنّهما يريدان بيعها، يبدو هذا منطقيًّا».

«معك حقّ»، أقول.

«كيف عرفتِ»؟

«أنا...».

تأتي لورا عبر الغرفة الواسعة تحمل صينية كبيرة عليها إبريق شاي وأكواب. يزيح بيرلوم لها المجلّات والجرائد سريعًا لتضعها على طاولة القهوة بين كومتي كتب، ثم تجلس على المقعد ذي الذراعين وتنظر إليّ.

«هل أنتِ بخير»؟ تسألني وهي تحدّق فيّ من فوق نظّاراتها الفضّية. «معذرة إن كنت وقحة ونحن على الباب. لقد ظللنا مختبئين لوقت طويل، و...»

«لا بأس»، أقول. «أنا بخير».

«آريبل تعرف عن مشروع ستارلايت»، يقول بيرلوم للورا. «وتعرف ماذا يريدون.»

«نعم سمعت هذا»، تقول لورا. «كيف تعرفين؟ لم أستطع معرفة شيء عنهم حين حاولت .. حسنًا، ما عدا الأساسيات».

«دخلت ذهن واحد منهم»، أقول. «مارتن روز».

يصدر عن بيرلوم شيء بين الضحك والشخير. «كيف بحقّ الجحيم فعلتِ هذا»؟

«كانا يترصّدان لي في سيّارتهما، كنت في دير ولم يكن بوسعهما دخوله، حسبما اتّضح، لذلك كانا تقريبًا في انتظاري، فذهبت إلى التروبوسفير من داخل الدير وانتهى بي الأمر في ذهن واحد منهما بالمصادفة، لم أكن أعرف حتّى أنّهما بالخارج».

«ماذا كنتِ تفعلين في دير»؟ يسأل بيرلوم.

«أختبئ منهما. إنّها قصة طويلة»، أقول.

يصب بيرلوم الشاي فيسكب نصف كوب تقريبًا على الصينية.

«ظنّي أنّه حان الوقت لقصّها كلّها علينا إن لم يكن لديك مانع. كيف وجدتِ الكتاب، وماذا حدث بعدها، إلى آخر هذا»، يقول.

«لا، لا مانع»، أقول. «لكن هل بإمكاني البقاء هنا الليلة على الأقلّ؟ لا أريد أن أفرض نفسي، لكن...».

«لا بأس آرييل»، تقول لورا، لكنّها لا تبدو راضية عن هذا.

«نعم»، يقول بيرلوم. «أنتِ مقضيٌّ عليكِ في العالم الخارجي، مثلي تمامًا».

تهزّ لورا رأسها. «إلى متى سيستمر هذا»؟ تقول بهدوء ثم تنظر لي. «أنت مرحبٌ بك لتبقَي معنا إلى متى تشائين»، تقول، «لدينا حجرة لكِ»، ثم تنظر إلى بيرلوم «لكن علينا وقف هذا قبل أن نستيقظ مرّة ونكتشف أنّ هناك عشرة منّا، ثم عشرين، ثم يعرف العالم الملعون بأكمله أمر التروبوسفير».

«لا بأس». يقول بيرلوم. «لم تكن آرييل لتخبر أحدًا آخر».

«لا. لم أفعل»، أقول. لكنّي لا أذكر لهما أنّي تركت الكتاب ـ كاملًا مرّة أخرى ـ في الدير. أظنّه سيكون معقولًا أكثر حين يُذكر أثناء القصّ.

أسند بظهري على مسند الكنبة وأبدأ القصّ منذ يوم انهيار الجامعة ومتجر الكتب المستعملة وكلّ ما حدث بعد هذا. وبينما أقصّ، أدرك فجأة أنّني لم أتخيّل أيًّا من هذا: هذا حقيقي بقدر ما يكون أيّ شيء كذلك.

يستغرق قصّ ما حدث كلّه ساعات. يظلّ بيرلوم في بادئ الأمر يقاطعني بأسئلته، لكن بعد حوالي نصف ساعة من حوار انفعالي عن الجامعة ثم الكثير من الافتراضات عن كيف آل الأمر بكتبه إلى متجر كتب مستعملة (استعادت زوجته السابقة، على ما يظنّ، ملكية البيت)، تتدخل لورا وتمنع المزيد من الأسئلة حتّى أنتهي. عند نقطة ما تأتي لورا بمفكّرة بورق كبير وتأخذ في تدوين ملاحظات، يتكوّن لديّ انطباع بأنّه برغم وضوح أنّ بيرلوم هو من قضى وقتًا أطول في التروبوسفير، إلّا أنّها هي على الأرجح من تستوعب كيف يدور الأمر كلّه، ما يعني أنّي أنا أيضًا سأطرح عليها وفرة من الأسئلة. حين أتحدّث عن أبوللو سيمنثوس، تخطّ ملاحظاتها بحنق (وتضطر لإخراس بيرلوم مرّة أخرى)، وكذلك حين أصل لتفصيلة قطارات مترو الأنفاق، وكيف أخذت قطار الخوف لأعود لنفسي قبل أن أقوم بالخطأ الذي كان حتمًا سيقضي عليّ، حين أذكر أنّني يمكنني تغيير ما في أذهان الآخرين، يبدو على الاثنين أنّهما يتجمّدان ويتبادلان نظرة دون أن يقول أحدهما لي شيئًا، ولا تدوّن لورا شيئًا.

حوالي الساعة الحادية عشرة أكون قد انتهيت تقريبًا من قصّ كلّ ما حدث. حنجرتي تؤلمني من الكلام والسجائر التي دخّنتها، وريقي جافّ ذلك الجفاف الذي تشعر به حين تنام ساعتين فقط. شربنا منذ أن وصلت حوالي أربعة أباريق شايّ، لكنّي لم آكل أي شيء حقًّا منذ الغداء ومعدتي تغرغر بصوت مسموع، برغم أنّي لست جائعة.

«يجب أن نأكل»، تقول لورا بعد أن تصدر معدتي صوتًا مرّة أخرى.

«سأجلب طعام كاري»، يقول بيرلوم.

لكنّه ينتظر أن أنهي حديثي قبل أن يقوم، لم تنته القصّة بعد، لم أذكر شيئًا عن مضاجعة باتريك في حمّامات ليتل شيف، ولم أذكر أيضًا أنّ الكتاب في الدير، لذلك لا أندهش حين يكون سؤال بيرلوم الأول عن الكتاب.

«أين هو الآن»؟ يقول. «معكِ، على ما أظنّ».

أهزّ رأسي. «فعلتُ ما فعلتَه أنت»، أقول.

«ماذا فعلتِ»؟

«نعم، تركته خلفي، ظننت أنّه سيكون بمأمن أكثر من لو أخذته معي».

«اللعنة»، هذا كلّ ما يقوله قبل أن يذهب ليأتي بالطعام.

أبقى وحدي مع لورا والكلب الذي استيقظ تمامًا الآن، وتمطّى، ولعق بعض الماء بلسانه، ثم جاء وجلس بجواري على الكنبة. لا تتفوّه لورا بشيء على الإطلاق بعد أن يغادر بيرلوم، وأشعر بأنّ عليّ أن أقول شيئًا ما.

«ما اسمه»؟ أسأل.

لكنّي أعرف بالفعل: بلانك، في الأغلب تيمّنًا بعالم فيزياء الكمّ.

«اسمه بلانك»، تقول لورا. ثم تتنهّد وتهزّ رأسها. «لقد حالفك حظٌّ كبير في هروبك»، تقول. «لا أصدق...».

«ماذا»؟

«أوه، لا شيء. ثمّة عن التروبوسفير أشياء أكثر ممّا ظننت. برغم أنّ جميعها معقول بالطبع».

«معقول»؟ أضحك. «أرجوكِ قولي لي كيف تكون معقولة»؟

«أوه، سنخبرك»، تقول. «لكن ليس الآن. الوقت تأخّر».

صمتنا لثوانٍ قليلة. لست واثقة من أنّ لورا تتقبّلني. أهرش للكلب بين أذنيه وأحاول التفكير في شيء ما أقوله لا يساوي ببساطة «أخبريني أيّ شيء لا أعرفه ـ ولا أحد آخر يعرفه ـ عن كيف يسير العالم الآن! قولي لي ما الذي يُعدّ معقولًا في كلّ ما مررت به، لأنّه ليس لديّ أدنى فكرة عن شيء».

«كيف تسنّى لكما أن تصلا إلى هنا»؟ في النهاية أسألها. «كيف حدث أنّكما هنا وهما لا يستطيعان أن يجداكما»؟ أتذكّر أنّه حين لفظني بيرلوم من ذهنه بدخوله الكنيسة وهو يتذكّر، كان لا يزال في نفق السكة الحديد، ليس لديّ أدنى فكرة عن كيف وصل إلى هنا مع لورا، وكيف بقيا هنا سرًّا هذه المدّة الطويلة. «كيف خرج سول من النفق حتّى»؟ أسأل.

«نقل كومة الحجارة»، تقول. «طوبة طوبة. ممّا يتضّح ممّا تقولينه، لم يكن النفق مستقرًّا بأيّ حال من الأحوال، وأنا مندهشة أنّه استغرق سنة أخرى لينهار بعد أن عبث فيه بيرلوم».

«أوه، تظنين أنّه انهار لذلك إذن؟ أمر غريب»، أقول وأنا أفكّر أن انهيار النفق كان سببًا لبداية كلّ شيء: لولا انهيار النفق لم أكن لأجد الكتاب، ولا الصفحة المفقودة، أو لعلّني كنت سأجدهما، لعلّني كنت سأجد تلك الأشياء في النهاية في جميع الأحوال.

وأدرك أنّه في النهاية سيجد أحدهم الكتاب في الدير، أيضًا.

«على كلٍّ»، تقول، «خرج من النفق واستقلّ أتوبيسًا كيفما اتّفق. وظلّ يتنقل عشوائيًا إلى أن ابتعد بما يكفي ليستجمع أفكاره معًا، وسافر إلى اسكوتلانده وأقام في نُزُل رخيص لفترة، وأثناء ذلك ظلّ يستكشف التروبوسفير.. وكان محظوظًا كفاية أنّهما لم يقضيا عليه، أرسل لي تليفونًا محمولًا وطلب منّي أن أذهب إلى كنيسة في تاريخ محدّد، وميعاد محدّد، ليتّصل بي»، تبتسم. «الأمر يشبه الأفلام قليلًا، كان قد تملّكه جنون الشكّ تمامًا، وفي البداية لم يكن مطمئنًا لي بالمرّة، وظللنا نتبادل تلك المحادثات التليفونية المشفّرة وأنا أقف في الكنيسة أتحدّث في تليفون محمول... الأمر الذي لم يتقبّله زوّار الكنيسة قط، لكنّنا كنّا مضطرين، أنا الآن متقاعدة، كما على الأرجح تعلمين، فلم يكن يربطني بلندن شيء حين حدث كلّ هذا، فجئنا إلى هنا إلى حين في البداية، ثم انتهى بنا الأمر بالبقاء، إنّه بيت أخي في الحقيقة، لكنّنا رتّبنا الأمر». ترفع كتفيها. «كان يحتاج إلى مكان في لندن، فقمنا بكلّ الترتيبات على الورق حتّى صرنا نستأجر هذا المكان رسميًا من شخص آخر غيره، بأسماء مستعارة. الأمر معقّد، لكنّنا ظننّا أنّه بذلك محكم تمامًا.

«يجب أن أسأل»، أقول. «ما المنطق في مسألة الكنيسة: هل تعرفين؟ كيف لا يمكن لأحدٍ أن يدخل ذهنك إذا كنتِ في كنيسة»؟

«ألا تعرفين»؟

«بالكاد أعرف شيئًا ما عدا ما توصّلت إليه وما أخبرني به أبوللو سيمنثوس». أرفع كتفي. «بإمكاني التخمين، لكن...».

«ما تخمينك»؟

«إنّ كلّ العبادات في الكنيسة ـ كلّ الطاقة المشحونة من الفكر والآمال ـ تشوّش بطريقة ما على الإرسال، إن كان هذا معقولًا بأيّ شكل من الأشكال. هل تعرفين، مثل التدخّل».

تبتسم. «هذا جيّد. هذا بالتحديد ما أظنّه أنا أيضًا». الآن تتلاشى الابتسامة. «أظنّ أنّك تعرفين بشأن كتابي»؟

«لا». أهزّ رأسي. لكنّي أدرك من طريقة قولها هذا... أنّ هذه هي مشكلتها معي، إنّها تظنّ أنّني أعرفها عن قرب مثلما يعرفها بيرلوم لأنّني كنت في ذهنه، تظنّني قد أكون على علم بكلّ شيء عنها، للمرّة الثانية أشعر أنّها الزوجة وأنا العشيقة، وأنّها لا تعرف فحسب أنّ زوجها يضاجعني، بل تعرف أيضًا أنّه يخبرني بأشياء عنها. أتذكّر علاقاتي برجال متزوجين لا تعلم زوجاتهم شيئًا، ولم يكنّ ليوافقن، كانت تلك الزيجات دائمًا متأزّمة، كان الرجل، بشكل لا فرار منه، يخبرني بأشياء عن زوجته لم يكن بودّي أن أعرفها... ولم أكن أشعر أنّه من الصواب أن أعرفها. العشاء الخاصّ الذي رتبته لتحاول استعادة مسار زواجهما (والذي اتصل بي أثناءه من الحمام)؛ والثوب الخاصّ الذي اشترته في محاولة لاستعادة اهتمامه بها ثانيةً (الذي يجعلها تبدو عجوزًا وسمينة)، أرتعش لتذكّر تلك الحوارات، لا أظنّ أنّي في حياتي شعرت بمثل هذا السوء الذي شعرت به حين سمعت تلك الأشياء، حينها توقّفت عن النوم مع رجال من هذا النوع لأنّي لم أكن راغبة في أن أكون طرفًا في هذا البؤس.

ليتني أستطيع قول شيء ما لأصحّح لها هذه الفكرة، لكنّي لا يمكنني التفكير في شيء.

«همم»، هذا كلّ ما تقوله كردٍ على عدم معرفتي بشأن كتابها.

بعد عدّة دقائق تنتصب أذني الكلب، ويتصرّف على نحو يُنبئ بأنّ شيئًا ما على وشك الحدوث، ثم بعد دقيقتين أو ثلاث، أسمع صوت مفتاح بيرلوم في الباب وأشعر باندفاع الهواء البارد بينما ينفتح الباب الأمامي وينغلق مرّة أخرى.

الكلب يعرف على ما أظنّ، يعرف أنّ بيرلوم كان قريبًا.

كيف هذا؟

للمرّة الأولى، منذ بدأ كلّ هذا أشعر بتحوّلٍ في وعيي بالعالم، كأنّه الآن فقط ـ وقد عرفت أنّ كلّ هذا حقيقي ـ يمكنني السماح لنفسي بالإجابة عن تساؤلاتي: أن أبدأ تجميع كلّ معلوماتي وكلّ خبراتي. أدرك أنّ الكلب يعرف، لأنّنا جميعًا بداخلنا نعرف كلّ شيء عمّا يفكّر فيه الآخرون ويفعلونه. نحن جميعًا بداخلنا ممرّات للوصول لأفكار أحدنا الآخر. كنت أتساءل أين التروبوسفير حقًّا، وما هو، لكنّي الآن بعد أن اقتنعت بأنّه ليس من نسج خيالي، صرت أعرف أنّه يحلّق على بعد أقلّ من جسيم منّا، ربّما في بعد آخر بإمكاننا الوصول إليه لبعض الوقت فقط؟ أم أنّه يعمل بطريقة مختلفة كليًّا؟ لكنّي أجدني فجأة على يقين من أنّ اللحظة التي تلتقط فيها عيناك عيني شخص آخر، أو تظنّ فيها أنّ أحدًا ما ينظر إليك، أو تفكّر فيها في شخص ثم تجده يتّصل بك، أو اللحظة التي تتوه فيها في مبنى تعرفه جيّدًا لأنّ أغلب مَن فيه تائهون... تلك ليست مصادفات. بل تتعلّق بطريقة ما بتركيبة العالم المادّي، بحقيقة أنّ أذهاننا جميعًا متصلة بقدر اتصال كلّ شيء آخر.

أتساءل عن أي شيء كتاب لورا. كنت أكذب بالطبع حين قلت إنّي لا أعلم شيئًا عنه. كان هناك في خلفية ذهن بيرلوم طوال الوقت الذي قضيته هناك. كتاب لورا. إنّه مهمّ، لكنّها لم تنتهز تلك الفرصة لتخبرني عنه. أتساءل ما الذي يجعلها تثق فيّ.

نتنقل للطاولة لتناول خضراوات بالكاري وأرز وزجاجة نبيذ أبيض من الثلاجة. يعود بلانك لسلّته ليسقط في النوم بينما نأخذ جميعًا في استجواب أحدنا الآخر عن التروبوسفير، وعن خبرتي فيه.

«أنا مفتون بهذا الإله، أبوللو سيمنثوس»، يقول بيرلوم.

«نعم»، أقول. «ظننت أنّني فقدت صوابي».

«ربّما هذا ما حدث»، يقول. «إذ لم ألتقِ بآلهة في التروبوسفير. الحقيقة أنّي لم ألتقِ بأيّ كائن آخر في التروبوسفير. لم أكن أعلم أنّ هذا ممكنًا».

نتحدّث عن أبوللو سيمنثوس أكثر قليلًا، وعن كلّ الأسئلة التي كنت أفكّر فيها قبل ذلك. يبدو أنّه لا بيرلوم ولا لورا قد فكرا في التروبوسفير من منظور ديني، ما عدا ملحوظة التشويش الذي تسببه الكنائس، يبدو أنّ تحليلاتي النسوية للديانات الأساسية تروق للورا ـ على نحوٍ خفي ـ بينما ينزعج بيرلوم قليلًا من حشري للبوذية مع كلّ شيء آخر.

«زِن[1]»، يقول بخشونة. «زِن مختلف. والطاو».

أتذكّر رغبته في الخواء، وانفعاله لأنّه يرغب في أن يفقد الرغبة تمامًا، فيجعلني هذا أفكّر في آدم، وما حدث له، بالكاد أعرف آدم، لكنّي أفتقده أكثر ممّا ظننت.

«لكلّ منّا طريقة سعيه للاستنارة»، تقول لورا. «أنا أكتب الكتاب، لكنّه هو يتأمّل طوال الوقت، محاولًا رؤية خارج أيّ شيء نعرفه سالفًا، ما زال هناك الكثير جدًّا...»، لكنّها لا تنهي الجملة. بل تتثاءب. «أوه، يا لَه من يوم».

انحرفت محادثتنا بعيدًا جدًّا. ناقشنا التواثب، وإمكانية السفر في الزمن عبر أسلاف الآخرين. أكّد بيرلوم أنّ الصور المغبّشة التي تظهر على اللوحة حين تكون في ذهن شخص تتعلّق بجميع أسلافه الأحياء: لهذا كان للفأر

---

(1) مدرسة للبوذية الماهانية وتعني التأمّل أو الحالة التأمّلية.

المئات منها وكان هو لديه واحدة فقط (والدته). وأنّ الطريقة التي هي أكثر فاعلية للعودة في الزمن إلى الوراء تكون عبر الأسلاف الأحياء حتّى نفادهم (مثلاً لم يكن لدى والدة بيرلوم أي صور، لذلك فإن وصلت إليها، فسيكون عليك الوثوب لذهن شخص آخر وليس اختيار صورة أخرى من اللوحة، ثم الرجوع بقدر ما يمكنك عبر أسلاف هذا الآخر). ظللنا نناقش تلك النقطة لوقت، لأنّني لم أفهم تمامًا كيف يمكن الذهاب إلى ما وراء من يعيشون الآن، لكن لورا ذكرتني أنّ المسافة هي الزمن في التروبوسفير، وأنّه بالوثوب إلى الأسلاف فأنت تعود إلى الوراء في الزمن أيضًا، أحيانًا بالسنين وليس بالشهور. حين قفزت من مولي إلى بيرلوم كنت أثب من هيرتفوردشاير إلى ديفون وهذا ما أعادني لما قبل أعياد الميلاد. إن كان بيرلوم في اسكوتلانده، ربّما كنت قد عدت في الزمن إلى أغسطس أو سبتمبر؛ وإن كان في أستراليا، ربّما كنت قد عدت للوراء ثلاث أو أربع سنوات. إن حالفك الحظّ (أو قمت بالتخطيط لرحلتك جيّدًا)، فستجد في النهاية أسلافًا أحياء كانوا أمواتًا حين بدأت رحلتك، إذ تعود بالزمن للوراء في كلّ وثبة. بدت عملية بطيئة، لكن بيرلوم ذكّرني أنّ الوثباتِ نفسَها سريعة جدًّا، وأشار أيضًا إلى أنّه من الواضح أنّ هكذا مات السيّد واي. السيّد واي شخصية خيالية بالطبع لكنّ لوماس ليس كذلك، إذ يرى بيرلوم أنّه لا بدّ أنّ لوماس مات هكذا أيضًا، وجميع من أصابتهم «لعنة» الكتاب. التواثب أمر خطر، هكذا اكتشفت حين قمت به لأصل إلى

بيرلوم.

عرفت أيضًا أنّ تروبوسفير بيرلوم هو بالفعل المدينة الفيكتورية التي كان يفكر فيها حين كنت في ذهنه. ينتاب لورا الحذر قليلاً حين نبدأ مقارنة مشاهدنا التروبوسفيرية. حين أسألها كيف ترى تروبوسفيرها، تضع بيدها شعرها خلف أذنها وتقول ببساطة: «أوه، نوع ما من المصفوفات العلمية. ليست شيئًا يمكن لأحدٍ آخر تخيّله حقًّا». ثم ترمق بيرلوم بنظرة ذات مغزى.

«الأفضل أن ننام الآن»، يقول. «يمكننا مواصلة هذا في الصباح. ما زال

هناك الكثير جدًّا لنتحدث عنه. ولورا، لماذا لا تستغلّي وجود آرييل؟ فقد تستطيع مساعدتك بطريقة ما، إذ هي أفضل منّي في العلوم».

«لست كذلك حقًّا». أقول.

تنظر لي للحظة كأنّها تزنُني، ثم تسقط عيناها على نحو ينبئ بأنّي فشلت تمامًا. برغم كلّ ما يظنّه بيرلوم، فلن نتفق معًا في التنظير عن التروبوسفير، أو أيًّا كان الأمر، إلّا إذا أقنعتها بالتوقّف عن كرهي.

طيلة الليل أحلم بآدم يخبرني في حلمي أنّه يحبّني وأنّه لن يتركني أبدًا. الأحلام في غاية القسوة أحيانًا. لن أحظى بتلك الحياة أبدًا. في الحقيقة، لست واثقة أن مُزق الحياة تلك التي تبقّت لي... تُعدّ شيئًا كثيرًا.

أربعة وعشرون

يمرُّ السبت والأحد بالطريقة نفسها، مناقشات عشوائية وإحساس متنامٍ لديّ بوجود الكثير ممّا لا أعلمه وبأنّ بيرلوم ولورا يحاولان تحديد الوقت المناسب ليخبراني فيه بشيء ما. نرضّع كلّ يومٍ بالشاي والقهوة والسندويتشات، كأنّ حياتنا مؤتمر مطوّل. نذهب كلّ مساء إلى الكنيسة الكائنة على الجانب الآخر من الشارع قبل أن نحتسي آخر كوب شاي أخير ونأوى إلى النوم. أشعر أنّهما يناقشان أمري حين لا أكون موجودة، وأنّه يحاول إقناعها بالوثوق بي. واضح أنّهما ما زالا مرتبكين من وجودي معهما ويحاولان جاهدين تحديد إقامتي في المنزل ما عدا زياراتِ الكنيسة. يحاول بيرلوم أن يشرح لي تأمّلاته، ولورا تتجنبني بشكل أساسي. أجلس في المساء مع بيرلوم وأحاول ألّا أغازله. لست واثقة ممّا يدور بينهما هما الاثنان، لكنّي لا أرغب في الدخول بينهما. من حين إلى آخر يدقّ جرس التليفون، ودائمًا تدع لورا تدع آلة الردّ الآلي تجيب. يتكوّن لدي انطباع بوجود صديقة ما تشاجرا معها مؤخّرًا فقط، لكنّي لا أصل إلى تفاصيل أكثر من هذا.

غرفتي صغيرة وبيضاء ومريحة، بدعامات مكشوفة وفراش قصير مكتنز بأربعة أعمدة للستائر وبطانية وردية فوق لحافٍ قطني أبيض. أقضي معظم وقتي في الفراش أكتبُ ملاحظات عن التروبوسفير. أقوم بذلك بشكل أساسي لأشغل نفسي عن الرغبة الملحّة في العودة إلى هناك، إذ نهياني

بيرلوم ولورا عن العودة إلى هناك، على الأقلّ الآن، لقلقهما بشأن تلك المهمّة التي ينوي أبوللو سيمنثوس توكيلي بها، وقلقي كذلك. واضح جدًّا أنّ التيه فيه أمرٌ خطرٌ جدًّا، برغم ثقتي أنّ بإمكاني العودة الآن وقتما أشاء بمترو الأنفاق. لكنّ لورا وبيرلوم لا يبدوان مقتنعين به جدًّا، برغم أنّه موجودًا بالتأكيد. أتمنّى لو أنّهما يخبرانني مباشرة بدلًا من التهامس في المطبخ ثم التوقّف عن ذلك حين أدخل لأعدّ قهوة. أعلم أنّ بودّهما استعادة الكتاب من فافيرشام، لكنّي لا أعلم كيف يمكننا ذلك.

ولست واثقة تمامًا من شعوري تجاه كلّ شيء. أشعر أنّي دافئة ومرتاحة وآكل جيّدًا لأول مرّة منذ سنين، لكن من الناحية الأخرى لقد انتهت حياتي، لم تنتهِ بالضبط، لعلّ هذا دراماتيكيًّا قليلًا، لكنّي واثقة تمامًا أنّ كلّ ما ظننته «لي» - وظيفتي، رسالة الدكتوراه، أصدقائي القليلين، شقّتي، ممتلكاتي، كتبي - قد ولّى الآن، وإن لم تُغيّر لورا رأيها فيّ، فلن يكون في وسعي البقاء هنا للأبد.

ليلة الأحد أحلم بالحلم نفسه الذي ظللت أحلم به منذ جئت هنا، يقف فيه أبوللو سيمنثوس أمامي يقول: «أنت مدينة لي». يوقظني في الرابعة صباحًا صوت المطر على كوّة الغرفة كدبيب آلة صناعية، يوم الاثنين السماء رمادية بلون الطبل الصفيح، ويتصدّع النهار بنبضات مفاجئة من برق أصفر بشرائط ضوئية، وعند منتصف النهار تقريبًا يدوِّي الرعد مرّة واحدة، ثم يتوقّف المطر. يدير بيرلوم الراديو فترة، ثمّة تحذير من هبوب عاصفة قويّة، برياح قوتها 80 ميلًا في الساعة، لكنّها لا تأتي.

صباح الثلاثاء السماء زرقاء وواضحة كالانعكاس على المعدن. أفكّر، «أهذا هو الهدوء الذي يسبق العاصفة؟ عين العاصفة»؟ تقرّر لورا أن تقوم بأعمال بستنة، وأجلس إلى طاولة الطعام أدخّن فحسب بينما تبحث عن قفّازها وتذهب للخارج دون أن تقول لي شيئًا. أرى من النافذة ما يبدو أنّه صقر يحطّ على أحد أعمدة التلغراف خلف المنزل، أتساءل هل رأته لورا، إنّه جميل جدًّا: أقرب لشيء في كتاب منه للحياة الحقيقية، أقرب لصورة

أو كلمة وليس لشيء. وأتساءل: هل تنأى اللغة بنا عن الأشياء لدرجة ألّا نعود مؤمنين بها؟ أم أنّني فقط قضيت وقتًا طويلًا في التروبوسفير لدرجة اعتدت معها على النظر إلى الأشياء هكذا، كأن أنظر إلى الصقر وأتخيّل أنّي اخترعته وأنّه مجازٌ لشيء ما غيره؟ أطفئ سيجارتي. يجب أن أذهب وأحاول عقد سلام مع لورا. لم أشم الهواء الطلق لأيّام الآن.

راكعة على ركبتيها بجوار أحد أحواض الزهور، تقلّب التربة.

«مرحبًا»، أقول بينما أسير نحوها. «أيّ مساعدة»؟

«لا... كلّ شيء على ما يرام»، تقول دون أن تنظر إلى أعلى.

ليس عليّ الآن سوى أن أذهب بعيدًا، لكنّني مُصرّة. «أرجوكِ»، أقول. «دعيني أساعد قليلًا».

تتنهّد. «المجاريف تحت الظلة».

آخذ جاروفًا وقطعة مشمع كتلك التي تستخدمها لتسند عليها ركبتيها، أعود لها وأضع قطعة المشمع بجانب قطعتها، وأبدأ في تقليدها فيما تفعله. نظلّ هكذا لخمس دقائق تقريبًا قبل أن أدرك أنّ عليّ أنا أن أبدأ فيما أشاء.

«أنا آسفة لمجيئي فجأة هكذا». أقول.

«همم». تجيب. الهمهمة القصيرة التي تصدرها دائمًا لفضّ الحديث.

أتابع: «و.. اسمعي لقد أردت أن أقول هذا لعدّة أيام الآن. أنا حقًّا آسفة لأنّي اضطررت لدخول ذهن بيرلوم لأصل إلى هنا. قد أكون فعلًا على علم بأشياء عنكِ قد لا ترغبين في أن أعرفها، وأنا آسفة على حشر نفسي». آخذ نفسًا عميقًا. «إنّها إحدى تلك المشاكل في التروبوسفير التي لا تفكرين فيها إلّا بعد فوات الأوان وقد فعلتِها بالفعل. ما أعنيه أنّ كلّ خبراتي هناك حتّى الآن ما زالت تجريبية». أفكّر ثانيةً؛ هذا ليس حقيقيًّا تمامًا وهي تعرف هذا. ينبغي أن أكون صريحة إن أردت أن أتواصل معها على أساس. «حسنًا، أظنّ أنّ المرّة الوحيدة التي استخدمت فيها التروبوسيفر عمدًا كانت حين أردت العثور على سول...».

«لماذا تدعينه «بيرلوم» أحيانًا»؟ تسألني ومازالت تقلّب التربة.

«ارر. بدون سبب»، أقول. «أظنّ أنّني التقطّتها من الجامعة. كثيرون هناك يدعونه «بيرلوم» أكثر من سول».

«بالتأكيد يدعونه «أستاذ بيرلوم»»، تقول مقطبة حاجبيها.

«ليس أعضاء الطاقم الآخرين». أرفع كتفي. «هل يزعجك هذا»؟

«نعم، لكني لا أعرف لماذا».

«سأتوقف عنه. أنا آسفة حقًّا، أنت تعرفين هذا».

نواصل تقليب التربة. أجد دودة، أحملها بحرص وأنقلها إلى مكان أكثر أمنًا. تراقبني لورا أفعل هذا، لكن ليس لديّ أدنى فكرة عمّا تفكّر فيه.

«ماذا عرفتِ عني حين كنتِ في ذهن بيرلوم»؟

«بالكاد أيّ شيء»، أقول. «أعلم أنّكما نمتما معًا في ألمانيا... تلك هي التفصيلة الحميمية الوحيدة التي أعرفها، بالطبع كان هناك تفاصيل أكثر من ذلك عنكما، لكن تذكّري أنّي كنت أحاول معرفة مكانه فقط، وليس شعوره تجاه أي شيء، لذلك تتبعت سلسلة ذكريات واحدة أكثر من غيرها».

«مم».

«أنا آسفة حقًّا. اسمعي، لك أن تدخلي ذهني في أيّ وقت إن شئتِ، لديّ بعض الأشياء الدنيئة جدًّا هناك، بما في ذلك بعض التفاصيل التي لم أذكرها في «قصتي حتّى الآن» التي رويتها لكم تلك الليلة».

«لا بأس، شكرًا»، تقول وتعود لتقليب الأرض الحمراء بجاروفها. يبدو أنّ ما قلته لم يُحدث فارقًا على الإطلاق.

لكنّها حينذاك تبتسم.

«أحبّ أن أقوم بأعمال الحديقة حين يكون لديّ أمرٌ أقلّبه في ذهني»، تقول. « لأنّها أعمال رتيبة وتساعد على الاسترخاء، ألّا تظنين ذلك»؟

يا إلهي. هل بادرت حقًّا ببدء محادثة معي؟

«نعم»، أقول. «إنّها كذلك بالفعل».

«سول حاليًا يجب أن يفعل كلّ شيء بطريقة «زِن»، فيمنح كيانه كلّه لتقليب التربة، إن كان هذا ما يفعله. ليس معنى هذا أنّه يقوم بأعمال الحديقة قط، لكنّه أحيانًا حين يطلي سياجًا أو يصل سلك كهرباء، شاهديه وهو يفعل هذا: يهب نفسه كلّها للعمل دون أن يستخدمه كوسيلة للتفكير في شيء ما آخر».

أتساءل ما الذي تقلّبه في ذهنها. كيف تطلب منّي أن أرحل ربّما. لا أعرف كيف أردّ على هذا، لكنّي أيضًا لا أرغب في أن تنتهي المحادثة، لأول مرّة منذ جئت هنا لا أشعر أنّ لورا تحتقرني.

«أوه، كانت هناك رسالة أخرى على آلة الرد الآلي من قبل»، أقول.

«آه، الكاتبة مرّة أخرى».

«الكاتبة»؟

«نعم، هذه هي المسألة التي أقلّبها في ذهني». تتنهّد، ثم فترة صمت طويلة. «أخبرني سول أنّك تعرفين الكثير عن التجارب الذهنية».

«نعم»، أقول. «أنا ـ لعلّني يجب أن أقول كنت ـ أعد رسالة الدكتوراه حول التجارب الذهنية».

«مم. هل يمكن أن نعتبر القصّة تجربة ذهنية»؟

«أوه، نعم»، أقول فورًا. «وربّما كلّ التجارِب الذهنية قصص».

«مدهش، لماذا»؟

«حسنًا، لأنّ التجارِب الذهنية كلّها لها طابع سردي. حسنًا، أو تلك التي أعرفها لها هذا الطابع». انتبه لأنّي أتحدّث مع أستاذة علوم حقيقية، فأحتاج فجأة لإبراء ذمّتي. «أنا واثقة أنّ بوسعك إخباري عن تجارب ذهنية ليست قصصًا. لكن...».

تقطب حاجبيها. «لا. تروقني فكرة اعتبار التجارب الذهنية قصصًا، وأعتقد أنّها لو لم تكن قصصًا لكانت علومًا بحتة، وليست تجارب ذهنية بالمرّة. قطارات أنشتين، وقطّة شرودينجر. مم».

«نعم... إنّهما التجربتان اللتان أدرسهما من كثب».

«حسنًا، ستتحدّث عنهما كما ينبغي في وقت ما لاحقًا، لكنّك الآن تتفقين معي أنّ التجربة الفكرية قد تعتبر قصة»؟

«نعم بكلّ تأكيد. لماذا»؟

«ماذا لو أجريت عليك تجربة فكرية؟ تتعلّق بالتروبوسفير، ومع أنّها موجودة كقصّة ـ بشخصيّات وما إلى ذلك ـ لكنّني لم أر القصّة بالفعل، وهكذا سأرويها فقط كقصّة بدون شخصيّات، إن كان هذا مفهومًا بأيّ شكل من الأشكال».

ليس مفهومًا حقًّا، لكنّي أومئ برأسي. «استمرّي أنا أتابعك».

«ما الذي تفهمينه حتّى الآن من التروبوسفير»؟ تقول. «وأعني بذلك الأساسيات فقط».

«مم»، أقول. «إنّه مكان من لغة».

«أكثر تحديدًا».

«حسنًا، من فكر»، أقول. «ومجاز و...».

«فكر»، تكرّر. «ممتاز. نعم. إنّه من فكر. وهكذا قد نطرح السؤال التالي: ما الفكر؟ هل توافقين على هذا»؟

«نعم».

«وقد أوضحت خبراتنا في التروبوسفير أنّ الأفكار ليست لا مرئية، ليست شيئًا خياليًّا، بل إنّها تنقش فور بزوغها، ومن هذا المنطلق، تصير كيانات. هل تتفقين معي على هذا»؟

«نعم، أتّفق معك على هذا».

ما زلنا نقلّب التربة، برغم أنّ هذه القطعة اكتفت الآن حقًّا.

«صحيح. هكذا لنا أن نتأمّل في تلك الفكرة، إنّ للأفكار جوهرًا».

أتذكّر شيئًا ما من وثيقة أبوللو سيمنثوس الأولى.

«الفكر هو المادّة، ربّما». أقول.

«نعم، بالضبط. لكن من الصعب تصوير كيف تكون الأفكار من مادّة على وجه الدقّة».

«نعم، أعترف أنّني لم أستطع تصوّر ذلك».

برغم أنّ السماء ما زالت زرقاء تمامًا، تسقط قطرتا مطرٍ على وجهي، أنظر إلى أعلى لأرى من أين أتتا، لكن لا سحب.

تبتسم لورا لي. «حسنًا»، تقول. «هاكِ القصة. التجربة الفكرية. ما رأيك في السيناريو التالي؟ تخيّلي حاسوبًا بذاكرة قرص صلب شاسعة، وثمّة في هذا الحاسوب برنامج يعمل... يشبه قليلاً لعبة بشخصيّات ومواقع. الآن، الشخصيات الصغيرة في هذا البرنامج مكتوبة بشفرة مزدوجة. قولي مثلًا إنّها جزء من لعبة محاكاة، لا بدّ أنّك رأيت هذا الشيء الذي أعنيه من قبل، عندما تخلقين لها قولي مثلًا مدينة صغيرة لتعيش فيها، ثم يولّد البرنامج تأثيرات مثل المطر والجفاف والحروب»؟

«نعم، أعرف ما تعنيه»، أقول.

«وهو كذلك، حسنًا، ما يلي يتطلّب قفزة عقائدية. ماذا تعرفين عن الذكاء الاصطناعي»؟

«أعرف أنّ صامويل باتلر رأى أنّ الآلات قد تصير واعية بالسهولة التي صار بها البشر واعين»، أقول. «وأنّ وعي الآلات أمر حتمي تمامًا كوعي البشر».

«هذا مثير. استمري».

«قال إنّ الوعي ليس سوى جزء آخر من التطوّر، طفرة عشوائية قد تحدث لأي شيء، وعلى كلٍ، فالآلات من المادة نفسها التي نحن منها... ونحن نقوم بتغذيتها أغلب الوقت بالوقود، واللغة...».

«نعم»! تشقّ الأرض بجاروفها. «جيّد لكن لا تقفزي».

لما كنت لا أعرف إلى أين أتّجه بهذا، فلست واثقة من أنّي سأميّز كيف أمنع نفسي من القفز عرضًا. لكنّي أقلّب المزيد من التربة وأقول، «حسنًا، آسفة، استمرّي».

«تخيّلي حدوث طفرة ما في محاكاة حاسوبنا، فتصير الشخصيات الصغيرة واعية. الآن. ممَ تتكوّن أفكارهم»؟

اتصوّر في ذهني حاسوبي المحمول على المكتب وهذه اللعبة شغّالة عليه، أتخيّل ما سيكون عليه الأمر إن كنت واحدة من تلك الشخصيات الرقمية المزدوجة. كم بُعدًا سأعي به؟ كيف سأتفاعل مع الشخصيات الأخرى؟ أفكّر ممّا عساه أن يتكوّن هذا العالم؟ ـ آحاد وأصفار بشكل أساسي ـ فأدرك أنّه في هذا العالم الصغير سيكون كلّ شيء من آحاد وأصفار، قد لا تستطيع الشخصيات الصغيرة أن تراها، لكن سيكون كلّ شيء، بما في ذلك أفكارها، من الشيء نفسه.

«أفكارهم ستكون من الشفرة نفسها المصنوع منها عالمهم»، أقول للورا. «أصفار وآحاد». لكنّي بدأت بالفعل أشعر بغثيان.

«نعم، جيّد جدًا، الآن أخبريني»، تقول «العشب والشجر في عالمنا هذا المزدوج، ممّا هي»؟

«أصفار وآحاد»، أقول.

«والبيوت والماء والهواء»؟

«أصفار وآحاد».

«وماذا يحدث للفكر في هذا العالم، ما إن ينشأ؟ هل يختفي»؟

«يتمّ تخزينه على القرص الصلب». أتوقّف. أفكّر في المخابئ المؤقتة والفرق بين ذاكرة الوصول العشوائي [RAM] والقرص المضغوط [ROM]..»أليس كذلك»؟

«نعم، فهي معلومات من آحاد وأصفار ككلّ شيء آخر في هذا العالم. إذن هل تتّفقين أنّ القرص الصُّلب يتّسع لتفكير هذه الكيانات»؟

أفكّر في هذا، توقّفت عن تحريك الجاروف، فأضعه جانبًا وأعود

بجلستي للوراء على المشمع، تسقط قطرتا مطر أخريان من لا مكان: السحابة اللامرئية نفسها في السماء.

«نعم»؟ أقول. «لست واثقة من هذه النقطة، يبدو أنّها تحمل خدعة ما».

«نعم هي كذلك. القرص الصلب نفسه لا يتّسع أو يتغيّر أو يكتسب كتلة أو شيئًا كهذا، لكنّ المعلوماتّ فيه تتغيّر. تظلّ تُكتب طوال الوقت. إن فكرتِ في القرص الصلب بوصفه مجرّد حيّز فارغ للكتابة فيه سترين أنّه سيسع، لكن إن أدركت أنّها مجرّد معلومات تتشفّر لتكون معقولة ـ لكنّها ليست أكثر أو أقل من معلومات بكلّ ما في الكلمة من معنى ـ حينها لن تعتقدي أنّه سيسع، قد تؤكّدين أنّه لا يوجد حيّز فارغ في هذا السيناريو».

«حسنًا».

«ماذا ترين حتّى الآن إذن»؟

«أعتقد أنّي أشعر بغثيان قليلًا».

«حسنًا لكن لماذا»؟

«لأنّ ما تقولينه معقول جدًّا. التروبوسفير مثل قرص صلب ليس لدينا في العادة سبيل للوصول إليه، مع أنّنا نظريًّا، بإمكاننا ذلك، بما أنّه على الآلة نفسها... و... أوه، خراء. نحن نعيش في محاكاة حاسوب. أهذا ما تقولينه»؟

«آه»، تقول. «جيّد، هذا مثير. لا. لا أرى أنّنا نعيش في محاكاة حاسوب. الحاسوب هنا مجاز».

«مجاز لـ... »؟

«هذا ما أريدك أن تفكري فيه قليلًا»، تقول. «لقد أفدتِني بالفعل في مسألة الكاتب. لكنّي أريدك الآن أن تفكّري في شيء آخر، في محاكاة الحاسوب هذه، إذا كان الفكر والمادّة من الشيء نفسه، فمم هي المادّة إذن»؟

يأخذ المطر في السقوط بغزارة الآن، على الرغم من غياب السحب. تنهض لورا.

«لعلّها تلك العاصفة الشهيرة»، تقول. «هيا ندخل».

تتوجّه إلى غرفة مكتبها فور أن ندخل.

«فكّري فيها»، تقول لي مرّة أخرى.

هكذا أفعل. أجلس في فراشي وأفكّر في الأمر كلّه. أقضي اليوم كلّه في هذا: إجراء التجربة الفكرية للنهاية بإضافة تفصيلة صغيرة كلّ مرّة. إن كان الفكر والمادّة من الشيء نفسه، فمم هي المادّة إذن؟ أفكّر في المادّة، وما هي - مجرّد جسيمات والكترونات - وأتساءل كيف تختلف الجسيمات والإلكترونات حقًّا عن الأصفار والآحاد. في هذين العالمين المحتملين، «تُخلق المادّة» من الشيء نفسه. الكون مثل عالم الحاسوب، يتألّف من القدر نفسه من المادّة، في العالم المادّي تتخذ الجسيمات والإلكترونات أي هيئة تشاء: بذرة، شجرة، كربون. ثم تتحلّل وتتخلّق مرّة أخرى، من الشيء نفسه.

في عالم الحاسوب بإمكانك أن تصنع شيء ما من أصفار وآحاد - صورة خليعة على سبيل المثال - ثم تعيد كتابتها بشيء ما مختلف تمامًا، إن توفّرت لك البرمجيات المناسبة التي تتيح العبث في الذاكرة على مستوى الأصفار والآحاد، فقد تجعل الأمر يبدو كما لو لم تكن الصورة هناك قطّ: كما لو كانت حيزًا غير مكتوب طوال الوقت، أو مخطوطة عن شجرة، لكنّها قد تترك أثرًا؛ الحفريات مثلًا آثار، جسيمات وإلكترونات جمُدت في الزمن، تأبى أن تتحلّل وتتخلّق لشيء آخر.

مِمَّ تُخلق المادّة إذن؟

لاحقًا، على عشاء من مشروم وتوست، تبدأ مناقشة أخرى.

«أخبرت آرييل عن كتابي»، تقول لورا لبيرلوم. «أو على الأقلّ تلك التجربة الفكرية عن الحاسوب».

«هذا هو الجزء الوحيد الذي أفهمه»، يقول. ثم يوجه كلامه لي: «معظم الباقي تقريبًا رياضيات».

«لم أجب سؤالك بعد»، أقول للورا. «ممّ تُخلَق المادّة»؟

يضحك بيرلوم، «تلك فزورة لطيفة ليقضي بها المرء نهارًا ممطرًا».

ظلّت السماء تعتمّ طيلة النهار، وعند الثالثة تقريبًا لم أكن واثقة ممّا يحدث بالخارج: هل هذا المساء أم العاصفة، حوالى الخامسة كنت أعدّ قهوة ورأيت بيرلوم يحاول إغراء بلانك للخروج، لكنّ الكلب ظلّ يعود للمنزل، فهذا من وجهة نظره أسرع طريقة للهروب من المطر، لكنّه بدا كوميديًّا قليلًا.

«لم أتوقّع ذلك». تقول لورا بابتسامة ودودة.

«لكنّي أفهم أنّ الجسيمات والإلكترونات تمامًا مثل الأصفار والآحاد»، أقول. «ويتبيّن لي الآن كيف أنّ الفكر مادّة... لكنّ لدي مشكلة صغيرة مع هذا، لو أنّ الفكر مادّة، فكلّ شيء حقيقيٌّ إذن، برغم اعتقادي فيما سبق أن لا شيء حقيقيًّا. اختلاف دريدا وزائف بودريّار. لو أنّ الفكر مادّة، لصار كلّ شيء حقيقيًّا. لكن إن عكست المعادلة في الاتجاه الآخر ـ إن كانت المادّة فكرًا حقًّا ـ فلا شيء حقيقيًّا. هل يمكن أن تصحّ كلتا الفكرتين في الوقت نفسه؟ هل يمكن أن تعمل تلك المعادلة بمنطق معادلة «الطاقة تساوى الكتلة» نفسه؟

«برغم أنّ الفكر لا يخلق المزيد من المادّة»، تقول لورا، «فلا الفكر ولا المادّة يأتيان من لا مكان».

«لا، أرى ذلك، على ما أظنّ. لكنّ الفكر نوعًا ما... يشكّل...».

«يُشفّر»، تقول لورا. «الفكر يُشفّر المادّة».

«ما يعني»؟ أرشف قليلًا من نبيذ أحمر وترتعش يدي.

«حين تفكّرين، فأنتِ تغيرين بنحوٍ ما».

أفكّر في كلّ شيء وفي كلّ ما قالته. أتخيّل الناس المزدوجين الصغار في عالمهم حيث كلّ ما يرونه حولهم، وكلّ أفكارهم، من الشيء نفسه. في الغالب سيكون بإمكانك في هذا العالم خلق الأشياء بمجرد التفكير فيها. لن يكون هناك فرق بين فكرة المطر والمطر نفسه، لكنّ بالتأكيد لا ينطبق هذا على هذا العالم!

«هل تقولين إنّي إن فكّرت في شجرة، فسيمكنني أن أخلق شجرة»؟ أقول للورا، غير مقتنعة.

«ليس في هذا العالم»، تقول لورا.

«في عالم الحاسوب؟ في التجربة الفكرية»؟

«على نحوٍ ما»، تقول. تنظر لبيرلوم وتقول «لديها موهبة جيّدة جدًّا في التبسيط».

«ليست مهارة مطلوبة حقًّا في قسم الأدب الإنجليزي»، يقول «لكن نعم».

«لماذا، «على نحوٍ ما»»؟ أسأل لورا. «لماذا يمكنني على نحو ما فقط أن أصنع شجرة بمجرّد التفكير فيها، إن كنتُ واحدة من هذه الكيانات»؟

«لأنّ ذلك يعتمد على نوع الشفرة التي تفكّرين بها»، تقول. «ما إذا كنتِ تفكّرين بشفرة الآلة أم محدّدة بإحداثيات البرنامج فقط».

«لديّ مشاكل مع هذا»، أقول وأنا أقطب حاجبي.

بالكاد يمكنني تذوّق طعامي، أنا واعيةٌ جدًّا حقيقةَ أنّ هذا هو الواقع الذي نتحدّث عنه: الغرفة التي أجلس فيها، والكرسي الذي أجلس عليه، وذهني، وأحلامي، وكلّ ما يجعلني كائنة، لكنّه إحساس غريب يتملّكني بأني لو أخطأت في الإجابة عن واحد من تلك الأسئلة ستأخذ الأشياء في الذوبان من حولي: بأنّ وجود كلّ شيء يعتمد على هذا.

ثم أفكّر «لا تتغابي: إنّها مجرّد نظرية».

لكنّي رأيت الدليل عليها، لقد ذهبت إلى التروبوسفير.

لكن التروبوسفير قد يعني أيّ شيء. بالتأكيد؟

«مشاكل»؟ يقول بيرلوم ضاحكًا، «أوه، انضمي إلى الرابطة».

«أقصد، أنّ الأمر كما لو كان العالم كلّه ينقلب، لا أعرف...».

«رأسًا على عقب».

«نعم، لكن في أبعاد أخرى أكثر من مجرّد أربعة. لا أستطيع...».

ماذا أريد أن أقول؟ لست واثقة. «ما هي شفرة الآلة إذن»؟ أسأل. «ولماذا لا يمكنني أن أفكّر أشجارًا»؟

ترشف نبيذها. «كتابي كلّه عن ماذا عساها تكون «شفرة الآلة» تلك. أنا نفسي لست واثقة حتّى الآن. لديّ فرضيتي بأنّها موجودة، لكنّي ما زلت أعمل على حساباتي الرياضية التي توضحها بشكل كامل... أعتقد أنّي توصّلت لخمسة وسبعين في المئة منها». تضع نبيذها على الطاولة. «تعرفين بالطبع أنّه في العالم الحقيقي لا يمكنك خلق أشياء بمجرّد التفكير فيها، لا يمكنك خلق ورقة عشرة جنيهات حين تكونين فقيرة، أو شطيرة حين تكونين جائعة، الذهن وحده ليس بمقدوره هذا».

«من العار»، يقول بيرلوم.

«لكنّنا نعرف أيضًا، أو اتّفقنا في الوقت الراهن... أنّ الفكر مادّة. الفكر مشفّر: الفكر لا يفنى أبدًا، أفكار الجميع توجد في بُعدٍ آخر، ذلك الذي نتبوّأه في التروبوسفير».

«نعم»، أقول وأنا أضع شوكتي على الطاولة.

«نحن نتّفق أنّ الفكر مادّة لأنّه يحدث في نظام مغلق كلّ شيء فيه من مادّة. تمامًا كما في برنامج الحاسوب في تجربتنا الفكرية. لا يوجد فيه شيء ليس مكتوبًا بشفرة لأنّه، حسنًا، فقط لا يمكنك أن تخزني شيئًا على الحاسوب ليس مكتوبًا بشفرة، كلّ شيء خارج نظام التعريف لا يمكن أن يدخله، لكنّنا نعلم أيضًا أنّ الفكر لا يمكنه خلق المزيد من المادّة...».

«أرى هذا»، أقول. «كائنات الحاسوب لا يمكنها أن ترغب فقط في المزيد من الرام (ذاكرة الوصول العشوائي) فيتوفّر، على سبيل المثال».

«جيّد»، تقول لورا. «لكن المادّة هناك يمكن التلاعب بها».

أين سمعت مصطلح «الملعقة المثنية» مؤخّرًا؟ هذا ما يخطر ببالي، لكنّي لا أقول شيئًا، لست واثقة حتّى من حدوث الملعقة المثنية حقًّا، ولا يوجد على حدّ علمي أمثلة لبشرٍ فكّروا في سمكة ذهبية مثلًا وجعلوا واحدة تظهر. السحرة الذين يبدون كأنّهم يحوّلون الأوشحة الحريرية لحمّامات لا يقومون بذلك حقًّا: تلك خدعة.

تواصل لورا حديثها، تشرح أنّ للآلة المجازية نوعين من الشفرة: شفرة الآلة، وشفرة البرمجيات. شفرة الآلة تقوم بعمل الآلة، وتُملي على شفرة البرمجيات ما تفعله. تتحدّث بتركيز واستعجال، كأنّها تحاول إقناع راكب بقيادة طائرة على محكّ كارثة، لوهلة أفكّر أنّها تظنّ أنّها ستموت قريبًا. ثم تذهب الفكرة.

«إذن، في عالمنا هذا، ما المكتوب بشفرة الآلة»؟ تسألني لورا.

«قوانين الفيزياء»؟ أقول، وأنا أتساءل ما إذا كنت أنا الراكب الذي عليه أن يهبط بالطائرة، وما إذا كنت سأتحطّم على الأرض أم لا.

«نعم، ممتاز، و...»؟

«و...»؟ أفكّر لدقائق قليلة. بينما أفكّر، ينهي بيرلوم طعامه؛ ثم يرفع الأطباق ويرصّها في غسّالة الأطباق.

«ماذا عن الفلسفة»؟ تساعدني لورا. «ما وراء الطبيعي»؟

أومئ ببطء. «حسنًا. إذن... ماذا تقولين؟ أنّ بعض الناس يفكّرون بشفرة الآلة هذه»؟

«محتمل»، تقول. «في ظنّك من الذي يفكّر بشفرة الآلة»؟

«تقصدين في مقابل الشفرة التي هي أكثر «تعارفًا عليها في العالم»»؟

«نعم».

«شفرة العالم المتعارف عليها إذا هي اللغة بشكل أساسي، وشفرة الآلة هي أفكار الـ... العلماء؟ الفلاسفة»؟

«نعم. الآن فكري في شخصية تاريخية. شخص ما كان بمقدوره هذا حقًّا».

أرشف من نبيذي. «أنشتين»؟

«إجابة جيّدة. الآن السؤال الأصعب منهم جميعًا. حين ظهر أنشتين بنظريّاته عن النسبية، هل كان يصف العالم كما كان بالفعل فقط أم...»؟ ترفع حاجبيها وتترك جملتها لي لأنهيَها.

«يجعله يعمل على هذا النحو»، أقول «يا إلهي».

«أرأيتِ»؟ تسأل لورا. «أمرٌ غريب، ألّا تظنين ذلك، أنّ أنشتين عثر على ما كان يبحث عنه بالضبط، مع أنّه لم يكن معقولًا؟ كانت نظرية ألمعيّة بالطبع، لكنّها شاذّة للغاية مقارنة بفيزياء نيوتن. ثم ذهب إدينجتون[1] ينظر للكسوف، فثبتت تنبُّؤات أنشتين. وظلت تَثبت. لا يمكنك بناء نظام جي بي إس[2] الآن دون أن تضعي نظرية النسبية في الاعتبار، وحتّى الثابت الكوني، الذي رفضه أنشتين وقال إنّه خطأه الأكبر.. حتّى هذا يرفض أن يتحلّل تمامًا. ثم هناك فيزياء الكمّ، التي هي في الأصل دراسة الأشياء التي لا يمكنك رؤيتها»، تقول. «إنّها دراسة الأشياء التي لم يبصرها أحد قطّ أو فكّر فيها كثيرًا. وماذا حدث حين بصرها الناس»؟

«وجدوا المجهول»، أقول.

---

(1) سير آرثر ستانلي إدينجتون (1882-1944): عالِمُ فلك بريطاني كتب عدّة مقالاتٍ بالإنجليزية فسّرت نظرية النسبية لأنشتين بعد أن أثرت الحرب العالمية الأولى في معرفة إنجلترا بالتطوّرات العلمية الألمانية، وقام عام 1919 بحملة لمراقبة كسوف الشمس أثبتت واحدة من التأكيدات السابقة للنسبية.

(2) GPS: برنامج تحديد المواقع.

«لا أحد عرف قطّ ماذا تفعل تلك المادّة الضئيلة»، يقول بيرلوم. «فحين نظروا لها، وجدوا أنّ اللعينة تفعل ما يعنّ لها».

«أوه، أنت تصيغ الأمر بطريقة غريبة حقًّا»، تقول لورا. «المادّة لا تفعل «ما يعنّ لها»، الكمّ فقط ليس له قوانين. لم يقرّر أحد هل الضوء جسيمات أم موجات أم ماذا، ثم فوجئ الجميع حين وجدوا الاثنين معًا، من منطلق نظريتي، لعلّه لم يكن مفاجأة إيجاده هكذا، على هذا المستوى، يكون الإلكترون في كلّ مكان في الوقت نفسه إلى أن تقرّر أين هو... ومن ثم ما هو. هذا يناسب النظرية. لا بدّ أن تشفّر المادّة قبل أن تعني أيّ شيء، والفكر هو شفرة المادّة، الفكر يقرّر أين الإلكترون».

ننتقل للكنبتين بإبريق قهوة ممتلئ، تشتغل لورا بالخيط والإبر إذ تتحدث: كشمير أخضر باهت يتحوّل ممّا يشبه الخيط إلى ما يشبه كمّ سترة صوفية فيما تصدر الإبر الرمادية صوت تك تك تك في حِجرها. أتساءل لمن تشتغله؟ لدي شعور قويّ بأنّه إمّا لها أو للا أحد على الإطلاق. إذ تعمل، تشرح لي كيف ترى قوانين العالم المادّي مركّبة، تقول إنّه لم يكن هناك قطّ أيّ وجود سلفًا: إذ لا يعقل أنّ المادّة كانت أي شيء أو خضعت لأيّة قونين إلى أن وُجد الوعي الذي يلاحظها. لكن، لأنّ الوعي أيضًا من المادة نفسها، أخذت المنطقتان اللتان نظنّ دائمًا أنّهما متمايزتان ـ الذهن البشري وعالم الأشياء ـ تعمل معًا لخلق وتنقية وقولبة إحدهما الأخرى. راحت كائنات واعية تنظر إلى الأشياء وتقرّر ما هي وكيف تعمل، وهكذا لم تكن مصادفة أن سقطت أول سمكة تمامًا على العشب الذي تحتاج إليه لتبقى: بل أوجدته، ولم تكن مصادفة سعيدة أن «أكتشف» أحدهم النار، كان على أحدهم فقط أن يفكّر نارًا، وما أن دخلت الفكرة شفرة هذه الآلة، كان هناك نارٌ. ولفترة سارت الأمور بدقّة كما توقّع الجميع. ولم تكن قوانين منافسة، فكان الجميع بسطاء، دارت الشمس حقًّا حول الأرض، وكان يوجد سحر حقًّا. لكن بعد ذلك جاء آخرون ـ من القادرين على التفكير بشفرة الآلة أيضًا ـ وقرّروا أنّ العالم يسير بشكل مختلف، أصبحت

الشمس مركز ما يسمّى «النظام الشمسي»، ولم تعد النجوم ثقوب حروق القدّيسين. وتضاءل السحر بالتدريج.

نتحدّث عن نظرية الفوضى، وكيف طالبت الفراشات فجأة بالقدرة على عمل أعاصير؛ وعن النشأة. توضح لورا نظريّتها ـ جزء من مجمل مشروعها ـ بأنّه طالما فكّر أحد ما في أن يوجد شيء ما بشفرة الآلة هذه، فهذه النظرية تبقى، بعضهم يفعل، وبعضهم لا. كان بنظرية نيوتن بعض خللٍ عُولج في نظرية أنشتين. كانت نظرية أنشتين طفرة، لكنّها كانت أقوى. بقيت. لكنّ شيئًا ما يقلقني في هذا.

«ماذا عن الزمن»؟ أقول.

«ماذا عنه»؟ تقول لورا.

«حسنًا، لا أحد يظنّ أنّ النسبية لم توجد سوى عام 1905، أو متى كان هذا، بل يرون أنّها كانت دائمًا هناك، فقط لم يلاحظها أحد من قبل».

«ماذا ترين أنتِ»؟ تقول لورا.

«لست متأكّدة»، أقول.

«لعلّ الزمن لا يسير كما تعتقدين»، تقول لورا، ثم لا تتفوّه بشيء آخر لدقيقة تقريبًا، وحين أنظر إلى وجهها المتغضّن، يبدو لي متعبًا».

«من الكاتبة التي تحدثتِ عنها من قبل»؟ أسأل. «التي تترك كلّ تلك الرسائل»؟

«آه»، يقول بيرلوم.

«أوه»، تقول لورا. «إنّها مهتمة بنظريّاتي، وأوجزت واحدة منها في قصة قصيرة. ستنشرها في مجلّة ناتشور [الطبيعة]، لكنّي لم أكن واثقة من رغبتي في هذا. عرضتْ عليّ أن تضع اسمي على العمل لكنّي لست واثقة من أنّي أريد وضع اسمي على كلّ هذا بعد. وبالنسبة لكتابي...».

تجول عينا لورا بعيدًا عنّي وتستقرّ في مكان ما على الطاولة.

«ما عنوانه»؟ أسألها.

«الفيزياء ما بعد التركيبية»، تقول. الآن تتوقّف ضجّة تك تك تك. تتنهّد وتضع شغلها في حجرها. «لن يُنشر أبدًا، بالطبع»، تقول.

«لم لا»؟ أقول.

«لأنّه لا يوجد دليل على أيّ شيء قلته الليلة. لا يوجد ما يسمّى الفيزياء ما بعد التركيبية، حين أتخيّل شرحها لأحد زملائي القدامى، سيظنون أنّي فقدت صوابي، يحدث هذا لبعضهم أحيانًا بعد التقاعد، إنّهم...»، ترفع كتفيها: حركة صغيرة بالكاد ملحوظة، ننتظر أنا وبيرلوم أن تكمل جملتها لكنّها لا تقول سوى، «حسنًا». ثم ينهض بيرلوم ويلتقط كرة الصوف التي لا بدّ سقطت على الأرض دون أن ألحظ وتسلّلت تحت مقعد لورا.

«ماذا عن التروبوسفير»؟ أقول.

«التروبوسفير سيذهب»، يقول بيرلوم.

«يذهب؟ لكن... كيف»؟

«ستقومين بتدميره»، يقول.

خمسة وعشرون

أجلس في فراشي وأفكاري تتلاطم في ذهني كفراشات هيولية.

أوه، اللعنة.

الآن أفهم سبب اهتمام أبوللو سيمنثوس الخاصّ بي.

بإمكاني تغيير أفكار الناس إذن... تمامًا مثلما بإمكان الأطفال. بمقدوري أن أجعل أحدًا مثل مارتن روز يرغب بشدّة في أن يذهب للحمام لحد أن يترك ترصده، كما جعلت وولف يرفض إخبار آدم بمكان الكتاب حين كان رجال مشروع ستارلايت بالتأكيد في ذهن آدم، يتصنّتون، لكنّي ظننت أنّ هذا بمقدور الجميع لم أحسبه شيئًا مميّزًا فيّ قطّ. والآن تكشّف أنّ ثمّة شيئًا. لورا أيضًا تظنّ أنّني، على الأرجح، بإمكاني التفكير بشفرة الآلة، أنّ لديّ تلك القوّة. ولهذا يريدني أبوللو سيمنثوس أن أجد أبي لاثروب وأغيّر، من خلالها، التاريخ، مثله سول ولورا الآن، يريداني أن أعود للوراء أكثر من ذلك وأقنع لوماس ألّا يكتب الكتاب أبدًا، بوسعي أن أبقى وأخطّط للرحلة متى أشاء كما يقولان.. فبعد كلّ شيء، ما أن يزول الكتاب، ستزول المعرفة، ولن يجد رجال مشروع ستارلايت الكتاب في الدير أبدًا لأنّ الكتاب لن يعود موجودًا بعد ذلك، لن يكون هناك أيّ مشروع ستارلايت، لكن ثانيةً، تقلقني «المفارقات»، تشدّ جناحي إلى أسفل، لو كنت قد قمت بذلك بالفعل، ونجحت فيه، لما احتجت إلى الذهاب، وليس لديّ ما في العالم كلّه من وقت، حقًّا، قد يأتي مارتن وإد هنا غدًا ويدمران مخّي، إنّهما

هنا حقًّا، في هذا العالم، ويريدان فعل هذا... ألا يعني هذا على نحو ما أني لم أنجح؟

لكن... ربّما الزمن لا يسير كما نعتقد.

لكن لعلّ من الأفضل ألّا أفكّر في هذا كثيرًا... أنا في الحقيقة مذعورة قليلًا من التفكير في أيّ شيء، الآن وأنا أعرف ما قد تكونه أفكاري.

أردت المعرفة إذن، وحصلت عليها، لكن هل أردت قطّ هذا النوع من المعرفة، هل أردت معرفة أنّه لا يوجد إله: أنّنا الآلهة؟ أنّه ليس بالضرورة أن يوجد خالقين أو منطق؟ إذ نحن نصنع المنطق، وفقط نحلم بالخالقين: فهذا كلّ ما يسعنا، لكنّي كنت أعرف هذا طوال الوقت، صحيح؟ ربّما. لكن يا لَه من أمر مؤسف: مؤسف أن يُثبت أنّك على حقّ، أن يبيّن لك أحدهم أنّه، نعم، لا أب في الأعلى هناك سيسرّه أنّك رتّبت البازل بشكل سليم، لا كائن أعلى سيصفّق لك ويمنحك مكانًا خاصًّا في النعيم لأنّك فهمت هيدجر، لا بدّ أنّ الربَّ هناك في التروبوسفير، لكنّ التروبوسفير من أفكارنا ببساطة، ولا يوجد شيء خارج هذا حقًّا، أفكارنا كواركات تدور لأعلى وأسفل تلوّن الإلكترونات بأيّ لون نشاء.

تقترح النظرية النيوتنية عن السبب والنتيجة أن أحدًا ما قد أدار الساعة الأصلية وتركها تدقّ، وأن أبسط حركة في الكون يمكن التنبّؤ بها... إن توفّر شيء ما قوي بما يكفي للاستدلال به، في مثل هذا العالم لا توجد إرادة حرّة: إذ يمكن فيه معرفة كلّ شيء، في مثل هذا العالم قد أستيقظ في الصباح وأفعل ما تمّت برمجتي على فعله: كأنّ كلّ تحرّكاتي ليست سوى لعبة دومينو على الحاسوب. هذا ما يحدث حين تحاول دمج الربّ في العلوم، شيء مروي، نقي، وبسيط، ثمة بداية ومنتصف ونهاية، والمنتصف موجود فقط لأن البداية موجودة؛ والنهاية موجودة فقط لأنّ المنتصف موجود. وفي البدء كانت الكلمة، والكلمة كانت مع الربّ، والكلمة كانت الربّ.

ضع جانبًا سيناريو السبب والنتيجة ذاك، فتحصلَ على العالم الكمّي، المزعج بما يكفي بطريقته الخاصّة، بإمكانيّات أكوانه المتعدّدة واحتمالاته اللانهائية، لكن إن لم تأخذه بجدّية شديدة ووضعت في حسبانك التطوّر والاقتصاديات وكلّ شيء آخر مسلّم به في عالمنا، فسيكون لديك حينها، على الأقلّ، الوهم بالإرادة الحرّة. بوسعك أن تقرر أن تصير غنيًّا. بوسعك أن ترتقي لتكون رئيس جمهورية، احتمال بعيد، لكنّه ممكن.

لكن في عالم الفيزياء ما بعد التركيبية الجديد هذا، لديّ الكثير جدًّا من الإرادة الحرّة لدرجة أن لم يعد أيّ شيء يعني أيّ شيء.

لكنّك كنت تؤمنين بهذا من قبل آرييل، لقد قرأتِ هيدجر، ودريدا، وسرتْ في جسدك قشعريرة من كلّ هذا: لا مطلقات، هذا ما كنت تؤمنين به، أنّ كلّ شيء يعتمد على كلّ شيء آخر.

لكنّي لم أرد أن يكون هذا حقيقيًّا، أم أردته كذلك في نطاق النظام المغلق للغة؟ حيث لا شيء البتة حقيقيًّا على الإطلاق، لقد أردت الشكّ في جميع الأحوال، لكنّي لم أرد عالم من لغة فقط لا غير.

ربّما لهذا يحبّذ بيرلوم الفراغ.

كنت أنا أيضًا سأحبّذ الفراغ ما لم يكن عليّ أن أذهب للتروبوسفير ثانيةً، بإمكانية حقيقية هذه المرّة ألّا أعود ثانيةً أبدًا. لكنّي أظنّ أنّ لورا وبيرلوم مقنعان بما يكفي. إن كنت سأعود للوراء لتغيير ذهن آبي لاثروب من أجل أبوللو سيمنثوس، فلم لا أواصل العودة وأغير ذهن لوماس من أجل الجنس البشري؟ وبالطبع ما قالاه كان معقولًا، لن يكون هناك تروبوسفير. إنّ علم ما يكفي من البشر بشأن التروبوسفير، سنشهد أسوأ سيناريو ممكنًا: لا ربّ... ولا إرادة حرّة أيضًا. سيكون بمقدور بعضهم أن يتحكّموا في أذهان الآخرين ببساطة. قد يتلاعب أصحاب النفوذ ببقيّتنا ببساطة ليجعلونا نفكّر فيما يريدوننا أن نفكّر فيه، قد يمحون أيّ أفكار «سيئة» أو «ثورية».

نعم: مثلما سأمحو أفكار آبي لاثروب وتوماس إ. لوماس.

حين أرقد في الفراش لا أستطيع النوم، وحين أنعس قليلاً أحلم بأبوللو سيمنثوس ثانيةً. نصف الحلم مثل حلم الليلة الماضية الذي يقول فيه «أنت مدينة لي» مرارًا وتكرارًا، لكنّ النصف الآخر حول كلّ ما قاله عن الزمن والسفر والمفارقات. أسأله، «لكن كيف يمكنني أن أعود في الزمن وأغيّر عالمًا لم يتغيّر بالفعل بما فعلته»؟

وهو يقول: «لقد فعلتِ هذا بالفعل».

في النهاية أحظى بساعة نوم.

حين استيقظ في الصباح يكون المطر قد توقّف وبيرلوم يعدّ لي عصيدة، لست واثقة من أني أريد عصيدة: أظنّ أن أريد أن أدخّن كثيرًا، ثم أفتّش في أدراج المطبخ على أحدّ السكاكين نصلًا وأقضي مع نفسي عدّة ساعات لأقنعها أني حقيقية وأني بشر وأني أعني شيئًا ما. لكنّي في النهاية أكتفي بتناول العصيدة، ثم تدخين سيجارة واحدة مع كوب ماء. حوالي العاشرة تهبط لورا من غرفة مكتبها.

أجلس على إحدى الكنبتين الصفراوين أنهي ثاني سيجارة لي اليوم. النار مطفأة وأنا أنقر عقب السيجارة فيها. بيرلوم بالخارج يُمشّي بلانك. تعد لورا لنفسها كوب شاي أعشاب وتأتي لتجلس على المقعد ذي الذراعين.

«إذن...»، تقول.

أسعل قليلًا، «إذن..»، أجيبها.

«ليلة ليلاء»، تقول. «كيف حالك»؟

أنظر وراءها إلى لخارج عبر أبواب الفناء. ما زال النجيل رطبًا من ثلج ليلة أمس، أرى قطعة الأرض التي حفرناها أمس تبدو أكثر حمرة وخفّة من بقيّة الحديقة.

«أشعر بضياع تام»، أقول. «كلّ هذا التفكير... ولم أنم جيّدًا».

«أوه؟ بسبب التفكير»؟

«بسبب الأحلام السيّئة أساسًا»، أشرح لها. «مفارقات السفر عبر الزمن».

«آه. نعم. ستبقيك مستيقظة. كنت متزوّجة بخبير عالمي فيها: أعرف بالطبع». ابتسامتها مائية، وأتساءل ماذا حدث له، هل ذهب مع واحدة كان يتّصل بها من الحمام؟ أم ربّما توفّي، وأتت لورا بالكلب ليؤنّسها. لكن لا يمكنني أن أسأل.

أقطب حاجبي. «أزعجتني قدم».

تبتسم وترشف شايَها. «قدم»؟

«نعم»، أقول. «قدم البشر. لا أحد يعلم بدقّة كيف تعمل... حسنًا ليس بالدقّة كافية ليصنع منها نسخة. ثم هناك أشياء مثل نفاية الحمض النووي، والعمليات الإدراكية، وكيف لا تتّفق فيزياء الكمّ مع الجاذبية، لكن الجميع يظنّ أنّها لا بدّ تتّفق... كيف يعمل هذا»؟

«سيكون عليكِ أن توضّحي أكثر»، تقول. «كيف يعمل ماذا»؟

«حسنًا، واضح أنّه لم يكن بمقدور أحد أن «يفكّر» هذه الأشياء للوجود، لكنّها توجد بالفعل، ظنّي أنّ ما أحاول أن أسأله هو كيف تفسّر الفيزياء ما بعد التركيبية تلك الأشياء التي توجد دون تفسير، إن كان التفسير هو ما يخلقها»؟

تومئ لورا. لكنّها لا تتحدّث.

«أعني»، أقول، «في السيناريو الذي وصفتِه، كيف يوجد أيّ لغز بالمرّة»؟

«سؤال جيّد»، تقول. «سؤال جيّد جدًّا».

«هل له إجابة»؟

تتنهّد. «نعم، على ما أعتقد. من المثير أنّك كنتِ تفكّرين في مفارقات السفر عبر الزمن، لأنّ...».

«ماذا؟»

«حسنًا، كلّ هذه الأسئلة تدور حقًّا حول الخلق. من هو الخالق؟ وماذا يفعل؟ ومتى كان الخلق؟ بالطبع يكره العلماء كلمات مثل «خلق» و«خلقيين»، إذ تقول العلوم إنّها ضدّ نظرية الخلق، أو التصميم الذكي.. أو على الأقلّ هي ضدّ تدريسهما جنبًا إلى جنب معًا في حصص العلوم. لكنّ للمفارقة ثمّة خالقين، وهم العلماء». ترشف لورا شايها ثم تضعه على الطاولة. «ونحن معتادون جدًّا على فكرة الخلق كشيء حدث في البداية. في البدء خُلق العالم، ثم خُلقنا نحن، ثم أخذت الأشياء تحدث. هكذا تسير القصّة عادةً. لكن ماذا لو كان المستقبل هو ما يصنعنا، وليس الماضي»؟

«خراء...»، أقول. «لكن...».

تضحك لورا «لكن كيف يعمل هذا؟ إنّه لا يعمل؛ ليس حسب الفيزياء الكلاسيكية».

«إذن.. هذا مرتبط بالسؤال الذي سألته الليلة الماضية، عن «الآثار الرجعية» للأفكار، أليس كذلك»؟

«نعم».

«إذن أنتِ تقولين أنّه، في المستقبل، سيأتي شخص ما بنظرية، مثلًا، تصالح فيزياء الكمّ والجاذبية، وستجعل هذه النظرية العالم يسير كما يسير حاليًا؟ أيّ أنّ العلماء يكتشفون أشياء حدثت بالفعل فقط»؟

«نعم للجزء الأول، لكن ليس للثاني. ما زال أنشتين من صنع النسبية بالتفكير فيها»، تقول وهي ترفع شايها ثانيةً وترشف منه. «لكنْ شخص ما في المستقبلِ سيقوم بالجزء الثاني، وشخص ما آخر سيقوم بالجزء التالي، وسيتقاطر كلّ هذا في التاريخ».

«نحن إذن نعيش في عالم من بشرٍ لا نهائيّون في المستقبل، يفكّرون فيه بالفعل»، أقول.

«لا. لأنّ المستقبل لم يحدث بعد. وقد لا يكون المستقبل لا نهائيًّا».

«لكن...»!

«لم يعد عالمًا من السبب والنتيجة بعد الآن آريل. لا شيء يحدث حقًا قبل شيء آخر أو بعده. بوسعك أن تقولي إنّه، بطريقة ما، كلّ شيء يحدث مرّة واحدة».

أفكّر في قطار الخوف، وكيف استطعت أن أعود لنفسي عند أي نقطة أشاء. لكن ذلك لأنّي كنت أتحرّك في شيء ما ليس له كتلة، ويمكنه أن يتحرّك بسرعة غير محدودة. كنت أسافر على متن انفعال، وليس على متن شيء حقيقي.

لكن هل الفكر حقيقي؟ هل للفكر كتلة؟

لا بدّ من هذا. فقد اتفقنا بالفعل أنّ الفكر مادّة.

أم لم نتّفق؟ ما زلت لست واثقة من كلّ هذا.

«آسفة»، تقول لورا. «هذا عبء كبير».

«لا»، أقول. «لا داعي للأسف. بودّي أن أعرف الأمر كلّه الآن، قبل أن أعود للتروبوسفير. بودي... لورا»؟

«نعم»؟

«حين أعود ـ إن عدت ـ لن يكون الكتاب موجودًا، صحيح»؟

تومئ برأسها. «آمل ذلك».

«إذن لست واثقة بالفعل»؟

«لا أعلم ماذا سيحدث».

«من الممكن ألّا أقابلك أبدًا»، أقول. «فبعد كلّ شيء، لن يقدّم سول بحثه أبدًا، لذلك فلن يقابلك أبدًا، ومن ثم لن يأخذ الكتاب، ولن يضطر للهرب، ولن يطاردنا رجال مشروع ستارلايت و... لن أعرف سول حتّى، لأنّي قابلته في المؤتمر، ولن أعدّ رسالة الدكتوراه، و...».

«هذا في كون من سبب ونتيجة مع ذلك». تقول لورا. «لا أظنّنا نعيش في كون من سبب ونتيجة».

«ماذا في رأيك سيحدث إذن»؟

«أظنّ أنّ الكتاب سيذهب وسيظلّ كلّ شيء آخر كما هو».

أتذكّر أبوللو سيمنثوس. سيتحلّل الفئران في الهواء فحسب. لن يلاحظ أحد. فقط لا يمكنني استيعاب هذا، كيف يمكنك أن تعود وتغيّر في الماضي وتتوقّع ألّا يتغيّر المستقبل إلّا قليلًا؟

«تظنين، لست متأكّدة»؟

«الظنّ أحيانًا يقين»، تقول.

أتساءل ما هذا؟ هل رحلتي الأخيرة للتروبوسفير تجربة؟ أم شيء ما أقلّ أو أكثر؟ لكن يجب أن أذهب. أعرف كلّ أسباب وجوب هذا، ويسرني أن تخبرني لورا بكلّ هذا قبل أن أذهب. الأرجح أنّ أفكاري لن تتغيّر؟ آمل ألّا تتغيّر، ما زال هناك الكثير لأفكّر فيه.

تغرغر معدتي. حسمت أمري. سأقوم بهذا هذه الظهيرة.

أخبر لورا.

«نعم»، تقول. «ظنّي أنّه الوقت المناسب».

حين يعود بيرلوم نحتسي ثلاثتنا شايًا، ويسألاني إن كنت أرغب في تناول غداء قبل أن أذهب، كأنّني كنت ضيفة عليهما خلال عطلة نهاية الأسبوع وحان الآن وقت استقلالي قطار العودة للندن. يجب أن أتناول غداء ما، لكن ليس لديّ شهية لهذا على الإطلاق، لا أريد أن أقول وداعًا بالضبط، وواضح أنّهما أيضًا لا يريدان ذلك، سيكون مرعبًا قليلًا إن قلنا الوداع، ليس واضحًا حتّى هل نقول وداعًا أم لا، ربّما وجدت طريقة للعودة، وربّما سأظلّ أعرف من هما حين أعود.

الدائرة السوداء على البطاقة. لعلّني لست بحاجة لها حتّى لكنّي أخرجها من حقيبتي على كلّ حال.

هكذا أرقد على فراشي قبل أن تبدأ الشمس في الذوبان في السماء

كقرص دواء، أتساءل ما إذا كنت سأرى شيئًا من هذا العالم ثانيةً، أنا واثقة أنّي لم أعد بحاجة للسائل؛ لم يتبقّ لي إذن سوى أن أرفع الدائرة السوداء أمام عينيّ. وأنا أتغبش بعيدًا عن هنا. «وداعًا»، أفكّر. لم أرغب في قولها من قبل، لكنّي أشعر فجأة أنّه يجب قولها. يجب أن أنهى هذا على نحوٍ لائق. «وداعًا لورا، وداعًا بيرلوم. وداعًا...».

الوقت ليلًا في التروبوسفير، كالعادة. أقف في شارع مشوّش مألوف، بحوافّ كثيرة وخوارج ودواخل، لكن بوسعي أن أعقله، ثمّة حصى تحت قدمي وعلى جانبي تلوح في الأفق مبانٍ رمادية وراء صفّ من المتاجر والكازينوهات ومتاجر عطارة ومواخير ومحلّات جنسية ومكاتب رهنيات ومحلّات ألعاب أطفال، ثمة متجر كتب صغير من الطراز القديم في الركن، وأفكّر: «بيرلوم». لكني لا أرى شيئًا يرتبط بلورا. يشعّ النيون في كلّ مكان. مفتوح. مفتوح. بنات، بنات، بنات. بعض اللافتات مجرّد أسهم يبدو أنّها تشير حين أنظر لها لأسهم أخرى. أحدها يقول: أنت هنا. وآخر يشير إلى مدخل يبدو حين أقترب منه كمدخل جُحر فأر. هل بودّي أن أرى أبوللو سيمنثوس؟ ينبغي ذلك على ما أظنّ، يجب أن أعرف بدقّة كيف سأجد آبي لاثروب، أسير نحو جُحر الفأر.

ثم تعتمّ السماء.

ثمّة حركة. ماذا يحدث؟ يلمح بصري لونًا بنّيًا ثم أزرق. هذا اللون الأزرق: أين رأيته من قبل؟ لا وقت لأتذكّر، إذ بعد ذلك خرج الطفلان من جحر الفأر.

«آها»، يقول أحدهما، صاحب زي راعي البقر.

«بهذه السهولة اللعينة»، يقول الآخر، رداؤه الأزرق يتحرّك في هواء غير موجود.

يقهقه الاثنان.

أوه، يا إلهي.

«حسنًا، ها هو ذهنها. ها هي البوّابة، دعنا ندخل وننهي هذا»، يقول الأول.

«لا يبدو كذهنِ الآخرين»، يقول ذو الرداء. «مليء كلّه بالعشب».

«نعم، حسنًا، ماذا في ذلك، صحيح»؟

«انتظرا». أقول

«انتظرا»، يقول أحدهما وهو يقلّدني بسخرية.

«نعم، صحيح»، يقول الآخر، «انتظرا».

يقهقهان ثانيةً.

«نحن لا نلعب هنا بشيء»، يقول ذو الرداء.

خراء. خراء. ماذا أقول الآن؟

«سيكون هذا أكثر إثارة من أي شيء قمنا به من قبل»، يقول صاحب زي راعي البقر. «ووو.. هووو»! يصدر صوتًا خفيفًا من هوووو تلك كأنّ والديه أخبراه لتوّه أنّ بإمكانه الحصول على هذه اللعبة، أو أنّهم ذاهبون إلى حديقة الحيوان، أو أنّ بإمكانه السهر لوقت متأخّر ومشاهدة الفيلم مع الجميع.

«أنا أعلم ما جرى لكما»، أقول. «أنا آسفة حقًّا».

«لماذا؟ أنت لم تقتلينا»، يقول ذو الرداء الأزرق.

«لا، لكن...». بودّي أن أقول شيئًا ما عن أنّي أفهمهما، وعن أني ربّما أكون واحدة منهم، لكن لا شيء يأتيني.

«اخرس بينجي». يقول راعي البقر. ثم يوجّه كلامه لي: «لا تحاولي تحليل نفسياتنا أيّتها العاهرة».

تتّسع عينا الآخر دهشة ثم يضحك.

«حسنًا، ها نحن نتقدّم». يقول الآخر ويسحب من تحت ردائه لوح تزلّج. «هيّا مايكل».

يجب أن أفعل شيئًا. لكن ما الذي بوسعي فعله؟ حتّى أنّه لا يوجد هنا أسلحة، لا قضبان معدنية أو شيء من هذا القبيل.. مع ظنّي أنّ تلك الأشياء لن تؤثّر في هذين الاثنين.

أين أبوللو سيمنثوس؟

«أرجوك ساعدني»، أفكّر.

«لقد انهينا أمر حبيبك بالفعل»، يقول مايكل، راعي البقر.

يكتم الآخر ضحكة، لا أعرف لماذا يكتمها... فلست في موقف يجعلني أفعل أيّ شيء حيالها.

«لقد فقد عقله حقًّا»، يقول بينجي وهو يدوّر أصبعه على أحد صدغيه. «كوكو.. كوكو».

أوه، يا إلهي، ما معنى هذا؟ هل وصلا لآدم في الدير؟ أتخيّلهما يتسلّلان إلى هناك بطريقة ما بالرغم من أنّ كلّ شيء مغلق، ويعثران عليه ويتسلّلان لذهنه كجنيّين صغيرين مختلّين، ماذا سيفعلان حينئذ؟ ربّما حاولا إقناعه بأن يخرج بالكتاب، لكنّهما لم يعرفا أنّ الكتاب هناك، لماذا دخلا ذهنه إذن؟ لمجرّد الكيد؟ أم ظنّا أنّه يعرف أين ذهبت، ربّما عثرا على تلك المعلومة، ثم ولأيّ سبب كان، قاما بتحويل ذهنه إلى سباجيتي، كما هدّدا بأن يفعلا بي، كما سيفعلان بي الآن، لأني لا أستطيع أن أفعل شيئًا لمنع هذا.

أرى حينها قامة أخرى تتحرّك في الشارع نحونا. رجل يسير وحده. في البداية أظنّه أبوللو سيمنثوس، لكنّها قامة ليست بطوله، ثم أرى حين تقترب أنّ الرجل يركض.

إنّه آدم.

«هل أنتما واثقان من هذا»؟ أسأل الولدين.

وأكشّر لهما الآن عن ابتسامة، يحمل آدم قاذفتي صواريخ، كلّ واحدة على كتف، من أين بحقّ الأرض...؟ ثم أرى في يده شيئًا آخر أيضًا، كيس

ورقي أبيض بحوافّ ملفوفة كأكياس السكاكر القديمة، ماذا يحدث؟ هل أحلم بهذا؟ لا. هذا حقيقي. حقيقي كما أنّ أي شيء كذلك.

يلتفت الولدان ليريا إلى ماذا أنظر.

«أوه، إنّه القَسّ»، يقول بينجي.

«مُـ... مل»، يقول مايكل.

«أهلًا»، أقول لآدم وهو يناولني قاذفة صواريخ.

«آرييل»، يقول وهو يأخذ نفسًا عميقًا ويغمض عينيه. «أخيرًا».

«أين بحقّ الـ...»، أقصد من أين حصلت على هاتين»؟ أسأله.

«أوه، لقد قابلت الربّ»، يقول. «الأمر هنا رائع، أليس كذلك»؟

«مم...».

«حسنًا، ما عدا هذين الشيطانين الصغيرين».

«أوه، لا»، يصيح بينجي وهو يضرب بقدمه على الأرض. «أمسكنا بالرجل الخطأ».

«أوبس». يقول آدم.

«وولف»، أفكّر لدقيقة. رأياني مع وولف.

«لقد أخبرتهما أنّك مرتبطة بباتريك»، يقول آدم.

«كيف تعرف عن باتريك»؟ أسأله.

«أخشى أنّني أعرف كلّ شيء»، يقول آدم. «سأخبرك خلال دقيقة».

يرفع قاذفة الصواريخ ويصوّبها نحو مايكل.

«آدم»، أقول وأنا أصوّب قاذفتي نحو بينجي إنّما بارتعاش أكثر.

«ماذا»؟

«لا نستطيع. إنّهما طفلان».

«نعم»، يقول بينجي. «هذا ليس عدلًا».

ويأخذ في البكاء. ويتبعه مايكل أيضًا.

«قلت إنّك ستأتينا ببعض الحلوى»، يقول بينجي. «لكنّك بدلًا من هذا ستؤذينا، أنت مثل كلّ الكبار، أنا أكرهك».

ألاحظ أنّهما لا يقولان تقتلنا. وأتذكّر ما قاله أبوللو سيمنثوس أن لا شيء يمكن القضاء عليه في التروبوسفير، كيف إذن سنتخلّص من هذين الطفلين؟ ولماذا آدم هنا؟ لا أفهم شيئًا ممّا يحدث.

«أتريدان بعض الحلوى بدلًا من هذا»؟ يقول آدم وهو يخفض سلاحه.

ترتعش شَفَتَا مايكل. «نعم»، يقول. «نعم من فضلك».

«أنا أيضًا»، يقول بينجي، «أنا أيضًا».

مايكل الآن يفرك يديه معًا، ويبدو بينجي غير قادرًا على الوقوف هادئًا، يتقافز هنا وهناك كصغير يريد أن يذهب للحمام.

«حسنًا. حسنًا، لا تأكلاها كلّها مرّة واحدة»، يقول آدم.

يتقدّم آدم ويناول مايكل الكيس الأبيض. «تقاسماها»، يقول بينما يدسّ مايكل يده في الكيس فورًا.

«آو، ابتعد»، يقول مايكل لبينجي الذي يحاول حشر يده في الكيس في الوقت نفسه.

«أولاد». يقول آدم.

يتدبّر كلاهما أخذ حفنة حلوى من الكيس بألوان وردية وصفراء وخضراء، يحشراها في فميهما فينتفخ وجهاهما لحدّ أنّهما قد ينفجران.

«لماذا تعطيهما حلوى»؟ أسأل آدم.

«شاهدي»، يقول.

إذ يأكل الولدان الحلوى يبدو أنّهما يتلاشيان قليلًا. في الأول أظنّ أنّ ثمّة شيئًا ما في عيني، فأفركهما. لكن بالطبع عيناك لا تخطئ هنا، الولدان بالفعل يذوبان في المشهد.

«إنّهما يختفيان»، أقول.

«في طريقهما للربّ»، يقول آدم. «كانت الأسلحة ستفعل الشيء نفسه، إنّهما فقط، أمم...».

«مجازات»، أقول. «ككلّ شيء هنا».

«نعم».

الآن اختفى الولدان تمامًا تقريبًا، بعد دقيقة أخرى يكونان قد ذهبا ولا يتبقّى سوى كيس ورقي أبيض فارغ.

«ماذا سيفعل بهما الربّ»؟ أسأل.

«سيحررهما»، يقول آدم. «سيجعل موتهما لائقًا».

«هل يفعل الربّ هذا»؟ أسأل.

يومئ آدم برأسه، «لعلّه لم يخلق كلّ شيء لكنّه مدير جيّد».

أضحك. «يبدو هذا مثل ما قد تقرؤه على لافتات النيون تلك التي يضعونها خارج الكنائس».

«نعم، حسنًا»، يقول آدم وهو يضحك أيضًا.

ثم أدرك: نحن معًا، وحدنا، في التروبوسفير. آدم هنا فعلًا. أو على الأقلّ هذا ما يبدو عليه الأمر بالتأكيد.

«آدم»، أقول بهدوء.

يقترب مني. هذا كثير على عدم الإحساس بأيّ شيء في التروبوسفير. يتكثّف الشعور الحلو في نقطة غير مريحة تقريبًا، لكنّها فقط غير مريحة كما تكون ذروة اللذّة غير مريحة، ويبدو كلّ ما بي كأنّه يُبطئ. هذا ليس كما كنت سأشعر به في العالم المادّي: لا نبض يتسارع، ولا يدان تتعرّقان، بل جسدي كأنّه مشهد ضبابي يذوب في سمائه.

«آريل»، يقول.

نضع الأسلحة ونتعانق. أشعر كأنّ ملايين السنين تمرّ ونحن واقفان هكذا.

«لقد وجدت الكتاب»، يقول بهمس. «وقارورة السائل، وجئت لأعثر عليكِ».

«كيف وجدتني»؟ أسأل. «رجلًا مشروع ستارلايت لم يستطيعا. ظننت أنّني محوت آثاري جيّدًا. أنا...».

«شش»، يقول في شعري.

«حقًّا»، أقول. «يجب أن أعرف. هل ساعدك الربّ»؟

«لا. الربّ ليس راضيًا عمّا نفعله».

«إذن...»؟

«قال الإله الفأر. أبوللو سيمنثوس. إنّه سيخبرني أين أنت، لكن بدا أنّ هذين الوالدين يلتصقان بنا أيضًا، وأينما ذهبنا، يلحقا بنا. ظننت أنّ بوسعي فعل شيء حيالهما قبل أن تعودي وتفتحي البوابة، لكنّي كدت أكون متأخّرًا جدًّا.

«ماذا تعني، أيّ بوابة»؟

«بإمكانهما دخول ذهنك بأنفسهما حين تكونين هنا بالفعل، وما عدا ذلك عليهما أن يدخلا بإد ومارتن. أنت تعلمين هذا بالفعل، لكنّك في الغالب نسيتِ».

«كنت إذن داخل ذهني»، أقول. ليس سؤالًا. أنا أعرف الإجابة.

«نعم. لكنّك لفظتني حين ذهبتِ إلى الكنيسة أول مرّة. لكنّي دخلت ثانية حين خرجتِ. كنت فقط أنتظر في التروبوسفير إلى أن تخرجي».

«كيف وجدت الكتاب»؟ أسأل.

«حلمت به»، يقول. «حلمت بكلّ شيء».

«ماذا»؟ أقول. «ماذا تعني»؟

«هكذا»، يقول. «حلمت بك تضعينه في خزانة الكتب، والقارورة تسقط من على الكرسي وتتدحرج أسفل الفراش دون أن تلاحظي. ثم، حين كنت في ذهنك، رأيت كلّ شيء ثانيةً، كأنّه رؤية مكرّرة».

«أوه..»، أقول. لا أعرف ماذا أقول بعد هذا.

«إذن...».

لا أريد أن أتركه لكنّي سأتركه.

«هل رأيتِ أبوللو سيمنثوس»؟ يسألني.

«لا»، أقول

لا أعرف ماذا حدث له. كان يراقب هذين الولدين».

«ها هو جُحره هناك»، أقول ونحن نسير ناحية الجحر.

وبداخلي شيئان: جسدي كلّه كأنّه ابتسامة، إذ لم أعد هنا وحدي بعد الآن، بإمكاني أن أتحدّث مع أحد حقًّا، وليس هذا فحسب، بل من يمكنني التحدّث معه آدم، من ظننت أنّي لن أراه مرّة أخرى أبدًا، من أحبّه. لكن الابتسامة تلتف على نفسها في شكل علامة استفهام لسؤالٍ لا يمكنني طرحه أو حتّى التفكير فيه، منذ متى وهو هنا؟

ستة وعشرون

أبوللو سيمنثوس مقيّد إلى كرسي، ويبدو حانقًا جدًّا.

«أوه، شكرًا لكما»، يقول حين نحل قيوده.

ينهض ويتمطّى قليلًا ثم يجلس ثانيةً.

«أوه،» يقول. «هذان الجحشان».

«لقد ذهبا الآن»، أقول. «حسنًا، على ما أظنّ».

«وأنتما معًا مرّة أخرى»، يقول.

أتساءل هل أخبر أبوللو سيمنثوس آدم بمخاطر البقاء هنا لمدّة طويلة: هل عرض له نفسه في العالم المادّي على شاشة كما فعل معي. أين جسد آدم؟ هل ما زال في الدير؟ هل عثر عليه أحد وأنقذه. أتذكّر صور أبوللو سيمنثوس تلك التي كنت أحلم بها: أنت مَدينة لي، أنت مدينة لي، وأتساءل هل أبوللو سيمنثوس هو من ذهب إلى أحلام آدم، ولماذا أراده أن يأتي هنا هو الآخر.

فكرة رهيبة، لكنّي أتخيّل لوهلة أنّها عقوبة: لأنّي تأخّرت في العودة، لأنّي لم أنجز فروضي بعد.

«أين العنوان»؟ أسأله. «أريد أن أعرف كيف أصل لآبي لاثروب».

«ألا ترغبين في كوب قهوة أولًا»؟ يسأل.

«لا. فقط أريد أن أذهب لأودع آدم قبل أن يعود للعالم المادّي، ثم سأنطلق مباشرة لأقوم بهذا. ليس لديّ وقت».

يبدو أبوللو سيمنثوس كما لو كان يضيّق عينيه قليلًا.

لكنّ آدم الأسرع في التحدّث. «سآتي معك»، يقول لي.

«لا يمكنك»، أقول. «ألا تعرف... «؟

«أعرف ماذا»؟

أنظر إلى أبوللو سيمنثوس، يبدو محجمًا عن التقاط نظرتي، أنظر إلى آدم مرّة أخرى، عيناه الكبيرتان دافئتان وواضحتان كنهارٍ صيفيّ، عميقتان للغاية، أفكّر ثانيةً: لكنّهما هنا لا تبدوان كحفريّتين من الماضي، بل تبدوان كوعد بالمستقبل وفقط.

لكن كيف تبدو عيناه في العالم الماديّ حقًّا؟

«إنّه لا يمكنك البقاء هنا طويلًا»، أقول.

«ألم أذكر أن...»؟ يقول أبوللو سيمنثوس.

ينظر آدم إليّ. «لقد كنت في ذهنك آريل»، يقول. «وفي العودة من ذهنك مررت ببيرلوم ولورا. «أنا أعرف كلّ شيء».

«لكن...».

عيناه تترك عيني. «لم أنوِ التحدّث عن هذا الآن».

«تتحدّث عن ماذا»؟

«أظنّ أنّه قد فات أوان ذلك بالفعل. كانت ثمّة عاصفة قوية جدًّا بالأمس. أبوللو سيمنثوس يقول إنّه حين تجد طقسًا في التروبوسفير...»، لكنّي لا أصغي له جيّدًا، لماذا لم ينقذه أبوللو سيمنثوس؟ لماذا لم يخبره كيف يعود؟

الحزن هنا كالفانيلا الدافئة، لكنّه حزنًا لم يزل؛ الفانيلا الدافئة على وجهي ولا أستطيع التنفّس جيّدًا.

«هذا ليس ممكنًا! ألم يخبرك أبوللو سيمنثوس عن القطارات»؟

«أخبرته»، يقول أبوللو سيمنثوس، «حسنًا، نوعًا ما».

«أخبرني أنّ هناك طريقة للعودة من حيث بدأت، لكنّي لم أرغب في العودة هناك، أردت أن أعثر عليك».

«لكن آدم».

«ماذا»؟

«آدم، لا يمكن أن.. أنت لم..».

«أظنّ أنّني سأترككما لهذا الآن»، يقول أبوللو سيمنثوس. «ها هو عنوان آبي لاثروب»، يناولني بطاقة عمل بيضاء رفيعة، شبيهة بتلك التي تركها لي من قبل، التي وجدتها في الشارع بعد أن قمت بالتواثب لأول مرّة. آخذ البطاقة وأنظر فيها، وحين أنظر إلى أعلى، يكون قد ذهب. أنا وحدي مع آدم.

«لا أحبّ المكان هنا لهذه الدرجة»، يقول آدم، «دعينا نذهب للخارج».

لم يعد هناك من خارج، أفكّر. ليس بعد الآن.

لكنّي أتبعه إلى الشارع المشوّش على كلّ حال، نمرّ بمعرض سيّارات ودكّان خردوات صغير، أرغب في البكاء، لكنّي لا أبكي، لا أظنّ أنّ بإمكانك البكاء هنا. تأخذ قطرات مطر في السقوط بنعومة من مكان ما فوقي، وحين أنظر إلى أعلى تبدو سماء الليل مبلّلة ولامعة.

نصل إلى مرج على ضفّة نهر، ضوء القمر كأنّه يمسّ كلّ جزء في المياه السوداء ويعبث بأصابع رقيقة في العشب الأصفر النامي. ثمّة مقاعد خشبية مواجهة للماء يجلس آدم على واحد منها، وأجلس على آخر. الخشب ليس باردًا، مثله مثل كلّ شيء هنا ليس له درجة حرارة، ما زالت قطرات مطر دقيقة تسقط من السماء، لكنّها ليست مبلّلة.

«آريل»، يقول آدم وهو يمسك يدي.

«لماذا فعلت هذا»؟ أسأله.

«أردت أن أعرف...»، يقول.

«تعرف ماذا»؟

يرفع كتفيه. «أن أعرف فقط. لم يكن بإمكاني أن أعود».

«لكن... لماذا أردت أن تعثر عليّ»؟

«كان عليّ أن أعثر عليك فقط. وكنت أفتقدك».

أتنفّس لداخلي طويلًا. ثم أزفر تنهُّدة. «كنت أفتقدك أنا أيضًا، لكن...».

«ماذا»؟

«خراء. آدم. لماذا»؟

يرفع كتفيه مرّة أخرى. «أبوللو سيمنثوس أخبرني أنكِ في حاجة لي».

«كنت سأجدك حين أخرج. كنت سا...».

يشيح ببصره عنّي وينظر إلى النهر. تنعق بومة.

«اللعنة»، أقول. «لقد فات أوان ذلك بالفعل. لم يعد أيّ شيء يعني أيّ شيء الآن. كلّ شيء...».

«لا تقوليها»، يقول آدم. «فقط تعالى معي».

يأخذ يدي وننهض، نسير في الممشى، نمرّ بآلاف الأشجار يبدو أنّها تتسلّق لتصل إلى النعيم.

يلمع ضوء القمر في أوراقها، وتخفق بداخلها وخارجها خفافيش مثل عرائس ظِلٍّ على سواد السماء. سرعان ما نصل إلى فسحة: مساحة دائرية من عشب كثيف وناعم تحيطها أشجار. فور أن ندخلها يشدّني آدم له.

«آرييل»، يقول ويقبّلني.

لكن ما هذا الذي يحدث؟ هذه القبلة بملايين القبلات، هذه القبلة كل القبل، شفتانا كأنّهما تنضغطان معًا بفعل آلاف الأعاصير، وحين يلقى لساني لسانه أشعر به كأرقّ كهرباء: صدمة كهربائية بقوّة مليون (فولت) تسري ببطء، إلكترونًا بعد إلكترون، وكلّ إلكترون بحجم شمس.

وفي السماء، ثمّة برق.

يبدأ المطر طرق الأرض، لكنّي لا أشعر به.

يسحبني آدم إلى أسفل على العشب.

أغمض عيني فأرى أعاصير في كلّ مكان، لكنّي لا أشعر بنسمة حتّى، زالت كلّ ملابسي، صرت عارية جدًّا كأنّني بلا جلد حتّى، جسد آدم المشدود يهبط على جسدي، وحين يلجني، أشعر كأنّي أنقلب من الداخل للخارج، وأنّ العالم كلّه يلجني، وأنّ معنى هذا أنّي أحوى كلّ شيء.

بعد هذا نرقد على الأرض نرتعش. الآن أعرف كلّ شيء عن آدم، وهو يعرف كلّ شيء عنّي.

«أوه...»، يقول آدم.

«نعم...»، أقول.

«أوه... أهذا...»؟

«لا».

«أنتِ لا تعرفين ماذا كنت أقصد».

«بلى، أعرف. كنت تقصد أهذا هو الجنس عادةً».

يمسك يدي. «حسنًا، شيء ما كهذا».

«والإجابة لا».

«لكنّنا لم نفعلها من قبل قطّ»، يقول، ويمكنني أن أرى ابتسامته في ضوء القمر.

أتخيّل أعاصير حول ضريح القدّيس جود. لكن لعلّه على حقٍّ.

أضع رأسي على كتفه ويحيطني بذراعه. أشعر أنّي صغيرة جدًّا ودافئة جدًّا، كأنّي بندقة يحملها في كفّ يده، لكنّي أشعر في الوقت نفسه أنّي أنا التي أتعلّق به. إنّه هنا الآن فقط. وإن قمت بهذا ثم عدت... لا تفكّري آرييل، فقط عيشي هذه اللحظة، لكن لو لم يعد هناك تروبوسفير، لن أرى آدم مرّة أخرى أبدًا. لعلّني سأعود وأجد أنّني حتّى لا أعرف من يكون آدم. لعلّني لن أفتقده، لأنّي لن أعرف أبدًا أنّي عرفته.

لكن إن كان الكتاب هو الشيء الوحيد الذي سيختفي؟ إن جعلته كأنّه لم يُكتب قطّ؟

حينها لعلّني سأعرف آدم. لعلّه بالفعل انتقل لمكتبي. لعلّ نفق السكة الحديد انهار بالفعل، إنّما ليس بسبب بيرلوم، ولعلني أصبحت طالبة دكتوراه بطبيعة الحال، لعلّ بيرلوم بالفعل قدم بحثًا في مؤتمر جرينتش حول موضوع آخر. لعلّه تحدّث عن صامويل باتلر. كنت سأحضر جلسة كهذه. وكنّا سنتحدّث معًا أيضًا، ونسكر معًا، ولن ننام معًا أيضًا، وكان كلّ شيء سيكون على ما هو عليه بشكل ما أو بآخر.

إلى حدٍّ ما أرى كيف يمكن هذا.

لكنّ آدم سيظلّ ميتًا.

ربّما سأستيقظ من حلم مرعب برجال يطاردونني، وسيكون هناك طرق على الباب، وشرطي يخبرني أنّه توفّي أثناء نومه فحسب. لغز مأساوي. لكن لا تكوني غبية. لن يأتي شرطي ليخبرني بشيء. سيخبرون أقاربه، وقد لا أُدعى حتّى لجنازته، لأنّه ما من أحد يعرف أنّنا معًا، ربّما سأقرأ عن الأمر في نشرة الجامعة الشهرية، أو في إحدى تلك الرسائل الإلكترونية التي تأتي بعنوان «أخبار حزينة».

أنهض.

«لأين ستذهبين»؟ يسأل آدم بنعاس.

«يجب أن... حسنًا، أنا ذاهبة لـ1900»، أقول.

«سآتي معك».

«هل أنت واثق من هذا»؟

ينهض ويهزّ رأسه، «لقد عشنا معًا للتوّ أروع تجربة عشتها في حياتي»، يقول، «ولن أدعك أبدًا». يصمت قليلاً. «ليس قبل أن تضطري للعودة».

لا أعرف ماذا أقول. قبل أن أضطر للعودة. لم أتناول غداء. من يعلم كم

لديّ من وقت؟ بوسعي أن أستخدم القطارات فقط إن كنت حيّة. لكن هل يهمّ في شيء إن كنت حيّة أو ميتة؟ لا أعرف حقًّا.

«ما رأيك إذن؟ هل نتّجه إلى أمريكا، ثم نعود للوراء في الزمن»؟ يسأل آدم. «أم من الناحية الأخرى»؟

«ممّ»؟

نسير بيدين متشابكتين عائدين للمدينة، يسابقنا القمر عبر النهر ويفوز علينا.

يصعب وصف شعوري بوجود آدم معي الآن. أشعر كأنّنا بالفعل كبرنا في السنّ معًا. أنا أعرف، بالفعل، أنّنا سنموت معًا.

لكنّه ميّت بالفعل.

«التواثب»، يقول. «كيف نفعلها»؟

«أعتقد أنّ علينا أن نعود للوراء والأمام حول العالم لنقفز الزمن»، أقول. «يمكننا أن نتّجه لماساشوسيتس لاحقًا. في الحقيقة ربّما علينا أن نتّجه لأحدِ أحفاد آبي لاثروب، ثم نقفز إلى الوراء من هناك بحرصٍ، لست واثقة حقًّا ممّا سيحدث إن لم نستطع الوصول إليها، إذ قد نثب لما وراءها عشر سنوات أو شيء كهذا، لا يمكنك التقدّم للأمام في الزمن هنا... حسنًا، يمكنك ذلك، لكن يجب أن يكون ذلك في العالم الحقيقي. سنعلق في ماساشوسيتس لعشر سنوات».

يتنهّد آدم. «أظنّ أنّك تعرفين أكثر منّي كيف نفعل هذا».

«لست واثقة من هذا، أقصد، لقد تدبّرت أن أعثر على سول بيرلوم، لكن هذا فقط لأنّي عرفت عن ابنته ووجدتها في العالم الحقيقي، لا أعرف حلّ لهذه المشكلة حقًّا، إنّها أكثر من مئة سنة، مشكلة كبيرة».

نعبر بوّابة، ثم ينعطف النهر مبتعدًا يسارًا ونسير نحن يمينًا، نمرّ ببعض السقيفات القديمة لبناء القوارب في طريقنا للمدينة.

أقطب حاجبي. «بالتأكيد تعرف عن هذا بقدر ما أعرف» أقول.

«لماذا»؟

«لقد كنت في ذهني. لا بدّ أنّك تعرف كلّ شيء».

«لست واثقًا من أنّي أعرف كلّ شيء»، يقول. «ذهنك معقّد جدًّا. كلّ ما أعرفه عنك... حقيقي وغير حقيقي في الوقت نفسه. لا... ليس هذا وصفًا جيّدًا. كأنّه شبحي بطريقة ما. كأنّي ظننت أنّي هناك ـ ظننت أنّني أنتِ ـ لكنّه الآن مجرّد حُلم. أذكره كلّه، لكنّه لم يُعقل بعد. هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنني أن أصفه بها».

أفكّر في اللحظة التي ولجني فيها في الفسحة، وكيف عرفت حينها أنّ ما نفعله ليس شيئًا ماديًّا، كان كأنّني أنا الفراغ وهو كلّ شيء حقيقي، وكان الإحساس بدخوله فيّ كالإحساس بأكبر كيان يملأ أصغر فراغ. كان ذهنانا يمارسان الحُبّ، وفي اللحظة التي وصلت فيها، رأيت حياته بكاملها كأنّني هو، وكنت أموت.

شعرت بمهانة حزام أبي.

عرفت ما هو الجوع.

سرت بقدمين حافيتين على أرض بنّية متربة.

احتفظت بديدان كمشروع علمي، لكنّي كنت أعتبرها حيواناتي الأليفة حقًّا.

حطّم أبي مزرعة ديداني وهو سكران.

لم تقل أمّي شيئًا قطّ.

(كلاهما ميّتان ولا أفتقدهما، أفتقد ما كان يجب أن يكون).

تلك الأمسيّات الدافئة الممطرة حين كان أولاد عمّي يبيتون عندنا.

قصص الأشباح التي كانت ترعبني.

الجرس الصغير الذي كنت أدقّه أثناء القدّاس، حين كنت خادمًا في الكنيسة.

الكنيسة الباردة التي يتردّد فيها صدى الصوت، وكيف كانت تريحني لأنّ نطاق العنف في الإنجيل كان واسعًا لدرجة تجعل تصرّفات أبي تبدو صغيرة. كيف انقلبت حياتي فصار ما هو حقيقي ليس حقيقيًّا وما كان يُقال في الكنيسة هو الحقيقة وكلّ ما عداه كذب.

لم يقل أبي قطّ إنّه فخورٌ بي، مع أنّني التحقت بالكنيسة من أجله، لأنّها الشيء الوحيد الذي وجدته يعني شيئًا عنده، هو الذي لا يحب كرة القدم أو الكريكيت ويرى أنّ الرياضة «للشواذّ»، والفنّ «لمحبي الغلمان»، والمدرسة لا تعدّك للعالم الحقيقي، وعلى الرجال أن يعملوا ويصلّوا ولا شيء آخر. لم يؤثر الإفراط في تناول الخمر بأيّ شكل من الأشكال على فلسفته في الحياة أبدًا.

ليلة أنّ أخبرت أولاد عمّي عن الشبح المقدّس، أرعبهم.

وفي مناسبة أخرى حين أخبرتهم أنّهم جميعًا سيذهبون إلى الجحيم.

حين قرّرت أن أدرس اللاهوت لكلّ الأسباب الخطأ.

ذاك النهار الذي شاهدني أبي في الفراش مع مارتي، ابنة عمّي.

النظرة الخاوية في عينيه حين نظر إليّ بعد ذلك.

محاولة جعل نفسي مقدّسًا. فراغ. فراغ. فراغ.

حياة الكبار: أحاول أن أكون أبًا للجميع...

لكنّي أنظر إلى النساء. أحاول الاستمناء، لكنّي أكره نفسي.

أحاول جلد ذاتي. يزيدني استثارة فقط.

حين يغتصب قَسّ القرية أختي، أشعر كأنّي أنا الذي فعلت هذا.

أبي يترك الكنيسة.

أبي هو الربّ الآن.

سأزيل كلّ الرغبة مِن حياتي.

(....)

أعرفه، لكنّي لا أعرف كلّ شيء: لم أتصل بذهنه لفترة طويلة بما يكفي لأصل لما في الفجوات. ما زلت أفتقر لمعرفة أبديّة به، وأريدها الآن بقدر ما أريد أن أتنفّس.

عدنا للمدينة مرّة أخرى الآن، نتّجه حيث كان جُحر أبوللو سيمنثوس، لم يعد الجحر هناك، وما عدا هذا ما زال الشارع كما هو تمامًا. هنا حيث دخلت للتروبوسفير من منزل بيرلوم ولورا، كلّ ما عليّ لأعود للعالم المادّي أن أستمرّ في السير، قد أعود وأخبر بيرلوم ولورا أنّني فشلت ببساطة. ثم يمكن لآدم أن يقيم في التروبوسفير، وأن آتي وأزوره.

لكنّ هذا ليس ممكنًا، سيكون ذلك مثل أن أحظى به كمجرّد ذكرى.

«لماذا لا تكرهني»؟ أقول، مع أنّني أعرف الإجابة بالفعل.

«ماذا تقصدين»؟

يمسك يدي بقوّة شديدة لدرجة أنّها قد تنكسر في يده. لا يهمّني.

«حسنًا، أنت تعرف كلّ شيء الآن. كلّ الجنس. كلّ الـ... كلّ شيء».

«وأفهم كلّ شيء مع هذا»، يقول. «أنا أعرفك».

«نعم. أعرف ما تعنيه».

نتوقّف خارج مكتب رهنيات. لا أعرف لماذا. ثم أرى المقهى يتوهّج في مكان ما بداخله، إنّها مشكلة الأبعاد مرّة أخرى.

«هل نتناول قهوة قبل أن نذهب»؟ يسأل آدم.

«قهوة التروبوسفير»، أقول. «كيف لي رفضها»؟

نجلس لطاولة بالخارج، وبعد محاولات قليلة ندرك أنّ كلّ مّا علينا فعله أن نفكر قهوة لتظهر قهوة. حسنًا، في الحقيقة يستغرق الأمر جهدًا أكبر من هذا، عليك أن تفكّر قهوة وأنت واثق من أنّها ستظهر، حينها تظهر.

«لماذا جئت تبحث عنّي»؟ أسأل. «كان واضحًا أنّني أغضبتك جدًّا آخر مرّة رأيتك فيها، لم يكن لى قطّ أن أقول...».

«لا يهم».

«لعلّه لا يهم، لكن لماذا»؟

«هل سيبدو غباءً إن قلت لكِ إنّي وقعت في غرامك»؟

أنظر إلى أسفل للطاولة. «مم...».

«آسف. لستُ ماهرًا في الكلمات. حسنًا، أنا ماهر في الكلمات، لكنّ ليس هذا النوع من الكلمات. أوه، هذا يبدو غباءً بالفعل، لماذا وقعت في غرامك؟ بالتفكير مليًّا أرى أنّها ليست خطوة جيّدة... حسنًا، هذا بموضوعية. لكن...»، يتنهّد. «لم يكن بيدي حيلة». الآن يمرّر يده في شعره. «أوه، ليس بوسعي شرح الأمر».

«لا بأس»، أقول. «لا أفهم لماذا تشعر بهذا، لكن...».

«ماذا»؟

«كنت سأقول إنّي سعيدة لأنّك تشعر به. لكنّي لست واثقة. كنت ستظلّ على قيد الحياة، لولاي أنا... *ونهاية السيد واي*».

«نعم. لكن»، يغمض عينيه ويفتحهما ثانيةً. «لم أكن لأحظى بهذا»، يفتح يديه كأنّه يحمل فيهما العالم، لكن لا شيء فيهما، بل يقصد فقط أن عليّ أن أنظر حولي وأرى ماذا قد يكون حاملًا في يديه، إن كان ليديه أن تحمل أفكارًا، ومجازات، ومباني متعدّدة الأبعاد.

«لماذا ترى ما أراه»؟

«ممّ»؟

«أنت ترى ما أراه نفسه. التروبوسفير نفسه. كنت أظنّ أنّ هذا ما بداخل ذهني»؟

«إنّه كذلك».

«إذن...».

«لقد متّ داخل ذهنك».

«أوه». ينتابني ألم التروبوسفير ذاك، لوهلة

ويختفي، كنصلٍ بارد يمزّقني من الداخل، بطيء وقذر. لا يمكنني التفكير في هذا.

«كيف كان عليه تروبوسفيرك»؟

«مشابه جدًّا. مدينة. لكنّ الوقت فيها كان نهار وبها المزيد من الحدائق العامّة، ومشكلة جرافيتي ليست في مدينتك».

«كان الوقت نهارًا ذات مرّة هنا أيضًا»، أقول. «لا أعرف ماذا حدث».

«أوه، حسنًا. أنا أحبّ الليل، إنّه رومانسي».

«مثل هذا المرج والنهر»، أقول. «كان هذا رومانسيًّا. لكنّني لست واثقة أنّ مصدره ذهني. أمر غريب...».

يميل برأسه جانبًا للحظة، أظنّ أنّ كلينا يعلم ما حدث حين مارسنا الحبّ على ضفّة النهر، فذهنه داخل ذهني. «مم.. نعم، ذهنانا في آنٍ واحد. وكلّ أذهان العالم بالداخل هنا معنا... بوسعنا أن نفعل ونرى أيّ شيء».

«آدم...». أمدّ يدي ليده على الطاولة. «ليتنا...».

لكن يبدو هذا خطأ هنا... ليس هذا مكانًا مناسبًا لشيء.

«ماذا»؟

«أنت. لكن الرغبة تبدو خاطئة. ليتنا كنّا ما زلنا في هذا المرج...».

«ممم.. لماذا لا نعود»؟

«لا. أنا مدينة لأبوللو سيمنثوس. كنت سألقى حتفي لولا ساعدني».

«سنقوم بمهمته، ثم مهمة لورا، ثم...».

«نعم»، ثم. «حسنًا، أنهي قهوتي، «دعنا نذهب».

ينهي آدم قهوته.

«الفئران»، يقول فجأة.

«ماذا»؟

«لماذا لا نستخدم الفئران»؟

«في ماذا؟... أوه، فهمت. نعود لذهن آبي لاثروب عن طريق الفئران، ألن يستغرق هذا أزمنة؟ أقصد، أن نعود مئة سنة بالتواثب، سيحتاج ذلك أن نعبر قارات كلّ قفزات قليلة. تذكّر أنّ الزمن هو المسافة في التروبوسفير. كلّما قطعنا مسافة أكبر في العالم المادّي، كلما انقضى زمنًا أطول هنا في التروبوسفير».

ما إن أقول الجملة حتّى أشعر بشيء مثل الرؤية المكررة. هذا التعبير: الزمن هو المسافة في التروبوسفير. أظلّ أسمعه، وأظلّ أقوله، لكنّي لا أعرف ماذا يعني. التروبوسفير من أفكار. المسافة في التروبوسفير ليست سوى ترتيب للأفكار. ماذا أعلم بالفعل؟

المسافة = الزمن.

المادّة = الفكر.

إذن، ماذا لو أضفنا معادلة أخرى:

الفكر = الزمن؟

ثم، على ما أظنّ، الفكر حقًّا هو كلّ شيء. والأمر معقول: الزمن لا يقاس بشيء آخر سوى الفكر. الشيء الوحيد الذي يفصل اليوم عن الأمس هو الفكر.

«فيم تفكرين»؟ يسأل آدم.

أضحك. بإمكانه أن يرى فيم أفكر: إنّه كلّه من حوله.

«ماذا»؟

«سأخبركَ في الطريق»، أقول.

«انتظري، نحن حتّى لا نعرف بعد إلى أين نذهب».

«أوه، نعم. معك حقّ. حسنًا... هل تفهم مسألة المسافة»؟

«نعم، على ما أظنّ. إن كنت في ذهن أحد وبإمكاني أن أرى جميع أسلافه يكون بإمكاني الوثوب لأيّ منهم، إن كان أحدهم يعيش في نورفولك، وأنا في كِنت، سأعود للوراء حوالي أسبوعين وأنا أثب. لكن لو كان يعيش في أفريقيا، وأنا في كِنت، قد أعود للوراء عدّة سنوات تقريبًا».

«سليم»، أقول. «بإمكاننا إذن أن نجد أسرة تسافر جيّدًا لنعود للوراء».

«انظري». يقول آدم.

أنظر. أرى السماء السوداء معلّقة هناك كشيء ما ضغطت عليه لتوّي، والقمر كزر رقمي كبير، مع ذلك لم يزل نوره حقيقيًّا يلفح المباني والشارع. أرى أسفل السماء تمامًا الأبراج الرمادية الشاهقة التي يبدو أنّها في كلّ مكان في التروبوسفير، فقط تبزغ من الأرض وتشير لأعلى.

«إلام أنظر»؟ أسأل.

«الأبراج»، يقول. «حيث تعيش الحيوانات».

«لماذا تعيش الحيوانات في أبراج»؟

«لا أعرف... هذا مجازك أنت».

«أوه. أظنّ أنّي لن أفكّر فيها كمتاجر. البشر متاجر لأنّهم جزء من النظام الاقتصادي على نحو أكثر مباشرة...». أهزّ رأسي. «أوه، لا أعرف».

«حسنًا، هيا نبحث عن بعض الفئران».

«لكن الوقت...»؟

«سنرى كم فأرًا علينا أن نثب إليه قبل أن نصل لفأر معمل، ثم لا بدّ أنّها ستكون وثبات نذيرة للغاية على طول الطريق للعودة لآبي لاثروب، بالتأكيد»؟

«لا أظنّ أنّ جميع فئران المعامل مستولدين من مساهمتها»، أقول. «لا أتذكّر ما قاله أبوللو سيمنثوس، اللعنة».

لوحة؟ تظهر.

«هل يمكنك أن ترى هذه أيضًا»؟ أسأل آدم.

«نعم». يقول.

«مم. أتساءل إن كان ممكنًا إرسال رسائل عبر هذا الشيء»؟

لكن ليس لنا ذلك، ثمّة صوت مكسور لمحرّك صغير يناضل ليظلّ دائرًا، ثم تظهر دراجة بخارية حمراء عند الركن.

«خطّة جيّدة»، يقول أبوللو سيمنثوس، وهو يترجّل عن دراجته. «فئران، يروقني هذا».

«من أين نبدأ إذن»؟

«سآخذكما لسليل. لكنّ هذا كلّ ما أستطيعه».

أريد أن أقول شكرًا، لكنّني أقوم بهذا له هو على كلّ حالٍ.

لكني مدينة له حقًّا.

«شكرًا»، أقول.

نسير ثلاثتنا ناحية مبنى إداري. ثمّة تليفون داخلي، لكن أبوللو سيمنثوس يتدبّر أن يدخلنا باتصال سريع يقول فيه شيئًا لا أفهمه بلغته غير المألوفة تلك. بينما نصعد عدّة طوابق بسلالم أسمنتية، أحاول أن أضع خطّة لكن لا وقت لهذا. مع ذلك بالتأكيد ما قاله آدم صحيح، إذا كان ما قاله أبوللو سيمنثوس من قبل أن كلّ هذه الفئران مستولدة حقًّا، سنعود لآبي لاثروب مباشرة. ينبغي هذا... يتوقّف أبوللو سيمنثوس أمام باب. ويفتحه آدم.

لديك الآن خيارٌ واحدٌ...

أنت... أنا... نركض بسرعة على ألواح أرضية عارية، ومخالبنا تطقطق طق طق طق ونحن نتحرّك. كصوت إبر لورا، إنّما في فضاء أكبر وأكثر فراغًا.

«آدم»؟ أقول.

«نعم».

«لا أظنّ أنّنا داخل ذهن فأر معمل».

«أعلم».

أدرك أنّ الفأر ينتبه لصوتَينا ـ أو في الحقيقة صوتي أنا فقط ـ وأدرك على الفور أنّه لا ينبغي أن نتحدث معًا بهذه الطريقة، الفأر... أسمع أصواتًا في ذهني، وأحاول الهرب منها، أسرع ركضي على الخشب، لم آكل منذ ساعات، وأتذكّر أنّي إذا ركضت هنا، وسرت وراء أنفي في الفجوة الكبيرة في الجدار، سأجد غالبًا شيئًا ما.

لوحة!

تظهر. أرى صورًا كثيرة. أغلبها يتحرّك، لكن واحدة ثابتة.

«سأتركك تقرّرين كلّ شيء»، يقول آدم. «لن أنظر حتّى».

«حسنًا. لكنّ ششش. لا أريد أن أزعج الفأر».

«آسف».

أصوات، أصوات. أسمع أحدًا ما، لكنّي لا أراها. أتذكّر آخر مرّة سمعت فيها صوتًا كهذا وكان هناك ألم. ثم يد على ظهري، لكنّها يدٌ في قفّاز لم يكن ناعمًا ولا مريحًا، ثم حركة كريهة في الظلام، ثمّ الحرّية: شيء ما لم أعرفه من قبل قطّ.

هذا الصوت الجديد يشبه ذاك الصوت قليلًا. لكن الأصوات كلّها خطر.

أثبت ذهني على الصورة الثابتة في اللوحة. شيء ما يحدسني أنّها قد تكون لفأر معمل. الفأر الذي نحن في ذهنه الآن طليق. أعي ذلك من ذكرياته. لكن...

نتحوّل. و...

لديك الآن خيارٌ واحدٌ.

أنت... أسمع ضجّة مكتومة من بعيد.

«لا»! إنّه آدم، يصرخ. «آرييل، لا...».

لكنّي لا أسمعه لأنّي أصرخ أنا الأخرى، حتّي آنّني لا أسمع صراخي جيّدًا، لأنّ الألم لا يدعني أعي أي شيء جيّدًا، أريد أن أموت... لا أعرف ما هو الموت، لكنّ شيئًا ما في رأسي يعرفه، ويفهم أنّي من حقّي أن أتحرّك، ومن حقّي ألّا تكون هناك نغزات معدنية في عيني، وأنّه لولاها لكان الألم أقل في رأسي، وأنّه لولاها لكان بمقدوري أن أرى، ما الرؤية؟ العالم لوح أسود، ولا أعرف شيئًا آخر غير هذا، أبذل المزيد من الجهد كلّ يوم لسحب الهواء لرئتيّ، وهذا ما أقضي حياتي فيه، في محاولة التنفّس فقط...

«أقفزي ثانيةً»، يقول آدم. «أوه، يا إلهي...».

الألم كشيء لم أعرفه من قبل قطّ.

اللوحة ما زالت هناك، على نحوٍ ضعيف.

لا أظنّ أنّ لدي أقدامًا. لا أظنّ أنّي سرت من قبل أبدًا.

كلّ شيء أسود. أختار صورة من اللوحة: أي صورة.

لديك الآن خيارٌ واحدٌ.

أنت... أنا... نقف على مدخل متاهة. عالم جديد! مثير للغاية. ربّما سيكون المخرج أخيرًا. لقد سرت في هذا الممرّ من قبل. وهذا أيضًا. أشمّ رائحة الطعام في نهايته، إنّه الأمر نفسه ثانيةً، لكنّه يبقيني حيًّا، ويبقيني أفعل هذا، أنا في منتصف ممرّ غير مألوف، حين ترفعني يد في قفّاز، وللمادّة التي تمسّ فرائي نفس رائحة جدران عالمي، طالما أراحتني تلك الروائح طيلة حياتي، الآن وُضعت مرّة أخرى: قدماي تمسّان الزجاج، أين مكافأتي؟ هذا خزان خطأ. أين النشارة؟ هذا ليس له رائحة خزاني، أرى الرموز نفسها على الأرض (التي بإمكاني الآن قراءتها، تقول هابي مات تي أم HappiMatTM [1])، لكنّ ثمّة خطأ فظيعًا، ينغزني الخوف كالإبر التي ينغزها فيّ يوميًّا هؤلاء المسئولون عن رعايتي. إخوتي وأخواتي يرقدون

---

(1) علامة تجارية لحشيش نبات القنب المصنّع لأعشاش القوارض.

من حولي، رائحتهم مختلفة، أسير بينهم وأنظر لهم، أتشمّم واحدًا منهم بأنفي: بارد، كلّهم يرقدون هنا فقط كقطع القماش المبللة التي يتركها الراعون في الخزانات أحيانًا بعد أن يفرغوا من تجفيف بعض الرائحة. أسير بينهم أتشممهم... ليسوا بخير. إنّهم.... آوا أبتعد. تمسك بي يد أخرى في قفّاز، لكن هذه ليست رقيقة...

«آريل»!

«آسفة».

نقفز.

لديك الآن خيارٌ واحدٌ

أنت.... أنا.... نُحقن مرّة أخرى، لا أعرف أيّهما أسوأ: الإحساس بدخول الإبرة الباردة الحادّة أم بخروجها، ما إن تدخل حتّى أريدها أن تخرج، لكن ما إن تخرج حتّى أشعر بدوار، ولا أستطيع أن أصنع جحرى جيّدًا و... لا يعنيني جحري حقًّا، أشعر بشيء ما دافئ ومبلّل يزحف لقدمي، أرغب فقط في أن أنام، لجحرى الآن رائحة حمضية، لكنّي أرغب في النوم، لا يهمّني حتّى أن ألعق جسدي لأنظفه.

لديك الآن خيارٌ واحدٌ

أنت... أنا... لا يمكنني التنفّس بسبب كلّ هذا الدخان، لا أستطيع أن أحرّك رأسي.

لديك الآن خيارٌ واحدٌ

أنت... أنا... نحن نطير في الهواء، ثم نهبط بارتطامة سخيفة، ثم نطير مرّة أخرى، صديقي يطير أيضًا، وفأر آخر لم أره من قبل، وحولنا بشر يضحكون؛ مع أنّني لا أفهم اللغة، شيء ما في رأسي بإمكانه سماع راعينا يقول «توقّف عن اللعب بالفئران يا ويسلي»، أشعر بدوّار شديد، وأريد أن أعود لخزاني.

لديك الآن خيارٌ واحدٌ

أنت... أنا... لا أفهم لماذا يستمرّ هذا، أظلّ أعد جحري بالطريقة التي أحبّها (كما علمتني أمي)، ثم أجد الجحر قد ذهب، تزيله اليد، ثم تعطيني مزيدًا من مادّة صنع الجحر، وأبدأ البناء ثانيةً. وبالرغم من كلّ الجحور التي صنعتها أنام كلّ ليلة في زجاج عار.

لديك الآن خيارٌ واحدٌ

أنت... أنا... لا أستطيع النوم بكلّ هذا الأنوار المضاءة طوال الوقت.

لديك الآن خيارٌ واحدٌ

أنت... أنا... نحن.

لديك الآن خيارٌ واحدٌ

أنت... أنا...

لديك الآن خيارٌ واحدٌ

أنت...

لديك الآن خيارٌ...

لديك الآن...

لديك...

أنت...

أنت...

أنت...

أنت...

أنت...

•

نثب الآن بسرعة شديدة كأنّنا في رحلة بحرية على سطح نهر يفيض، تمامًا كما وصف السيد واي في الكتاب، الأمر يحتاج لتركيز كبير، برغم

صعوبة التركيز وأنت تعتلي موجة من الألم، والخوف، والمهانة... ورغبة بسيطة ثابتة في جحر دافئ وهادئ. تلك موجة من الموت: موجة من أجساد ميتة سوداء وبيضاء وأيدي بقفّازات وعظام أصابع ناتئة وألم الإبر والأورام والعمى ومحاولة لعق دمك الذي يظلّ ينزف منك، وإلقائك بقدميك وظهرك المكسورين وسط كومة من أجساد أخرى مكسورة، وأنت ما زلت تعتقد أنّه في النهاية سيقدّم لك الراعون بعض الطعام وأنّهم سيعيدونك مرّة أخرى لخزّانك كما يفعلون دائمًا بعد حدوث سوء ما.

بينما أبحر، يحاول آدم لمح تفاصيل.

أغلب المعامل فيها تقويمات زمنية على الجدران.

وألاحظ أنّه بينما نعود للوراء، تصير الإضاءة لأعتم، والخزّانات لأصغر، لم يعد هناك علامة هابي مات التجارية، نسمع صفّارات وانفجارات، ونسافر عبر معامل مفعمة بروائح المعدن والبارود، وكلّ وثبة ضئيلة نوع جديد من الألم، حين نصل لـ1908، كنت قد نزفت آلاف اللترات من الدماء، وتقيّأت على نفسي وتبوّلت عليها وسقطت في النوم وسط خرائي، وفي كلّ مرّة ـ في كلّ لحظة ـ لم أرغب إلّا في الزحف لجُحري، لأنّ شيئًا ما في فطرتي يخبرني أنّ الدفء والراحة هناك، مع ذلك كنت طوال الوقت أعرف أنّ ثمّة خطأ ما في وجودي، إمّا أنّني ليس لي جحر، أو أنّ أحدهم أخذه، أو أنّني أعرف ببساطة أنّه لا يصحّ أن تكون هناك جدران زجاجية من حوله.

نبطئ حين تبدأ التقويمات تعلن 1907، 1906، 1905...

ثم ها هي آبي لاثروب، ترفع صديقنا من صندوق مليء بنشارة الخشب.

في اللوحة، يتغبّش الفأر الأسود الذي تمسك به.

ونقفز. نحن هنا.

سبعة وعشرون

لديك الآن خيارٌ واحدٌ

أنت.. أنا.. آخذ أحد أفضل الفئران لديّ ـ واحد من السود ـ سأضعه في صندوق به نشارة خشب، وآخذه لمقابلة أحد العلماء، أبتسم لهذا، سيقومون بفحصه... أو تقييمه، أمّا أنا فسأقوم بالمقابلة، مقابلة عمل بشأن فأر، أيًا كان...فالأمر رائع، يمكنني تقريبًا أن أرى الفأر في بذلة سهرة صغيرة، وأنا في... أوه! ماذا أرتدي؟ رحمتك يا إلهي... سأرتدي أفخر تنوّرة رسمية لديّ وشالي الأسود، ربّما، مع أنّني لا أريد أن أبدو كأرملة في فترة الحداد. الشال الأخضر إذن.

الفأر كآلةٍ صغيرة يجري من يدي اليمنى ليدي اليسرى ثم لليمنى ثانيةً، وأنا أضع يدي واحدة فوق الأخرى كالمكابس، هل تدعي حتّى تلك الحركة مكبسية؟ أوه يا إلهي لم أكن قطّ ماهرة في الكلمات، بطريقة ما تجعلني الحركة أفكّر في ماكينة خياطة تحديدًا، لكن ليس بإمكاني أن أحدّد هل الفأر هو الإبرة أم الخيط، مع ذلك الماكينة لا تخيط خطًّا، بل غرزة واحدة فوق نفسها مرارًا وتكرارًا. تخطر لي صور غير مألوفة تأتي وتختفي بسرعة، شيء ما مثل شجرة عائلة ثم فضاء أبيض به صناديق زجاجية. أتنهّد. أحبّ لمس الفئران هكذا: حركتها السريعة تلك تبعث فيّ السرور. لكنّها أصبحت الآن، ككلّ شيء في الحياة، مرهق وممل. الرائحة هنا تثقل عليّ: كمكمة ثقيلة من روائح نشارة خشب وفضلات حيوانات وخشب رخيص. أوه! وها هو ذلك التشنّج مرّة أخرى، في مكان ما خلف عظام صدري.

إنّها لا شيء. هكذا قال الطبيب...

كانت أمي لتقول... كانت لتقول إنّه الهواء هنا.

بينما ينتفض الفأر على دوران يداي، أفكّر بدلًا من ذلك في صياغة الخطاب الذي تلقيته من العالِم، أمر مثير أن أتلقّى ردًّا! لكنّها إثارة تبهت كما يحدث لكلّ شيء آخر في الحياة: لحظة وراء لحظة، أمل وراء أمل. كنت مدرسة طموحة، الآن أستولد فئران فاخرة، وما زلت أطمح لشيء آخر.

قلعة، أمير.

ثوب من الحرير الأبيض. شرائط.

لكنّي لم أعد ابنة الخامسة عشرة بعد.

ثم... الشال الأزرق ربّما. نعم. الشال الأزرق.

يمسك الفأر يدي بأحد مخالبه وأجفل. حيوان غبي. نعم، في الصندوق مرّة أخرى أيّها الشيء القذر. تعوّدت أن أتحدّث مع الحيوانات: الدجاجات التي كنت أربيها منذ زمن طويل، وتلك الفئران التي ترقص الفالس، لكنّني في النهاية علمت أنّ الفئران الراقصة صماء (لهذا كانت ترقص)، وفي جميع الاحوال، لو كانت الحيوانات ترغب في مخاطبتك، لكانت أجابتك، أليس كذلك؟ إن كان الربّ يريدنا أن نتخاطب مع مخلوقاته، لكان بالتأكيد منحها القدرة على الردّ علينا.

صديقي الطبيب دونكان ماكدوجال[1] يُجري تجربة مَهمّة، أخبرني أنّه أراد الحصول على تصريح من مستشفى الولاية العام ليزن المرضى قبل وفاتهم وبعدها، ليسجّل كتلة أرواحهم. سيقوم بعمل فرّاش خاصّ على

(1) دونكان ماكدوجال (1920 1866-): طبيب أمريكي عاش في هافيرهيل بماساشيستوس، أراد أن يقيس الكتلة التي يفقدها الجسم البشري حين تغادره الروح وقت الوفاة. وقام بتجربته على ستّة من مرضى السلّ كانوا على وشك الوفاة، وعلى الفئران والكلاب، وانتهى أنّ كتلة الروح البشرية تزن حوالي 21 جرامًا، وأن ليس للكلاب روح.

مجموعة من الموازين، وسيزن حرفيًّا حياة المرضى... ثم سيقوم بالمثل مع الكلاب (سيقتلها بالطبع... لكنّي أظنّه مع المرضى البشر سينتظر فقط حتّى تحدث الوفاة بشكل طبيعي)، عرضت عليه فئراني لكنّه لم يجبني بعد ما إذا كان بودّه إرسال طلبية أم لا.

يا لَهؤلاء العلماء... تلك الكتابة الفخمة...

الأخضر أم الأزرق؟ آبي قرّري.

هل للأرواح البشرية كلّها الوزن نفسه، أم أنّ بعضها أثقل وزنًا من الأخرى؟ سألت دكتور ماكدوجال عن هذا وأخبرني أنّه يرى أنّ كلّها متشابهة، لكنّ تجربته ستحسم الأمر.

أتخيّل الرقود على فراش مستشفى كهذا، على موازين، في انتظار الموت.

ثم أسمع صوتًا في رأسي: آنسة آبي لاثروب.

ثم صمت. ثم الصوت ثانيةً. ششش. لا يمكنها سماعك، تذكّر.

أوه... أشعر بشيء غريب. أغلق الصندوق. سأجلس لبرهة فقط.

لا! لن أدع تلك الأصوات تتحكّم فيّ ثانيةً. كانت أمي لتأخذني إلى الكنيسة فورًا، لكنّي لن أترك نفسي تمرّ بهذا ثانيةً، ربّما إن شغلت نفسي في شيء. نعم: علاج أمي لكلّ شيء: اشغلي نفسك. أو أفضل من ذلك حتّى: اشغلي نفسك في الهواء الطلق. نعم. سأضيف المزيد من نشارة الخشب لصندوق الفأر، لأجعله يبدو كشوكولاتة صغيرة عزيزة وأنقذ نفسي من الوقوع فريسة للأوهام.

أنظر لأعلى لرقم 57. سيكون التالي، إن أفلح هذا.

لكن...اهدئي أرجوكِ. أوه!

إحساس غريب، أن أكون نفسي وآبي لاثروب في الوقت نفسه. وأنا آبي

لاثروب، بإمكاني أن أسمع صوتي فقط. وأنا نفسي، بإمكاني سماع صوت آدم أيضًا.

«آريبل» يقول ثانيةً.

ذاتي وذات آبي لاثروب ملتحمتان معًا بشدّة الآن كما تلتحم الشخبطة، لكنّي أخبرها كيف أنّها قطعة خراء لا قيمة لها، وهي الآن تركض في أنحاء الحظيرة ويداها على أذنيها وتقول أشياء مثل «أبالسة! اخرجوا، ابتعدوا»!

«لست رقيقة جدًّا هنا»، يقول آدم.

«أعرف»، أقول له. «الأمر يشبه الهجوم على نفسي».

«دعي الفئران»، أقول الآن في رأسها. «كلّها».

وهي تفكّر في سبل رزقها، والشتاء البارد، والكتابة الفخمة خطابات العلماء، وكيف أنّه لن يكون لديها حجّة لترى دكتور ماكدوجال، و...

«دعي الفئران»، أقول لها، «ولن تسمعي أصواتًا ثانيةً أبدًا».

ثم تنهض وتفتح بيدٍ مرتعشة أقفال جميع الأقفاص الخشبية.

كان من الممكن أن يتمّ هذا برقّة أكثر، لكنّه أفلح.

مازالت اللوحة أمامي. أنظر لزرّ الخروج، ثم ها نحن في التروبوسفير من الخارج. أنا وآدم يسقط واحدنا في ذراع الآخر على الفور، نعلم أنّه ليس علينا أن نقول أيّ شيء عمّا خبرناه توًّا، أشعر كأنّ عبئًا ثقيلًا قد انزاح عن كاهلي لأني لم أعد مدينةً لأبوللو سيمنثوس بشيء بعد الآن. لكن عدت أعرفه عن المعاناة الآن يجعل العبء الـمُزاح مجرّد قذى من غبار نفضته عن نفسي، وما زلت مثقلة، بالطبع ليس بديني لأبوللو سيمنثوس، بل بشيء ما حلّ محلّه، لكنّي لست واثقة ممّا هو.

يبدو التروبوسفير مثلما يبدو عادةً، لكن يبدو لي حين أنظر في الخريطة على اللوحة أنّنا على بعد آلاف وآلاف الأميال من حيث انطلقنا، ثمّة شيء مختلف في الخريطة الآن، وأدرك ما هو: ثمّة نقاط صفراء صغيرة منثورة

هنا وهناك، وأدرك أنّها محطّات مترو الأنفاق. تلك هي سبل خروجي من هنا، إن كان هذا ما أريده.

ليس علينا سوى أن نعود لبداية العقد الأخير من القرن التاسع عشر لنعثر على لوماس، ونحن بالفعل في 1900. نسافر من ماساشيستوس إلى نيويورك في ذهن مندوب مبيعات، ثم نجد صحفيًّا ما زال جدّه يعيش في إنجلترا، ما إن ندخل ذهنه لا نقوم إلّا بوثبات قليلة أخرى لنصير في لندن عام 1894، بعد سنة من صدور رواية *نهاية السيد واي*. نقوم بالوثبات التالية بثبات شديد. في الأولى نقضي على أغلب الوقت، ثم نقوم بما تبقى من مسافة. نتقدّم في طريقنا عبر لندن لنقف أمام دار النشر التي صدرت عنها الرواية ونحن في ذهن السيد هنري بيلنجتون، البالغ من العمر اثنتان وعشرون سنة، يحمل مخطوطة سميكة تحت ذراعه.

اتفقنا على ألّا نتحدّث ونحن داخل ذهن أحد، وهكذا يتركني آدم أكوّن انطباعاتي الخاصّة عن كلّ ما حولي، أول ما ألحظه في لندن الفيكتورية كيف أنّها هادئة بشكل رائع، لا يتّفق معي السيد بيلنجتون، بل يجدها خانقة وقاهرة، بكلّ الشحاذين واللصوص ودخانها الأسود الكثيف، لكنّه لم ير عالم الطيران، ومحرّكات السيارات، والتليفونات الجوالة وأزيز الكهرباء الكثيف الذي لا ينقطع في الخلفية.

بيلنجتون في دار النشر.

ثم قفزتان أخيرتان إلى ذهن محرّر لوماس.

لا أحتاج سوى عنوانه فقط. هل أعرفه من الذاكرة؟ نعم. أعرفه.

ثم نخرج من البناية في ذهن حمامة كانت تحطّ على إفريز النافذة، لذهن محاسب شابّ يستقلّ سيّارة أجرة، ثم نخرج مرّة أخرى ما إن نكُن في ميدان ستراند. ثم أثب ببساطة من شخص لآخر إلى أن أقف أمام الباب الخارجي لمنزل لوماس، لكن مَن نحن في أذهانهم لا يتوقّفون، وبعد أن أثب عدّة مرّات فقط لأقف ثابتة، أضغط على زرّ الخروج من اللوحة وينتهي بي الأمر في التروبوسفير مرّة أخرى مع آدم.

«كان ذلك براعة منكِ». يقول.

أنظر حولي. فعل ذهني شيئًا ما غريبًا ـ ومبتذلًا قليلًا ـ لهذا الجزء من التروبوسفير، مع أنّها ما زالت تبدو كمدينتي المستقبلية، إلّا أنّ هذا الحي يبدو كأنّه موقع تصوير أحد أفلام هوليوود التي تصوّر لندن في أواخر القرن التاسع عشر بإيجاز سريع. يبدو كلّ شيء كأنّه قد تضخّم، عربات أجرة مهجورة ترقد في كلّ مكان، تمامًا مثلما في تروبوسفير بيرلوم، لكن هذه تبدو كأنّها رُسمت على عجل، كأنّني أريدها هنا لكنني لا أعرف كيف تبدو حقًّا. ثمّة ضباب ديكنزي في كلّ مكان، مع أنّني لم أقرأ ديكنز على نحو لائق قطّ، لذلك يبدو معلّقًا هناك فوق كلّ شيء فقط بلا همّة، في حالة غير مؤكّدة، منزلة ما بين الضباب الحقيقي وغبار فحم ودخان من مداخن لندن كافّة. ثمّة أيضًا نكلة ملقاة على قضبان حديدية.

أرض الشوارع مفروشة بالحصى والبيوت كلّها مشيدة من طوب أحمر. توجد وفرة من المتاجر هنا، جميعها بواجهات مزخرفة. تبدو المتاجر على أحد جانبي الشارع أكثر ألفة من تلك التي على الجانب الآخر، ثمّة شيء يُدعى بنك الموسيقى، ومطعم نباتي، من بين أشياء عديدة أخرى أتعرف على تلك المباني: إنّها من قصص وروايات قرأتها، ومع ذلك لم يكن بنك الموسيقى في لندن: بل في إريهون، والمطعم النباتي من «الاتحاد ذو الرأس الأحمر» لكونان دويل[1]. على الجانب الآخر من الشارع متاجر بلافتات مزخرفة بالقدر نفسه، لكنّها أماكن لا أعرفها، يوجد حدّاد، متجر مجوهرات، بنك، بائع دخّان، ومتجر للكتب. أبعد من هذا، في الجانب الثقافي من الشارع توجد حانة تتوهّج في اللوحة بالطريقة نفسها التي يتوهّج بها جُحر أبوللو سيمنثوس وكلّ المقاهي الأخرى. لم أرَ حانة تروبوسفيرية من قبل.

(1) سير آرثر كونان دويل (1859-1930): طبيب وكاتب أسكتلندي، صاحب شخصية المحقّق شارلوك هولمز.

أشير إليها لآدم.

«هل نأخذ استراحة قبل لوماس»؟ أقول.

يرفع كتفه «لا بأس».

لكنّني أماطل لسببٍ وأظنّ أنّه يعلمه. فما إن أقنع لوماس ألّا يكتب *نهاية السيد واي*، حتى يتغيّر كلّ شيء. ولست واثقة حتّى أنّ بودّي تغيير رأي لوماس.

الحانة لا تختلف كثيرًا عن البارات التي اعتدت الشرب فيها حين كنت طالبة في أكسفورد، أو حتّى الأماكن التي كنت أذهب إليها ظهيرة أيّام الآحاد في لندن. المكان كلّه من زجاجات خضراء وبنية، بمشرب خشبي مقوس ومقاعد من البلش الأخضر. تبدو كافّة التجهيزات واللوازم مألوفة، ما عدا مصابيح الإنارة الزيتية بدلًا من الأضواء الكهربائية، والطاولات الأكثر لمعانًا. لا أحد خلف المشرب، ولا زبائن، مع ذلك ثمّة على إحدى الطاولات مشروبات نصف مشروبة، وعلبة ثقاب، وعلبة ورق لعب، وما يبدو أنّه مخطوطة كتاب. ماذا يعنى كلّ هذا؟

نجلس أنا وآدم لطاولة في الركن.

«إنّ فكرنا في بعض الخمر أتظنينها ستظهر»؟ يسأل آدم.

«لنجرب»، أقول.

بعد دقيقتين يكون أمامنا زجاجة (فودكا) صغيرة وكأسان.

«هل كنتِ تفكرين فودكا»؟ يسأل آدم.

«نعم»، أقول. «ماذا عنك»؟

«نعم»، إنّه مشروب «الغيبوبة»».

أضحك. «وأنا أيضًا، كنت أظنّ مشروبك نبيذ المناولة».

«لا. كنت وقتها قد اكتشفت الفودكا، لأنّها المشروب الوحيد الذي رفض أبي أن يشربه، ما يمنحها عندي ميزة خاصّة».

«نعم». أومئ برأسي وأنظر إلى أسفل للطاولة.

«سأفتتحها إذن»، يقول وهو يمسك الزجاجة. «آو، إنّها باردة».

«عظيم»، أقول.

يصبّ كأسًا لكلّ منّا. وحين تمسّ شفتَي كأسي أشم رائحة عشب البيسون: الفودكا المفضّلة لدي. أتجرّع الكأس كلّه مرّة واحدة. أحاول بلع الفئران، وبلع ما حدث لآدم، وقبل كلّ شيء بلع مسئولية أن أكون هنا، وأن أكون قادرة على تغيير الأشياء، لكنّي لست واثقة من أنّ خمر الترووبوسفير هذا يُحمي دم المرء. لكن معذرة، أشعر فعلًا بالاسترخاء قليلاً، أسكب كأسًا أخرى وأشربها ببطء بينما ما زال آدم يرشف كأسه الأولى.

«بإمكاني تحمل هذا»، أقول.

«آرييل»؟ يقول ويمدّ يده ليدي على الطاولة. «ما الأمر»؟

أتنهّد، كما لو لأفرغ كلّ الهواء بجسدي. «ألا ترى»؟

«أرى ماذا»؟

«الفئران... ما فعلناه لتونا لتلك الفئران، علينا أن نفعل هذا لكلّ شيء، يمكننا أن نعود ونمنع الهولوكوست، أن نوقف اختراع القنبلة الذرية، يمكننا ...».

«آرييل».

«ماذا»؟

«نحن لا يمكننا إعادة صياغة العالم، ليس بمقدورنا أن نذهب ونعيد كتابة ما حدث فقط، كأنّه مسوّدة كتاب لسنا راضين عنها».

«لم لا»؟

«ألست هنا لتمنعي إمكانية حدوث هذا؟ ألم يُعيداك لورا وبيرلوم هنا لتمحي فكرة الكتاب لئلا تتاح لأحد حتّى إمكانية التفكير في هذا. إنّه أمرٌ مهم. أمر مهم ألّا يكون بمقدور الناس تغيير التاريخ».

«أعلم، لهذا لست واثقة من مسألة تغيير فكر لوماس»، أقول، وأشرب مزيدًا من الفودكا، يبدأ تأثيرها على نحو مذهل، وكلما شربت منها يتكثّف الشعور الجميل أكثر، «أقصد، من جعلني إلهة؟ لم يكن لي أن أقرّر أيّ شيء في هذا، لكن بما أنّني في هذا الموقف بالفعل، ولي بالفعل أن أقرّر، بودّ أن أذهب وأمحو هتلر».

«لكنّك تعرفين أنّه لا يمكنك هذا».

«ألا يمكنني»؟

«نعم. فكّري في الأمر. لو كان هتلر مكانك، لكان محا شيئًا آخر. ولو كان البابا مكانك لكان أعاد صياغة العالم على نحو آخر مختلف. يجب أن تغلقي المنفذ الذي يمكّن الناس من هذا».

«ماذا لو كنت أعرف أني على حقّ»؟

«هيا يا آرييل. أنا أعرف تفكيرك. أنت لا تجزمين أبداً أنّك على حقّ».

«هتلر جزم أنّه على حقّ»، أقول. «لكن الجميع يتفقون على أنّه ليس كذلك».

«بالطبع لم يكن على حق»، يقول آدم. «لا أعني بذلك أنّ كلّ وجهات النظر مشروعة على قدم المساواة...».

«مزيد من النسبية»، أقول. «إنّه شرك».

«نعم، لكن ما زال يجب أن تدركي أنّه ليس لك أن تقرري، نحن ليس لنا أن نقرّر، الأمر لا يعود لنا، على التاريخ أن يصنع نفسه، وفي الغالب سيفعل ذلك على كلّ حال، مهما فعلنا، قد نفتح بمحو هتلر باب لآخر أسوأ منه، لست واثقًا حقًّا من أن ما فعلناه بالفعل قد يغيّر شيئًا، فقد تقرّر آبي لاثروب الحصول على فئران أخرى، وإن لم تفعل هي غيرها فسيفعل، لقد ساعدنا هؤلاء الفئران، لكن ليس كلّ الفئران».

أشرب مزيدًا من الفودكا. «أنا سعيدة لوجودك هنا»، أقول. ثم أدرك

معنى ما قلته لتوّي. «أقصد معي هنا. لست سعيدة بوجودك هنا بالطريقة التي تمّ بها». أضع كأسي على الطاولة. «آدم»؟

«ماذا»؟

«ماذا تظنّ سيحدث للتروبوسفير حين أدخل ذهن لوماس وأجعله يحجم عن كتابة الكتاب»؟

«لا أعرف».

«لا أريدك أن تختفي».

«حتّى إن اختفيت، فالأمر يستحقّ».

«أهو كذلك»؟

«نعم. الآن، علينا أن نسرع ونقوم بهذا. سيكون عليك أن تعودي».

لا أقول شيئًا.

«آرييل»؟

«ماذا. أعرف، فقط بودّي أن ...»، أنهض.

«أين تذهبين»؟

«إلى هناك فقط».

أسير نحو الطاولة الأخرى وأنظر إلى المخطوطة، تمامًا مثلما ظننت، العنوان على الصفحة الأمامية بخطّ اليد، *نهاية السيد واي*. أستدير وأخرج من الأبواب، ويتبعني آدم.

«هل تأتي معي»؟ أسأله.

«بالطبع»، يقول.

أظنّ أنّ بهذه الطريقة سيقلّ احتمال أن يختفي ما أن أنجز مهمّتي.

نسير لمتجر الكتب على الجانب الآخر من الشارع، وأنظر لواجهته. توجد عدّة روايات لصامويل باتلر، وزونوميا أيضًا. أعلم من الذي خلف

الباب، عليّ أن أفتحه فحسب، ليس بإمكاني التفكير لأكثر من هذا، أنا هنا الآن، وأعلم أنّي لن أتراجع، والأفضل أن أفعله الآن، أقبَل آدم أمام الباب، وأفتحه، وأدخل.

لديك الآن خيارٌ واحدٌ

أنت... أنا... أجلس إلى المكتب القديم في غرفة المعيشة المفتّحة النوافذ، أكتب، كالمعتاد. هذا الكتاب... يجب أن أكتبه؛ يجب أن أنهيه، هل يمكن لأحد لا يكتب أن يفهم هذا الشعور أبدًا؟ لقد وضعت السيد واي المسكين على قمّة وجعلته يواصل الدوران لأسفل إلى أن يصل لنهايته، ثم سأوقفه عن الدوران وأعيده لخزانة اللعب، أعرج وميّت. أوه يا لي من إله قاسٍ! هل يمكن أن أجعله يحيا؟ لا. لا تكن سخيفًا توم. أن تجعله يحيا سيتعارض مع كافّة قواعد المأساة، وفوق هذا: لن يكون حقيقياً. إذن يموت السيد واي، وسيموت على يدي. ثم... ثم.

ترتعش يداي حين أفكّر في هذا. ثم، بالطبع، سأموت أنا أيضًا.

لقد أقسمت يمينًا عظيمة، ونفسي عليّ شهيدة، ألّا أزور التروبوسفير مرّة أخرى حتّى أفرغ من هذه الرواية. ووقتها سأذهب ولن أعود منه أبدًا. وإلّا، فسيكون هذا السعال نهايتي؛ حسبما قال الطبيب ـ كذلك بودّي التحرّر من قدمي اليمنى وهاتين العينين ـ بالطبع أعاني كذلك من اللعنة الأكثر ألمًا، أن تكون معدمًا، وأعرف منذ سنوات عديدة الآن أنّي لن أضاجع ثانيةً. أوه، متى سينتهي هذا الكتاب! كلّ مرّة أغمس قلمي في قنينة الحبر هذه (السادسة هذا الشهر)، أسأل ماذا لو كانت تلك آخر قنينة حبر سأستخدمها، وماذا لو كانت تلك آخر ريشة أبليها.. وهل عليّ ـ في كلتا الحالتين ـ أن أضع الأشياء اللعينة في إطار أم أحرقها، صرت الآن مولعًا بالنهايات: نهاية هذه الرواية، ونهاية حياتي، هل أنا راضٍ الآن أنّ لدي عنوانًا؟ ربّما. *لنهاية السيد واي* معنى مزدوج يبعث على السرور، مع أنّي مقتنع أن أغلب

النقاد سيكونون أكثر بلادة من أن يلاحظوا أي شيء مثل المعنى، ذلك إن وجهوا النقد لكتابي من الأساس، فسيعودون ببساطة لذلك الأمر الفظيع مع دارون.

أوه، أشعر بالضجر. رائحة هذا المصباح الزيتي كأنّها سامّة.

ليتني ألقي بالكتاب كلّه في النار وأنتهي.

ما هذا الذي أفكّر فيه؟

أسمع النقر الغليظ لحوافر الخيل بالخارج، رجال أصغر سنًا منّي في طريقهم للنادي لقضاء أمسية ممتعة ومداعبة أعضاء النساء، لكنّ هدفي أنا أكثر سموًّا، أوه، الجوّ هنا بارد جدًّا، ولم يتبقّ لدي سوى القليل من الفحم.

أعترف أنّي حين بدأت هذا العمل المطوّل الشاقّ كنت أقصد به الانتقام. كنت أرغب في أن يعرف الجميع مقدار ما أوتيته من علم. إذ أنا السّيد واي، روحًا، إن لم يكن في تفاصيل محدّدة، أنا أيضًا دفعت آخر ما أملك من مال لأتذوق هذا الدواء مرّة أخرى، الذي أصبح منذ هذا الحين محظيتي المدلّلة، لن يكون للرجل الذي باعه لي أيّ قيمة بعد أن أنهي الكتاب. هذا ما عليّ أن أخبر به الناشر في جميع الأحوال. إذ ربّما قد يمنح الرواية أولوية أكبر، مع أنّني الوحيد الذي عرف الحقيقة.

ثم سأنهي حياتي، بعد أن أنهي حياة السيد واي.

ينجذب شيء ما في ذاكرتي، كطفل يشدّ كم أحد الكبار. لكنّي لن أفكّر فيه.

وما هذه الأفكار؟ هل سأواجه أزمة ضمير الآن؟ الآن وقد اكتمل من الرواية ما يزيد عن سبعة أثمانها، هل سأتساءل الآن عن عواقب نشرها؟ أوه، اللعنة على تلك الليالي التأملية، لكنني الآن وأنا أرى السرد يأخذ أشكالًا على الصفحة، أتعجّب: هل سيجرّب الآخرون الوصفة؟ كم عدد من سيموتون لأحقّق غايتي؟ و.. لا.. هذا تفكير سخيف، لكنّه يلحّ عليّ،

على كلّ حال، ماذا لو أنّ مَن قرأ الكتاب لم يكتشف التروبوسفير فحسب، بل غيّر فيه أيضًا بطريقة ما؟

سأحرق الكتاب.

لا! لا... ليس كتابي.

يداي يدا أحدٍ ما آخر إذ تُمسكان بالمخطوطة الغالية، وبمساعدتي ورغمًا عنّي، تلقي الصفحات في النار، الدفء المنبعث قصير لكنّه مكثّف، لا تبالي النار بينما تحترق المثتي صفحة بطقطقة وخشخشة، بما هو حبر وما هو فراغ أبيض. ها قد ذهب الكتاب.

ماذا فعلت؟

ماذا فعلت؟

أهوي على ركبتى وأبكي.

خروج.

عودة للتروبوسفير، بدأت السماء تمطر.

«كان بودّي أن أقضي معه وقتًا أطول». أقول لآدم.

«لا. انظري للجوّ. يجب أن تتّجهي إلى المحطّة».

تبدو سماء الليل مشوّشة، كأنّها زجاج سيارة أمامي وكلّ ما هو ليل ومطر يحدث من ورائه.

آدم يستدعي اللوحة.

«ثمّة محطّة في آخر الشارع»، يقول. «أسرعي».

لكنّي لا أتحرّك، يبدأ السير فلا أتبعه.

«آدم»، أقول وهو يعطيني ظهره.

«هيا».

«آدم».

يستدير ليواجهني، ينهال المطر على وجهه. «ماذا»؟

«لن أعود».

«آرييل...».

«لا شيء ستقوله سيغير قراري. لا أرغب في العودة».

«لكن لديك حياة لتعيشيها ـ لقد سمعت ما قالته لورا ـ لديك ما يجعلك من المفكّرين الذين يمكنهم تغيير العالم، قد تكونين دريدا التالي، أو... أيًّا ما تشائين.

«لكنّي أعرف ماذا أريد».

«سأظلّ هنا دائمًا. سأظلّ دائمًا في أحلامك»، يقول.

تقرع زخّات المطر الرصيف كدموع تسقط على طاولة.

«هذا لا يكفي»، أقول. «هذا لا يكفي بطرق كثيرة».

يدوّي رعد في السماء. أعتقد أنّ تلك نهايتي.

«آرييل»!

يضطر آدم للصياح الآن بعد أن علا صوت المطر على صوته، البرق يشقّ السماء لينزل المزيد من المطر والظلام، بالكاد يمكنني أن أرى أمامي، لكنّي أشعر بيدي آدم على ذراعي، أشعر به يدفعني للحائط ويقبّلني بقوّة.

«يجب أن تذهبي». يقول.

«لا تتوقّف»، أقول. «أريد أن أمارس الحبّ معك حين تقع النهاية».

يتوقّف. لا شيء يحدث، ما عدا انهمار المطر.

«آدم، أرجوك»، أقول، «لا أستطيع أن أحصل على ما أريده بالخارج هناك، أعلم أيضًا أنّ تلك هي اللعنة، لكنّي أرغب في المعرفة التي يمكنني إيجادها هنا، أرغب في أن نظلّ معًا حتّى نهاية كلّ هذا، أريد أن نعود للوراء بقدر ما يمكننا، إلى أن نصل لحافّة التروبوسفير، أريد أن أعرف كيف بدأ كلّه، وماذا هو الوعي. سأبقى».

الرعد يدمغ السماء الوهمية كلّها إذ نغرق أنا وآدم في الأرض، تذوب ملابسنا وحدها، لكنّي أشعر بالمطر ينهمر على وجهي ويتقاطر في شعري، هذه المرّة، أشعر بالمطر.

وهذه المرّة، حين يلجني، أنتقل لسواد.

لكنّي حين أصحو، تكون الشمس مشرقة.

خاتمة

يستحيل الجزم كم استغرقنا لنصل إلى الحافّة. فلم يعد من زمن بعد الآن. ظللنا هنا لأيّام، الآن، في مكانٍ كأنّه حافّةُ الوعي، نتساءل ماذا عسانا نفعل بعد ذلك؟ الأمر مثل أن تكون على حافّة جُرفٍ، لكنّه أضيق من أيّ جُرف رأيته قطّ.

ليس كحافّة: بل كمنتصف.

لكن بطريقة ما توجد حافّة. يمكنك السير إليها، ويبدو أنّ بإمكانك النظرَ إلى أسفل، لكن ليس بإمكانك، وثمّة شيء ما يبدو كسياج كهربائي: خطّ متموّج له طقطقة يحيط بالمكان كلّه، كالكهرباء.

مارسنا الحبّ هنا على حافّة الوعي آلاف المرّات، وأخبر كلّ منا الآخر بكلّ ما يعرفه، يبدو أحيانًا أنّنا بالفعل على قمّة جُرف، وقد يكون ثمّة بحرٌ بالأسفل حتّى، والأرض أسفلنا رملية، وزهرات برّيّة قليلة تنمو في أجمّاتٍ. لكن يبدو أحيانًا أخرى كأنّنا عالقان هنا على رأس دبوس، والفراغ ليس أسفلنا فقط بل من حولنا في كلّ اتجاه، ويستحيل الالتفات للخلف لأنّه لا يوجد خلف، ولا يوجد أمام، ولا وراء، ولا أعلى ولا أسفل.

اليوم (مع أنّ هذا المكان يومٌ واحدٌ طويل) قرّرنا أن نختار، إذ يبدو أنّه حين تصل إلى أقصى الحافّة تتعطّل اللوحة، ويكون ثمّة وشيش وخشخشة حين تقول، لديك الآن خيارٌ غيرُ محدود. وحين نسمع هذا، نتراجع، إذ لا يسعنا القيام بهذا الخيار.

الأمرُ كأنّنا ننظر لشيء لم يُنظر له من قبل قطّ.

لديك الآن خيارٌ غيرُ محدود.

ذهبنا بالفعل إلى كلّ مكان في التروبوسفير: كان علينا هذا، لنصل إلى هنا.

هكذا.. ينظر كلٌّ منّا إلى الآخر، ويمسك بيده، ونسير نحوه.

واليوم، أمس، أينما كانت تلك النقطة: سرنا فيه.

والآن أظنّ أنّنا كنّا نسقط (وكنت أتمنّى الفراغ).

لديك الآن خيارٌ غيرُ محدود

لكنّنا نواصل السير على كلّ حال. لا نقول شيئًا.

وكلّ الخيارات هناك أمامنا. كلّها.

لكنّنا ندخل حديقة. أجمل ما رأت عيناي، بقدر من الأشجار لم أره من قبل قطّ، وعلى حافّتها نهرٌ يتلألأ كمرآةٍ. أعتقد أنّ هذا معقول، أن يبدأ الوعي في حديقة، لأنّ الوعي نبت، برغم كلّ شيء. أنظر إلى آدم، لكن لم يعد بإمكاني الكلام بعد الآن، لست حتّى واثقة أنّ بإمكاني التفكير. وثمّة شجرة واحدة، تقف على ضفّة النهر، فنسير نحوها.

وأفهم.

رواية بها مسحة تبعث على السرور من الكتب القديمة، ورائحة كبريت قوية.

التايمز

"طموح هائل وواعد."

تايم آوت

تدور أحداث الرواية عن آرييل مانتو عندما تجد نسخة من رواية «نهاية السيد واي» في متجر للكتب القديمة، لا تصدق عينيها، لأنها تعرف عن كاتبها، العالم الفيكتوري الغرائبي توماس لوماس ما يكفيها لتحدّد أن النسخة التي وجدتها هي النسخة النادرة التي يقول البعض إنها تحمل لعنة، بحسب موقع البوابة.

فتجد نفسها، والسيد واى تحت ذراعها، فى دوامة فاتنة من الحب، والجنس، والموت، والسفر عبر الزمن وعبر طبقات وعيها، والتنقل بين الأفكار والهواجس .

سكارليت توماس

من مواليد لندن عام 1972،
من أعمالها السابقة،" أشياء صغيرة برّاقة"، "الخروج"، و"بوب كو".
ضمّن اسمها عام 2001 ضمن قائمة الإندبندنت لأفضل الكتاب الشباب بالمملكة المتحدة.
حالياً تدرّس الأدب الإنجليزي والكتابة الإبداعية بجامعة كنت.

ISBN 978-9953-582-62-7

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - القاهرة - تونس
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com